الفلسفة في العالم والتاريخ
بإشراف
م. ع. مرحبا م. ر. حسن ع. ي. زيعور

Mngool.com

قراءات وتحليلات
في
الفلسفة العربية الإسلامية

الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ ١٩٩٣م

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

الإدارة: ٨٣٤٧٤٨/٩ ~ ٨٢١٨٤٣ ـ المخازن: ٨٢٣٨٢٩ ، المطابع: ٨٣٧١٤٢٠
فاكس: ٨٢٠٣٧٨ ـ تلكس: ٢٠٣٩٣
بناية لاندترايد ـ بئر حسن ـ ص.ب: ١٣/٥٢٥١ ـ بيروت ـ لبنان

تقديم

منذ أزمعنا ، نحن الثلاثة أصحاب هذا « المشروع الحضاري » ، على الإقلاع بدا أنّ التناقح ضرورة أو فِعْلٌ لا بُدِّيّ . وهكذا فكل ما يَرِد في هذا الكتاب هو ، كما سيبدو ، نشاط يُعيد النظر فيما سَبَق ؛ ويمهِّد حيناً ؛ أو يوضّح ويتلافى ـ حيناً آخر .

نقدّم « **قراءات وتحليلات في الفلسفة العربية الإسلامية** » متوخِّين له أن يكون كتاباً ذا وشيجةٍ حيّة مع « **خطاب الفلسفة العربية الإسلامية** » ؛ وحتى مع الأجزاء الأخرى من سلسلة « **الفلسفة في العالَم وفي التاريخ** » .

ربما يُقال إنّ شيئاً مما سيَبرز هنا سبق أن ظهر في مجلة ، أو يتكرَّر . . . لا بأس ! فالأهَمّ هو أنَّ المسؤولية تَلحق الكتابَ ولا تَتْبَع ما يُنشَر في مجلة ؛ ثم إنّ ما يَتكرَّر لا يعني نقص أهميةٍ ، ولا نقصاً أو فداحة . ما هو تَدريسي تعليمي مقصودٌ هنا ؛ وما يُعاد إنتاجُه يقوم بوظيفةٍ ، ونحتاج إلى إعادته كي يُشْبَع وتُسْتكشَف أغواره ، وتُلتَقَط مفاتيحه أو تُسْبَر أغواره وقيعانه . . .

لذلك سيكون هذا الكتاب قراءةً ؛ هو قراءةٌ لموضوعات ومشكلات مُقلِقة . وقراءة هي ، بالمعنى الذي نتغيّاه (نقصده)، نَظر في النّص يُنقِّب عن الغوري والمُقلِق ، عن اللاواضح والمَنسيّ أو المطرود . فنحن لا نقدِّم قراءة حَرْفية ، ولا نحن بقينا عند السطح والنَّص الظاهر العلَني .

لا نكتفي بتحليل آراء الفلاسفة ؛ لا نلخِّص نظرياتهم ، ولا نَسرد على

نحوِ آلي نظراتٍ حول مؤلفات الفيلسوف ، ثم حول مجتمعه وبيئته ، ثم حول أساتذته وتأثيراته . . . القراءة نشاط أَبْعَد من ذلك ، وأكثر أو أغنى . نريد لهذا المشروع أن يكون قوياً ، وأن يُظْهِر أن الفلسفة لم تكن قطّ قطاعاً هامشياً في الذات العربية ولا في الفكر العربي الإسلامي .

مقدمة

الفكر العربي كثير الأبعاد متعدد الآفاق ، وكلما مضى الباحث بين مجاهله وأمعن النظر فيها يغوص على دررها وينقب عن طواياها وخفاياها ليزداد بها معرفة ، وجد أن ما يجهل من أمرها أضعاف ما يعرف ، ومن هنا يزداد شعوره بالهول والإشفاق . وإنه لا بد أن يتردّد طويلاً قبل الإقدام على التأليف في جانبٍ واحد من جوانبه ، فكيف إذا أراد الإلمام بها جميعاً في دراسة تركيبية شاملة ؟ ورغم كل ذلك فإن العلاج الذي ينجع في دراسة الفكر العربي لا يكون إلا بالقيام بتحقيقٍ تامّ ومستفيض في حياة الإسلام العقلية والروحية يتولاها المسلمون أنفسهم بعامة والعرب بخاصة . فدراسة هذا الموضوع باقتناصة داخلية لا تتأتى لغير عربي مسلم . إنها خليقة بأن تكشف الكثير من الكنوز التي لا يرى فيها الآخرون سوى أصداف وطرائف . الدراسات العربية والإسلامية لا يحسنها إلا عربي مسلم . فهو بدافع ودّي وبحكم الوشائج التاريخية والإطار الوجداني وروابط الأرض والآمال والآلام المشتركة ، يستطيع وحده أن يتبينّ الظلال ويفرق بين الخطوط ويخترق البنية الكثيفة ويصل إلى أشياء لا تزال خافية عما يوصف بأنه منهج علمي موضوعي يظلّ محدوداً بآفاق الفكر الأوروبي الحديث وطريقة تصوّره للأشياء ، وهو تصور يوناني في أصله ، مسيحي في إطاره وتوجهاته ، ماديّ في مضمونه ومحتواه .

لقد عودنا الغربيون أن يحصروا جميع القيم الإنسانية والحضارية في «أجدادهم» اليونان ، فأورثونا عُقد النقص التي تشككنا في أنفسنا وتاريخنا

وحضارتنا ، إمعاناً في حربهم النفسية بعد أن استنفدت الحرب العسكرية جميع أغراضها . والأنكى من ذلك أن عدداً كبيراً من أبنائنا وفلذات أكبادنا الذين تشبعوا بالقيم الغربية تجندوا ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ في جيوش الظلام التي تغزونا من وقتٍ إلى آخر ، وانضموا إلى فلول المرجفين الظانين بالعرب ظنّ السَّوْء ، وجعلوا من أنفسهم معاول هدم بين أيدي سادتهم إمعاناً في الإذلال والتحطم ، فكانوا بذلك ملكيين أكثر من الملك . وسنرى كيف كان العرب منارات لا تقلّ عن ـ إن لم تكن تفوق ـ منارات أساتيذهم اليونان ، بقدر ما كانوا نماذج للقفزات النوعية التي أحرزتها الإنسانية خلال تطورها الطويل . فما خبت لهم نار ولا انطفأ لهم مشعل إلا بعد حياة شديدة الخصوبة غمرت العالم بتراثٍ علمي وأدبي وفلسفي وفنيّ فذّ ، وبتجربة فريدة معجزة في مجال الرقي النفسي والقيم الروحية والمثل الإنسانية والحضارية .

ولكن ما العمل إذا كان المنتصرون يريدون أن يحتكروا وحدهم كتابة التاريخ ؟ تلك هي لعمري الطامة الكبرى والداهية الدُّهيا ! فمن مصائب التاريخ المكتوب أنه إنما كتبه الغزاة الظافرون الذين أرادوا على الدوام أن يثبتوا أنّ سيطرتهم إنما كانت ضرورة تاريخية وأنها بالتالي إنما تنبع من تفوق جنسهم وثقافتهم وحضارتهم . ولكن هيهات فالتفوق التقني والعسكري لا ينطوي دائماً على تفوق الثقافة وعلى مشروع إنساني يسعى إلى تحقيقه الغزاة الفاتحون . إن التاريخ الحق لا يجوز أن يكون إلا تاريخ الإمكانات البشرية والبحث عن الأبعاد التي افتقدها الإنسان خلال فُرص التاريخ الضائعة .

هؤلاء الفاتحون ، هؤلاء المغول الجدد ، هم الذين يتصدّون اليوم لكتابة تاريخنا وتزويره وشحنه بالأكاذيب والأوهام . وقد أصدروا حكمهم المبرم منذ أن دنست أقدامهم أرضنا الطاهرة . « فالشرق شرق ولن يتغيّر » . ومن هنا تلك النزعة العنصرية القوية التي تجلّت عند عددٍ كبير منهم ، وإن لم يكونوا جميعاً قد عبَّروا عنها بصراحة رينان وأشليغل وشيعتهما ممن ينادون بأسطورة تفوق بعض الأجناس على بعض ، ويستحقرون بالتالي أمة العرب وثقافة العرب وعقلية العرب التي يَنْحَلونها شتى الأوصاف والنعوت غير الكريمة التي تنضح بها نفوسهم . وقد شاعت هذه الآراء المفتريات بسرعة مذهلة في الثقافة الأوروبية والأميركية .

فلا غرابة بعد ذلك أن تتجدد باستمرار وتتجدد حملات التشهير والتخرص على العرب وأن يسهم فيها مستشرقون معادون للعروبة والإسلام ويعانون من عقدة العروبة والإسلام ولا يقضّ مضاجعهم شيء مثلما يقضها هاجس العروبة والإسلام ، ووراءهم جيش من أدعياء الإستشراق ينتمي معظمهم إلى قسم الدعاية السوداء التابع للمخابرات الإسرائيلية . فسوق الكتابة عن العرب والافتيات على العرب في أوروبا وأميركا رائجة جداً في هذه الأيام ، وهي كأي سوقٍ لا تخلو من المحتالين والمشعوذين والدجالين والمضللين وأدعياء العلم والكتابة والصحافة ممن جمع إلى البذاءة وفحش القول الإنحطاط الفكري والإنحلال الخُلقي . ودار في هذا المدار لسوء الحظ كل من عدم الشخصية من أبنائنا وكل من خارت قواه من فلذات أكبادنا ، مأخوذاً بالبريق الغربي والقيم الغربية ، فاستساغ الرطانة واستمرأ أوحال الهجانة ! من كان فيه رطانة عَدِمَ الرؤية والأصالة والمناعة ، ومن أُوتي الرؤية استقوت فيه الأصالة والمناعة وكان أميناً مع ذاته فلم يضره تخرص المتخرصين وافتراءات المفترين . ومن عَدِمَ الأصالة ولم يؤت الرؤية انهار وفقد مبرر وجوده .

لقد تعوّد الغرب الحديث ـ بل نحن الذين عودناه ـ أن يكتب التاريخ وحده وأن يصمت الآخرون ويقرأوا . لقد آن الأوان أن نتولّى نحن بأنفسنا الدفاع عن فكرنا وحضارتنا وأن يكون لنا استقلالنا في عرض الحلول والآراء ، وإلا كنّا مقلدين ببغائيين نردّد أصداءً لغيرنا. يجب أن يكون لنا إسهامنا الكامل في حركة الإستشراق ، وعلى الأصح الدراسات الإسلامية التي ظلت حقبة طويلة حكراً على العلماء الغربيين ووقفاً عليهم ، ، مما أورثنا كثيراً من الشعور بالنقص والعجز عن مجاراة حركة الإستشراق ، فضلاً عن الشعور بالإستخذاء أمام من يجعلنا موضوع بحث ودراسة كما لو كنا حيوانات اختبار يُجري عليها الآخرون بحوثهم وهي بين أيديهم كائنات سلبية لا تقدر على شيء . وليكن لنا عبرة بعلماء الأنثروبولوجيا في آسيا وافريقيا . فقد قام الأنثروبولوجيون الأوروبيون الأوائل بدراسات وبحوث ميدانية على شعوب هاتين القارتين مما أثار حفيظة هؤلاء وبعث فيهم الإشمئزاز من كلّ دراسة أنثروبولوجية . هنالك جيل من الأنثروبولوجيين الوطنيين لم يكتفوا بمعارضة هذه الدراسات بل لقد تصدوا لها تصدياً إيجابياً وأسهموا بنصيبهم في دراسة الثقافات التي ينتمون إليها ، وتغلبوا بذلك على مشاعر النقص والعجز التي تستحوذ عليهم وتتحكم في مواقفهم المعادية

للأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيين . وهكذا توقفت ـ أو كادت ـ حملات التشكيك ـ في أهداف الأنثروبولوجيا الغربية ووُضَع حدّ لها . فالموقف الإيجابي في هذه الحالات هو سيد المواقف . أما التلوي والصياح والإقذاع في يالقول والفكر وما إلى ذلك من المواقف السلبية المتخلفة فلم تكن يوماً لتحل مشكلاً أو تقضي وطراً . فنحن إلى الدراسة الرصينة الجادّة أحوج منا إلى الهياج والصخب الذي لا يدل إلا على العجز والإفلاس . حسبنا ما نالنا من تهكم وسخرية طوال أجيالٍ من الركود و الغفلة . هلمّ إلى البناء ! حيّ على خير العمل .

ورغم ما نجد في الحركة الاستشراقية من بعض الإيجابيات التي أدّت إلى اتساع رؤية الغرب الثقافية للعرب ودورهم الحضاري بعد أن كان الإستشراق يدور في الحلقة اللاهوتية ،ورغم تعريفنا بالمنهج النقدي للبحث في الفكر العربي والإسلامي مما أدى إلى يقظة علمية فكرية لدى العرب ، فقد فشل الإستشراق علّى كل حال في تقويم هذا الفكر. ورغم النتائج التي وصل إليها المَنهج النقدي ووفرة المعلومات التي حققها في هذا السبيل فقد ابتعد هذا المنهج في كثير من الحالات عن الأساليب العلمية وظلّ متأثراً بالمنافسة الإيديولوجية بين الإسلام والمسيحية . وحتى لو افترضنا حُسن النية عند جميع المستشرقين ، فإنّ أهل البيت يظلون دائماً أدرى بما فيه . هذه قاعدة عامة لا يمكن إنكارها مهما اختلفت منازع الدّارسين .

لذلك فإن المهمة الملقاة على عاتقنا نحن الشرقيين بعامة والعرب بخاصة ليست مهمة سهلة ، بل إنها من أصعب المهمات إن لم تكن أصعبها . إنها مهمة الغد والمصير في عالم معقد تتشابك فيه المصالح وتتصارع فيه القوى والموازين ، وتتنازع فيه الأطماع والمطالب ، عالم ترسم فيه السياسَات وتُقرّر المصائر خارج الحدود ، عالم أصبحت الحكومات فيه مجرد إدارات محلية أو نوعاً من الحكم الذاتي الإداري المحدود خاضعاً لهذا أو ذاك من الجالسين على عرش إحدى الدولتين العظميين ! لكن كلّ ذلك ليس مبرراً لنا للقعود والتخاذل وتقليب الكفين على سوء العقبى ، والجأر إلى الله بالدعاء لتشتيت شمل الكافرين وتخريب بنيانهم وترميل نسائهم وتيتيم أطفالهم وجعلهم وما بين أيديهم غنيمة للمسلمين ، حتى أصبح خطباء المنابر أضحوكة في الغباء والتخلّف . بالبناء لا بالدعاء إنما

تُصنع الشعوب ، فلم يكن الله يوماً لينصر خاسراً . إن المسلمين الأوائل لم يُنصروا على أعدائهم بالدعاء بل بالإستشهاد في ميادين القتال . والنبي نفسه عندما كان يتضرع إلى الله أن ينصر المسلمين في غزوة بدر كان في نفس الوقت يحرض هؤلاء على القتال والثبات أمام الأعداء . فقاتَلُوا وقُتلوا وقدموا قوافل الشهداء . وعندما تخاذلوا في غزوة أُحُد هزمهم المشركون هزيمة نكراء والنبي بين ظهرانيهم ، بل لقد أُصيب النبي نفسه في القتال وسقطت رباعيته . فلو كانت الأمور تُسوّى بالدعاء لكفاهم مؤونة القتال . إن الإسلام واضح في هذا الباب وضوحاً لا لبس فيه ، وهو أن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم . ولكننا نأبى إلا أن نكون كبني إسرائيل عندما دعاهم موسى إلى القتال فقالوا له : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون !! » إن خطباء المنابر يعرفون كل هذا بطبيعة الحال ، ولكنها عقلية التواكل والإستسلام والبغائيّة وانعدام المسؤولية قد تمكنت فيهم ويريدون تمكينها في غيرهم ، فاكتفوا بالدعاء على أعواد المنابر وولّوا الإدبار في الساحات يطلبون العافية لأنفسهم . إنّ الدعاء على الظافرين الكافرين هو ذا ينقلب علينا : فلا أرى التخريب إلا في بنياننا ، ولا أرى التيتيم إلا في أطفالنا ، ولا أرى النصر إلا لأعدائنا علينا ، حتى أصبحنا وما بين أيدينا غنيمة للكافرين ! أفما آن لنا أن نكفّ عن هذا الغباء ؟

وكل ذلك ورثنا من عصور الإنحطاط التي لا تزال تستشري بيننا . أفما آن لليل أن ينجلي أم على قلوبٍ أقفالها ؟» .

●

من المسلَّم به اليوم أن البحث عن الحقيقة مطلب شريف ، وأن الموضوعية والتجرد هما من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها العلماء . لكن مما يؤسف له أنه حين يتطرق البحث إلى تاريخ الفكر ـ أيّ فكر ـ لدراسته وإصدار الأحكام عليه ، فإن الكثير من الإحساس القومي والديني يتدخل في إصدار هذه الأحكام . هنالك تختل المقاييس وتتبدل الحقائق ، فتأتي مُشوهةً أو ناقصة . لقد انقلب الحكم تحكماً ! .

إن مزج المشاعر القومية والدينية بالأحكام العلمية عمل مضلل يدل على الجهل والغباء إن لم يدل على الخبث وفساد الطوية . وهناك أمثلة كثيرة على ذلك .

فعلى الرغم من الحقيقة المعروفة لدى مؤرخي الأفكار وهي أن الفكر لا وطن له ، فإنه لا يزال في كتب التاريخ العقلي تصور فاسد سيطر بضعة قرون ـ بل ما انفك يسيطر على الكثيرين حتى الآن ـ أملته العنصرية وحب الإستعلاء ، مؤداه أن تطور الفكر ـ ولا سيما في بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ـ قد مرّ بمرحلتين أوروبيتين أساسيتين : هما مرحلة الإغريق القدماء ومرحلة عصر النهضة الحديثة . أما ما بين المرحلتين ففراغ في فراغ .

ولقد قامت محاولات كثيرة لتصحيح هذا التصور الموروث ، ولإثبات أن الإغريق القدماء قد انتقلت إليهم إنجازات أجيالٍ سبقتهم ، ولم يكونوا هم الواضعين الأولين لأصول الفكر والعلم . وقد وصلت هذه المحاولات إلى نتائج هامة كان جديراً بها أن تؤخذ بالحسبان . ومع ذلك فإن الغرض يُعمي ويُصم ، أو كما يقول العامة « الغرض مرض » . حتى لقد اشتكى العالم الدانمركي أوتو نيبور Otto Neugebauer من أن« كل محاولة لربط إنجازات الإغريق بما قبلها من الأمم تصطدم بمعارضة حادة ، وليس هناك من يرضى بتعديل صورة وضع الإغريق التي اعتاد عليها رغم جميع الدراسات التي أثبت . . . أن ألفين وخمسمئة من السنين قد سبقت عصر اليونان » .

وكما اصطدمت كل محاولة لربط انجازات الإغريق بما قبلها من الأمم بمعارضة حادة ، كذلك اصطدمت كل محاولة لربط انجازات الفكر الأوروبي بالفكر العربي الإسلامي بمعارضة أشد . فإن من أبرز عوامل الغبن والعقوق في الفكر الأوروبي إصراره على أنه ليس متصلاً بالفكر العربي الإسلامي ، وأن الحضارة الغربية الحديثة التي برزت في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي إنما كانت امتداداً للحضارة اليونانية الرومانية . كذلك أطلق على « الفراغ » بين الحضارتين اسم (القرون الوسطى المظلمة) .

ومع اقرارنا بفضل اليونان العظيم على الفكر الإنساني كله وعلى الحضارة البشرية بأسرها ، إلا أن تقديرنا لليونان لا يجوز أن ينسينا الآخرين ولا أن يعمينا عن الأسباب والعوامل التي توفرت لليونان دون أن تتوفر لغيرهم . ذلك أن تفكير أي جماعة من الجماعات إنما يصدر أولاً وبالذات عن ظروف معيشتها وأوضاع حياتها وحاجاتها الإجتماعية والعقلية والروحية . ومن هنا فإن مهمة المؤرخ تحليل العوامل المتضمنة في الموقف الإجتماعي الواحد للوصول إلى مدى تأثيرها في نشاط

العقل . فللعقل حساسية قوية لهذه العوامل وقدرة هائلة على تسجيل ما يطرأ على البيئة من تغيرات اجتماعية أو ثقافية أو حضارية تختلف باختلاف الزمان والمكان . وهذه القدرة الهائلة التي للعقل إنما تتجلى في بعض الأفذاذ والموهوبين الذين لا يخلو منهم عصر من العصور ولا أمةٍ من الأمم .

وإذا كان لليونان عبقريتهم فللعرب عبقريتهم أيضاً ، دون أن تتخذ هذه العبقرية نفس المظاهر التي اتخذتها عند اليونان . فقد كان الفكر العربي - في يومٍ من الأيام - فكراً خصباً معطاءً غزير الإنتاج جليل الأثر ، ازدهى به العلم والحضارة أمداً طويلاً فكان غرة في جبين الدهر . لكن الفكر العربي لم يُكتب له - كما لم يُكتب لأي فكرٍ آخر غيره - أن يبقى نشيطاً حياً على الدوام . وإنما طرأ عليه من العوارض الخارجية ما يطرأ على أفكار الأمم الأخرى ، بل وعلى كل كائنٍ حي ، وانتابه ما انتابها من العلل الباطنة والأمراض الدفينة ، فانطفأت جذوته وشلت فاعليته . وهذه الظاهرة التي تتكرر باستمرار في جميع حقب التاريخ ومراحله هي من أهم أسباب جمود الحضارات وجفافها وتوقف تدفق النسغ في عروقها . فإنه عندما يذبل العقل وتغشاه غاشية الموت تخبو الفاعلية الحضارية ويتوقف النمو .

هكذا كان حال العرب ، وهكذا أيضاً كان حال اليونان من قبلهم .

غير أن العقل لا يسلم بماسأته ولا يقبل مصيره ، بل هو لحسن الحظ يصمد للردات والهزائم ليعود فيثبت ذاته وفاعليته . فإذا انتكس في مجتمعٍ من المجتمعات أو حضارة من الحضارات وتألبت عليه عوامل الفساد والتدهور ، لم يعجزه أن يجد لنفسه منافذ ويشق طرقاً جديدة في مجتمعاتٍ أخرى ، فيعاود انطلاقته ويستأنف حياته كأن لم يمت بالأمس . وعلى قدر ما تعتمد الأمم على العقل ، وكلما كثر عدد المفكرين فيها ، كانت أدخل في التاريخ وأمعن في الوجود . فالفكر ثروة لا تُقدر بثمن ، وإنما الأمم الأفكار وما يموج فيها من أفكار ، فالأفكار هي التي تقود العالم . إنها القوة الحقيقية التي تقرر مصائر الشعوب . فليس من شيء أغلى من الطاقة الفكرية في الأمة ، وليس ادعى لغبطة الظالمين والطغاة وأعداء الإنسانية من إبادة أصحاب القرائح والعبقريات ، لأنها تزيل من طريقهم قوى الفكر التي تخيفهم .

وبعد ، فالكتاب مدخل إلى دراسة الفلسفة عامة والفلسفة العربية

الإسلامية خاصة . ففيه سيجد القارىء بعض المقدمات الفلسفية التي لا غنى عنها أبداً لكل من يود تحصيل الفلسفة واكتناه حقيقتها ، ومعرفة الفرق بينها وبين العلم . ثم يعرض الكتاب بعد ذلك لمشكلة الفلسفة العربية الإسلامية وخصائصها الشكوك التي تُثار حولها ، وهل هناك حقاً فلسفة بهذا المعنى أم هي تكرار لما عند اليونان . وينتقل الكتاب بعد ذلك إلى بحث نظرية تفوق الأجناس البشرية بعضها على بعض وعما إذا كان هناك تفاوت بين الأمم والشعوب . وسنرى تهافت هذه النظرية وتخلي أصحابها عنها نظرياً على الأقل وفي أدراج المجامع العلمية وإن ظلوا يتشبثون بها عملياً لا وازع من ضمير ولا رادع من خلق . كما يعرض الكتاب أيضاً لفكرة التلاقح الثقافي بين الشعوب وتأثر بعضها ببعض وعدم استغناء بعضها عن بعض .

وأخيراً أن هذا الكتاب ليس سوى محاولة إنصافٍ لواقع تاريخي حضاري يمسّ حياة الفكر العربي الإسلامي قبل أن يكون دفاعاً عنه ، ذلك الفكر الذي طالما تعسف عليه بعض المصادر الغربية وكال له تهماً صيغت في أحكامٍ ماسخة قطعيّة تعبّر في مجملها عن شهادة بسوء الأحدوثة مستخرجة من سجل غير عادل يخلو من دلائل الإثبات ، وضعته أيدٍ أثيمة رائدها التزييف والتضليل والتوهين وإضعاف الثقة بالذات والتاريخ .

إن صراع الفكر العربي الإسلامي في هذه الأيام ليس صراعاً على بلد استلبه المستعمر ونهب خيراته ، بقدر ما هو صراع على تاريخ وحضارة ومفهوم ورسالة ورمز . . .

إن عصور الفراغ أو العصور الوسطى كانت عصور ظلام وانحطاط للغرب المسيحي لا للشرق العربي الإسلامي الذي إنما ربط بين القديم والحديث ، وسدّ الهوة العميقة بين الإغريق (والرومان) وعصر النهضة . لقد كانت مرحلة الربط هذه مرحلة هامة في تاريخ الفكر الإنساني كله ، بظهور الإسلام وتوسعه في خلال قرنٍ واحد من الزمان من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً ، وزحفه على أوروبا نفسها حتى لكاد يُطوّقها لولا معركة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ م . .

لقد قام العرب والمسلمون في ظلام بربرية القرون الوسطى بحمل رسالة الفكر والحضارة . ومن ثَم برزت نهضة عقلية وعلمية امتدت ألف عام . لقد كانت

أوروبا آنذاك عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بأنهم أُميون وبأن الماء لم يمسّ أبدانهم سنين بعيدة . وطال عهد الجهالة هذا في أوروبا حتى القرن الثاني عشر . ثم طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه ويتعلمون منهم فنون العلم والحضارة .

إن حركة الإنتصاف للفكر العربي من قِبَل الأوروبيين أنفسهم تمضي قُدُماً ولكن ببطء وحذر . فإن عدداً لا يستهان به من المفكرين والمستشرقين الغربيين أمثال ماكس مايرهوف وسارطون وجيكر وستيفنسون ورودنسون وكاجوري ونللينو وماسينيون وبلاشار ومونتغمري وات وبيرك . . . إن هؤلاء جميعاً ونفراً قليلاً غيرهم قد اعترفوا ـ على تفاوت فيما بينهم ـ بالإسهام الكبير الذي قدّمه العلماء والمفكرون العرب للحضارة الإنسانية وخدمة الحقيقة العلمية ، كما أنهم شهدوا بفضل التراث العربي الإسلامي وبالمشاركة الفعالة التي حققها هذا التراث طوال قرون عديدة في ميدان التقدم العلمي والرقي الإنساني . إن مجرد تصفح كتاب (الفهرست) لابن النديم ، و(إخبار العلماء بأخبار الحكماء) للقفطي ، و(طبقات الأطباء) لابن أبي أُصيبعة ، و(وفيات الأعيان) لابن خلكان ، و(كشف الظنون) لحاجي خليفة ـ أقول أن تصفح هذه الكتب وكتب أخرى غيرها من كتب التراجم والطبقات ، يُشعر المرء بالزهو والفخار ، إذ يجد نفسه أمام تراثٍ ضخم متشعب ، فيه العلم ، وفيه الأدب ، وفيه الفلسفة والرياضة والتاريخ والجغرافيا والإجتماع والفن والعمارة والنحت . . . نحن لا ننكر أن الحضارة العربية الإسلامية قد تأثرت في شتى مراحل نموها بكثيرٍ من الإنجازات العلمية والفنية والفلسفية التي حققها القدماء ، غير أن الأمر لا يقتصر على ذلك ، بل إن عطاءات علمية وصفحاتٍ فكرية جديدة مثمرة أنتجتها حضارتنا قد خالفت في كثيرٍ من الوجوه ما كان سائداً في الحضارات القديمة من أفكار ونظريات ، كما سنرى ذلك مفصلاً في كتاباتنا القادمة . فلولا ابن الهيثم والخازن والكندي والرازي والفارابي وابن سينا والبيروني والخوارزمي وابن النفيس والبتّاني والصوفي وابن الشاطر وابن يونس وابن رشد والبغدادي والطوسي وابن خلدون . . . ما ظهر بيكون وغاليليو ونيوتن وكبلر وكوبرنيقوس وهارڤي وديكارت . . .

إن هؤلاء العلماء الأعلام ، والفلاسفة الكبار ، والمفكرين العظام ، قد تنكروا للحياة وزخرفها ، وانصرفوا للبحث والنظر بصبرٍ وأناة ، يطلبون الحقيقة

في جميع مظانها ، وينشدون المعرفة أنّى وُجدت . فعانوا في سبيلها ما عانوا من التعب والنّصب وشظف العيش ، وتجشموا ما تجشموا من الصعاب والمهالك . وكانت حصيلة ذلك كله عطاءً عملاقاً ، ومشاركة خصبة فعالة ، وحضارة يانعة فذة في ظروف بيئية وتاريخية نادرة .

●

وفي التراث العربي الإسلامي مواقف حضارية رائعة ، وصفحات مشرقة ناصعة البياض تكشف عن مستوى رفيع من التفكير واستيعاب العقيدة والشرع لا تشوبه عُقد ولا حساسيات ، يضع مصلحة المجتمع في المقام الأول بكل ما يترتب على إرساء هذه القيمة من رسوخٍ للعدل ، وعمارة للأرض ، وسموٍ في الفكر ، مما لا نجد له مثيلاً في العصور الوسطى اللاتينية ، عصور محاكم التفتيش الرهيبة وصكوك الغفران والحقد الديني البشع الذميم .

فقد كانت مناصب الدولة تعطى للمستحق الكفء دون اعتبار لعقيدته أو مذهبه ، وبرؤية مخلصة صافية لمقتضيات المصلحة الإجتماعية التي تأتي أولاً . فقد ظل الأطباء المسيحيون في العهدين الأموي والعباسي في رعاية الخلفاء والأمراء ، وكان لهم حق الإشراف على مدارس الطب ببغداد ودمشق قروناً طويلة ، وهكذا فإن ابن أثال الطبيب النصراني كان طبيب معاوية الأثير ، كما كان سرجون كاتبه . وهذا مروان يُعين أثناسيوس مع آخر اسمه اسحق في بعض مناصب الدولة في مصر ، وما زال يترقى حتى بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الحكومة . وكان عظيم الثراء ، واسع الجاه والغنى ، حتى لقد كان له أربعة آلاف عبد وكثير من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة . وكان له في مدينة الرها أربعمئة حانوت شيَّد من ريعها كنيسة فخمة . وكانت شهرته بحيث انتدبه عبد الملك بن مروان لتعليم أخيه الصغير عبد العزيز الذي أصبح والياً على مصر فيما بعد ، وهو والد عمر بن عبد العزيز .

ومن الأطباء المشهورين الذين كان لهم الحظوة عند الخلفاء جورجيس بن بختيشوع . وكان مقرباً من المنصور أثيراً عنده . وكان لجورجيس هذا زوجة عجوز ، فأرسل إليه المنصور ثلاث جوارٍ حسان ، فرفض قبولهن قائلاً : إن ديني يحرّم عليَّ الزواج ما دامت امرأتي حية في عصمتي . فأُعجب ب المنصور وزاد في كرامته . ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار الضيافة ، وأتى إليه ماشياً ليطمئن

على صحته ، فأستأذنه الطبيب أن يرجع إلى بلده ليُدفن مع آبائه . هنا عرض عليه المنصور الإسلام ليدخل الجنة معه ، فرفض جورجيس وقال : رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار . فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ، ووصله بعشرة آلاف دينار .

وكان للمعتصم طبيب نصراني أيضاً هو سلمويه بن بنان . وعندما حضرته الوفاة جزع عليه المعتصم جزعاً شديداً ، وأمر بأن يُدفن بالبخور والشموع على مذهب ملته . كما كان للمتوكل طبيب نصراني من آل بختيشوع هو بختيشوع بن جبرائيل . وكان صاحب الحظوة عنده ، حتى لقد كان يضاهي الخليفة في أناقة اللباس وحُسن الحال ووفرة المال وكمال المروءة .

وكانت الحلقات العلمية برعاية الخلفاء فرصة طيبة للجمع بين مختلف العلماء على تباين مللهم ونحلهم . فكان المأمون يناشد أصحاب الديانات والمذاهب في قصره أن يبحثوا ما يشاؤون دون أن يستدل كل واحد منهم بكتابه الديني كيلا تثور الفتنة بينهم . فالبحث والنقاش الهادئان يُقربان من الحقيقة بقدر ما يُبعدان التشاحن والحزازات والنُعرات . . .

ولم تقتصر هذه الحلقات العلمية على قصور الخلفاء ، بل لقد كانت تُعقد أيضاً على المستوى الشعبي . إذ يروي خلف بن المثنى أنه شهد عشرة في البصرة يجتمعون في مجلسٍ لا يُعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة . وهم : الخليل بن أحمد صاحب النحو (سني) ، والحِميْري الشاعر (شيعي) ، وصالح بن عبد القدوس (ثنوي) ، وسفيان بن مجاشع (خارجي صفري) ، وبشار بن برد (شعوبي خليع ماجن) ، وحماد عجرد (زنديق شعوبي) ، وابن رأس الجالوت الشاعر (يهودي) ، وابن نظير المتكلم (نصراني) وعمر بن المؤيد (مجوسي) ، وابن سنان الحراني الشاعر (صابئي) . فكانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتبادلون الأخبار ، ويتحدثون في جوٍ من الود لا تكاد تعرف منه أن بينهم كل هذه الفروق الدينية والمذهبية .

ولقد ذهب هذا المجتمع العجيب المدهش ـ وفي صميم القرون الوسطى ـ مذهباً بعيداً في احترام كرامة الإنسان وتعميق الأخوة الإنسانية من غير نظر إلى دينٍ أو طائفة . وكانت قاعدته في ذلك ، الآية الكريمة : ﴿ **وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله ، ثم ابلغْه مأمنه** ﴾ . إذ لا يكفي أن نجير

المشركين والمخالفين في جوارنا ، ولا أن نرشدهم إلى الحق ونهديهم سواء السبيل ، بل لا بد أن نكفل لهم أيضاً الحماية والرعاية في انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كل غائلة .

فيا لَهذا المجتمع الكبير .

●

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المجال أن عدداً كبيراً من حملة التراث العربي الإسلامي إنما كانوا دوائر معارف حية متحركة وموسوعات مفكرة تسعى . فقد أنجبت الحضارة العربية الإسلامية جهابذة عظماء يتميزون بسعة الأفق ، وغزارة الإنتاج ، وخصب المادة ، في ميادين وحقول متنوعة يسود فيها كثير من الترابط العضوي . فقد كان الطب والعلوم والفلسفة معارف متلازمة بعضها مع بعض . وكذلك علم الكلام والشريعة كانا ينتميان إلى زمرة واحدة . والمدهش أنه كان هناك أشخاص يجمعون بين هذه الفروع كلها. ولم يكن نادراً وجود الفقهاء الذين كانوا أدباء وشعراء في وقتٍ واحد ، بل لقد التقى الشعر والرياضة والفلك في عقلٍ واحد لدى بعض علماء المسلمين كالخيام مثلاً . فالكندي ـ بالإضافة إلى كونه أول فلاسفة الإسلام ـ غزا علوماً كثيرة : كالطبيعة والمنطق والهندسة والحساب ، وأضاف إليها مادة جديدة ، وبث فيها دماً جديداً وروحاً جديدة لم تعرفها علوم اليونان . وهذا الجاحظ ، شيخ الفصاحة والبيان والأدب ، فقد كان يكتب بنفس المستوى من الإجادة والعمق والشمول وخفة الظل ، في العقائد وعلوم الإسلام والأدب والتاريخ الطبيعي والطب والأجناس والحيوان وأخلاق البشر . وتناول في كتاباته ـ معتمداً على المنهج التجريبي ـ أموراً علمية كثيرة ، ولا سيما في علم الحيوان ، وتوصل إلى نتائج وآراء مخالفة لتلك التي أثبتها أرسطو في تصانيفه . وهناك موسوعي آخر يكاد يُضاهي الجاحظ في سعة العلم ، وحرية الفكر وكثرة التأليف ، وتنوع الكتب ، هو ابن قتيبة ، وهو يشبهه أيضاً في أن معظم كتبه الرئيسة سلم من عبث الأيام ووصل إلينا . فكتابه (أدب الكاتب) هو خزانة علم الأدب ، ولو فُسّر هذا الكتاب وبُوِّب لكان دائرة معارف . أما كتابه (عيون الأخبار) فنموذج جميل من كتب الأدب بمعناه الواسع عند العرب ، وهو معنى يقابل تقريباً ما نسميه نحن اليوم بالآداب أو الإنسانيات . والدينَّوَرَي من هذا الطراز أيضاً . فقد ألّف في النحو واللغة والتاريخ والهندسة والحساب ، ولا يزال كتاباه الرئيسان (الأخبار الطوال) و(الإمامة والسياسة) من معضلات

التواليف في مكتبتنا العربية ، لأن الخلاف طويل حول أصول مادتها ونسبة بعض فصولها إليه . ومن هذا القبيل أيضاً أبو العباس المبرِّد . فكتابه (الكامل) موسوعة لعلوم العرب إلى أيامه (أواخر القرن الثالث للهجرة ـ التاسع للميلاد) فهو يتناول كل فن : الأدب والتاريخ واللغة والدين والطب . وهو ينتقل بقارئه من فنٍ إلى فن على نحو كان يعجب القدماء ، ولكنه يجهد الباحث الحديث ، إذ كانوا يرون أن الإستطراد من موضوعٍ إلى موضوع من شأنه أن يساعد القارىء على القراءة ويبعد عنه الملل ، بينما نحن نرى في ذلك تجزئة لوحدة الفكر والموضوع . كما أن الفارابي لم تقتصر مؤلفاته على الفلسفة وحدها ـ وهو سيدها وابن بجدتها ـ بل لقد تناول جميع فروع المعرفة أيضاً . ووضع كتاب (إحصاء العلوم) وهو أول دائرة معارف مبوبة منسقة في الإسلام . وكان الرازي حجة في الفلسفة والطب والكيمياء والصيدلة والموسيقى . وكذلك ابن سينا أمير الفلاسفة وشيخ الأطباء والعالِم الجهبذ النحرير . فقد التقت فيه شخصيات عديدة قلما نجد لها شبيهاً إلا في النادرين من نوابغ الفكر والمعرفة . فهو فيلسوف منهجي ، وطبيب عبقري اكتشف جوانب كثيرة في مجاهل الطب . وهو في نفس الوقت منطقي كبير أضاف الكثير إلى المنطق القديم ، وصحح اتجاهه الممعن في الإستدلال ، وأعطاه إتجاهاً تجريبياً سبق به رواد المنطق الحديث . وله أيضاً في الفلك والطبيعيات آراء ونظريات قيمة . وهو علاوة على ذلك رجل سياسة تولى الوزارة على عهد شمس الدولة البويهي مرتين . ولاخوان الصفا أخيراً دائرة معارف شاملة لكل علم وفن ظهرت في رسائلهم المشهورة .

وهؤلاء الموسوعيون هم الذين أعطوا الفكر العربي الإسلامي طابعه الموسوعي الإنساني . ونحن لم نذكر منهم إلا أكابرهم . فبينما كان شارلمان ـ أكبر أباطرة الغرب في العصور الوسطى كلها ـ لا يعرف من الكتابة إلا رسم اسمه ، كان المجتمع العربي لا يرضى عن حاكم بلدٍ صغير إلا إذا كان على حظٍ وافر من المعرفة بالتاريخ والشعر والنثر وعلوم الدين والطب والحكمة وأحوال الدنيا . فكان لزاماً على كل من يطمع إلى الرياسة أو إلى مقام رفيع في المجتمع ،أن يصلِ إلى مستوى لائق من المعرفة بهذه العلوم والتحقق بها . وقد يكون الرجل قائداً عظيماً ، أو خليفة واسع السلطان ، أو أميراً عظيم الولاية ، أو تاجراً ذا مال عريض ، ولكن المجتمع لم يكن يعترف بمكانه إلا إذا تحلَّى بالثقافة الواسعة ، وقرأ عدداً لا يستهان به من الكتب ، وجالس أهل العلم والأدب وشاركهم الحديث

وطارحهم الشعر ، لأن الأدب ـ أي الثقافة الإنسانية الواسعة ـ كان شرطاً من شروط الظهور والرياسة في ذلك المجتمع العربي الإسلامي المثقف العتيد .

لقد كان مجتمعاً عجيباً حقاً ، ارتفع عن النزوات الإنسانية ، والنزعات العنصرية ، والخلافات الدينية . إنه مجتمع دينه الإسلام ، ولسانه عربي . إنه إسلامي عربي معاً ، على الرغم مما بينهما من خلاف قد نجده عند مطابقة نجريها بين العروبة والإسلام . فليست العروبة إسلاماً كلها ، وليس الإسلام عروبة كله .

فلقد ضم المجتمع العربي كل ما هو عربي ومن هو عربي ، مسلماً كان أو نصرانياً أو يهودياً أو صابئياً . كما ضم المجتمع الإسلامي كل ما هو من الإسلام وكل من كان مسلماً ، عربياً كان أو أعجمياً ، ما دامت اللغة العربية له لساناً ناطقاً ، ويراعاً كاتباً ، ومنبراً مجلجلاً .

أجل ، لقد كان العلم والفكر أعظم أمجاد هذا المجتمع العجيب . فقد اتسم طوال عصوره الذهبية باتساع الأفق ورحابة الفكر ، وموسوعية المعرفة ، وهو مجد تساوى فيه الحكام والمحكومون . فليس ادعى إلى غبطة أهل الرأي وأصحاب الفكر المتحرر ، من أن يتصوروا المأمون مثلاً ، وهو أمير المؤمنين وحامي حمى الإسلام ، يعقد المجالس العلمية في قصره ، ويقعد للمذاكرة مع كل ذي فكر ، على اختلاف دين ، واختلاف نشأة ، بل على إختلاف لسان . ومتى عاش المأمون ؟ عاش قبل أن يتحرر الفكر الأوروبي بقرون . وهو مات قبل اليوم بما ينيف على ألف ومئة عام .

قال النبي عليه السلام : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . وطلبه خلفاء بني العباس في الصين وفي غير الصين . وهل هناك أمتع لرجل العلم من تصور العالم الفلكي الهندوكي منكا ، يدخل بلاط الخليفة المنصور ليؤدي إليه بالذي عنده من علم ؟ ومَن سعى به إلى بلاط الخلافة ؟ إنه أبو إسحق إبراهيم بن حبيب بن سليمان الفزاري المسلم العربي ، وكان فلكياً مثله ، ومع ذلك لم تدخل الغيرة إلى قلبه .

إن هذه الروح هي التي أنجبت الفكر العربي وأثمرت الحضارة

الإسلامية والفلسفة العربية الإسلامية . ومع أن الناس في هذه الحضارة قد تقاتلوا أحياناً ـ سياسياً وعسكرياً ـ فقد ظلوا مجتمعاً واحداً له مجموعة واحدة من القيم والتزام خُلقي واحد . وقد تحاور العرب مع الفرس والهنود على نطاقٍ واسع ، وكان لهم أيضاً حوار مع الروم ، وبعد ذلك مع جيوب الحضارة اللاتينية . ونحن نعتقد بوجوب توسيع رقعة الحوار هذه وتعميقها ، وهذا يعني ضمناً أن علينا أن نتعلم تاريخ حضارتنا من جديد ، كي نفهم الحضارات الأخرى ، ونقارنها بحضارتنا ونزيد مخزوننا من الأفكار والثقافات . فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : بالفكر سادوا وبالفكر إنما نسود . فلا خلاص لنا إلا بالفكر .

●

والحق أن تخلُّف العرب والمسلمين اليوم بعد قرون من التقدم نشر ضباباً كثيفاً حول الفكر العربي والحضارة الإسلامية حجب الرؤية الواضحة عن كثيرٍ من المفكرين الأوروبيين ، لا سيما أولئك المعروفين بمشاعرهم العدائية للعرب والإسلام . وهناك أيضاً حجاب آخر وهو أن صورة الإسلام في الغرب كان لا بد لها أن تتأثر لعدة قرون بتشويهات المنافسة الإيديولوجية التي اشتدت بين العالمين الإسلامي والمسيحي . فقد كان هناك صدام مستمر بينهما ، لذلك كان العالم الإسلامي بالنسبة إلى أوروبا بنية سياسية إيديولوجية عدائية يجب القضاء عليها . وهناك حجاب ثالث أيضاً وإن لم يكن له أي طابع عدائي ، وهو أن العالم الإسلامي ينتمي إلى حضارة مختلفة وإلى إقليمٍ غريب ، ومنهج في الحياة مغاير لما كان سائداً في الغرب . هذه الموانع المختلفة ، وإن حجبت الرؤية عن أكثر الأوروبيين ، فقد أثارت فضول قلة من المفكرين الذين كان رائدهم الوصول إلى الحقيقة . لكن الأكثرية الساحقة منهم أطلقوا لمشاعرهم العنان فاندفعوا في حملات التشهير بالعرب وتخلف العرب وتشويه تاريخهم بشتى الوسائل والسبل .

وفي هذا الجو بالذات كثرت الأوهام وشاعت عن تخلُّف الأمة العربية ، حتى لقد وقر في أذهان الكثيرين أن التخلف من طبيعة الجنس العربي الذي لم يُخلق لعملٍ عظيم . فقيل عن العرب « إنهم جاؤوا بالدين ولم يجيئوا بالعلم » . وقيل : « لا يُفلح عربي إلا مصحوباً بنبي » . والعرب « لا يفلحون في دولتهم وفي غير دولتهم إلا محكومين » . وقال بعضهم « إن العرب لا يحسنون صناعة

الحكم ، وإلا لما خرجوا من الأندلس بعد الغلبة عليها عدة قرون » . وقال آخرون : « إنهم لا يحسنون فنون الحضارة ، وإلا لكان لهم فنٌّ جميل غير نظم القصيد » . وقال قائلٌ منهم : « إن العرب لا يحسنون من أعمال المعاش غير ما تعودوه في البادية من رعي الإبل » . واشتكى آخر من « أن العرب ظلوا شرقيين [لا يجدي فيهم علم أو ثقافة] . فإنهم رغم اتصالهم باليونان لم يتأثروا بالصيغة الثقافية الجديدة التي صنعوها بعقولهم » . كأنما العرب صنعوا هذه الصيغة لا لإنجاز الأعمال العظيمة بل لمجرد اللهو والتسلية وللحصول على بركتها الرسولية ، ثم لتصديرها بعد ذلك للآخرين ، كساعي البريد أو كمَثل الحمار يحمل أسفاراً !! لقد حرموا أنفسهم مما صنعوه بأيديهم . يا للغباء !!

فالشرق مقرون عند أصحاب هذه الآراء البلهاء بصفاتٍ ذميمة أقلها الطغيان والجمود والسلبية وفساد الفطرة وانحطاط الخُلق وعدم القدرة على التقدم أو القيام بأي عملٍ إبداعي . فإذا كانت « المنطقة العربية هي التي قدمت للعالم طريقة الكتابة بالحروف الأبجدية ، ونقلت الكتابة من فينيقيا إلى اليونان ، وهناك تطورت ، إلا أن العرب اكتفوا من هذه الطريقة بتقديس ما هو مكتوب ، كأنما هم عبدوا الأحرف التي صنعوها ، بينما نظر إليها اليونان على أنها مجرد أداة للتفكير ، لا على أنها شيء مقدس معبود » ـ فكأن ابتكار الكتابة الذي يكفي وحده للدلالة على نُقلة حضارية فذة ، انقلب على أيدي العرب ليكون أداة عبودية تسترقُّهم ، وليكون هو نفسه أداة تفكير تسمو باليونان إلى أعلى المراتب ! والدليل على ذلك عبقرية العرب ! فالعبقرية أصبحت عبودية لا لشيء إلا لانتسابها إلى العرب !!! فالدليل على عبوديتهم عبقريتهم ! هذه هي النتيجة المنطقية لنقد ذلك « البحاثة » ـ لا فُضَّ فوه ـ الذي يبدو أنه من « العبقرية » بحيث لا يعلم أن كلامه سيؤدي إليها . ولعله يعلم ذلك ولكنه يظن أننا نحن العرب الشرقيين من الغباء بحيث لا نستطيع فهم أقواله . وإلا لصاغها صيغة أخرى. أرأيتَ إلى هذه الأحكام الصبيانية! أرأيتَ إلى قادة الفكر والرأي وهم أسرى التعصب والهوى !!؟ هذه هي « عقدة العرب والإسلام » التي لا يزال كثير من الأوروبيين يعانون منها . وسنرى أمثلة كثيرة لها في تضاعيف هذا الكتاب .

إن أقوالاً من هذا القبيل ، بعضها ـ وهو قليل جداً ـ يتوخّى الحقيقة ، ولذلك فهو يُقال بحسن نية . ومن الممكن تغيير آراء هذا الفريق من رواد الحقيقة عندما يقفون على حقائق جديدة . إن مشكلتنا ليست أبداً مع هذا الفريق ، وإنما

مشكلتنا ـ كل مشكلتنا ـ مع الفريق الآخر الذين يكتمون الحق وهم يعلمون . هؤلاء لا سبيل إلى إدخال أي تغيير أو تبديل في أفكارهم المبيّتة ، نحن لا ننكر أن هناك تياراً جديداً من النظرة المحايدة والمنصفة إلى الفكر العربي الإسلامي ، غير أنه يشق طريقه بصعوبة بالغة بين الألغام التي أقامها الفريق السابق الذي يلبس مسوح الإستشراق ولكنه يستقوي بقوى غازية ضخمة متسلطة شريرة ، مؤيدّة بسلطان النفوذ الإستعماري الذي يسعى إلى تحقيق غرضين :

الأول ـ انتزاع الفكر العربي الإسلامي من عالمه ، بالتشكيك فيه وإثارة الشبهات من حوله ، لفرض منطق الفكر الإستعماري ومقومات ثقافته ، وبذلك تسيطر الثقافة الغربية وتصهر في بوتقتها مختلف الثقافات ، وفي مقدمتها الثقافة العربية الإسلامية التي تختلف أساساً في جذورها ومقوماتها عن الثقافة الغربية المستمدة من الوثنية اليونانية والقانون الروماني والكاثوليكية الغربية .

الثاني ـ إسقاط نفوذ الفكر العربي الإسلامي الذي استطاع في أقل من قرن ـ وبدافع من مقوماته الذاتية ـ أن يسيطر على عالمٍ ضخم واسع ، وأن يغير كثيراً من المفاهيم وموازين القوى. وهو قادر على ذلك مرة أخرى في جولة جديدة إذا عاد إلى مفاهيمه الإنسانية وقيمه الأصيلة ، وتسلح بالعلم والتكنولوجيا ، وهذا ما لا يسلم به الإستعمار بسهولة .

وهكذا فلا مناص لنا من النظر إلى الإستشراق على أنه شيء ملازم للإستعمار ، حتى ولو كانت الروابط بينهما معقدة وغير مباشرة .

●

وإذا كان تخلف العرب الراهن من الأسباب التي حجبت الرؤية الواضحة عن أعين الأوروبيين فالتخلف على كل حال ليس له جنسية أو دين . وأنها لأكذوبة كبيرة أن نتصور للتخلف بطاقة دُوّن فيها أمام الاسم كلمة (عربي) ، وأمام الديانة كلمة (مسلم) !

فالإسلام لم يمنع العرب من التقدم ـ بل ـ ماذا أقول ؟ ـ هو الذي أخرجهم من عقر دارهم وقذف بهم في الآفاق . ولولا الإسلام لظلوا يتسكعون في باديتهم إلى يوم يبعثون .

كما أن العروبة ليست هي أيضاً مانعة من التقدم ، بل أن العرب قبل

الإسلام ينفردون بميزة لم تتوفر لغيرهم هي أن يقظتهم القومية اقترنت برسالةٍ دينية ، ولعل الأدق أن نقول : كانت هذه الرسالة تعبيراً عن تلك اليقظة . فالإسلام هو بحق ، خير مفصح عن يقظة العرب ونهضتهم وتقدمهم. لقد جاء بلغتهم ، ولبى حاجات بيئتهم ، ووحّد شخصيتهم ، واصطبغ بعبقريتهم ، وامتزج بتاريخهم ، وربط فيهم اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل . فهو خلاصة ما في الشخصية العربية من مثل وقيم . ولهذا استطاع محمد في جيلٍ واحد من الزمان أن ينتصر في مئة معركة ، وفي قرنٍ واحد أن يُنشيء دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة مؤثرة في سير الأحداث وموازين القوى . أجل إن العرب قبل الإسلام كانوا على أبواب يقظة ظهرت بوادرها الأولى في الشعر الجاهلي وحركة الحنفاء . فالعرب كانوا يتلسمون الطريق بحثاً عن البطل الذي يقودهم إلى سواء السبيل ، كما أن محمداً عليه السلام كان هو بدوره يبحث عن قوم يحملون رسالته . فكأنهما جاءا على موعد . وهذا لعمري من أهم أسباب النجاح الخارق الذي لقيته الدعوة الإسلامية بين الجماهير العربية ، والإنتصار المذهل الذي حملهم في قرن أو يزيد إلى جميع بقاع العالم المتمدن آنذاك .

وأخيراً أتمنى لهذا الكتاب أن يتيح للقاريء وسيلة سهلة يحقق بها أمله في دراسة الفكر العربي الإسلامي دراسة إن لم تكن موسعة شاملة فإنها تقدم له الجهاز العلمي الذي تتطلبه مثل هذه الدراسة . وعلى الرغم من قلة صفحات الكتاب فإن قراءته تستلزم عزماً لا يلين ومثابرة على تعمق الفكر ، ومستوى ثقافياً يضارع مستوى القبول في الجامعات أو أعلى من ذلك بقليل . وإني لوطيد الأمل أن يثير هذا الكتاب حوافز كثيرة تضع حداً للإذلال الفكري الذي فُرض علينا أو فرضناه على أنفسنا ، فنكون منذ الآن منتجين للأفكار بعد أن كنا مستهلكين لها . وهذا يفترض وجود شعور واضح بالهوية وحرص شديد على الإيمان بالذات ، والتقليل من الخنوع لعملية الإستهلاك الشائنة . كما يتطلّب أيضاً الإنسجام مع ماضينا وتقاليدنا وتطوير القدرة على التطلّع إلى الوراء وإلى الأمام على السواء . وليكن تحركنا في كلا الإتجاهين تحركاً ثورياً يفتح أبواباً ويشق نهجاً ويفجر طاقات جديدة . لا يفهم تراث العرب غير أبناء العرب ، ولا مصلحة لغيرنا في فهم فكرنا وحضارتنا . ومهما ادعى الآخرون الحرص علينا فإنما على مصالحهم يحرصون ، وبقرة حلوباً إيانا إنما يريدون . ولا أمل لنا إلاّ بالإعتماد على أنفسنا ، ومن ثم ننطلق إلى العالم الفسيح . ومن هنا فنحن في حاجة إلى اكتشاف أنفسنا

أولاً وتوضيحها وقبولها لنتمكن من اكتشاف العالم من حولنا والإشتراك في خضم الأحداث اشتراكاً إيجابياً فعالاً . كما لا بد لنا في هذه المرحلة المصيرية من حياتنا من العمل على إيجاد أفراد مبدعين موهوبين يضخّون بالأفكار أينما كانوا ، والبحث عن الوسائل الكفيلة بمساعدتهم وتقريبهم بعضهم من بعض ، وتعزيز قدراتهم على ضخ أفكارٍ جديدة واكتشاف علاقات جديدة ، وتشجيعهم على تغذية الحوافز الخلاقة بدلاً من خنق مواهبهم باسم الوضع الراهن . وعندها فقط يصبح في الإمكان الإفادة من الطاقات الخلاقة التي تزخر بالفكر والقيم في بلادنا والتي كانت حتى الآن مهدورة معطلة. وبذلك يتسنى لنا إحداث تغييرات شاملة في مؤسساتنا وأجهزتنا الدستورية والتنظيمية والتعليمية تؤذن ببزوغ فجرٍ جيد وانبثاق عصرٍ جديد . . .

ومن يعش يره . . .

الفصل الأول

الإنسان والميتافيزيقا

لقد ارتفع الإنسان عن مستوى الحيوان ـ في جملة ما ارتفع به ـ بقدرته الهائلة على أن يتخطى المكان الذي يعيش فيه وينطلق خارجه . فالحيوان يرى ويسمع وقد يتوارد عليه بعض الصور ـ على تفاوت في ذلك بين أنواع الحيوان المختلفة بطبيعة الحال ـ ولكنه لا يستطيع ـ اللهم إلا بضغط العوامل الطبيعية الصرف ـ الخروج من إطار الرقعة التي يعيش فيها . وإنما هو ضيق الدائرة ، محدود الأفق ، خاضع لحاجاته المادية العاجلة ، أسير الغرائز وردود الأفعال ، مشتّت تتنازعه المطالب القريبة ، مبعثر كأنما تذروه الرياح . وأما الإنسان ففي وسعه أن يتفلّت من قيود الزمان والمكان ويتقلّب في العالم بأسره ، لا بحكم الغريزة وردود الفعل ـ وإن كان لا يخلو هو أيضاً من سيطرة الغريزة وردود الفعل ـ بل لمجرد التنقل والتقلب والريادة ، أو دفاعاً عن مبدأ أو هتكاً لحجاب أو كشفاً لمجهول .

وكما أن الحيوان أسير المكان ، فهو أيضاً ـ وبالمقدار ذاته ـ أسير الزمان . فالحيوان ابن اللحظة التي هو فيها « وكأنما هي الأبدية بعينها » على حد تعبير برغسون . فهو في حاضر دائم ، ولكنه حضور فيزيائي ميكانيكي ، أو قل هو حضور الغيبوبة ـ لا حضور الزمان ، إذا صح هذا التعبير الغريب ، حضور الصحو والوعي ، وهو ميزة الإنسان وحده ـ تكبله أغلالها لا ينفذ منها إلى ماضٍ ولا إلى مستقبل . والحق ، أن فكرة الزمان ـ كفكرة المكان ـ غريبة عن الحيوان ، لا معنى لها عنده لما فيها من كثافة ميتافيزيقية لا تبلغها مداركه . وأما الإنسان فهو الكائن الوحيد الذي إنما يعيش في الزمان ويتقلب في أبعاده المختلفة وآفاقه الواسعة ،

لكثافته الميتافيزيقية الهائلة ، لأنه ينضح بالميتافيزيقا ويفيض بالميتافيزيقا . فالزمان يتخلل وجوده كله حتى لكأنما قد قُدَّ من الزمان .

وهكذا فالإنسان حرّ طليق ، يعيش في الحاضر والماضي والمستقبل ، ويتخطى السموات العلى والأرضين السفلى وما بينهما وما تحت الثرى ، لا يقيده مكان ولا زمان .

لا يقيده مكان ، لأن جوهر الإنسان إنما يكمن في قدرته الهائلة على التحرر من حدوده الجغرافية والطوبوغرافة والإقليمية الضيقة والإنفلات من ضغوط العالم المحيط به ، ولو لفترةٍ يسيرة يبتعد فيها عن دنيا الناس وابتذال الأشياء، ويطل على أبعاد وعوالم وآفاق لا تنكشف له إذا ظل أسير العالم المادي المحسوس والعلاقات المادية المحسوسة والمواقف المادية المحسوسة . وأما الحيوان فليست له - كما ذكرنا - أي قدرة على الإنفصال عن واقعه الفج والإبتعاد عنه قيد أنملة. إنه أسير الرقعة التي هو فيها ، خاضع لمنبهاتها المباشرة القريبة من مجال إدراكه . وإذن فالإنسان إنما تتحدد قيمته - في جملة ما تتحدد به - بتزايد المسافة بينه وبين واقعه المحسوس ، وتظل هذه المسافة تزيد وتزيد حتى تصل إلى أقصاها عند بعض الأفراد النادرين . وقليلٌ ما هم ! .

وكذلك هو لا يقيده زمان . فإذا كان الحيوان تُشَتِّتُهُ اللحظة الحاضرة لا يحسُّ غيرها - هذا إذا كان عنده شعور حقيقي بالزمان الحاضر ، وهيهات ! - فإن الإنسانِ لفيض شعوره بالزمان قلما يحس باللحظة الحاضرة ، إذ هو في تجاوزٍ مستمر للحاضر نحو مستقبل لا يحده حتى الموت نفسه ، وفي عودة دائمة نحو ماضٍ لا يقطعه حتى الولادة نفسها ، بل إنه ليخترق الجدارين معاً وينفذ إلى ما وراءهما . فالحاضر عنده منطلَق إلى المستقبل في محاولة لتخطيطه ورسم معالمه ، وكوة نحو الماضي لتجميع عناصره وإعادة تكوينه من جديد،تمهيداً لدراسته والاعتبار به واستخراج ما يمكن استخراجه من القوانين والقوى التاريخية التي صنعت العصر الحاضر. وأما الحيوان فهو منسحق في الحاضر مقهور به تلحُّ عليه مطالبه ، فإذا ما أشبع هذه المطالب سكن وهدأ حتى لكأنه صخر جلمد . لقد روى ظمأه وسد جوعه وعلى الدنيا السلام . إنه لا تشغله أخطاء الأمس ولا ترهقه هموم الغد . فهو في حلٍ من كليهما . حسبه أنه ملأ الآن بطنه فما شأنه بما بعد الآن ؟ فالندم لا سبيل له إلى نفسه ، والأمل لا معنى له في فراغ وجوده .

يكفيه فُتات الأرض فما شأنه بهبات السماء ؟ إنه مجرد كائن حي لا هم له إلا أن يرد الماء وينتجع الكلأ ويقنص الفريسة . أو قل هو فراغ قاتل يدب على الأرض دبيباً ، وليس له أي قسط من الشعور بالوجود . فكيف عساه يشعر بالوجود ولم يستكمل شرائط الوجود ؟ بل فَقَد بُعدين أساسيين من أبعاد الوجود ؟ إنه محصور في حيزٍ ضيق جداً من الزمان والمكان الفيزيائيين ، بلا أي فسحة أو كثافة أو امتداد ، إنه محشور في هذا الحيز حشراً لا يستطيع فيه حراكاً . إنه يكاد يختنق لقلة الحركة ـ اللهم إلا الحركة الميكانيكية ، وأما الحركة الميتافيزيقية فهيهات هيهات ! ـ وأما الإنسان فهو في فسحة من العيش وبحبوحة يتحرك فيها كما يشاء بحرية وطلاقة ، وله مناعة ميتافيزيقية تختلف من إنسانٍ إلى آخر تحدُّ من ضغط الواقع المحسوس وتخفف من وقع الصدمات والكدمات واللكمات والضربات التي ما ينفك يكيلها لنا ويدمي بها وجودنا . وفي هذه البحبوحة والفسحة ما يمكِّن لنا في الوجود ، ويزيدنا عمقاً في الوجود ، بل يجعلنا سراً من أسرارالوجود ! .

والخلاصة ، أن منطقة الحيوان الزمانية المكانية ـ أو « الزمكانية » ، إذا استعرنا هذا التركيب المزجي من نظرية النسبية ـ هي « هنا ـ الآن » ، هذا إذا صح استعمال الزمكان بالنسبة إلى الحيوان . وأما الإنسان فيتقلّب حراً طليقاً هنا وهناك والآن وفي كل آنٍ وأوان . فإذا كان الإلتصاق الدائم باللحظة الحاضرة والميكانيكية المكانية ـ إذا صح التعبير ـ سمة الحيوان الأعجم لا يريم عنهما ، فإن السمة الغالبة على الإنسان هي الفرار منهما ما أمكن للإلتصاق بالذات ولزوم الذات ، أي الخلوة بها واستبطان أحوالها ، والغوص على الدرر واللآلىء المكنونة فيها ، وتأمل أفاعيلها القريبة والبعيدة ، والحوار معها في أمور الكون والحياة والمصير . وفي ذلك من الغنى والخصب ما لا يدور ببال كل أحد . ففي وسع الإنسان ـ في أوقات خاصة تطول أو تقصر وتتفاوت في عمقها وتركيزها تبعاً لدرجة نموه العقلي وقدرته على التفكير المجرد وعلى التحليل والتركيب والإستنتاج ـ أن يقطع صلته بالواقع الخارجي الذي يحيط به ، لكي يلم شعث نفسه ويجمع شتاتها ويختلي بها إلى حين . هذا الحضور في الذات هذه الخلوة معها ، هي لحظة من أثمن لحظات الوجود الإنساني . إن الحياة في تلك اللحظة لَتبوح بحكمتها ، وإن الزمن لَيتوقف ليعطينا ذلك الشعور الجديد بالحضور والتوتر . ولهذا كانت الخلوة بالنفس شيئاً ضرورياً ومقدساً ، إذ فيها يبدأ ذلك الحديث السري ، ذلك الحوار الداخلي الذي لا يعرفه إلا ذووه . فمن ذاق عرف . هناك يتفجر الوعي

ويتدفق ، وهناك تنثال المعاني. وبواسطة اللغة ، أي بتحرير جهاز الكلام في الإنسان من بعض القيود والضغوط ، يتحول الحديث السري إلى حديث علني ، والحوار الداخلي إلى حوار خارجي ، وهناك تنشأ القيم والمعايير وتغتني الثقافة وتتسع الحضارة . . . وهكذا فإن خلوة الذات بذاتها محرّمة على غير الإنسان ، بل هي حكر على القلة النادرة من أفراد الإنسان . إنها السر المضنون به على غير أهله . إنها هي التي فرقت بين الإنسان وسلفه الحيوان ، وجعلت من الإنسان معجزةفذة وبدعاً من المخلوقات .

وغني عن البيان أن خلوة الذات بذاتها لا تعني أبداً إبقاءها فيها ، وإلا كانت كمن غشيته غيبوبة ماحقة . إنها إنما تعني قطع الصلة مؤقتاً بالذات العضوية (أو بالعالم الخارجي ، والمعنى واحد تقريباً) والإنصراف بكنه الهمة إلى التركيز والإنتباه ، في محاولة لتكثيف الوعي وأعداده لمواجهة التحديات والتفكر في خلق الأرض والسموات ، وهذا إنما يتأتى بالبقاء في الذات والإنفكاك عنها مع عدم مفارقتها ، أي الإنفصال عنها انفصالاً لا يقطع تدفق الوعي وانثيال المعاني . فالبقاء في الذات شيءٌ مخيف مرعب لا طاقة للإنسان به إذا لم تتخلله لحظات استرواح ، أو تنعشه نسمات يقفز فيها الإنسان فوق ذاته في إطلالة خارجية يلتقط فيها أنفاسه ،ثم يرتد إليهيا ويعدو وراءها ويجدُّ في طلبها لتبوح له بأسرارها وتُحدِّث أخبارها ، وكأنما هما كائنات متمايزان كلٌ يعمل على شاكلته ، دون أن يؤثر ذلك في وحدة الشخصية وتكامل عناصرها ومقوماتها ، اللهم إلا في حال المرض النفسي والعقلي . لقد أوشكت الذات الواحدة أن تنشطر ذاتين اثنتين متقابلتين تَقابُلَ نصفي يالدماغ من غير أن تحدث بلبلة واختلال بينهما . بل لعل هذا ما يُشير إليه بعض الكشوف الحديثة في علم النفس . ومن يدري فقد تكون الذات الواحدة أكثر من ذات . ألم تكن الذرة ذرة واحدة فإذا هي اليوم ذرات وذرات ؟

وعلى أي حال ، إن الإنسان لا تطيب له الحياة ما لم يراوح بين العيش في بورة الذات والتطواف بعيداً عنها ليضمن لها باستمرار دماً جديداً ورفداً موصولاً وزاداً يكفل لها البقاء . لقد ارتوت الذات بعد أن لم تكن مرتوية ، كالطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً. أجل ، إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يخفق فوق ذاته ويعلو على ذاته ، ثم يهبط إليها، فلا يكاد يستكنّ حتى يعود سيرته من جديد . فوجود الإنسان يتراوح إذن بين الخروج من الذات والعودة إلى الذات ليحقق

وجوده ويضفي عليه معاني لم تكن له . إنه عاجز عن أن يبقى في حرم الذات قابعاً فيها ، لأن التجدد شرط لبقاء الذات وجزءاً لا ينفصل عن معنى وجود الذات . فنحن كما يقول ڤاليري : « محبوسون خارج ذواتنا » . مهما بدا هذا القول شاذاً غريباً . ولعل سر كينونة الإنسان أنه يستطيع الخروج من ذاته والإبتعاد عنها في ساعات وجوده الخصب المخضوضر المعطاء ، حتى لَيكون حيث هو غير موجود أكثر منه حيث هو موجود ، هنالك يخلو بذاته ـ رغم بعده عنها ـ وهنالك يبتعد عن ذاته رغم اختلائه بها وفي صميم اختلائه بها ، في عملية دراماتيكية متصلة خلاقة . ولا أدل على عبقرية الوجود الإنساني ومعجزة الوجود الإنساني من أن الإنسان لا يعود من رحلته خارج ذاته إلى عرين ذاته من غير أن يجد العالم في ذاته . كما أنه لا يغادر ذاته في رحلة خارج ذاته من غير أن يجد ذاته من جديد في العالم الذي ارتحلت إليه هذه الذات .

عجيب حقاً أمر الإنسان . فيه تفقد ألفاظ اللغة معانيها المتداولة مع أنه هو واضع هذه اللغة فتتجانس المتغايرات ، وتتقارب المتباعدات ، ويتلاشى الكل في الكل . ومن رام التعبير عن تلك الحال بالألفاظ فقد رام مستحيلاً .

●

وزبدة القول ، أن الإنسان على الدوام لا ينفك عن التحرر من حدوده العضوية والتغلب عليها ليخلو إلى حِضرة ذاته ويستكن إليها . إذ لا تتحقق الشخصية ولا يكون للوجود الإنساني معنى إلا بخرق هذه الحدود والمفارقة المستمرة لها . والمفارقة قد تكون متسكعة بغير ضابط اللهم إلا الضوابط التي تفرضها ربات الشعر والخيال ، وقد تكون منضبطة موجهة ، وهذا هو العقل . فما العقل في نظرنا إلا هذه القدرة على المفارقة وقد كُبح جماحها ودخلها التوجيه والتخطيط . إنه خيال متطور خلاق ، أكثر نضجاً من الخيال العادي وأكثر تماسكاً وتجربة ومسؤولية . إنه أداة نقل هائلة لا حدود لها : فهو ينقل العالم إليَّ والعالم بعيد عني ، كما ينقلني إلى العالم وأنا قابع في عقر داري . أليس هذا من حولَة الدهر ؟ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ! .

ومعنى هذا أن البعد الميتافيزيقي داخل في مفهوم الإنسان وشرط من شروطه . فإذا كان الإنسان يعيش في الحاضر والماضي والمستقبل ، وإذا كان يقذف بذاته خارج حدود ذاته ، وهو قابع في معقل ذاته ، وبالتالي إذا كان

يستطيع أن يخرج من إطار وجوده المادي ، إطار الأشياء المحيطة به ، فما ذلك إلا ليعبر عما فيه من كثافة ميتافيزيقية وليتحرك في أبعاد ميتافيزيقية طليقة يجهلها الحيوان ، من شأنها أن تسمو به من دركات الوجود البيولوج وأوحاله وظلماته إلى درجات الوجود الميتافيزيقي وملكوته وأنواره ، وتجعل منه موجوداً حضارياً فريداً وتزيد في عمق حياته الباطنة وتدفق ينبوعها الثرّ الأصيل . وهنالك يشرف على تخوم عالمٍ جديد يُطلَق عليه اسم العالم العقلي ، وهو عالم زاهٍ عجيب من المفاهيم والصور والمعاني تهوي إليه أفئدة نخبة مختارة من الناس . إنه عالم مضنون به على غير أهله ، ليس للموجودات فيه أي قوام مادي محسوس ، وليس له شكل أو حجم أو لون أو طعم ، ولا يمكن العبارة عنه بالألفاظ دون تشويهه بلواحق الألفاظ ومقتضيات الألفاظ ومنطق الألفاظ . فهو عالم فذ عملاق ، بِدْعٌ من العوالم و المطارح كلها ، لا تدركه الأبصار بل البصائر . فلا يعرف الفضل إلا ذووه . فقيمة الإنسان إنما تتحدد بمدى تعلقه بعالم العقل واستيعابه له وتكمله به . فكلما شغف به أخصب وأنجب وزاد تلألؤاً وعطاء ، وكلما أهمله أو زهد فيه جَدَبَ ومحِل ولم يأتِ إلا بكل سقطٍ جهيض خديج . هنالك يكون عالة على الآخرين ، كَلاًّ على مولاه أينما يوجِّهه لا يأتِ بخير . فما من تغير طرأ على المسار غير الطبيعي للأشياء ، وما من حضارة قامت ، وما من انتصار تحقق أو تقدم أُحرز أو اختراع حصل أو إكتشاف تم الوصول إليه . . . ما من شيء من ذلك أو من قبيل ذلك لا يدين بعظمته للعالم العقلي الذي هو عنوان مجد الإنسان . فالعقل والإنسان شقيقان لا يفترقان .

بالعقل كان الإنسان سيد المخلوقات .

به يذلل الصعب ، ويروض الوحش ، ويُحيي القفر ، ويُبدد الظلام ، وينشر النور ، ويبث الوحدة والإنسجام .

به أخضع الأشياء لسلطانه ، وعنت الموجودات لقضائه ، وشاهت له الوجوه والجباه ! .

به اقتحم معقل الذرة ، واخترق أطباق الأرض ، وارتفع في أجواز السماء ، وهو في طريقه الآن إلى الشمس والنجوم ! .

به قضى الإنسان على طول النوى وبه على العرش استوى !

به صال وجال وطار كل مطار ، وقال أنا الواحد القهار !

إن قوى العقل قوى فذة هائلة لا تُحدّ ، قوى لا يعد لها شيء في الأرض ولا في السماء ، وهيهات أن يقارَن بها شيء أو أن يعلوها شيء . فإنما هي كل شيء ولولاها لم يكن شيء .

العقل هو أعلى مراحل التطور . إنه أقصى درجة حققها الوجود الكوني . إنه التفسير الكبير للإنسان والمعنى الكبير للإنسان . فالعقل ليس مجرد وجود وكفى، كما هي الأشياء، إنه وجود وقدرة على استيعاب الوجود وعلى تجاوز الوجود والحكم على الوجود ! أو قل هو وجود مكثف مضروب في ذاته مراتٍ بقدر عمقه في معنى الوجود . إنه وجود ميتافيزيقي وكفى . وحسبك بالوجود الميتافيزيقي شاهداً على قوة الوجود ورسوخ القدم في الوجود ! فالإنسان لا يقتصر أمره على أنه يعيش ، وإنما هو يعيش ويدرك أنه عيش . إنه لا يحيا واقعه البيولوجي الفج وحده،وإنما هو يحيا هذا الوجود ويحياه ثم يتخطاه ويتخطاه ! إنه كثافة ميتافيزيقية وتعقد ثقافي وفتح حضاري ! .

حقاً عجيب أمر هذا الإنسان ! فهو لا يتحرك فقط بالظروف الخارجية والضغوط التي تجثم على جسمه الترابي ، وإنما هو يقاوم هذه الظروف ويصمد لهذه الضغوط ويواجه التحديات والصعوبات ، بحركةٍ تلقائية واعية تنبثق من باطنْ متدفق لا يخضع إلا لقوانين ذاته . إنه بحكم وجوده الميتافيزيقي الفذ هذا مركز دائم للفاعلية الذاتية والإنبثاق الذاتي والإنطلاق الذاتي . يثير كل شيء من حوله وقلما يُثار ، ويصمد لكل شي وقلما يصمد له شيء ، ويقيس كل شيء ولا يُقاس به شيء، ويتساءل عن كل فعل يحدث أمامه أو يجري بين يده ومن خلفه ولا يُسأل عما يفعل . إنه يتدخل في كل شي ويُعيد تنظيم كل شيء ويبث فيه الحياة والنور ! إنه ليس جوهراً ثابتاً لا يحول ولا يزول ، إنه حدث تاريخي خالق، وتطور حضاري مُبدع، يشع من باطن أكثر مما يستضي من خارج . ويعيش بشيٍ أعظم كثيراً من لقيمات يقمن صلبه أو أنفاسٍ يحفظن أضلعه ، وإن كانت اللقيمات والأنفاس من ضرورات وجوده . إنها الأفكار تغذي الإنسـان بما هو إنسان ، وإنها المُثل والمعاني ترفد وجوده وتبرر وجوده وتضع المغزى والدلالة على وجوده وتهبه المزيد من الوجود . إنه ليس مجرد كتلة حية تدبّ على الأرض وتتغذى بما تخرج من زروع وتلد من بهائم ، بلا ندم ولا أمل ولا شعور بالتبعة . فقيمة الحياة عنده ليست في متاع الحياة بل هي في معنى الحياة وما يصحبها من وعيٍ

ومسؤولية ، وبما تحقق له من كرامة وحرية وإبداع .

فالحياة الإنسانية مشروطة دائماً ببعض المعاني والقيم ، والحيوان وحده يقبل حياته بلا شروط ويعيش بلا معنى . إنه يظل في مستوى الأشياء والظواهر لا يتخطاها أو يعلو عليها ، إنه مجرد واقعة ، وهو يتقبل وجوده دون أن تعروه دهشة أو أن يثور على وضع أو يرد على تحدٍ ، أو يذهب بسائق الفضول للتطلع إلى الأفضل . إنه يحيا ويموت ، ولكنه لا يتساءل عن معنى الحياة والموت . إنه يعيش في العالم ، وهيهات أن يتساءل عن معنى العالم . إنه يظل في العالم ولا يرنو ببصره إلى ما عسى أن يكون وراء العالم . إن عالمه ثابت رتيب لا يتغير ، بل لا قِبل له بتغييره ، لأن التغيير تطلع إلى الأعلى وبحثٌ عن الأفضل ، وكلاهما تجاوزٌ للعالم وتأمل له من خارج . وإذا طرأ على عالمه ما يثير الخوف فيه أطلق ساقيه للريح . طول لسان في الهوا ، وقصر في الذنب . وأما الإنسان فإنه يفحص ويتروى ، ويواجه ويحاذر ، ويقدم رجلاً ويؤخر رجلاً ، في عملية متصلة مستمرة من المحاولة والخطأ والكر والفر ، والتربص والوقيعة . إن شعوره بالتحدي كبير ، ومحاولته للرد على التحدي أكبر ، وهذا من أسرار وجوده .

وهكذا ، فإن أسلوب الحيوان في مواجهة العدوان الذي يُهدد وجوده أو يُدخل الإضطراب في عالمه أسلوب سلبي بحت . فهو إنما يواجهه بالفرار منه والسلام . وفي أحسن الأحوال فإنه يلجأ إلى أسلحته الطبيعية التي زُوِّد بها جسمه في أصلِ الفطرة والخلق يُدافع بها عن نفسه ، من غير أن يضيف إليها سلاحاً جديداً . إن دفاعه عن نفسه هو دفاع آلي بحت ، فهو مجموعة من العمليات الميكانيكية كتلك التي تجري داخل الجسم يتبع بعضها بعضاً لا تزيد ولا تنقص زودته بها الطبيعة العمياء حفظاً للنوع في عملية تنازع البقاء . وأما الإنسان فإن أسلوبه في دفع العدوان ورد التحدي هو أسلوب إيجابي فيه حظٌ كبير من الإبتكار والمكر والخديعة . فضلاً عما عند الإنسان من قدرة على استعمال الأشياء في غير ما خُلقت له : فالشجرة التي خُلقت للثمر يقطعها الإنسان ليجعل منها عصا يدفع بها غائلة الحيوان ، والصوان يجعله شظايا ، والحجر يجعله لَبِنات يبني بها بيته . أنها الأداة ، وما أدراك ما الأداة . فليس في الطبيعة أدوات ولكن الإنسان وحده ـ دون الحيوان ـ هو القادر على صناعة الأدوات واختراع الأدوات . ويوم استخدم الإنسان الأدوات وبالتالي يوم وُجد الإنسان ، برزت إرادة التغيير وبدأت مسيرة التاريخ وبدأت الحضارة . فما التاريخ والحضارة سوى التجسيد العملي لإرادة

التغيير . إن عوادي الطبيعة تتربص بالإنسان في حله وترحاله ، والضواري تقعد له كل مرصد ، والأسرار تكتنف حياته وتملأ عليه وجوده ، فإذا لم يكن في المستوى المطلوب سقط إلى الأبد في معركة لا يُغني أحد عن أحد فيها شيئاً . فلا بد من التصدي والصمود والمواجهة وإعمال الرأي والقريحة . إن كل شيء يحركه ويستثيره ويدعوه إلى التنبه والحذر واجتماع الهمم والفكرة . وبسائق الفضول والتوجس والتحدي والاستيحاش هو ذا ينطلق في وجوه الفكر والنظر .

إن الحيوان إذا ضل طريقه في الغاب مثلاً تسكع وسار كيفما اتفق ، مدفوعاً بعوامل خارجية وداخلية آلية صرف ، هذا إذا كان لكلمة « ضل الطريق » من معنى عنده . وأما الإنسان ، فإنه يبدأ عملية معقدة من القياس والإستنتاج والموازنة والمقارنة والتحليل وغير ذلك من العمليات العقلية التي من شأنها تصحيح مساره . وقد يحالفه التوفيق وقد يمنى بالفشل . وفي كلا الحالين فقد تقرر مصيره بقرار ذاتي ومشروع شخصي . وعنده أن ألف خطأ يؤدي إليه العقل واجتهاد الرأي خير من صواب واحد جاء وليد التسكع وساقت إليه الصدف والمقادر وتصاريف الأحوال والظروف .

إن الحيوان يتكيف لبيئته كما أن الإنسان يتكيف لها أيضاً . ولكن شتان بين تكيف وتكيف . فتكيف الحيوان تكيف آلي يحدث نتيجة للتفاعل بين بعض الصفات السلوكية والجسدية المحددة بالوراثة وبين ظروف البيئة الخارجية التي حُكم عليه أن يعيش فيها . إن الإنسان بما هو حيوان يشارك الحيوان في هذا النمط من التكيف ، ولكن الإنسان بما هو إنسان يزيد على التكيف الحيواني تكيفاً آخر ينبع من تنمية قدراته الإبداعية التي هيأتها له سلفاً وراثته الطبيعية النوعية ، ثم جاءت وراثته الإجتماعية وزودته بوسائل تحقيقها . إنه حيوان اجتماعي حتى ولو عاش متوحداً ، بينما الحيوان يظل كائناً متوحداً حتى ولو عاشت آحاده قطعاناً وجماعات . فالحياة الإجتماعية لا تضيف إليه جديداً ، بينما هي تضيف إلى الإنسان كل جديد وطريف . إنها تمنحه أبعاداً ومزايا ليست للحيوان وتُطل به على آفاقٍ وعوالم لا يعرفها الحيوان .

أرأيتَ إلى البون الشائع بين الإنسان والحيوان ؟ وما ذلك إلا لأن أحدهما تتخلله الميتافيزيقا وتنفذ فيه حتى الأضلاع والشغاف ، لقد قُدَّ من الميتافيزيقا

والسلام . والآخر كتلة كثيفة من اللحم والعظم تدب على الأرض دبيباً بلا معنى ولا هدف ولا غاية ! .

وهكذا ، فالإنسان مخلوق فذ فريد هو نسيج وحده في هذا العالم . فإذا كان الحيوان لا سند له إلا استعداداته البيولوجية الموروثة ، فإن الإنسان في إستجابته الذهنية للعالم المحيط به قد تحرر كثيراً من هذه الإستعدادات وتقدم عليها تقدماً يستوقف النظر حقاً ـ على تفاوت في ذلك بين أفراده بطبيعة الحال ـ بفضل عملية التعلم والقدرة على اكتساب المهارات والإفادة من القيم الثقافية والروحية التي ورثها بحكم كثافته الميتافيزيقية وانتمائه الإجتماعي ، وبحكم أن الذات الإجتماعية هي ذاته الثانية التي لا تقل فعالية عن ذاته الفردية الفريدة .

فالإنسان حيوان مدني بالطبع كما قال القدماء . أي إن المجتمع جزٌ من وجوده الذاتي ، وهو ليس مجرد جزء من كلٍ أكبر منه ، إنه كلٌّ مكتمل في كلٍّ آخر أكبر منه لا ينتظم إلا به ولا تتعمق الحياةُ أو يتكثف الوعي إلا فيه . إنه إلّه صغير ، إذا جاز التعبير ، إنه العالم الأصغر في مقابلة العالم الأكبر ، بل إن العالم الأكبر ينطوي فيه . ومن هنا فإن المجتمع ليس مجموعاً عددياً بسيطاً ، وإنما هو كيفية نوعية معقدة تغتني بالأفراد وتتعمق كما يغتني بها الأفراد ويتعمقون ، ويتفاعل فيها الكل بالكل ويضيف كلٍ منهما إلى الآخر قيمه ومثله وأبعاده في عملية متصلة مستمرة تختلف وتيرةً وكثافةً وعمقاً بإختلاف الأمصار والأعصار والأجيال ودرجة الرقي والتطور .

الفصل الثاني

ما هي الفلسفة ؟

ح

قلنا إن الحيوان يظلّ في مستوى الأشياء والظواهر لا يستطيع أن يتخطاها أو أن يعلو عليها . فعملية الوجود عنده واقعة سلبية لا تدهشه ولا تدعوه إلى أي تساؤل . فالحيوان يحيا ويموت ولكنه لا يتساءل عن معنى الحياة والموت . إنه يعيش في العالم ولكنه لا يتساءل عن معنى العالم ، عن أصله ومصيره وعن علاقته معه أومع غيره من الذوات والأشياء .

وأما الإنسان فأمره مختلف . إنه ليس مجرد شيء أو واقعة ، إنه موجود ميتافيزيقي . ففي دخيلة كل منا شعور بالإنبهار والدهشة واقتناع كامن بوجود سر أو لغز ينساب من الكون ويتحدى الإنسان . وإزاء هذا السر العظيم لا يقف الإنسان مكتوف اليدين ، ولا يسعه ذلك ، بل تطارده الأسئلة تترى وتتعجل الجواب عنها : من أين جئنا ؟ مَن أوجدنا ؟ ما غاية وجودنا ؟ ما مصيرنا بعد الموت ؟ ما الخير وما الشر ؟ كيف وُجد العالم ؟ ما أصله ومصيره ؟ إلخ . . .

أسئلة ضرورية تتردد كثيراً لا مناص منها، لأنه لا بد للإنسان من تفسير شامل للوجود يسلك على أساسه في هذا الكون وبه يتحدد منهج حياته ونوع النظام الذي يحقق له هذا المنهج . فهو بحكم فاعلية الذهن ، وهي فاعلية ميتافيزيقية صرف ، يبحث عن تعليل يقرب لإدراكه طبيعة الحقاق الكبرى التي يتعامل معها وطبيعة العلاقات والإرتباطات بين هذه الحقاق : حقيقة الألوهية ، حقيقة

الكون ، حقيقة الحياة ، حقيقة الإنسان والمصير الإنساني . . . .

كل هذه الأسئلة هي من صميم الوجود الإنساني كما هي محور التفكير الفلسفي . فعليها كانت ـ ولا تزال ـ تدور أبحاث الفلاسفة ، ومن ينبوعها تتفجر مذاهبهم ، وللإجابة عنها إنما كانت تتفتق قرائحهم .

فالفلسفة إذن إنما هي محاولة لمواجهة هذه الأسئلة التي تلحّ على الإنسان في كل زمان ومكان وإيجاد أجوبة مترابطة عنها تتصف بوحدة النظر فضلاً عن عمق هذا النظر وتماسكه وشموله . إنها البحث في ماهية الأشياء وأصولها وعلاقة بعضها مع بعض ومع الإنسان والوجود الإنساني . إنها تطلّع دائب إلى الآفاق البعيدة والأسس العامة . إنها تعرُّف لجوج بمظاهر الكون ووقائعه وأحداثه وتلمُّس لأسبابها البعيدة، وإيجاد تعليلٍ منطقي معقول لها، وردُّها إلى أصلٍ واحد ينتظم الكون بأسره . إنها نشدان لعنصر الوحدة الكامن وراء الكثرة وتعقّب للإنسجام المختبىء خلف غشاء كثيف من وجوه التنوع والإختلاف .

وبعبارة أخرى ، تدل الفلسفة في أوسع معانيها على جملة المحاولات التي قام ـ ولا يزال ـ بها الإنسان بحكم أنه موجود ميتافيزيقي رسمنا بعض خصائصه ، ليتمثل مجموع الأشياء ومكانه من هذا المجموع ودوره فيه ، بنظرة واحدة شاملة تستوعب كل جزئية من جزئياته وتصوغها في صيغ كلية قليلة العدد . فهي التعبير الواعي المنظم عن المفاهيم الأساسية التي تستند إليها المعرفة وعن القيم الأصيلة للوجود الإنساني .

فكل فلسفة إذن هي ـ بحكم التعريف ـ عمل ضخم جداً ، أو برنامج واسع ، أو مشروع ينوء بالعصبة أولي القوة ، ناهيك بالفرد الواحد ! وهذا الشمول الذي هو من طبيعة العمل الفلسفي ومصدر خصبه وأصالته ، يحمل في ذاته بذور فشله . ولذلك ستتلاحق المذاهب الفلسفية تباعاً يستدرك الخالف منها عثرات السالف ويتلافى اللاحق منها أخطاء السابق . فكل فيلسوفٍ يعتقد في نفسه القدرة على التصدي لهذه المهمة الكبيرة ويظن أن كلمته ستكون الكلمة الفصل ، وأن مذهبه هو ، وهو وحده ، كفيلٌ بسد جميع الثغرات وإسكات كل الأصوات !

إنها دعوى عريضة فضفاضة لم يستطع أي فيلسوف أن يتحرر منها أو أنْ

يكون له في سابقيه درسٌ وعبرة . ولكنه العقل ينشد الحقيقة . فتراه لا يهدأ ولا يطمئن ولا يقر له قرار حتى يجدها، وإلا ابتدعها ونسج خيوطها من نفسه ، وظن أن عصارة فكره هي التفسير الوحيد لها .

هذا هو إذن مبرر وجود الفلسفة ، وهذا هو الدافع الكبير إليها .

●

هذا والفلسفة قديمة قدم الإنسان. فهي مركوزة فينا وتجري في عروق كل فردٍ منا بحكم أننا كائنات عاقلة أو موجودات ميتافيزيقية ليست الأبدان حدوداً طبيعة لها ، وإنما هي تمتد وراءها وتمتد حتى لا يسعها مكان ولا زمان . فلكل منا فلسفته في هذه الحياة، وكل إنسان فيلسوف بطبعه ، على تفاوت في ذلك : أجل ، لكل منا رأيه في الحياة وطبيعتها وغايتها ، في الوجود ومآله ومصيره ، في العقل والجسم وعلاقة كل منهما بالآخر ، فيما قد يُصيب الإنسان في هذا العالم من سعادة أو شقاء ، وغنى أو فقر ، وصحة أو مرض، في الخير أو الشر ، في الله وصفاته وعلاقته مع الطبيعة ومع سائر الذوات والأشياء . ولا شك أن هذه فلسفة ، غير أن عقله لم يتناولها بالتحليل والتمحيص ولم يقم الدليل على صحتها أو بطلانها . فالفلسفة عنوان وجود الإنسان ما دام له عقل واعٍ ، ومشاكل ملحة، وواقع متمرد غير مطواع .

هذا وإن كلمة « فلسفة » نفسها لم يكن لها في بادىء أمرها معنى محدد ، وإنما كانت تشمل كل ثقافة واستنارة في أي موضوع كان ، وكل مجهود عقلي في سبيل تقدم المعرفة الإنسانية ، بل كل تطلع إلى العلم وكل رغبة في البحث والنظر .

وأصل كلمة «فلسفة » وتاريخها يدلان على ما ذكرنا . فقد روى المؤرخ اليوناني هيرودوت أن كريزوس قال لصولون : « لقد بلغني أنك تقلبت في كثير من الأقطار متفلسفاً » أي باحثاً منقباً . واستعمل برقليس هذه الكلمة أيضاً في حق الأثينيين حيث قال: « نحن قوم نتفلسف ليس فينا أنوثة » أي إننا نحب البحث والنظر لأننا أرباب عقولٍ وشجاعة .

وكلمة « فلسفة » أو « فيلسوف » مأخوذة من «فيلو» ومعناها محب أو محبة ، و« سوفيا » ومعناه حكمة أو « سوفوس » ومعناها حكيم . فمعنى كلمة

« فيلسوف » إذن « محب للحكمة » . ولقد كان المستعمل في أول الأمر كلمة « سوفوس » وحدها للدلالة على كل بارعٍ في صناعة من الصناعات ، وقد أطلقها هوميروس في الألياذة على « النجار البارع » . ولما جاء سقراط وجد من الغرور أن يُسمي نفسه حكيماً ، فأطلق على نفسه اسم « فيلسوف » أي محب للحكمة ، على سبيل التواضع ، وليميز نفسه من طائفة السوفسطائيين المتجرين بالحكمة . ويُقال أن فيثاغورس هو أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم .

●

حقاً أن القليلين منا فقط لهم فلسفة خاصة بهم واضحة المعالم محددة الأهداف . لكن كلاً منا تقريباً يحسّ ـ على منواله الخاص ـ بالطابع العام للكون بأسره ، ويراوده شعور غام بما عسى أن يكون هذا الكون . وهذا الشعور هو الذي يحدد له سلوكه ويقرر له الخطط والأفعال التي يجب تحقيقها ، ويُملي عليه الخطوات اللازمة للوصول بها إلى غايتها . فتصرفاتنا الحميدة والمرذولة ، وأفعالنا المتهورة والمدروسة ، وبَرَمُنا بالحياة أو إقبالنا عليها ، وانشراحنا لبعض المواقف أو ضيقنا بها ـ كل أولئك وكثيرٌ غيره مرجعه إلى فلسفتنا في هذه الحياة ونظرتنا إليها .

إن هذه الفلسفة إذن لها أهمية كبيرة جداً في كينونة كل فردٍ منا ، ومع ذلك لا تكترث لها كتب الفلسفة التقليدية . فهي ذلك الشعور الخفي بمعنى الحياة والكون والوجود . إنها ذلك المعنى العميق الذي نضفيه على وجود لا معنى له ، إنها ذلك الروح الذي نشيعه في عالم موات لا حشاشة فيه . إنها ذلك النظام الذي نقره في عماء ليس بعده عماء . وبكلمة واحدة : إنها وعينا لهذا العالم ولرسالة الإنسان فيه . ولما كانت هذه المشاعر لا يخلو منها إنسان لأنها مبرر وجوده ـ وإن كانت تختلف من إنسانٍ إلى آخر ـ كان كل إنسان فيلسوفاً ، على تفاوت في ذلك بالطبع .

يقول نيتشه بحق : « إن المشكلات الكبرى توجد في الشارع » . فالفلسفة تتفجر من معين الإنسان ، أيِّ إنسان ، وتنبثق من أعماق وجوده ، وذلك لأنه محتاج لعقلنة الأشياء وتعليلها وإشاعة النظام فيها ، وإلا فَقَدَ معنى وجوده ونقطة ارتكازه ، فزلّت به القدم وسقط في مهاوي العدم . إنه مفطور على تقدير الأشياء ووزنها بمزان من قيمه ومعايره ، ليرى ما عسى أن يكون لها من معنى بالنسبة إليه ، وبالنسبة إليه وحده .

فإذا به يتساءل دائماً عن الأغراض والغايات ، كأن كل شيء موضوع لغرض ويرمي إلى غاية : لِمَ هذا ولِمَ ذاك ؟ ما الحكمة من وجود الأشياء؟ وهل للحياة غاية تسعى إليها ؟

وإذا به يتساءل أيضاً عن الطبائع والماهيات ، كأن لكل شيء طبيعة تخصه وماهية ليست لغيره : ما هذا الكون ؟ ومِمَّ يتألف ؟ وبِمَ تتفاضل الموجودات وتتباين ؟ .

وإذا به يتساءل أخيراً عن علاقة الكون مع الإنسان ، كأن الكون يدري من أمر هذه العلاقة شيئاً : هل هذا الكون صديق للإنسان يساعده على بلوغ أهدافه وغاياته ، أم هو خصم له وعدود لدود ؟ هل يعمل لمصلحة الإنسان أم هو مجرّد آلة صماء عمياء تدور وتدور ؟ هل الإنسان في مركز الكون أم هو هباءة تافهة لا شأن لها في مقاييس الأشياء ؟

إن « لِمَ ؟ » ، و« ما؟ » ، و« هل ؟ » ، هي الثالوث الذي يعطي للإنسان المادي وجوداً غير مادي ويقتحم به عالم ما بعد الطبيعة . وبحسب إلحاح هذا الثالوث على الإنسان ووعيه له ، إنما يتحدد شعوره بوجوده ويتعين مستواه العقلي والروحي ويدلف إلى ذلك العالم الواسع الذي لا يعرف الحدود أو السدود . . . .

●

أجل إن الحياة تدفع بنا إلى التفلسف شئنا أم أبينا . فلا يكاد يمرّ على الإنسان يوم دون أن تحدث له فيه ظروف وأحوال تسوقه إلى طرح هذه الأسئلة والإجابة عنها على طريقته الخاصة :

فهو في بعض الأحيان،وتبعاً لما يمرّ به من تجارب وخبراتٍ سعيدة ، أو يسنح له من فرصٍ ذهبية ، لا يتمالك أن يشعر بأن الدنيا بخير ، وأن العالم صديق له ، وأن الحياة جميلة لذيذة تستحق أن تنعاش . ما أجمل هذا الكون وما أعظم هذا الوجود ! إنها لنعمة كبرى أن يولد الإنسان ويستمتع بالحياة . فالحمدلله الذي أورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء ! الحمدلله الذي أذهب عنا الحَزَن ، وأحلّنا هذه الدار من فضلهلا يمسّنا فيها نصَب ولا يمسّنا فيها لغوب . . . هنالك يطمئن الإنسان للكون ويغدق عليه الصفات الطيبة، ويشعر أن الروح المحرك له صالح وجميل . وبالتالي هنالك يتفلسف الإنسان ويكون لتفلسفه طابع التفاؤل

والبشاشة ، ويكون له رأي في الكـون والوجود والحياة يطفح بالبشرِ والإقبال .

وفي بعض الأحيان الأخرى ، وتبعاً لما يفوته من منافع أو يُصيبه من كوارث ، يرى القبح والشر والباطل تملأ الأرض وتسدّ المنافذ على الناس حتى لَتجعل الحياة بغيضة لا تُطاق . ألا تَبّاً لهذه الحياة التي لا معنى لها ، وسحقاً لما فيها من عبث وظلم وفوضى . إنما الدنيا جيفة وطلابها كلاب ! فلتخسأ الدنيا وليخسأ طلابها ! هذا في نظرنا مصدر ثرٌّ لفلسفات التشاؤم والجبر وقعود الهمة وتثبيط العزيمة .

وهكذا فالفلسفة بمعناها الأوسع غير منفصلة عن الحياة ، بل هي متصلة بها متفاعلة معها لا تنقطع عن التأثير فيها والتأثر بها . وإن الإهتمام بها هو من قبيل الإهتمام بالحياة وبالوجود الإنساني وبالمصير الإنساني . فلئن كانت الفلسفة نظرة إجمالية إلى الكون وموقفاً فكرياً معيناً من الحيـاة وتجاربها ، فإن هذه النظرة الإجمالية ، وهذا الموقف الفكري يؤثران بطبيعة الحال في تصرفاتنا وأعمالنا وفي معالجتنا للحوادث وتوجيهنا لها . بمقتضى هذه النظرة إنما نسير في أفعالنا ، وعلى وفق هذا الموقف إنما نواجه الحياة والطبيعة ،ونسلك مع أصدقائنا وأعدائنا ،وتتحدد ارتباطاتنا وعلاقاتنا مع الأشياء والمجتمع .

•كيما يتضح أثر فلسفة الفرد في حياته العادية نورد المحاورة التالية لا لطرافتها ، فهي تحدث كل يوم مع كل فردٍ منا ، بل لما لها من مغزى ولما تحمل من دلالة . وقد جرت هذه المحاورة بين رجل متهور وثب إلى داخل الحافلة الكهربائية وهي مزدحمة بمن فيها وتسير بسرعة كبيرة ، وبين أحد الركاب العاديين . فكلاهما لم يدرس الفلسفة ولعله لم يسمع بها :

ــ ما هذه العجلة ياأخي؟ لقد عرَّضتَ نفسك للخطر . أما كان الأجدر بك إنتظار حافلةٍ أخرى ؟ .

ــ لم يحدث إلا الخير والحمدلله !

ــ أيّ خير ؟ ألا تخشى أن تسقط تحت عجلاتها فتموت ؟ .

ــ كلا ، لا أخاف هذا ولا أخشاه ! .

ــ أمجنون أنت ؟ أفلا تخاف الموت ؟ .

ـ لا أخشى الموت أبداً لأنه لا مفر منه ولأن العمر مقدَّر في الأزل . فإذا جاء أجلي لا استأخر ساعة ولا استقدم . بل لو كنتُ في بيتي وكان مكتوباً عليَّ أن أموت تحت عجلات الحافلة الكهربائية لبرزت إلى مضجعي ، وإلا فلن يمسني الضر . جفَّت الأقلام وطُويت الصحف ! .

ـ وما أدراك أن عمرك مكتوب منذ الأزل ؟

ـ أجل أجل إن عمري مقدَّر مكتوب منذ الأزل . ولا أدلّ على ذلك من أن كثيرين ينجون من الموت بأعجوبة وآخرين يلاقون حتفهم بأهون سبب . فلو كان الحذر يجدي أو كانت المخاطر تؤذي لما نجا من الخطر ناجٍ ولما أصاب الحذِرَ مكروهٌ . أفلا ترى المُقعد في بيته تتهافت عليه الأرزاق ؟ وكم من جادٍّ في طلبه لا يجده ؟

سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظٌ وإقبال !

ـ ولكني أرى أيضاً أن من يلقي بيده إلى التهلكة يكون كمن يسعى إلى حتفه بظفره ، وأن مَن يقعد في بيته لا يريم عنه ولا يهتم بطلب الرزق يموت جوعاً .

ـ نعم إنه يموت لا لأنه قعد عن طلب الرزق بل لأن أجله قد جاء . وهكذا الحال فيمن يهلك عند تعرّضه للخطر . فلولا أن الموت قد كُتب عليه لما أسرع إلى حِمامه .

ـ هذا كلام لا يقبله العقل ، لأنك تستطع أن تودي بحياتك متى أردت ! .

ـ كلا !! أنا لا أستطيع أن أموت متى أردت ، وكم من شخصٍ حاول الإنتحار فحيل بينه وبينه ! فأنا لا أموت إلا بقضاء الله وقدره ! .

ـ هذا عين الجنون !

ـ بل هذا عين العقل ! .

يتبين لنا من الحوار الذي نصادف أمثلة كثيرة له في حياتنا اليومية إلى أي مدى يصح القول أن لكل إنسان فلسفته في الحياة . فهذان الرجلان كلاهما له فلسفة معينة انضجتها تجاربه هو ، وكلاهما له رأي في الكون والمصير الإنساني لم

يستمده من أي كتابٍ ولا تلقاه من أي فيلسوف . لقد جاء إلى هذه الحياة وجاءت معه فلسفته في وقتٍ واحد تقريباً . وبمقتضى هذه الفلسفة يتصرف كل منهما في شؤون الحياة ويواجه الحوادث . وهكذا الحال في فرد فرد وشخص شخص . لا يُستثنى من ذلك أحد ، اللهم إلا البله وضعفاء العقول. بل حتى هؤلاء لهم فلسفاتهم البلهاء يسلكون في الحياة تبعاً لها وهم لا يشعرون . فلا يستطيع أحدنا أن يعيش وينشط دون أن تكون له فلسفة خاصة يستوحيها ويسير على ضوئها ، دون أن يكون له رأي في الله ، في الحياة والموت ، في الخير والشر ، في الجبر والإختيار، في الزهد في الحياة أو الإقبال عليها إلخ . . . سواء أقرَّ بذلك أم لم يقرّ.

فأحد هذين الرجلين جبري متهور يسلب الإنسان الحرية والإرادة ويجعله مغلوباً على أمره كريشة في يمهب الريح ، ومن ثم يسلك مع الناس بحسب هذه الفلسفة ، فيقتحم المهالك ويغشى المخاطر ويصارع الردى دونما خوف أو وجل .

والآخر قدري رزين يؤمن بفلسفة الحرية والإختيـار ويفكر في كل خطوة يخطوها. فالإنسان تبعاً له حر مريد لأفعاله مسؤول عنها يتحمل نتائجها . ولسان حاله يقول : إن الله قد حباه العقل ليمِيزَ به الخبيث من الطيب ، وهداه النجدين ثم تركه وشأنه . فإذا به لا يقدم على عمل إلا بعد الروية والتبصر وإعمال الفكر وتقليب وجوه الرأ والحيلة .

قد يكون في هذا التصوير بعض الغلو والتبسيط الشديد. فليس هناك جبري مطلق ولا قدري مطلق . ليس هناك جبري لا يتبصر أو قدري يخلو من عنصر الجرأة والتهور . بل قد يحدث العكس . فإن الجبر لا يورث صاحبه الجرأة والتهور على الدوام ؛ فكم من جبري متخاذل جبان ! وكذلك كم من قدري جريء مغوار !! فالحياة أعقد من قضايا المنطق والتحليل المنطقي، ولكنها أمثلة يُراد بها الإيضاح والتقريب للأذهان .

وعلى كل حال ، وسواء كان هذان الرجلان مخطئين أو مصيبين أو كانَ أحدهما مصيباً والآخر مخطئاً ، فالنتيجة واحدة : وهي أن لكل منا فلسفة يستوحيها ويسير بمقتضاها ، ولكل منا نظرة تقود خطاه وتوجه مسيره . فبعضنا متفائل بالحياة مقبل عليها مقارع لها لا يلوي على شيء ، ويعتقد أن الكون صديق له يساعده على تحقيق غاياته وبلوغ أهدافه ، وبعضنا متطير متشائم برِم بالحياة يضيق بها ويرى في الكون عدواً لدوداً يتربص به ويتسقط عثراته ويحصي عليه

أنفاسه ، فيقّضي حياته في همٍّ وشجن ويعيش معيشة ضنكاً

بعضنا يؤمن أن للمجهود الإنساني أثراً في إصلاح الحياة والمجتمع ، فتراه لا يدخر وسعاً في محاربة الشرور والآفات ولا يفتر عن الدعوة إلى الخير والحق .

وبعضنا يظن أن ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وأن ما هو كائن لابد أن يكون، وأن جهودنا عبث ضائع ووهم في غير طائل .

●

والخلاصة أن الفلسفة تملأ دروبنا وتتخلل جوانب حياتنا وتوجه جميع أعمالنا ، حتى لَنجد في أقوال الناس وأفعالهم مواقف فلسفية واضحة أو كامنة . فكل ما حولنا يدفعنا إلى إتخاذ مواقف معينة من الله والكون والحياة والناس . . . وهذه الأمور التي يجب أن نحدد موقفنا منها وإن كان فيها ما لا يمت إلى الحقيقة بأي صلة فإنها تدخل في صميم المعضلة الإنسانية الكبرى ، فلا يستطيع الإنسان ، أي إنسان ، أن يظل غريباً عنها غير مبالٍ بها، إلا إذا تنكر لإنسانيته وتخلى عن طبيعته. . . ماذا أقول ! بل إننا إذا رفضنا أن نحدد موقفنا منها فهذا الرفض نفسه ينطوي على موقف فلسفي معين .

هناك حالات لا يبدو فيها إتخاذ مثل هذه المواقف واضحاً . إذ يوجد قوم ـ وما أكثرهم ـ لا يرون في الحياة غير البؤس والشقاء ولا يجدون غير الخصاصة والحرمان ، مما لا يدع فرصة للإهتمام بشيءٍ آخر غير البحث عن الرزق لسد رمقهم ورمق عيالهم. لذلك يعتقد البعض أن التفكير الفلسفي لا سبيل له إلى نفوسهم. فلهم من هموم الحياة ما يشغلهم عنه .

والحق أن الحياة الإنسانية مهما ركبتها الهموم ومستها البأساء والضراء واشتد بها الإملاق والضنك فإنها لا تخلو من نبضات الفكر وخلجات الرأي والقريحة ، وبالتالي لا تخلو من نظرة إلى العالم ومن تكييفٍ لظروف الحياة ومعالجتها تبعاً لهذه النظرة . فحسب الإنسان أن يتفلسف بلسان الحال إذا لم يستطع ذلك بلسان المقال ! وما يضيره أن يعيش تجربة ما من غير أن يعني بمضمونها الفكري الصريح ومن دون أن يحاول العبارة عنها في ألفاظٍ مجرّدة كثيفة ؟ فهو يتفلسف كما يتنفس قسراً عنه وعلى غير وعي منه .

فليت شعري !! كيف يتسنى للإنسان أن يتغاضى عما يجيش في صدره من

الأسئلة اللاعجة التي تقضُّ مضجعه عندما يسكن إلى نفسه ولا تلاحقه الحياة بمشاغلها وهمومها ؟ إن ظروفاً خاصة قد تصرفنا ظاهراً عن العناية بهذه الشؤون ، ولكنها لا تستطيع أبداً أن تجتث جذورها من أنفسنا ، أو تستأصل شأفتها . ومهما حاولنا أن نكبح جماح النفس وهفوّها إلى عالم المعاني فلن نستطيع لى ذلك سبيلاً . وكما أن أحدنا يصبح صدره حرجاً عندما لا يجد كفايته من الهواء ، كذلك يساوره الضيق والقلق عندما لا يعاني التجـربة الفلسفية حتى في فجاجتها وغموضها إذا لم يستطع معاناتها في رقتها ونصوعها . ولشد ما يرتمض من الهم والغم إن لم يترك عالم الحس بشوائبه وفحيحه وينطلق إلى عالم الفكر ، وهو عالم كل شيء فيه بسيط وصافٍ ونبيل ، تسود فيه قوانين العقل وتسيطر عليه ضرورات المنطق ، ولا تلقى فيه سوى الحق والخير والجمال والنور .

فالتفلسف في هذه الحالة إنما هو من قبيلِ التنفيس عن الحياة كالشعر والموسيقى ، ومحاولة لجعلها شيئاً مطاقاً محتملاً له قيمة ومعنى وله غاية وهدف . . . إنه رغبة في التمتع بالوجود كما يجب أن يكون . وهو ضروري لنمو العقل والشعور بالذات وضرورة التنفس لنمو البدن واستمرار البقاء . وحسب الإنسان فيه أن يتخطى معطيات التجربة والواقع المحسوس ليخلو إلى ذاته في لحظات الخصب والإشراق ويعكف، على تفهم الكون وسبر أغواره ، وليبني نظاماً من الأفكار والمعاني يغني به مضمونه ويخصب حياته ، يساعده على الوغول في أعماق الوجود .

وهذا يدفعنا إلى أن نتساءل : هل من الممكن الإستغناء عن الفلسفة ؟ .

إن هذا السؤال ذو شقين، وليس له جواب واحد مطلق ؛ فإما أن نقصد بالفلسفة معناها العام ، وإما أن نقصد بها معناها التقليدي الخاص . وتبعاً لما نفهم من كلمة فلسفة نستطيع الإجابة على هذا السؤال .

فإذا كنا نقصد بالفلسفة معناها العام ، فلا يقدر أحد على الإستغناء عنها إلا إذا قدر على الإستغناء عن مقومات وجوده . فالأسئلة الفلسفية التي تتنازعنا بحكم الحال إذا لم تتنازعنا بحكم المقال ، هي من صميم المعضلة الإنسانية الكبرى ، ولا يستطيع الإنسان ، أي إنسان ، أن يظل غريباً عنها غير مبالٍ بها إلا إذا تنكر لإنسانيته ، وتخلى عن طبيعته . ويسخر الناقد الفرنسي العظيم فاغيه Faguet من أولئك الذين يريدون ليطفئوا نور الفلسفة ويكبتوا ما يعتمل في

نفوسهم من نزواتها ليقتصروا على العلم الموضوعي فيقول: « ألا إنه خَرِف أخرق ذلك الذي يستيقظ في القطار وهو لا يدري من أين جاء ولا إلى أين هو ذاهب ، فتأمل حجرته ، ويحللها ، ويسجل ملاحظاته عنها ، من غير أن يعير اهتماماً للجهة التي عساه أن يصل إليها » .

والفلسفة بهذا المعنى مرحلة لا بد منها للإنتقال إلى ما بعدها : إنها شيء طبيعي على أن يتخطاها الإنسان إلى غيرها ، لا أن يقبع فيها يدور ثم يدور إلى غير نهاية ، فيبدأ من حيث انتهى ، وينتهي حيث بدأ ، كما كان حال الفلسفة اليونانية وفلسفات القرون الوسطى وبعض فلسفاتنا الحديثة التي لن نكف عن التنديد بها والحملة عليها، لأنها عقيمة غير بناءة ولا تتفاعل مع هذا العصر الذي تقدمت فيه العلوم والمعارف .

ـ أما إذا كنا نقصد بالفلسفة معناها التقليدي الخاص ، فهذه مسألة أخرى تشعبت فيها الآراء واختلفت وجهات النظر .

فلقد كانت الفلسفة تزهو دائماً بأنها معنية بالبحث عما تصفه أحياناً بأنه « الوجود » وأحياناً بأنه « الطبيعة» أو « الكون » أو «العالم الحق» . وأياً كانت الأسماء فكلها تشترك في شيءٍ واحد، وهو أن موضوع بحثها كلي ثابت لا يتغير ، ومن ثم فهو خارج عن حدود الزمن ، أي هو أزلي أبدي . فعلى الرغم من إختلاف المذاهب الفلسفية في كل شيء تقريباً فكلها تتفق على أن ما تسعى وراءه وتتميز به من حيث هي فلسفة إنما هو تطلب المطلق الكلي الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل ، أعني ذلك الي يوجد من غير نظر إلى زمان ومكان ، ولا يعروه شيء مما يتصل بالأعراض الزائلة .

وتزهو هذه الفلسفة بنفسها حين تقول بلهجة الواثق أنه لا سبيل إلى الإستغناء عنها لأنها البحث في المطلق ولأنها الأساس المطلق لكل معرفة. فهي تقول بحقيقة سامية مطلقة هي الضمان الأكيد للصدق في الأمور التجريبية ، وهي المرشد اليقيني الوحيد الذي تسترشد به النظم الإجتماعية، ويهتدي به الفرد في سلوكه . فإذا كانت تعمل على أساس ما هو أزلي ثابت ، وتضع قوانين يقينية للمعرفة لا يأتيها الباطل من بين يديه ولا من خلفها ، فكيف يمكن الإستغناء عنها ؟ فقد ادعت لنفسها بصلف حق القيام بمهمة البرهنة على وجود عالمٍ مفارق يقع وراء هذا العالم هو الضامن لمدركاتنا جميعاً ، وزعمت أنها قادرة على اكتشاف

حقيقة الأشياء وفهم كنه الوجود ومعرفة أسرار الحياة والمهات ، كل ذلك بمجرد النظر العقلي والتأمل الباطني والإبتعاد عن البيئة والمجتمع . ولذلك فقد تعودنا دائماً أن نرى الفيلسوف يحبس نفسه في نطاق مدركاته الكلية ويتأمل في هذه المدركات بعيداً عن الناس، ويحل مشكلاته العقلية والإجتماعية بإظهار العلاقات التي بين المعاني الكلية ، بدلاً من أن يهبط من برجه العاجي ويعالج الأشياء بيده ويكشف العلاقات بينها ، ليتسنى له فهم الكون والحياة والمجتمع وتسخير ذلك لأغراضه وغاياته . وهكذا يهمل الفيلسوف التقليدي ما تتسم به البيئة التي يعيش فيها من خصائص ومقومات . ومن هنا عقم الفلسفة التقليدية .

يرى أفلاطون أن العلم الرياضي ـ وكان مسيطراً على اليونان ـ متصل بمبدأ مطلق ضامن للرياضة هو مبدأ الخير الذي لا يمكن معرفته إلا ميتافيزيقياً . بل أن ديكارت ، أبا الفلسفة الحديثة ، ينظر إلى « مبادىء الفلسفة » على أنها أساس جميع العلوم والمعارف كلها وفي المذاهب الفلسفية التقليدية يرتبط هذا الأساس غالباً بكائن ميتافيزيقي هو الله . ومع ذلك فإن مذاهب فلسفية معاصرة كثيرة لا تلجأ إلى فكرة الله ، وتدعي في نفس الوقت الوصول إلى « المعرفة المطلقة » بطرق مختلفة . فكنط Kant يضع أساساً مطلقاً للمعرفة ، هو الشعور الخالص المتعالي Conscience pure transcedentale ، وأما الفيلسوف الوجودي هيديغر فيقيم هذا الأساس على معرفة ما يُسميه « الوجود » . ويرى أصحاب المذاهب الميتافيزيقية أن المعرفة العلمية هي معرفة جزئية دنيا ، مشتقة من معرفة المطلق . فمعرفة المطلق أصل ، ومعرفة الجزئي فرع ، وشتان بين الأصل والفرع ، فالعلم إذن دون الفلسفة .

وهذا الذي تدعيه الفلسفة التقليدية لنفسها قد أنكره عليها فلاسفة كثيرون اختلفت مشاربهم وتباينت إتجاهاتهم ؛ فتاريخ الفلسفة الطويل لم يسلم ، حتى في إبان عهدها من توجيه المطاعن إليها وإثارة الشبهات حولها : فإن عدم الثقة بها قديم قِدم الفلسفة نفسها. ذلك بأن ظهور المدارس الفلسفية الكبرى في عصور اليونان قد تلاه رد فعل شديد في أقوال الشكاك . وكذلك الحال في القرون الوسطى . فعلى الرغم من أن توجيه النقد العلني لمذهب الأوائل كان في تلك القرون أمراً منكراً ، فقد قامت حركات معارضة للفلسفة الميتافيزيقية ـ أو الفلسفة الإلهية كما كانت تسمى ـ حمل لواءها حجة الإسلام الإمام الغزالي . وفي

العصر الحديث اشتدت وطأة الحركات المناهضة للفلسفة وزادت أُواراً ، نتيجة لتقدم العلوم والمعارف .

●

لا غرابة بعد ذلك أن ينعي الكثيرون على الفلسفة جمودها وبعدها عن الحياة والواقع وينظرون إليها شزراً .

إنهم يتساءلون عن جدوى دراسة الفلسفة اليونانية أو الفلسفة الإسلامية في هذا العصر الذي تقدمت فيه فنون المعرفة العلمية فأخذوا يشعرون بالغصة بإزاء أهداف الفلسفة ويشككون في وظيفتها والغاية منها .

ما هي فائدتنا من معرفة الماضين من الفلاسفة حتى نُعنى بهم هذه العناية اللاهثة ؟ وما هي تلك العلاقة التي تربطنا بهم ؟ وبيننا وبينهم فواصل من الزمن ، وفواصل من التفكير ، وفواصل من الإتجاهات وطريقة الحياة ، تباعدهم عنا أجيالٍ وأجيال ؟ .

إنهم لم يقدموا لنا صورة صحيحة عن الكون والطبيعة والحياة،ولم يكن كثير من آرائهم في جوانب المعرفة ناضجاً . فضلاً عن أنها لا تعكس لنا في حياتنا نتيجة واقعية ملموسة . لا سيما ونحن نشهد كل يوم انقلاباً جديداً في ذهنياتنا ومفاهيمنا وتحولاً هائلاً في إتجاهاتنا الفكرية وفي إدراكنا للحقيقة الكونية في خِضمِّ هذا التطور السريع في العلم والصناعة .

أجل قد فقدت الفلسفة ثقة الكثيرين اليوم . إنهم يريدون أن ينصرفوا إلى العلوم ، فهي أحدى لهم وأقوم . وحسناً فعلوا ، فنحن لا نريد لهم غير ذلك .

لكن ما معنى العلم بلا فلسفة ؟ وفي أي حضنٍ نشأت العلوم ؟ أو لم تكن جنيناً في أحشاء الفلسفة ، ثم ترعرعت ونمت في رعايتها حتى إذا استقلت عنها أخذت تتوقف في وصفها للأشياء عند عللها القريبة ، تاركةً للفلسفة الأم مهمة مواصلة السير بحثاً عن العلل البعيدة والمبادىء القصوى ؟ أو لا يفتقر العلم إلى أساس فلسفي يقوم عليه ؟ ألم يكن تقدم الفلسفة من أهم بواعث التقدم العلمي ؟ أو ليس أفضل العلماء من استطاع التفلسف في علمه ؟

إن تأخرنا العلمي من تأخرنا العقلي والفلسفي ، ولا بدّ من الإنكباب على الفلسفة والعلوم العقلية لإنجاب المفكرين والعلماء . إن علوم اليونان لم تدخل

أرض الخلافة لو لم تدخلها فلسفة اليونان وعقلية اليونان . كما أن علوم العرب لم تدخل أوروبا اللاتينية لو لم تدخلها فلسفة العرب وعقلية العرب . وكذلك لا أمل لعلوم أوروبا أن تغزو بلادنا اليوم ما لم تتقبل الفلسفة الأوروبية وطريقة التفكير الأوروبي ، وما ذلك إلا لأن الفلسفة إنما هي أساس العلم ، ولأنه ما من ثورة اجتماعية أو دينية أو سياسية . . . قامت إلا وكان وراءها فلسفة ما . فما التاريخ إلا تاريخ فلسفات وإيديولوجيات وأفكار ، وماالفلسفة إلا فتح للمجهول وسيطرة على القدر .

إن الفيلسوف لا يقدم لنا ـ مهما بلغ من سداد الرأي ونفوذ البصيرة وشمول النظر ـ حلولاً نهائية للقضايا الكبرى التي تشغل بال الإنسان : أصله ومصيره وقدره والغاية من وجوده . . . فكل ما يقدمه إنما هي حلول مؤقتة نسبية تختلف بإختلاف الزمان والمكان والبيئة والعصر والمرحلة التاريخية والإجتماعية والثقافية والحضارية . . . وهذا هو سر مجد الفلسفة ولُبابها وفيه تنحصر مهمتها في الحياة الإنسانية .

إن الفلسفة ليست لعباً مدرسياً بالتصورات الميتة البعيدة عن إهتمام المجتمع والإنسان . فالفلاسفة لم يحيوا يوماً بمعزل عن الحوادث والتيارات التي تسود في مجتمعاتهم . بل لقد كانوا دائماً على صلة بهذه الحوادث والتيارات إن لم يكونوا في ذروتها ويأخذوا بقسطٍ بارز فيها ، فانعكس ذلك في فلسفاتهم وترك آثاراً مختلفة في مذاهبهم التي تعبر عن تجارب حياتهم وآمال مجتمعاتهم وأحلام مواطنيهم . فمن الخطأ إذن أن يُنتزع الواحد منهم من بيئته وينسى من حوله أو أن تُبحث آراؤه منفصلة عن الظروف والأحوال المحيطة به . أجل من الخطأ دراسة المذهب الفلسفي على حدة كأنه جلمود من الصخر . فهو إنما يُدرس من حيث موضعه في نظام الأفكار وسياق الحوادث ومن حيث تعبيره عن الحاجات والمُثل والأماني التي تراود العقول وتدغدغ المشاعر ، في مرحلة دون أخرى وفي عصرٍ بعينه ، وبالتالي من حيث دلالته على إتجاه فكري معين يضعنا في تيار الحضارة الإنسانية العام . فهو حلقة من حلقات ولمحة في تاريخ الفكر في صميم الجهد الذي يقوم به من أجل تفسير العالم وحل رموزه وإلتماس أسبابه وعلله ، ومدخل متعرّج غير مباشر إلى العصر الذي نشأ فيه والبيئة التي أنجبته والحاجات العقلية والإجتماعية التي تمخضت عنه . وهكذا فالمذاهب الفكرية إنما هي ظواهر حضارية نسبية معبرة لا

يصح إغفالها أو التغاضي عن معناها في كل دراسة علمية رصينة تتصدى لفهم حضارة من الحضارات والنفاذ إلى طرق تفكير أبنائها ونمط حياتهم وأسلوب معيتهم .

●

من هنا كانت دراسة الفلسفة ذات فائدة جليلة في إقامة الحياة العقلية كلها عند القدماء وتجميع ما يمكن تجميعه من عناصرها الأولية في محاولة لإعادة بنائها من جديد واستخلاص ما يُراد استخلاصه منها على ضوء المعطيات والحقائق التي ذكرنا . ففي كل عصر وصل إلى درجة معينة من التنظيم والوعي والتماسك ، وفي لحظات فذة من تألق العقل ويقظة الوجدان وإشراق الروح ، يظهر رجال يمرّون في هذه الأرض مرور الغمامات الخيّرة فوق الصحاري البيد ، ثمّ يمضون وقد أعطوا ما أعجز عصراً بأكمله وربما مدينة بأسرها . من هؤلاء العمالقة رجال يمضون بالتفكير الفلسفي قُدُماً لأنهم يهتمون بالتحليل الواعي لمعضلات الكون والحياة في مرحلة تاريخية بعينها وبصياغة نظرة زمنية ـ هي في ظنهم أزلية ـ شاملة في الإنسان والوضع الإنساني والمصير الإنساني في المخطط الكبير للأشياء .

فالفلسفة اذن إنّما وظيفتها التعبير عن الدوافع والإهتمامات والحاجات والعقائد والأفكار من المُثل والقيَم السائدة في أحد العصور التاريخية وإعادة تنظيمها من جديد وتنظيم التجربة الإنسانية كلها كلما كان ذلك ممكناً . وهي في ذلك كله تتأثر ـ بطبيعة الحال وكما قلنا مراراً وتكراراً ـ بالمستوى العقلي السائد الذي يحدد مضمونها النظري الرئيسي ، وبالعوامل الإجتماعية والسياسية والدينية والإقتصادية التي تحيط بها وبالموقف الذي تستمد منه عناصر الخبرة نظرتها الأساسية إلى العالم ، وبالموروث الذي انحدر إليها من أجيال خلت وأصول غبرت . وهكذا فإذا كان الفيلسوف يوجز عصره ، فإنّ فلسفته لا تنحصر في إطار هذا العصر وحده ، بل يمتدّ قليلاً إلى الأمام وإلى الوراء في حركة متموجة مستمرة لتستلهم الماضي وتبني المستقبل في صراع الحاضر وتلاطم أمواجه .

هذا ومن نافلة القول أن نذكر أنّ لكل عصر طابعه المميز ومزاجه الفكري العام . وكذلك لكل حضارة طابعها ومزاجها ، أي طرق تفكيرها المميزة وجوّ الرأي فيها . فبعض الحضارات ـ كالحضارة اليونانية مثلاً ـ يسود فيها التفكير النظري . وبعض الحضارات ـ كالحضارة المصرية القديمة مثلاً ـ يسيطر عليها

التطبيق العملي . وبعض العصور تتميز بالروح الديني ، كما هي الحال في العصور الوسطى التي نحب أن نسميها بعصور العبقرية الدينية . وبعضها الآخر يتميز بالذهنية العلمية والتفكير الوضعي ، كما نرى في العصر الحديث . والحضارة الواحدة قد يتبدل مزاجها من وقت إلى آخر كما تبدلت الحضارة اليونانية . كذلك نجد أن العصر الواحد قد تنتشر فيه أمزجة حضارية مختلفة المشارب متعددة النزعات متباينة الأهداف والغايات كالعصر الحاضر . والعصر الواحد لا يعبّر دائماً عن فترة زمنية واحدة . ففي إبان القرن العشرين نجد العصر الحجري والعصر الوسيط وعصر التنوير . . . والمزاج الواحد لا يكون على درجة واحدة في الواحدة والعصر الواحد ، بل قد يكون على درجات متفاوتة تختلف بحسب الأفراد والجماعات .

وأمزجة العصور كأمزجة الأفراد : فهي تتعارف وتتناكر وتأتلف وتختلف . وهذا هو السبب فيما ننكر على القدماء من فلسفات ومذاهب لا تروق لنا اليوم . فليت شعري ! كيف تروق لنا وهي من مزاج غير مزاجنا ؟ وتعبر عن عصر مختلف عن عصرنا ؟ وتنبع من إهتمامات ومشاغل لا تمتُّ إلى إهتماماتنا ومشاغلنا ؟ وتتصل بمجموعة مركزية من المشكلات ليست مشكلاتنا ؟

لكنها إذا كانت لا تثيرنا لبعد الشقة بيننا وبينها فإنها لا تفقد قيمتها التاريخية . فالمسافات الشاسعة التي تفصلنا عنها لا تبرر أبداً عدم اهتمامنا بها ولا سيما وأنها هي وسيلتنا الوحيدة للإتصال بالقدماء واستئناف الحوار معهم والوقوف على مدى تأثيرهم في العصور التي أعقبتهم . فالفلسفة اليونانية من أهم عناصر الحياة العقلية للعرب في القرون الوسطى . فلا بدّ من دراسة هذه الفلسفة لكل من يتصدى لتطور التفكير عند العرب والمسلمين . وكذلك الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي كان لهما أثر عميق بالغ في أفكار الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى وتصورهم للعالم وتوجيه دراساتهم ، كما كانا حلقة الوصل بين الفكر اليوناني والحضارة الأوروبية الحديثة . وإذن فلا بدّ من دراسة كل من الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي ، لكل من يتصدى لتطور الفكر الأوروبي في مراحل التاريخ . وهكذا فدراسة الفلسفة أيّاً كانت جزء لا ينفصل عن دراسة تاريخ الحضارة العام .

وما دامت كل فلسفة تابعة لمزاج العصر ، فلا نتوقّع من دراسة تاريخ

الفلسفة في عصر من العصور وتسجيل أحداثه وتطوراته أن نتلقى دروساً تفيدنا في التفكير في القرن العشرين أو حلولاً للمشاكل التي تلحُّ علينا اليوم . « فلا ينبغي أن نطلب من الماضي إلّا الماضي نفسه » كما يقول رينانRenan ، فتاريخ الفلسفة هو في حقيقة أمره سجل للتطورات التي مرَّ بها الفكر الإنساني في مختلف مراحله ، أكثر منه حشداً مبرقشاً من المعلومات المفيدة . وهنا تكمن أهميته .

أجل ، لا يجوز أن نطلب من الماضي إلّا الماضي نفسه . حكمة بالغة يجب أن نضعها نصب أعيننا . فلا نطمع أن نجد في فجر المعرفة الإنسانية أفكاراً تشبه أفكارنا أو حكمة تضارع حكمتنا أو لها معنى بالنسبة إلى نظريتنا العلمية ومفاهيمنا الحديثة . فالأفكار والآراء والنظريات التي نجدها عند اليونان أو عند خلفائهم من العرب من الطبيعي أن تبدو لنا اليوم بعيدة عن الإهتمام المركزي للفلسفة ، غير أنّها كانت في الماضي ذات علاقة وثيقة بالتفكير الفلسفي عند اليونان وجوّ الرأي الذي يسود بينهم . وإذا لم يعد لها اليوم أي معنى أو وظيفة ، فقد كان لها في يوم من الأيام أهمية مركزية وكانت المحور الذي يستقطب حوله ثلة من الفلاسفة والمفكرين وقادة الرأي وجدوا أنّ حياتهم بواسطتها ذات معنى وعالمهم معقول . وكذلك الفلسفة الإسلامية ونمط التفكير الإسلامي وطريقة المسلمين في حلّ مشاكلهم ومعضلات حياتهم ـ كانت تعبيراً صادقاً عن الحياة العقلية للمسلمين في القرون الوسطى ورُؤاهم الشاملة للوجود والحياة والمصير الإنساني . فلقد استطاع فلاسفتهم وعلماؤهم ومفكروهم أن يؤثروا في حياة أمتهم وشعوبهم وأن يخلقوا بيئة عقلية خاصة بهم وأجواء فكرية لا معنى لها إلا بالنسبة اليهم، ولا مندوحة لدارس القرون الوسطى من تعمقها والإحاطة بها .

على هذا الأساس ينبغي بالطبع دراسة آثار الأقدمين وتقديرها ، بل هنا تكمن أهميتها . إنّها تبين لنا المستوى الذي بلغته المعرفة الإنسانية في عهد تفصله عنا مئات السنين . وطبيعي أننا إذا نظرنا إليها اليوم بمعايير عصرنا وثقافتنا وجدنا أنها في كثير من جوانبها بضاعة مزجاة وأنها لا تخلو من السذاجة والسقوط وأن المتحف أولى بها من عيون الكتب . ولكن حسبها انها كانت في يوم من الأيام تجعل للحياة معنى وغاية وأنها كانت تلك الحلقة الضرورية في تطور المعرفة الإنسانية حتى ندرك أهميتها ومبلغ خطرها بالنسبة إلى قومها ومجتمعها .

فلا نطلب من القوم إذن أن يجيبوا عن الأسئلة التي تطرح علينا اليوم ولا أن

يقدموا لنا حلولاً للمعضلات والمشاكل التي تواجهنا . فقد كان لهم من المشاكل والمعضلات ما يعنيهم كما طرح عليهم من الأسئلة ما يكفيهم . فلندعهم وشأنهم .

إنّ الإعتراضات التي يوجهها الفكر المعاصر لليونان ثمَّ للعرب من بعدهم لا تقلل أبداً من فضل اليونان والعرب على الإنسانية جمعاء ولا من الإحترام الذي تكنه لهم . فليس المهم في تاريخ الفلسفة أن نقبل آراء أفلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا وابن رشد. . .فهذا أهون الأشياء . وإنّما المهم أن نقرأ آثارهم ونفهمها وننقدها . وما أكثر ما نرفض من آرائهم . ولكن ما أعظم ما يبقى من هذه الآراء بعد غربلتها واسبعاد ما ينبغي استبعاده منها . فأما الزبد فيذهب جُفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . وهذا الذي يمكث في الأرض بعد عملية النخل والغربلة هو على قلته عميق الدلالة كبير المغزى . فليس على النوابغ بأس ألا نقبل منهم كل ما خلّفوا لنا ، وإنما علينا نحن كل البأس ألا نقرأهم وألّا نستنطق آثارهم ، وأن نزري بهم ونستخف بجهودهم ، لا لشيء إلّا لأنهم يخالفوننا في طرق البحث وأساليب التفكير والنظر ، وبالتالي أن نتعامى عن العبء الذي حملوه والدور الذي قاموا به في توعية جيلهم ومجتمعهم وفي تبديد الظلام من حولهم ، ثمَّ في تطوّر المعرفة الإنسانية وإغناء مضمونها وزيادة ما فيها من خصب وثراء . فإذا رأيناهم لم يصلوا إلى الأغوار البعيدة التي يتفجر منها الماء فقد كفونا الحفر والتنقيب ووطّأوا لنا الأرض .

ما أبعد الفرق بين من يقتحم ساحة القتال لا سلاح له إلّا السهام والقسي وبين من يغشاها مدَّرعاً بأسلحة العلم الحديث ومعدّاته ! ما أعظم الفرق بين الضوء الخافت ينبعث من زيت القنديل وبين النور يشعّ من غاز النيون !ولكننا مع ذلك لا يسعنا إلّا أن نعجب بشجاعة أصحاب القسي والنبال ورباطة جأهم أمام قوى الطبيعة الغشوم،وأن نثني على الأضواء الخافتة تومض من قناديل الزيت ، لأنها على خفوتها كانت تشق الظلام وتصدع الليل الداجي .

فإذا رأينا القدماء قد أغفلوا عن حقيقة تنبّهنا نحن إليها أو أغلق عليهم موضوع فُتحت لنا أبوابه ، أو أدركهم وهن في الرأي والنظر ، فحقيق بنا أن نقدّر ظروف القوم ونرجع القهقرى عبر العصور لنعيش معهم ونرى كيف كانت وسائلهم إلى الفهم والإدراك ، وأنا زعيم بعد ذلك بأننا سنكون أكثر رفقاً بهم وأقلّ تثريباً عليهم وأدنى إلى الإقرار بفضلهم والعرفان لجميلهم !

وإذا كانوا لم يخلوا من العيوب ، فإنّ لهم كثيراً من الحسنات . فكل مفكر عملاق ، وكل عالم فذّ ، وكل فيلسوف عظيم يشاطر معاصريه أكثر مفاهيمهم ومعظم أفكارهم وآرائهم ، وبهذا الطريق فلا يخلو من أخطائهم ومغالطهم ، وإن انفرد دونهم ببعض الآراء الجريئة والنظريات المبتكرة وأضاف إلى مكتسباتهم الفكرية ورصيدهم العقلي حقائق جديدة لا يسمون إليها . ولذلك فالحكم عليه لا يكون بتعقب سقطاته ، وإنّما يكون بالوقوف على مدى ما وضع من لبنات جديدة ارتفع بها صرح المعرفة وازداد بها علواً وشموخاً .

فليس بين العظماء من لا يخطىء أو من يعد عظيماً لأنه لم يخطىء ، ليس بينم من ينجو من ضغط الآراء والمعتقدات السائدة في عصره ، ليس بينهم من لا يشترك مع معاصريه في معظم ما يقولون ويفعلون ، من لا يستبقي منهم بقايا لا يوفّق دائماً للنزوع عنها . والبطل البطل هو ذلك الذي لا يحني الهامة أمامهم ولا يسير مع القطعان البشرية إلى حيث يريدون له أن يسير ، بل يخرج على بعض ما يقولون ويفعلون ، لا حبّاً في الخروج بل تقويماً للإعوجاج ، إنْ يريدُ إلاّ الإصلاح . ولا تثريب عليه بعد ذلك أنه تعثر في طريقة وأنه لم يقدر له أن يجتث جميع الرواسب الضارة والمخلفات والمؤذية التي تسربت من مجتمعه . فحسبه أنّه حمل المشعل وأضاء المحجة وأشرع الباب ، وانطلق يستحثّ الخطى لا يلوي على شيء ولا همّ له إلاّ تثقيف العقول وتنوير الأذهان .

بعد هذا الإستطراد الطويل في وظيفة الفلسفة وأهميتها والفائدة المرجوة منها نود أن نستدرك بالملاحظة التالية .

لقد ترددت كلمة (فائدة) هنا كثيراً مقرونة بالفلسفة مضافة إليها ، مما يؤذن بشرعية هذه الإضافة وصحتها . فهل تُطلب الفلسفة حقاً لفائدة مرجوة منها ؟ في رأينا أنّ الإنسان لا يليق به أن ينشد الفائدة ويتوخى النفع في كل خطوة يخطوها ، لأنّ ذلك مما يتنافى والكرامة الإنسانية . فإذا كان الإنسان يختلف عن الحيوان في شيء فإنما يختلف عنه في قدرته على تخطي واقعه المادي ومعطياته المحسوسة . وبالتالي مطالبه العاجلة ومنافعه الآنيّة ليخلو إلى ذاته ويعيش قليلاً في عالم المعاني . فلئن كانت الفلسفة لا تطعم خبزاً كما يقول الكثيرون تندراً ، فإنّ الإنسان لا يعيش على الخبز وحده . فهو كما يتغذى بالخبز فإنّه يتغذى كذلك بالمعاني . وكما يضرب في الأرض طلباً للرزق الحلال ، كذلك تغريه الرحلة إلى

داخل ذاته ، إلى حقيقته المجردة ليحصل على اجابات عن الأسئلة التي تؤرق حياته . وكما أننا جميعاً نعنى بدراسة الأشياء ، فإنّنا نهتم أيضاً بالبحث عن حقيقتنا ومبررات وجودنا ، وإذا كان انعتاق الفكر من عالم الأعيان إلى عالم الأذهان أمراً عسيراً صعب المنال ، فإنّه مع ذلك ضروري كالتنفس وطلب القوت سواء بسواء . فإذا كان الإنسان يقتات بالخبز فإنّه يقتات أيضاً بالأفكار ، وإذا كانت الفلسفة لا تصنع خبزاً فإنّ في وسعها أنْ تصنع أفكاراً ، والأفكار ـ لا الخبز ـ هي التي تصنع الشعوب ، وإن كان الخبز لا غنى عنه في صناعة الشعوب ، لكنه على كل حال ليس هو الذي يصنعها ، وإنّما هو يصنع الحد الأدنى منها . إنّه يحفظ عليها رمقها ، ولكنه لا يفتح لها باب التاريخ . فالتاريخ لا يدخله إلاّ أصحاب الأفكار . وحتى الخبز نفسه فإن الفكر هو الذي سخّره لأغراض الحياة وصنع منه غذاء . فلولا الزراعة التي هي اكتشاف انساني بحت ، للفكر فيه أكبر نصيب ، ولولا ما يتبعها من حصاد وتذرية وطحن وعجن . . لما كان خبز ، ولاعتمد الإنسان ـ كالحيوان ـ على ما تجود به الطبيعة . فالفكر إذن أهم من الخبز ، لأنه عندما لم يجد كفايته فيما تجود به الطبيعة قام بملاحظات وتجارب مكنته من معرفة خصائصها والسيطرة عليها .

نعود إلى الفلسفة والفائدة منها . ما فائدة الفلسفة ؟

سؤال مخجل حقاً ! فنحن لا نسأل هذا السؤال عن الموسيقى والشعر والرسم والنحت والأخلاق . . الخ . فإذا كان الشعر يكشف لنا عن المجال الذي لا تدركه أعيننا الغريرة ، وإذا كانت الموسيقى تخلق لنا جواً من الصفاء والمتعة يعبق بالرؤى والأحلام وينقلنا إلى حيث آلهة الأولمب ، فإنّ الفلسفة تسمو بنا فوق ذواتنا وتهبنا الشعور بالوجود العميق وتوغل بنا في حقائق الأشياء .

إنّ الحيوان ينزوي في بقعة فجة من الأرض تجود عليه الطبيعة بها ؛ وأمّا الإنسان ففضلاً عن أنّه لا ينتظر عطف الطبيعة ، يبني بيده بيتاً يزينه باللوحات الزيتية والأزهار . وهذه الأشياء « عديمة الفائدة » حقاً ، ومع ذلك ففي « عدم فائدتها » يتجلى جمال الفن المجرّد . إنّ العمال والفلاحين أكثر « فائدة » لنا من الشعراء والمصورين والنحاتين ، ومع ذلك لا يقل تعلقنا بهؤلاء عن أولئك ، إن لم يكن يزيد عليه درجات ودرجات . . . بل أنّ الشعراء والرسامين والنحاتين لا يساوون شيئاً في موازين الفائدة ومقاييس المنفعة ، بل إنّهم في هذه الموازين جماعة

من الطفيليين المتسكعين الذي هم عيال على الكادحين والأعضاء العاملين ! إنّ الشعراء لا يقولون غير الأخيلة والأكاذيب والمجون ، وفي كل وادٍ يهيمون ، ومع ذلك فإن الذين يصدقون في القول والعمل تافهون بالقياس إلى هزيود وهوميروس وهوراس وعمر بن أبي ربيعة وأبي نواس والمعري وشكسبير . . . ولا يفعل الرسامون والنحاتون إلا إهراق الزيت والقماش وتبديد الرخام والمرمر ، ومع ذلك فإن الإنسانية لا تقدّر من يشق الطرق ويبني ناطحات السحاب مثلما تقدر فيدياس ورافائيل وميكل إلخ . . . إنها لا تمجّد العمال والفلاحين مثلما تمجّد أصحاب الروائع والآثار الفنية الخالدة .

ثم أي فائدة تجنيها الأم من حدبها على فلذة كبدها المريض وقيامها الليل سهراً على راحته ؟ ما الفائدة من إغاثة الملهوف وإنقاذ الغريق وإحتمال الجوع والعطش والعذاب والتضحية بالنفس في سبيل مبدأ أو هدف بعيد لا يجلب لصاحبه أي منفعة عاجلة ، لكنه يحدوه أمل خفي أنه إذا تحقق جلب للأجيال المقبلة وللإنسانية جمعاء الخير والبركة والغبطة والسعادة ؟

فليت شعري ! علام يدل كل أولئك إن لم يكن يدل على أن عنصر الفائدة ليس كل شيء في حياة الإنسان ، بل لعله أتفه الأشياء وأقلها شأناً . فكما أنه يطلب المادة ويجري وراءها فإنه يهفو إلى القيم والمُثل والمعاني ، لا لجر منفعة ولا لدفع مضرة ، بل تذوقاً لها واستمتاعاً بها . إنه لا يسعى إلى ملء بطنه وجيبه فقط ، بل يهمه أيضاً الشعور بوجوده . إنه إنما يصبو إلى أشياء ليس في خزانة المادة الجامدة ما يشفي غليلها ولا تروي ظمأها حياة القصور . . . فله بدن عارٍ يطلب الماء والغذاء والكساء، وله نفس غرثى تطلب الحق والخير والجمال .

فحسب اللوحة الزيتية والأثر افني أو ـ على الأقل ـ باقة الزهر أن تدخل في البيت معنى جديداً وتشيع فيه جواً من السكينة والأنس بالذات وبالآخرين ، حتى يقبل الإنسان عليها ويهرع إلى إقتنائها . وحسب الموسيقى أن تهز المشاعر وتصقل الأذواق حتى يتجشم الإنسان في طلبها كل صعب . والفلسفة شيء من هذا القبيل . فهي عند أفلاطون « أسمى ضروب الموسيقى »[1] ، بل هي عند

---

(١) أفلاطون ، فيدون ، ص ٦١ .

سقراط « أعظم الفنون جميعاً »[1] ، فلئن كانت أصالة في الفكر ، فهي أيضاً رقة في الحس وغزارة في الخيال وسمو في الذوق والشعور . إنها وليدة الإحساس العميق بالجمال الأسمى الذي يلف الكائنات جميعاً بوشاح واحد . فالفيلسوف ـ كالفنان ـ يحس ويستلهم بعقله وشعوره وخياله ومزاجه وذوقه جميعاً . وحسب الكون أن يكون مدار العقل والفكر والشعور والوجدان حتى يكون الفيلسوف والفنان أخوين شقيقين يستشعران في الكون قوة جمالية واحدة تتخذ تعابير مختلفة ! وإلا فماذا عسى أن تكون الفلسفة إن لم تكن في عداد المآثر الفنية العظيمة التي أبدعتها الروح الإنسانية في مختلف مراحل حياتها لتفيض على ما يقع لها في دنيا التجربة صورة لها معنى وغاية ؟ ماذا عسى أن يكون معنى الحياة والوجود والمصير الإنساني كله لولا خيال بعض الفلاسفة وإلهاماتهم وجَرْس معانيهم ، ولا سيما في هذا العصر الذي يتميز بضعف الشعور بالمصير الإنساني ومعنى الوجود الإنساني ؟ فليس كالفلسفة ما يساعد على المقاومة ويفتح أمام كل واحدٍ موارد الحياة والتجديد الروحي ، في عصر تزداد فيه لغة العلوم تجريداً يوماً بعد يوم وتمعن فيه مأساة الحياة تمزقاً بعد تمزق وشعوراً بالغربة والضياع . فهي بتوكيدها لمعنى الحياة وقيمة الوجود الإنساني وبتحريرها لثروات باطنية جديدة تقضي على مفعول الآلة والتجريد في نفوسنا وتزيل الخواء واليأس في حياتنا وتُعيد إليها المتعة والطمأنينة .

فبغير الفلسفة ، وبالتالي بغير الشعور بالذات ومعنى الوجود، يصبح الإنسان شيئاً من الأشياء ، ويصبح وجوده سخيفاً تافهاً لا يساوي جناح بعوضة . ففي الفلسفة إذن غنىً وأي غنىً ، بل فيها كل ما في العالم من غنىً وثراء .

●

ومعنى هذا أن العلم لا يغني عن الفلسفة، فمهما تقدم العلم، فلكل من العلم والفلسفة خطه المستقل ، وفي الإنسان إنما يحدث اللقاء . كلاهما ضروري للإنسان وكلاهما يعبر عن بُعد من أبعاد الإنسان . فالإنسان هو خالق العلم ، وهو خالق الفلسفة ، وهو خالق كل فن وصناعة ، ليحقق وجوده الكامل ، بل ليستوي على عرش الوجود . فتبارك وتعالى هذا الإنسان !

إن التفرقة بين مفهوم العلم ومفهوم الفلسفة حديثة العهد ، وذلك لأن

(١) أفلاطون : آخر أيام سقراط ، الترجمة العربية ، ص ١١٩ .

العلم لم ينفصل عن الفلسفة إلا في القرن الثامن عشر . فقد اختلطت في أذهان القدماء المعرفة التي تستند إلى الملاحظة والتجربة بالمعرفة التي تعتمد على النظر العقلي المجرد . فلما وُضعت مناهج البحث العلمي في القرن السابع عشر أمكن التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية من ناحية ، وبينها وبين الفلسفة من ناحية أخرى ، من خلال المنهج الذي تصطنعه كل منها . فإنما المنهج هو الذي يحدد موضوع الدراسة : فالقول بأن العلم يتميز بمنهجه التجريبي إنما يعني أن موضوع دراساته ظواهر جزئية محسوسة ، إذ غير المحسوس لا تتيسر دراسته بمناهج الملاحظة الحسية .

لذلك نقول في التفرقة بين العلم والفلسفة إن العلم له عدة خصائص أهمها :

١ ـ أنه يعتمد على التجربة والملاحظة .

٢ ـ أنه يصنف الظواهر الطبيعية الجزئية في طوائف متمايزة فيختص كل علم بدراسة طائفة واحدة فقط منها . فهناك طائفة الظواهر التي يدرسها علم الحيوان وطائفة الظواهر التي يدرسها علم النبات إلخ .

٣ ـ إنه وصفي تقريري ، لا تفسيري ، بمعنى أنه يكتفي بالكشف عن العلاقات الثابتة بين الظواهر الطبيعية ، دون أن يتعداها إلى ما وراءها من البحث في طبيعتها وإدراك كنهها والحكمة من وجودها إلخ .

٤ ـ إنه يفرض وجود الأشياء والمدركات العقلية و القضايا الأولية التي تُستخدم للدلالة عليها،من غير أن يعبأ بما إذا كانت هذه الأشياء موجودة حقاً أو ما إذا كانت المعاني التي تدل عليها صادقة صحيحة . فالفيزيائي مثلاً يفرض وجود المادة ويسلم بمجموعة من المفاهيم (مبدأ الهوية أو قانون عدم التناقض مثلاً) لا يمكن تقدم علم الفيزياء بغيرها . وكذلك علم الهندسة يفرض وجود المكان ويسلم بطائفة من المعاني يُسميها مصادرات Postulats لا قيام لعلم الهندسة إلا بها . وكذلك كل علم له فروضه ومسلماته وله قضاياه الأولية التي لها حرمتها ولها قداستها .

٥ ـ إن تاريخ العلم ليس جزءاً منه . فكثير من علماء الطبيعة لا يعرفون

شيئاً عن تاريخ علم الطبيعة ، لا يعرفون رأي أفلاطون وأرسطو في مسائل هذا العلم مثلاً . فكم من العلماء يجهلون ماضي علومهم .

وأما الفلسفة فلها خصائص أخرى تكاد[1] تكون مضادة للخصائص السابقة :

١ ـ فالفلسفة تعتمد على التفكير المجرّد والنظر العقلي البحت .

٢ ـ ثم هي تدرس العالم في كلياته لا في جزئياته . فكل علم من العلوم يختص بفرعٍ واحد فقط من فروع المعرفة ويدرس جانباً من جوانب الوجود لا يتعداه . أما الوجود من حيث هو كل ، الوجود في شموله واتساعه ، الوجود المطلق ، بصرف النظر عن أن يكون هذا الشيء أو ذاك ، بصرف النظر عن أن يكون إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً ، فليس بين العلوم جميعاً علم يتصدى لدراسته . فالعلم الوحيد القادر على استيعاب ذلك كله ، أو قل علم العلوم جميعاً أو العلم الكلي ، إنما هو الفلسفة .

٣ ـ وإذا كان العلم وصفياً تقريرياً فإن الفلسفة تتجاوز التقرير إلى التفسير . وإذا كان ينحصر في بحث الظواهر فإن الفلسفة تهتم بما وراء الظواهر . فهي استكناه لحقائق الأشياء وتعمق لوجودها وطبيعتها وتفسير لكينونتها وعلة وجودها والغاية منها .

٤ ـ وإذا كان العلم يسلم بوجود الأشياء والقضايا الأولية التي تدل عليها ولا يجيز لنفسه أن يمسها أو أن يهتك أسرارها ، فإن الفلسفة هي كاشفةالأستار وهاتكة الحرمات . إنها لا تسلم بشيء إذا لم يؤدِ إليه العقلِ والبرهان ، أما التجربة الحسية فلا تقيم لها كبير وزن ، إذ يمكن أن تكون خداعاً حسياً . فالعقل أصدق من التجربة ، والبرهان أدعى للثقة من العيـان ، إن العـلـم يكتفـي يكتفي بالملاحظة والتجربة ، فهما أداتاه الفعالتان لبناء صرحه الشامخ . لذلك لا يخطر له على بال أن يتساءل عن قيمة التجربة والملاحظة أو أن يتشكك في أمرهما ، وأما الفلسفة فإنها لا تكتفي بالتساؤل عنهما والتشكيك فيهما ، وإنما هي تتساءل أيضاً

---

(١) قلنا « تكاد » ولم نجزم بالتضاد التام بين خصائص كل من الفلسفة والعلم ، لأن الفلسفة أخذت في هذه الأيام تتجه اتجاهاً قوياً نحو العلم ، كما أن العلم بدأ يفلسف كثيراً من قضاياه ويخوض في أشياء كانت حتى عهد قريب وقفاً على الفلسفة .

عن قيمة المعرفة العلمية نفسها والمبادىء التي تقوم عليها . بل إن العلم نفسه ما هو إلا حقيقة واحدة من حقائق كثيرة تعالجها الفلسفة ! ماذا أقول ؟ حتى العقل الذي هو عمدة كل نظر فلسفي ، والذي هو من الفلسفة بمنزلة الملاحظة والتجربة من العلم ،لم يسلم من هجوم الفلسفة ! وكم من فيلسوفٍ عملاق كفر ببضاعة العقل وعدل عنه إلى غيره !

٥ ـ إن تجاهل الماضي ممكن في العلم متعذّر في الفلسفة. فتاريخ العلم غير تاريخ الفلسفة . إن تاريخ العلم هو شيء آخر غير العلم ، وأما تاريخ الفلسفة فهو جزء من الفلسفة . إن تاريخ العلم ليس جزءاً من العلم وإنما هو الجزء الفاني من العلم ، إنه الخطوات التي تعثرت والمحاولات التي انتكست أو المغالط التي اقترُفت قبل الوصول إلى الحقيقة العلمية . أجل إن تاريخ العلم قد بلي وخَلِق ، وأما تاريخ الفلسفة فلا يبلى . إنه في تجدد دائم وشباب مستمر . فالمشاكل الرئيسة التي أثارها الإغريق قبل الميلاد لا تزال تُثار اليوم بعد عشرين قرناً من الميلاد ، وستظل تُثار في الغد القريب أو البعيد ، لم تتغير موضوعاتها وأمهات المسائل فيها ، وإن تغيرت طرق معالجتها والحلول التي توضع لها .

فالفلسفة بحر لجي لا غاية له ولا انتهاء . إنها كالأزل ، كالأبد ، كالخلود ، كالوجود ، كالفكر ، كاللانهاية ، لا أول ولا آخر . بل هي غمر بلا قعر ، وخضم بلا سطح ، وبحر بلا شط ، وأفق بلا حدود .

وعلى الرغم من الإختلاف الكبير بين الفلسفة والعلم فهناك صلات ووشائج وثيقة تربط بينهما . فالفلسفة بغير علم عاجزة . فليت شعري ، كيف تنمو الفلسفة بغير روافد المعرفة المكتسبة بالملاحظة الأمينة والبحث الصادق والتنزه عن الهوى والغرض ؟ أفلا تجمد في مومياء المدرسية الكئيبة بابتعادها عن تيار الفكر العالمي وعدم وصول دم جديد إليها ؟

لكن العلم بغير فلسفة توجهه،قليل الرؤية أعمى . فهو لا يستغني عن الفلسفة تمده بالأسس والمناهج والعلاقات والقدرة على الربط والتعليل والشمول . فبغيرها يظل العلم أشتاتاً متفرقة وأوصالاً مقطّعة، لا رباط بينها ولا جامع يلم شعثها ويجمع شملها .

وهكذا فالعلم يغذي الفلسفة بنتائج اختباراته ، والفلسفة تمد العلم

بالنظرة الكلية الشاملة والعلاقة الواشجة والمعنى المرشد والتعليل الأصيل . ولا شك أن تساند العلم والفلسفة قد أدى إلى تقدم العلم ونضج المذاهب الفلسفية واطراد النمو في الفكر والحضارة[1] .

---

(١) هناك فروق أخرى كبيرة بين العلم والفلسفة لا يمكن أن نأتي عليها جميعاً في هذه العجالة ومن أراد التوسع فيها فليرجع إلى كتابنا « المسألة الفلسفية » : الصفحات ٩٤ - ١٣٣ ، منشورات عويدات .

الفصل الثالث

النظريات العنصرية وموقف العلم منها

القسم الأول

إن تفسير وقائع التاريخ وظواهر الاجتماع والحضارة ، وإصدار الأحكام عليها ، عملية دقيقة جدّاً لا تتأتّى إلاّ بالمعاناة الطويلة والمران الشديد ، ولا بدّ فيها من صدق العزيمة والصبر والأناة ، فضلاً عما تتطلبه من سعة في الأفق ، وعمق في التفكير ، ودأب على البحث والنظر . إذ كثيراً ما يفسُد الرأي إما لسوء فهمٍ أو مشايعة وهمٍ ، أو لتعمد في تزييف الحقائق ومجانبة الصواب . فيتسرّب الضعف إلى العقول ويتأصل فيها بمرور الأيام ، حتى لَيكون من الصعب محو آثاره أو دفع غوائله . فالضلالة إذا ما رسخت إحتاجت إلى جهود طويلة مضنية لتُنزع من الأذهان ، والحق إذا ما اختلط بالباطل وامتزج باللحم والدم أصبح من العسير التفريق بينهما وإستبانة هوية كل واحد منهما . فإن من أصعب الأمور كشف القناع عن وجه الصواب الذي غشيته الغواشي ورانت عليه الأوهام . ولذلك فكيما تكون الأحكام علمية رصينة جادة يجب ألاّ تتصف بالسذاجة والتسرع وقصر النظر ، وأن يكون رائدها الحق الذي لا شبهة فيه ، وأن تكون مبنية على التجربة والملاحظة ، وألاّ تشوبها شائبة من عاطفة أو هوى ، ولا يكون فيها جموح أو جنوح أو تعسف . . . وإلاّ انقلب الحكمُ تحكماً .

ولذلك يُحمد قصد من ينصفون في أحكامهم ، ويصدعون بالحق الذي تبين لهم .فإنما العاقل من أنصف غيره من نفسه ، واجتنب الهوى والخلط في صياغة رأيه .

ولشدة ما يضرّ بالعلم عدم الرجوع إلى الوقائع في إصدار الأحكام ،

والإغراق في التأملات العامة والصيغ الجوفاء التي لا تغني من الحق شيئاً لقلّة بضاعتها وضعف مؤونتها . وحسب المرء أن يلقي عليها نظرة مفحصة لينكشف له أمرها ويتبين ما فيها من زيف وإعتباط . ففي بعض الكتب نجد مثلاً « أن الروح اليونانية تمتاز بالذاتية » و« أن الروح الإسلامية تنكر الذاتية وتُفنى الذات في كائن يعلو على جميع الذوات الأخرى » . ونجد في كتاب آخر « أن العقلية العربية عقلية مفرّقة تقتنص الطرائف ، ومجال إبداعها الأفكار القصيرة والملاحظات العابرة ، على حين أن العقلية الأوروبية هي عقلية ربط وتنسيق وتفكير منهجي وبحث منظم » . كذلك نجد في بعض الكتب الأخرى أمثال هذه العبارات : « إن الشرق يسوده الشعور المباشر ، بينما يسود اليونان حرية الفرد ، والرومان العموم المجرد أو الدولة ، والجرمان وحدة الفردي والكلي » . « إنّ الشرق تهيمن عليه فكرة اللامتناهي ، وأما الحضارة اليونانية الرومانية فتسود فيها فكرة المتناهي . كما يسيطر على العصر المسيحي التركيب المؤلف من المتناهي واللامتناهي » . « إنّ التاريخ القديم يقوم على فكرة المصير ، ويقوم العصر المسيحي على فكرة الطبيعة » . « في العنصر الزنجي نقص بيولوجي وإبداعي جعله دون تاريخ ودون تقاليد ثقافية خاصة به » . « إن الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » . ونقرأ أيضاً في بعض كتب فلسفة التاريخ أن مبدأ العالم القديم هو الإحساس ، بينما مبدأ العالم الحديث هو العقل ، وأن الشعوب تتميز بغلبة إحدى الملكات أو الصفات . فالصينيون يتميزون بالعقل ، والهنود بالخيال ، والمصريون بالوجدان النافذ ، والعبرانيون بالإرادة . بل حتى فلسفات التاريخ التي تستخدم معاني أو شبه مقولات مادية ، والتي يُفترض فيها أن تبني أحكامها على الوقائع المادية وحدها ، لم تنجُ هي أيضاً من أمثال هذه الصيغ ، كما هو شأن الفلسفة الماركسية في التاريخ . إذ هي تقول إن العصر القديم يقوم على إقتصاد الرق ، والعصر الوسيط على إقتصاد الإقطاع ، والعصر الحديث على إقتصاد رأس المال . وسيقوم إقتصاد العصر المقبل على إشتراكية وسائل الإنتاج . . .

ومن هذا القبيل أيضاً تلك الفلسفات القائمة على العنصرية في نظرتها إلى الأجناس البشرية . فهي تنظر إلى المجتمعات الجغرافية واللغوية للشعوب على أنها أجناس نقية دائمة مستمرة ، ثم تقسمها إلى « أجناس منحطة لا حقّ لها في الوجود ، وأخرى راقية لها حق السيادة على ما دونها من الأجناس والشعوب . غير

أنه من مهازل التاريخ ألا تنعقد السيادة لأصحابها الطبيعيين ، فإذا بأوباش الشعوب وحثالات الأجناس والأقوام ، وفي غفلة من الزمن ، يتربعون في القمة ، وإذا بأصحاب الحق الطبيعي يرزحون في القيود والأغلال . فهنا هنا خطأ وقع فيه التاريخ لا بد من تصحيحه في الحال ، وإلّا فعلى الحضارة العفاء ! فما أكثر مهازل التاريخ ، وما أفدح أخطاء القدر !!! »[١] .

ومن هذا القبيل كذلك تصنيف لينيه Linné للشعوب ، وهو أول تصنيف يدعي لنفسه صفة العلم . فهو يربط بين الصفات الجسمية للأجناس البشرية ، وبين خوائصها النفسية .إذ يعزو لينيه إلى الآسيويين ـ من غير أي أساس علمي ـ رغم أنه يدعي لنفسه صفة العالم ـ القسوة والسويداء والعناد والبخل ، كما ينسب إلى الإفريقيين الخبث والمكيدة والكسل واللامبالاة ، بينما يدخر للأوروبيين سرعة البديهة والدهاء ، أي الملكات العقلية العليا ![٢] .

وأذكر في هذه المناسبة ما كتب في القرن التاسع عشر (عندما راج سوق اللغة والقول بأنها أهم مصدر لتفهم روح الشعب وعقله) عن روح الشعوب الساميّة عامة ، وعن العرب خاصة ، وما دار من نقاش عنيف على الإستنتاجات التي تم الوصول إليها . ولعلنا نذكر أرنست رينان وحكمه القاسي على الشعوب الساميّة بناء على دراسة معاني كلمات متقطعة ، وإستناداً إلى مأثورات أدبية أو دينية . فيرد عليه نولدكه وغيره بأنه لا يحق لامرىء أن يحكم على مميزات شعب من دراسة لغته فقط . ويكتب عالم الماني بحثاً ضافياً عن لفظة intéressant وintéressé يخلص فيها إلى القول بأن اللغات الساميَّة عاجزة عن نقل الصورة العقلية الروحية التي ينطوي عليها هذا اللفظ الأوروبي إلى لفظ ساميّ ، وما ذلك إلّا لأنّ هذه الصورة مفقودة عند الساميينّ لا نظير لها في أذهانهم . ويقول آخر : إن العربية تنفرد بكلمة (شمت) وإن (الشماتة) صورة عربية يصعب نقلها إلى اللغات الأوروبية . وإذن فالعرب وحدهم يشمتون ، وأما الأوروبيون فلا يشمتون لعدم وجود هذه الكلمة في لغاتهم . فالشماتة هي إذن من إختصاص العرب وحدهم !!! وهكذا نرى كيف تؤدي الإستنتاجات اللغوية بالمؤرخ إلى مزالق محفوفة بالخطر .

---

(١) Gaston Bouthoul: Traité de Sociologie I, 253

(٢) Mikhail Nestourkh: Les races humaines, p. 106

والآن ، ما نصيب هذه الأقوال وأمثالها من الصحة ، وهل لها أي سند علمي ؟ هذا ما سنبحثه في الصفحات القادمة .

إنّ أكثر الأحكام تحكماً وأدلها على قصر النظر والإمعان في الهوى والبعد عن الروح العلمي والموضوعية الجادة ، إنما هي تلك النظريات المبتسرة التي تضع حدوداً تكوينية وجبليّة بين الأجناس البشرية ، فتزعم أن طرازاً معيناً من التفكير والسلوك والمواقف والحياة رهن بأمة من الأمم ، أو جنس من الأجناس ، أو سلالة من السلالات . وأكثر هذه النظريات شيوعاً تلك التي تقسم الشعوب والأجناس بقسمين : ساميّة وآريَّة . فالجنس الساميّ غير صالح ـ بزعمها ـ للإبتكار العلمي والفني والفلسفي ، وإنما هذا الإبتكار حكر على الجنس الآريّ وحده لا ينازعه فيه منازع . ومعنى ذلك أن العرب ـ وهم طليعة الشعوب الساميّة بحسب أسطورة تفوق الجنس الآريّ ـ شعب جدبٌ عقيم خديج لم ينتج شيئاً في العلم والفكر ، وليس له أي إشعاع حضاري خلّاق . ولئن كان له أثارة من فضل فإنما يرجع إلى ما هبّ عليه من نفحات الأعاجم الآريين ، وإلى ما إختلط فيه من دماء هؤلاء الأعاجم الذين إعتنقوا الإسلام أو إتصلوا به نوعاً من الإتصال ، ولولاهم لظل شارداً متسكعاً بين حثالات الشعوب !

إن أصحاب هذه النظريات ينطلقون من مواقف وإيديولوجيات ذاتية ، متشنجة أحياناً ، قذف بها العلم إلى قرار سحيق منذ زمن ، كما سنرى بعد قليل . فهم ـ مأخوذين بفتنة التفرقة السطحية بين الشعوب ـ ليسوا بقادرين على أن يتصوروا أن تظهر عبقرية مفكر إسلامي أو فيلسوف عربي دون أن يمتّ ، بسبب أو بآخر ، إلى أصول أجنبية غير عربية . ومن ثم راحوا ينبشون في مجاهل الماضي عن ميراث وهمي أو نَسب بعيد في الروم واليونان والعجم لشعراء ومفكرين وفلاسفة وعلماء لا يعرف التاريخ لهم منبتاً في غير بيئتهم العربية الإسلامية .

وفي أخذة الفتنة إنضمّ إلى هذه الجوقة بعض العقول العربية الجامعية التي إنما ينحصر دورها في نقل ما رثَّ وتعفّن من الفكر الإستشراقي واللاهوتي الغربي ، والتبشير ببعض القيم المنحلَّة من الثقافة الغربية ، والدعوة إليها باسم العلم الموضوعي ، متجاهلة تحديات هذا العلم ذاته وزحفه السريع في كل مكان ليفضح أكاذيب الأدعياء والمبطلين ، وزيف ما يبشرون به من نظريات ظاهرُها العلم وباطنها التخريب والتجهيل .

لقد غاب عن أصحاب هذه الدعوات المرجفة ما لا يجوز أن يغيب عن أي مثقفٍ واعٍ يعتبر بشهادة التاريخ الثابتة ، وهي أن النظريات العلمية والفلسفية لم تكن في يومٍ من الأيام حِكراً على الروم واليونان والعجم . فقد أسهم مفكرو الإسلام وعلماء العرب بنصيبهم الكبير في هذه النظريات وصاغوها من ذوب عقولهم ونبضات قلوبهم . ولا غرو من ذلك. فإنما هم ـ كما سيتضح في تضاعيف هذا الكتاب ـ عطاء بيئتهم العربية الإسلامية بكل خصبها وثرائها ، وما تلقت من روافد التراث الفكري القديم ـ اليوناني وغير اليوناني ـ وهضمته بعقليتها المتميزة ، وتمثلته بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها .

ولندع الآن العموميات التي لا تروي ظمأً ولا تشفي غليلاً ، ولندخل في التفاصيل التي قد تضع الأمور في نصابها الصحيح فنقول :

إن تقسيم الناس إلى آريينّ وساميينّ هو من صنع علماء تاريخ اللغات في القرن التاسع عشر الذي شهد ظهور عدد كبير من النظريات العنصرية . فكلمة (آريّ) arien كلمة سنسكريتية مشتقة من كلمة (آريا) ومعناها (شريف ، عريق) . فالآريون ، أي الأشراف ، شعب مشكوك في أمره كثيراً . إنه شعب مُختلق ،إختلف العلماء في أصله . فيرى بعض الباحثين أن الآريين نشأوا في بلاد الدانوب بأوروبا ثم هاجروا إلى آسيا عندما ضاقت بهم الأرض ، فنزلوا فارس بالقرب من تبريز ، ومن ثم إنحدروا إلى بلاد الهند .

ويرى باحثون آخرون رأياً أكثر شيوعاً وإنتشاراً بين دعاة التفرقة العنصرية ، وخلاصته أن الجنس الآريّ نشأ في آسيا قرب بحر قزوين ، ثم زحفت أفواج ضخمة منه إلى بلاد الهند في أزمنة غير واضحة (يحصرها البعض في حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، بينما يرجع بها البعض الآخر إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد) ، وهي تحمل معها ديانة الفيدا أو حضارة رعاء الإبل ، كما زحفت أفواج أخرى من هذا الجنس المزعوم إلى أوروبا . هؤلاء هم أسلاف الأروبيين الحاليين .

وقد كشفت الفيلولوجيا المقارنة أوجه شبه كثيرة بين السنسكريتية لغة هذه الأقوام ، وبين اللغات الأوروبية الكبرى (اليونانية واللاتينية والجرمانية والسلافية والإنكليزية السكسونية) . وبشيء من العجلة والإعتساف والحذق « الأكاديمي » ربط فريق من العلماء بين الشعوب التي تتكلم هذه اللغات برباط النسب

والقرابة ، ورجعوا بهذه الأنساب جميعاً إلى أصل واحد[١] .

فالشعب الآريّ بحسب هذه النظرية إنما هو الدوحة التي تفرعت عليها الأمم الأوروبية وبعض الأمم الآسيوية ممن ترجع لغاتهم إلى اللغة الأم : السنسكريتية . وقد أطلق على هذه الأمم جميعاً إسم (الأسرة الهندية ـ الأوروبية) ثم جاء فون كلابروث J.von klaproth فدعا إلى إستبدال كلمة (هندية ـ أوروبية) بكلمة (هندية ـ جرمانية)[٢] .

وفي عام ١٨٤٥ بلغت هذه النظرية غاية مداها على يد الكونت دي غوبينو الذي عرض لها عرضاً وافياً من كتابة (مبحث في تفاوت الأجناس البشرية) . وخلاصة رأيه أن العامل الأساسي في حركة التاريخ ونمو الحضارات وقيام الدول والكيانات السياسية الكبرى إنما يكمن في الإستعدادات العنصرية لبعض الأجناس البشرية دون البعض الآخر . فهذه الأجناس متفاوتة جبلياً ـ congenitalement في الموهبة والقيمة والإستعداد للإنجاز والتقدم . ولا سبيل إلى تبدل طباعها الفطرية إلّا بالإختلاط والتناسل فيما بينها وبين الشعوب الأخرى . فعبقرية الجنس لا تتأثر إلّا قليلاً جداً بالإقليم والبيئة والزمان . إن من السخف الظن أن جميع الناس متساوون في المواهب والإبداع والخلق ، فلا ينفرد بهذه الصفات الأخيرة إلّا الأجناس البيضاء وحدها . فإنما هذه الصفات وقف عليها . وحق منحتها إياه الطبيعة من دون سائر الأمم والشعوب . ويحتل الآريّون الشماليون nordiques مكان الصدارة بين هذه الأجناس المختارة .

واستقصى الكونت دي غوبينو الحضارات الرئيسة في التاريخ فوجد أنها إنما تنحصر في عشر حضارات فقط ، وأثبت على طريقته المتعسفة أنها جميعاً حضارات آريّة ، إلّا واحدة هي الحضارة الآشورية التي قال انها تدين بالضرورة للفرس ، وهم شعب آريّ . ولله درّ شلوشM.Schlauch حين لاحظ بمنتهى سداد الرأي أن الكونت دي غوبينو في تعداده للحضارات قد أغفل الحضارتين اليهودية والعربية[١] .

---

(١) Frank H. Hankins: La race deans la civilisation p32

(٢) المصدر السابق .

(٣) Margaret Schlauch: La Vérité sur l'aryanisme p. 49

وهكذا ، فإن الكونت دي غوبينو لا يكتفي بالقول بوجود فوارق جوهرية بين السلالات والأجناس البشرية ، بل هو يعمق هذه الفوارق ويضفي عليها أهمية خاصة، فيجعل من الجنس الآريّ نوعاً سيكولوجياً قائماً بذاته يضارع النوع البيولوجي في توكيد الإختلاف بين الأقوام والأجناس من حيث توليد الأفكار والقدرة على الخلق والإبداع .

بل لقد وجد أيضاً من ينسب التفوق إلى الجنس المنغولي أو الجنس الزنجي . ففي مرحلة التوسع العسكري لليابان مثلاً بادر الإيديولوجيون في هذه الدولة إلى وضع نظرية شاملة في (تفوق الجنس النيبونيRace Superieure nipponne خلاصتها أن العِرق الياباني تقع عليه مسؤولية تاريخية كبيرة لأنه يحمل رسالة تمدين الشعوب ونشر الحضارة بينها[١] .

وفي هذه الأجواء نضجت النظرية الساميّة، نسبة إلى سام (بن نوح) الجد الأكبر للشعوب الساميّة فيما تقول التوراة التي ترجع أنساب البشر إلى أبناء نوح الثلاثة : سام وحام ويافث . فإلى سام ينتسب الجنس الساميّ واللغات الساميّة . وهي أنساب لا تفسر شيئاً ولا تعني شيئاً أمام الواقع والحقائق الإتنوغرافية والأتنولوجية ، وأول من أذاع هذه النظرية بين العلماء عالم نمساوي بحاثة مختص بتاريخ الأمم القديمة إسمه أوغست لودويك شلوتسر A.L.Schloezer وذلك سنة ١٧٨١ فشاعت منذ ذلك الحين ، ولا سيما عندما استعملها المستشرق الإلماني آيشهورن ـ Eishhorn وأدخلها في مؤلفاته وبحوثه . واستخدمها غيره من العلماء الألمان والإنكليز والفرنسيس ، حتى لقد أصبحت عند العلماء والباحثين في موضوع اللغات عَلَماً على مجموعة من اللغات الشرقية ثم على الشعوب التي تتكلم هذه اللغات[٢] . بل لقد ظهر أن الصلة بين هذه اللغات أوضح وأمتن وأوثق منها بين طائفَة اللغات التي يطلق عليها إسم (للغات الهندية ـ الأوروبية) أو (الهندية ـ الجرمانية) . ولئن كان شلوتسر أول من أطلق كلمة (اللغات الساميّة) على مجموعة معينة من اللغات الشرقية وتبعه في ذلك آيشهورن ، فإنّ مستشرقي القرن السابع عشر من أمثال هوتنغر Hottinger ويوخارت bochart وشولتنس Schultens ولودولف Ludolf وغيرهم قد تنبهوا قبلهما للوشائج التي تربط بروابط

(١) Nestourth, P. 102, note 1

(٢) د . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١ / ٢٢٣ .

متينة بين تلك اللغات ، وأشاروا إليها، ونوّهوا بصلة القربى والنَّسب التي تجمع بينها . بل لا يقتصر الأمر على هؤلاء ، فقد سبقهم إلى هذه الملاحظة أيضاً علماء عاشوا قبلهم بمئات السنين . فقد تحدث عالم يهودي إسمه يهودا بين قريش Yehuda ben Koreich من فقهاء القرن العاشر ، عن صلة النّسب التي تجمع بين تلك اللغات وعن الخصائص اللغوية المشتركة بينها . كما أن لهذا العالم اليهودي ملاحظات قيمة تتعلق بالأسس القوية التي تشد هذه اللغات بعضها إلى البعض الآخر برباط متين(١) .

ويباهي رينان أنه أول من نادى بأن الجنس الساميّ أدنى مرتبة من الجنس الآريّ ، وأقل منه درجة في سلم الشعوب . وما ذلك إلّا لأنه جنس ناقص لم يستكمل جميع مقومات الوجود الطبيعي(٢) . فهناك تفاوت تام بين الجنسين من حيث المرتبة الحضارية والمواهب العقلية الإستعدادات البيولوجية ليس من الممكن تجاهله أو القضاء عليه لأنه في أصل الفطرة والتكوين .

وقد تأثر برينان بعض معاصريه ومن جاء بعده لوثوقهم بمعرفته ورسوخ قدمه في اللغات الساميّة ، وأضافوا مثله خصائص بيولوجية ، وبالتالي أبعاداً نفسية عقلية ، إلى الفوارق اللغوية الصرف . فإن ليون غوتييه مثلاً ـ على رغم تحرزه من آراء أستاذه ـ يَصدُر عن نفس الروح أيضاً ، وذلك عندما يقول في كتابه (مدخل إلى دراسة الفلسفة الإسلامية) إن العقلية الساميّة ـ وبالتالي العقلية العربية ـ عقلية مفرقة separatiste في مقابلة ما يسميه بالعقلية المجمّعة أو الموحّدة fusioniste التي تنفرد بها الشعوب الآرية . وهو يؤكد أيضاً أن الفكر الآريّ عقلاني rationaliste تعليلي explicative ، وأن الفكر الساميّ غيبي antirationaliste أعجوبي miraculeuse ، أي يتعلق بالخوارق والمعجزات والأعاجيب في نظرته إلى مظاهر الطبيعة وحوادث التاريخ والمجتمع(٣) .

وإلى قريب من هذا يذهب ألبير فوييه في كتابه (تاريخ الفلسفة) . فهو يقول إن الفكرة السائدة لدى الآريين إنما هي فكرة الجوهر substsnce فالله في

---

(١) انظر اللسان العربي ، المجلد السابع ١ / ٣٢ ـ ٣٣ .
(٢) E. Renan: Histoire générale et système comparé des langues sémitiques 5- 16
(٣) L. Gauthier: Introd. à l'étude de la philosophie musulmane, chap. Premier.

تصورهم جوهر العالم ، والعالم هو مجموع الصور التي يتجلى الله فيها . وهذا ما يفسر نزعتهم إلى وحدة الوجود . والخلق عندهم يحدث بطريق الفيض والإنبثاق الطبيعي . وأما الساميّون فإن الفكرة السائدة عندهم هي فكرة العلة cause المستقلة عن معلولها ، أي عن العالم ، ورب الأرباب . فهو القاهر فوق عباده ، المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون . ولذلك تختلف عملية الخلق لدى الآريّين عنها لدى الساميّين . فهؤلاء لا يتصورون الخلق بطريق الفيض والإنبثاق الطبيعي الضروري الذي يسد الفجوة بين الله والعالم ويملؤها بالأوساط كما يفعل الآريّون . كلا . فبين الله والعالم ـ في نظر الساميّين ـ هوة كبيرة لا سبيل إلى عبورها . كما أن الله قد خلق العالم ولا حاجة به إليه ، وهو إنما خلقه بإرادته الحرة المطلقة التي لا علة لها إلّا ذاته الكريمة ، وهو على أن يذهب به إذا يشاء قدير(١) .

ويسير على خطى هؤلاء أيضاً مؤلف آخر اسمه لابي Lapie في كتاب له عنوانه (الحضارات التونسية). فهو في هذا الكتاب يقارن بين الروح العربية والروح اليهودية بعبارات عامة غامضة فضفاضة لا تُغني من الحق شيئاً . إذ يقول : « إنّ النفس اليهودية منساقة بفطرتها إلى المستقبل ، والنفس العربية منساقة بفطرتها إلى الماضي ، فهما متنافرتان . والنفس الأوروبية تختلف عنهما »(٢) . ويقول في نفس المعنى أيضاً : « إن الروح العربية المتجهة إلى الماضي هي التي تكفي لتعريفنا جميع السمات الأخرى للنفس العربية . أما اليهود فلا يعترفون بالماضي وينسون الحاضر لإنشغالهم بالمستقبل . والمستقبل هو مركز الدائرة الذي تتجه إليه جميع ميول الإسرائيلي »(٣) .

وهكذا إنصرف العربي عن حاضره وتعلّق بأطلال الماضي ، وبكى الآثار والأطلال . إنه لا يصلح للعمل المنتج والإبتكار المفيد النافع !

وقد ألّف المتعصبون للنظرية العنصرية كتباً عدة في موضوعات شتى تعالج الجسم والروح عند كل من الساميّين والآريّين ، وعنوا عناية خاصة بدراسة الحياة الروحية ومظاهرها عند الجنسين ، فتناولوا النواحي القانونية والأخوال التشريعية

(١) Albert Fouillé: Histoire de la philosohpie, p. 25- 26
لقد تصرفنا قليلاً في تصوير رأيه ولكننا لم نخرج عن روح مذهبه .
(٢) نقلاً عن مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، صفحة ٢١ .
(٣) نقلاً عن د . علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١ / ٥ ـ ٢٦ .

المختلفة عند الساميّين والآريّين ، وقارنوا بين النظم المتباينة عندهما ، كما عالجوا مختلف النواحي الأخرى من الحياة العملية الخاصة والعامة ، حتى أن بعضهم وضع كتاباً في تحريم لحم الخنزير عند الساميّين ، مع أنه من اللحوم الشهية المباحة عند الآريّين ، وعد ذلك من مميزات الجنس !!! .

قد يُلتمس العذر لأمثال هذه الآراء ، لأن معظمها يرجع إلى القرن الماضي وبداية هذا القرن ، حيث كانت السطحية والتفاهة والضحالة غالبة على العلوم الإنسانية الناشئة . لكن أي عذر يلتمس لآراء من هذا القبيل تصدر في الربع الأخير من القرن العشرين ؟ فهذا جان لافين John Laffin يصدر منذ بضعة أعوام فقط كتاباً بعنوان (نظرة إلى العقل العربي)[1] فهذا الكتاب مثال للمغالطة والتحامل على الفكر العربي وتشويهه لما فيه من تضليل للقارىء الأوروبي الذي يريد الوقوف على هذا الفكر ودراسته عن كثب ، في هذه المرحلة الدقيقة من التغيرات والتحولات المصيرية التي تشهدها منطقتنا . إنه نموذج للتعصب المقنّع بموضوعية كاذبة خداعة تستدرج الأغرار والبسطاء لشحنهم بأفكار موجهة مسمومة تؤذي الفكر العربي وتضر بسمعته . فالمؤلف ـ لتغطية حملته على العرب ، وكيما يتسم كتابه بسمة الموضوعية والنزاهة يخدع بها القارىء الأوروبي والأمريكي العادي الذي يكون في العادة خالي الذهني في قضايا العرب والإسلام ـ قد أقرّ بعظمة الحضارة العربية في عصور الإزدهار ، وأثنى على تسامح العرب في الأندلس ،وأشاد بالإنجازات الثقافية والإجتماعية والإقتصادية الهامة التي حققوها في أوروبا ، وقدرتهم الفائقة على توحيد أقاليم شاسعة تمتد من حدود الصين شرقاً حتى فرنسا غرباً ، وتكوين مجتمع واحد من ثقافات كانت من قبل متصارعة متنافرة ، وأعني بها ثقافات البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى والأوسط . وهكذا « كان العرب أعظم ثقافة من شعوب أوروبا الغربية وكانت لديهم قدرات الإغريق والرومان » .

وبقفزة عبر العصور تنقلنا من ماضي العرب إلى حاضرهم تنقلب الأحكام المتزنة إلى أحكام متسرعة أو تحكمات شديدة القسوة على العرب والحضارة العربية . فأول صفة يحرص المؤلف على إلصاقها بالعرب هي صفة العنف .

---

(١) The Arab mind considered, need for understanding p. 168 sq
وانظر له أيضاً : The Dagger of Islam وقد ظهر بعده وهو أمعن في المغالطة من سابقه .

وترجع جذور هذه الصفة في رأيه إلى طائفة الحشاشين الذين كانوا يستخدمون القتل وسيلة للضغط السياسي ! كما يسمّي الفلسطينيين بالإرهابيين . ويتحدث طويلاً عن « الفظائع » التي اقترفها العرب في حق الجنود الفرنسيين الذين وقعوا أسرى في أيديهم في شمال أفريقيا ، كما يندد « بالتعذيب » الذي تعرض له الأسرى الإسرائيليون على أيدي المصريين في حرب تشرين أول (أكتوبر) سنة ١٩٧٣ . وهكذا فالعنف والقسوة ينمّان عن طبع وحشي متخلف له جذور عميقة في الذات العربية !

عجيب أمر هؤلاء الأوروبيين والأميركيين! لقد نسوا الفظائع التي اقترفها الإستعمار الفرنسي والإنكليزي والإيطالي في سوريا ولبنان وشمال أفريقيا وسائر البلاد الأخرى التي ابتليت به ، وهي فظائع تقشعرّ لها الأبدان . ماذا أقول ؟ إنّ ظاهرة الإستعمار هي في ذاتها إنتهاك للكرامة الإنسانية وإذلال لها وإهدار للقيم التي تمثلها يفوق كثيراً أي عملية تعذيب جزئية قام بها فرد انتُهبت أرضه ، وشُرّد من وطنه ، واغتُصبت زوجته وبناته وقُتل أولاده على مشهد منه ! ما لهؤلاء القوم الذين صنعوا أعظم حضارة في التاريخ لا يدركون هذه البديهيات ؟ وهؤلاء الذين يندّدون بما يسمونه (الإرهاب) الفلسطيني : هل يريدون من العرب أن يستكينوا ويقفوا مكتوفي الأيدي أمام عدوان إسرائيل ؟ أنا لا أفهم كيف يستجيزون أن يسموا الدفاع عن النفس إرهاباً ، وطرد اللص الذي سطا على الدار عدواناً . أم تراهم يتمثلون قول المسيح : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » ؟ حقاً لقد انقلبت الموازين واختلت المقاييس في هذه الحضارة التي أحرص على تسميتها (حضارة التوحش) أو (الوحشية المتحضرة) . فأصبحت اللصوصية تمديناً ، والخنوع تهذيباً . وقد بلغ سخف المؤلف أقصاه عندما قال إنّ الدعوة إلى إبادة إسرائيل امتداد لحرب النبي محمد مع اليهود ! أما إبادة إسرائيل للعرب الفلسطينيين وتشريدهم من أرضهم وديارهم فلا تدل على شيء في نظره ، أم لعلها رسالة حضارية كتلك التي جاء بها الرجل الأبيض إلى الزنوج والهنود الحمر في إفريقيا وأميركا ، وإلى الجنس الأصفر في فيتنام ؟ ويخلص المؤلف إلى القول بأنّ من الخطأ تطبيق القيم الغربية على العالم العربي . ولا غرو من ذلك ، فهذه القيم قيم وداعة وحب وسلام ووئام ، أما دفاع العربي عن نفسه وعِرضه وأرضه ، أما إخراج اللص الذي إعتدى على الدار ، فأمر يستعصي فهمه على باحث إنكليزي يكتب في أواخر القرن العشرين !! .

يا للعار ! ليت المؤلف اكتفى بالقول إنه لا يفهم ، ولكنه ينسب عدم الفهم إلى أبناء جلدته الغربيين أيضاً !

فهل صحيح أنهم لا يفهمون ؟. هل معادلة الدفاع عن النفس والعِرض والأرض وطرد اللصوص والسفاكين والمفترين على التاريخ والحضارة والإنسانية ، وردهم على أعقابهم ـ أقول هل هذه المعادلة أكثر صعوبة وتعقيداً من معادلات نظرية النسبية والميكانيا الموجية والعقول الإلكترونية ؟ أم هو منطق القوة يصيب صاحبه بالحَوَل ، فيرى الأشياء رؤية مزدوجة ، ويصدر عليها أحكاماً مزدوجة متشنجة من هذا القبيل ؟ .

هل إنقلبت معايير الأشياء أم على قلوب أقفالها ؟

هذا غيض من فيض الأحكام المتعسفة البعيدة عن روح العلم والتي يطول بنا المقام لو أردنا إستيفاءها هنا جميعاً . فحسبنا الآن هذه النماذج منها .

وهذه الأحكام يمكن نقدها وتوجيه المطاعن إليها سواء :

١ ـ من حيث المنهج والطريقة .

٢ ـ أو من حيث المضمون والوقائع .

أولاً ـ كشف المغالطة المنهجية في هذه الأحكام

إنّ جميع النظريات التي من هذا القبيل تشترك في خطأ فادح هو أنها تصدر أحكاماً ذات قيمة ثانوية ، وتعلق أهمية مطلقة على ظروف إستثنائية محدودة العدد ، وتعمم إلى غير نهاية بعض الحالات الفردية ، وتبرز بعض الملامح على حساب البعض الآخر ، بعملية إختيار عشوائية ، فتقبل ما يروق لها وترد ما لا يروق لها . إنها تستعمل كلمات مطاطة فضفاضة لها أكثر من معنى : إنها تخلط بين المستويات وتقفر منها بحركة بهلوانية متموجة سريعة يجد المرء غير المدرب صعوبة بالغة في تعقبها وتتبع سيرها . فهي أشبه بحركة الساحر الرشيق يستخرج من فمه عشرات المناديل ، أو يقلب أعيان الأشياء . وأهم من كل ذلكِ أنها تخلط بين الأحكام التقويمية والأحكام التقريرية (أحكام القيمة وأحكام الواقع) . كل ذلك لتبرير حق الأقوى ، بالتقليل من شأن المستضعَف الذي لا تتوشج بينه وبين الأوروبي واشجة قرابة أو نسب ، وحرمانه بسبب ذلك من مزايا الإبداع والإبتكار

والتفكير الخلاق ، وحصر هذه المزايا جميعاً في الجنس الأوروبي وحده . فبالتفكير على هذا النحو يقع المرء في مغالطات السوفسطائية التي تقوم على قلب الحقائق وتزوير الوقائع ، وجعل الأمر العارض أمراً ذاتياً ، والصفة التابعة للشيء جوهراً له . إنّ مثل هذه التوكيدات جميعاً ليس لها أي قيمة علمية ، وما ذلك إلّا لأنها نسبية جداً ، ولأنها ذاتية شخصية تعبر عن وجهة نظر أصحابها فقط ، أي هي مجرد أحكام تقويمية ليس لها صفة الموضوعية بوجه من الوجوه . فإنما هي شطحات لا تتوفر فيها الملاحظة الدقيقة ولا يمكن التحقق منها على وجه علمي صحيح . ولذلك فهي غير صالحة للإستخدام العلمي . ومما يؤسف له أنّ معظم ما لدينا حتى الآن من دراسات وأبحاث في طبائع الشعوب والأمم هو من هذا القبيل .

إنّ هذه الطريقة الخطابية لا يجدر بالصحف والأحاديث اليومية أن تنزلق إليها وتتردى فيها ، فكيف بالثقات من رجال العلم والحصافة . إنها طريقة خطرة جداً على وضوح الفكر وسلامة البحث الدقيق ، وبالتالي عقبة تعوق تقدم علوم الإنسان .

إنّ أول ما ينبغي على رجل العلم هو أن يبني أحكامه على حقائق موضوعية ثابتة محددة ،وأن يحترز من الصيغ العامة والشطحات التي تفتقر إلى الدقة والوضوح ، ولا سيما عندما يتصدى لدراسة طبائع الشعوب وأخلاقها ونفسياتها ، إن صح أن للشعوب طبائع وأخلاقاً ونفسيات تميزها بعضها عن بعض . فإذا قيل لنا مثلاً ان هذا الشعب أو ذاك يتصف بالسرقة والغدر أو الغش أو الكبرياء أو القسوة أو الأنانية أو البخل . . . أو على عكس ذلك انه شعب أمين يرعى العهد ، رقيق القلب ، شيمته التواضع والكرم ، يحترم ملكية الآخرين ويحب الغرباء . . . فكل هذه صيغ فضفاضة لا تعني شيئاً، إذ لا تتوفر فيها المقارنات والإحصاءات والملاحظات الدقيقة ، ولا يمكن التحقق منها بسهولة ويسر . ولذلك فلا تصلح للإستخدام العلمي .

ومن المؤسف حقاً أنّ رجل ما لدينا حتى الآن من نظريات ما يسمى بطبائع الشعوب إنما هي نظريات من هذا القبيل يعوزها الكثير من الروح العلمي . إذ أن عدداً لا يستهان به من المفكرين والفلاسفة قد عالجوا هذا الموضوع بسذاجة غريبة ، ولم يدركوا ما تنطوي عليه أبحاثهم من إنزلاق ووعورة . فكتب أحدهم

يقول[1] : « إنّ عيوب الإنكليزي تنبع من صفاته الحسنة . فإستقلاله يعرضه للأنانية ، وإعتداده بذاته ينزع به إلى حياة العزلة ، وروح الأصالة فيه تدفع به إلى التطرف ، وإيجابيته تحفزه على تقديس القوة وإزدراء الضعف » . وأما الإلماني فإنه « رغم ما يتصف به من وحشية طبيعية فهو مستعد للشفقة ، غير أنه خال من النزعة الفطرية لحب المجتمع ، وهي النزعة التي ينفرد بها الفرنسي . إنه يميل غالباً إلى أن يكتفي بذاته ، وهو يندفع إلى أي عمل يراه ذا أهمية خاصة ، أو إلى أي مبدأ خلقي أو فلسفي أو ديني يهيمن على تفكيره » .

فليت شعري ! كيف يمكن التحقق من أمثال هذه العبارات العامة والصيغ المجردة ؟ فحين يقول فوييه أن الإنكليزي « عرضة للأنانية نتيجة لشعوره بالإستقلال » فهل الإنكليزي وحده هو كذلك حقاً ؟ أم ان هذه الصفة العامة تنطبق على كل إنسان يحس بإستقلال ذاته ويربأ بها عن مخالطة الآخرين ، سواء كان إنكليزياً أو غير إنكليزي ؟ وحين يقول إن الألماني « يميل » إلى كذا وكذا ، فما حقيقة هذا الميل ؟ وما درجته ؟ وهل يختص الألماني به وحده دون سائر عباد ا لله الآخرين لا يشاركه فيه أحد ؟ إنّ مثل هذه التوكيدات لا يقتصر أمرها على أنها إنما تعبر عن وجهة نظر ذاتية ، بل انه لَيعوزها فضلاً عن ذلك الكثير من المشاهدات والوقائع والمقارنات والبيانات الإحصائية وغير ذلك من وسائل التوثيق والإسناد . وإلّا فما قيمة الرأي لا تثبته الوقائع ولا تدعمه الحجج والأسانيد ، فكان جمحة خيال أو سانحة خاطر ؟

وقد حذا حذو الفلاسفة بعض علماء الجغرافيا البشرية ، فأصدر أحكاماً مبتسرة متسرعة على سكان بعض المناطق التي درسها ، فوصف شعباً بالكبرياء والأَنَفَة والحَمِيَّة ، وآخر بالضغينة والقسوة ، وثالثاً بالبشاشة والكرم واللطف الخ . . . فعلى أي أساس أصدر هذه الأحكام ؟ إذا كان الأساس هو الملاحظة الشخصية ـ كما زعم بعضهم ـ فما هي القواعد التي أُتبعت في هذه الملاحظة ؟ وإذا كان مستنده أقوال من خالطه من الأفراد والجماعات فما باله لم يُخضع هذه الأقوال للمقارنات والإحصاءات والدراسات الميدانية وغير ذلك من وسائل التمحيص العلمي ؟

---

(١) هو الفيلسوف الفرنسي ألفريد فوييه الذي تصدى لتحديد الصفات المميزة للشعوب الأوروبية في كتابه Esquisses psychologiques de peuples européens .

فإذا انتقلنا إلى علماء التاريخ فلن نجدهم أسعد حالاً من الفلاسفة وعلماء الجغرافيا : شطحات من الخيال ، وصف شاعري لطبائع الشعوب دونما تحرٍ للدقة أو مناقشةٍ للوثائق والتزامٍ بالروح العلمي الصحيح . فمنهم من يجنح إلى تأصيل روح الشر الكامنة عند بعض الشعوب بالرجوع إلى قصة قابيل وهابيل ، ومنهم من يسم شعوباً بالتوحش وسفك الدماء لا مستند له سوى بعض حوادث القتل الفردية التي وقعت في ظروف خاصة يحدث مثلها في كل زمان ومكان . ومنهم . . . ومنهم . . . ومنهم . . .

ومما يزيد في تهافت هذه « النظريات » أخيراً ـ إن صح أنها نظريات حقاً ـ أنها إنما تعتمد في أساسها على حكـم تقويمي عام يجعل بعض الأجناس البشرية أدنى من بعض . فضلاً عن أن هذا الحكم إنما يستند إلى تقدير شخصي كيفي مزاجي للشعوب لا معنى له في موازين العلم الكمي والموضوعي . إنه حكم مُبْهم يفتقر إلى الوضوح وتحديد المراد . فعندما يقال إنّ الجنس الساميّ « أدنى » من الجنس الآري ، أو إن هذا الأخير « أعلا » من ذاك ، فقد كان ينبغي أن يقال على الأقل إنه « أدنى » أو « أعلا » في مسألة كذا وكذا ، لا إطلاقاً : وذلك لأن من هو « أدنى » في أمر قد يكون هو نفسه «أعلى » في أمر آخر .

هذا هو في مجمله النقد الذي يمكن توجيهه للنظريات العنصرية من حيث المنهج والطريقة ، لقد إنهارت هذه النظريات وأُسقط في يد العلماء والباحثين الذين يقولون بها . فقد كان أولى بهؤلاء وأولئك أن يلتزموا في هذا المجال ـ كشأنهم في المجالات الأخرى ـ روح النقد ويناقشوا الوثائق التي بين أيديهم أو يتحرّوا الصحيح فيها ويردّوا الزائف ، حتى لا يركبوا رؤوسهم ويطلقوا الأحكام جزافاً ، لا وازع من علم ولا رادع من ضمير ! .

ثانياً ـ تهافت هذه النظريات مضموناً ومدى التضليل فيها

الآن وقد فرغنا ـ أو كدنا ـ من نقد منهج التفكير عند القائلين بتفاوت الشعوب وإمتياز بعضها على بعض ، فلنحاول نقد مضمون تفكير هؤلاء ، وكشف ما فيه من زيف وتضليل .

إنّ دراسة الأجناس والسلالات البشرية races هي موضوع فصل خاص من علم الإنسان anthropologie يُسمى علم الأجناس البشرية raciologie ومن

مهام هذا العلم تصنيف الأجناس البشرية وتعيين مراحل تطورها ، والعوامل البيولوجية والإقتصادية والإجتماعية المؤثرة فيها .

إنّ علم الإنسان الحقيقي ينظر إلى الأجناس والسلالات البشرية على أنها أغصان وفروع من دوحة أصلية واحدة نشأت في أعقاب تطور طويل معقد . وفي دراسة هذه الأجناس والسلالات يعتمد العلماء قبل كل شيء على علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأجنّة وعلم الحفريات . وهناك علوم أخرى تأتي في المرتبة الثانية ، هي علم خصائص الشعوب ethnographie وعلم الآثار وعلم التاريخ وعلم الألسن . وهناك أخيراً علم النفس وعلم الإجتماع وعلم النفس الإجتماعي بفروعها المختلفة .

وسنحاول الآن أن ندرس ونحلل مختلف الأجناس البشرية ، انطلاقاً من الحقائق والمعطيات التي جاء بها علم الإنسان .

تنقسم الأجناس البشرية بحسب معظم علماء الإنسان وأكثرهم تجرداً بثلاثة أقسام كبرى هي : الجنس المنغولي (الأصفر) والجنس الأوروبي (الأبيض) والجنس الزنجي (الأسود)(١) . وتتشعب هذه الأجناس الكبرى بدورها إلى أجناس أصغر تتفرع هي أيضاً فروعاً أنتروبولوجية أصغر فأصغر . ولوجود جماعات مختلطة (إنتقالية) كثيرة في أنحاء مختلفة من العالم ، فيمكن النظر إلى الإنسانية في الوقت الحاضر على أنها حشد كبير هائل من النماذج الأنتروبولوجية والأجناس والسلالات يتألف منها مع ذلك كلّ واحدٌ متجانسٌ من الوجهة البيولوجية . وهذا ما يفسر لنا بوضوح كيف أن الشعب الواحد نجد فيه نماذج من أجناس مختلفة ، وكيف أن الجنس الواحد نجده موزعاً في شعوب مختلفة . فالأمم والشعوب إنما هي في نهاية المطاف مزيج مختلط من الأجناس والأقوام والألوان .

إنّ الإختلاف بين الشعوب إنما هو إختلاف مورفولوجي بحت ينحصر في الأشكال الخارجية للأبدان التي هي وليدة الأحوال الجغرافية والمناخية. ومهما اختلفت هذه الأشكال فإنها لا تمسّ الإستعدادات النفسية والمواهب العقلية . فرغم إختلاف اللون والشكل فإن اليد التي كانت أولى وسائل الحضارة لا تتفوق في جنس بشري على آخر .فيد الإنسان لا يقتصر أمرها على أنها أداة للعمل ، بل

(١) إن التعابير الثلاثة (جنس أصفر وأبيض وأسود) قد اقترحها لأول مرة جورج كوفييه G. Cuvier وذلك سنة ١٨١٠ وقد أصبحت هذه التعابير اليوم عتيقة بالية نوعاً .

هي نتيجة له أيضاً . فطوال عصور التطور التي لم تتوقف في يوم من الأيام طرأت على اليد تبدلات متلاحقة تبعاً لما كانت تقوم به من حركات ظلت تزداد دقة دهراً بعد دهر . وبطريق الوراثة إنتقلت الخصائص التشريحية ـ الفسيولوجية التي نتجت عن هذه التبدلات من السلف إلى الخَلَف، وترسخت في الأبناء والأحفاد والأسباط وسائر الأعقاب والذريات . وحاول علماء النفس الأجناس العنصريون أن يجدوا ضالتهم المنشودة في تركيب الدم . ولكن هيهات ! وكم خاب سعيهم إذ وجدوا أن تركيب الدم واحد في هذا الميدان لم يعثر العلماء على أثر يدل على وجود فرق بين الشعوب في هذا السبيل[١] . وإنتقل العلماء العنصريون بعد ذلك إلى الزاوية الجبهية angle frontal ـ وهي ذات دلالة كبيرة على درجة التطور ـ لعلهم يجدون فيها متنفساً لأحقادهم . وكم صُعقوا عندما اكتشفوا أن هذه الزاوية لا تختلف لدى الجنس الأوروبي المتأله عنها لدس الجنس المنغولي والجنس الزنجي[٢] . هذا من حيث تكوين الجمجمة ، أما من حيث تكوين الدماغ فإنّ جميع الأجناس البشرية تستوي في أن لها دماغاً مكيفاً تكيفاً جيداً للعمل . فجميعها قد نضجت نضوجاً تاماً لدى كـل الأجناس البشرية بلا إستثناء ، فنمت نمواً كبيراً وتنوعت فيها المراكز التي تسيطر على كل إصبع على حدة ، بينما نحن لا نجد هذا التنوع في دماغ الشمبانزي مثلاً[٣] . والمعقل الأخير الذي عقد عليه أرهاط العنصرية آمالاً كباراً هو حجم الدماغ ووزنه . هناك فروق حقاً في هذا المضمار،ولكنها لا تتعدى الفروق القائمة بين أبناء الجنس الواحد والقومية الواحدة[٤] . لقد زعموا أن وزن الدماغ يختلف بمئات الغرامات من جنس إلى آخر . لكن الثابت اليوم أن وزن الدماغ لا دخل له هو أيضاً في الوظائف العقلية . فإنّ دماغ أناتول فرانس مثلاً يزن (١٠١٧) غراماً فقط بينما دماغ تورغنيف Tourguénev يزن الضعف تقريباً (٢٠١٢) غراماً . ولم يمنع هذا الفرق الكبير بينهما أن كليهما يتربع في قمة الأدب العالمي ، وكليهما حقق لهذا الأدب أمجاداً لا تحصى[٥] . ولا يقتصر الأمر على هذا ، فكثيراً ما يتبجح دعاة

(١) Nestourkh: Les races humaines p. 55

(٢) المصدر السابق صفحة ٥٠ .

(٣) المصدر السابق صفحة ٥٤ .

(٤) Roger Garaudy: La théorie naturaliste de la connaissance. p. 179

(٥) Nestourkh: Les races humaines. p. 57

العنصرية بأن مستوى الحضارة إنما يرتبط بحجم الدماغ. لكن الرد على هذا الإفتراء قد جاءنا من مصر القديمة : فتبعاً للبحاثة الأنثروبولوجي الإلماني شميد Schmidit كان متوسط قحف الدماغ لدى المصريين القدماء (١٣٩٤) سم٣ في الرجال تقريباً و(١٢٥٧) سم٣ في النساء . فدماغهم إذن كان صغير الحجم وبالتالي فقد كانوا من هذه الناحية يندرجون في عداد الشعوب الهمجية المجاورة لهم . وكلنا نعرف جميعاً من هم المصريون القدماء ، وأي عمالقة كانوا ، وأي حضارة صنعوا ؟ وهذا ما يثبت وجهة النظر العلمية الحديثة التي تنفي وجود أي علاقة بين حجم الدماغ (أو شكل الجمجمة) وبين مستوى الحضارة[٥] .

إنّ هذه المساواة البيولوجية والتكوينية بين الشعوب تقضي على أوهام العنصريين وسائر دعاة التفرقة الذين يتشدقون بأن الزنوج والمنغوليين لا يزالون في مراحل من التطور تخطاها « السادة » البيض الأوروبيون منذ زمان طويل .

فالأجناس إنما هي في حقيقة أمرها نتيجة أفاعيل وعوامل وظروف جغرافية ومُناخية طرأت على التركيب الفيزيائي للإنسان ، وظلت تتفاعل طوال عصور ما قبل التاريخ ، وعن هذا التفاعل نشأت الأجناس الثلاثة الكبرى التي ذكرنا .

فلا صحة إذن للقول بأن الوضع العقلي للفرد تابع للجنس الذي ينتمي إليـه . إنه لعمري قولٌ هراءٌ متهافتٌ ليس له أي قيمة علمية . إنه دعوى عنصرية فاشية متعصبة مارستها معظَم دول أوروبا الغربية منذ ثورتها الصناعية ولا تزال تمارسها حتى الآن . أجل ، لا صحة للقول بأن تقدم أوروبا وتأخر غيرها اليوم إنما مرجعها أسباب بيولوجية صرف ، وأن هناك أمماً قابلة للتقدم بالطبع والفطرة ، وأخرى محكوم عليها بالتخلف بالطبع والفطرة أيضاً ، وأن الإنسان الآريّ الأبيض بالتالي هو قمة المجموعة البشرية ، فليس سواه من يستطيع ممارسة التقدم وتحقيق المنجزات العظيمة . وقد بدأ تكذيب هذه الدعاوى عندما أصبحت اليابان في عداد الدول الصناعية المتقدمة . هنالك اتضح بطلان دعاوى العنصريين . وتلاحقت الدلائل والشواهد تترى بعد ذلك لتثبت حقيقة المساواة بين الأمم والشعوب .

---

(١) المصدر السابق صفحة ١٠٢ .

فلئن اختلف الناس بعضهم عن بعض في مستوى الذكاء فهذا الإختلاف لا ينطبق إلّا على مستوى الأفراد لا على مستوى الجماعات : فلا معنى أبداً للقول أن « جميع » الناس في البلاد العربية يختلفون عن « جميع » الناس في البلاد الفرنسية أو الإنكليزية أو الأميركية ، وبالتالي إنهم من طينة أخرى غير طينة العرب . فمن الممكن أن يتفوق لبناني أو سوري أو عراقي أو مصري . . . على فرنسي أو إنكليزي أو أميركي في الذكاء ، والعكس ، غير انه لا يمكن القول أبداً أن « جميع » الأوروبيين أذكى من « جميع » العرب . وكما سنرى ، فإنّ الفروق الفردية تتلاشى عند الإنتقال إلى مستوى البحث في الفروق الإجتماعية .

وإنّ جيلنا الحاضر يشهد بعض الفصول الختامية ـ نظرياً فقط ، لا ممارسةً وتطبيقاً ، لأنّ الإستعمار هو الإستعمار ، ولن يتخلّى أبداً عن مواقعه لمجرد حفنة من النظريات العلمية لا تعنيه في قليل ولا كثير ـ أقول إنّ جيلنا الحاضر يشهد الفصول الختامية لاندحار الأسس العلمية للدعاوى العنصرية ، حيث تتعرض للإشمئزاز جميع الجيوب التي ما زالت تمارس إيديولوجيا التفرقة العنصرية . فجميع شعوب العالم قادرون على إبداع قيم ثقافية وحضارية ، وإنّ مقدار إسهامهم في الفكر العالمي والثقافة العالمية لا يحدده لون الجلد أو شكل الجمجمة أو وزن الدماغ ، وإنما تحدده خصائص تطورهم التاريخي .

فالفلسفة العنصريه فلسفة مدمرة تتخذ من العلم قناعاً لأغراضها الشريرة . إنها فكرة هجومية توسعية تضرب جذورها في المذاهب الإستشراقية التي أمدّت الفكر الامبريالي بروافدها المتعددة . وإذا عرفنا أن الإستشراق كان في الأصل من أجل تزوير حقيقة الأمة العربية ، أدركنا خطورة هذه الفكرة في عملية التزوير الكبرى للتاريخ العربي ولمكانة العرب بين الشعوب .

أجل ، إن الفكر الإستشراقي كان رائده في الأساس إثبات مقولة عنصرية وقحة مؤداها أن الغرب متفوق بطبيعته ، وأن الشرق ـ ممثلاً بالعرب ـ منحط متخلف بطبيعته أيضاً . فكل تفوق فإنما مصدره الجنس الأوروبي الأبيض ، ففيه قوى خلّاقة فعالة تميزه من بقية الأجناس هي سر تفوقه ووصوله إلى أعلى الدرجات في التاريخ والحضارة ، وهو وحده جدير بفهم جهود المبدعين من ذويه ، وقادر على جمع القيم وتقديرها والإفادة منها . وفي ذلك دعوة مقنّعة إلى تقبل الإستعمار على أساس انه في حقيقة أمره ظاهرة حضارية أو رسالة إنسانية ،

إنما يتوخى الغرب منها تمدين شعوب الشرق والتخفيف من توحشهم ومن وطأة التخلف الكامن فيهم بحكم الطبع والفطرة !!! .

هذا ، وإذا كنا نقول بالمساواة البيولوجية والفسيولوجية بين الأمم والشعوب فليس معنى ذلك اننا ننكر إختلاف الأشكال المورفولوجية من شعب إلى آخر ، كيف لا ونحن نرى هذا الإختلاف كل يوم رأى العين . إلاّ أنّ هذا لا دخل له اطلاقاً في المواهب النفسية والملكات العقلية . إن علم الأجناس البشرية يقوم على وقائع مادية ظاهرة مقررة ، كشكل الجمجمة والأنف ولون البشرة . . . فهذه الفروق التي هي وليدة ظروف جغرافية طارئة لا تدل على وجود عقلية خاصة بالساميينّ أو بالأوروبيين ، أو بالزنوج أو الصُفر، ذات حدود ورسوم مقررة. هذا فضلاً عن أن الأشكال المورفولوجية للأجناس والأقوام ليست ثابتة آبدية ، بل هي قابلة لشتى التحولات والتغيرات لأنها نتيجة فعل البيئة الطبيعية والظروف الإقليمية .

ثم كيف تنسجم دعوى الإستعماريين بأن لهم رسالة حضارية إزاء الشعوب التي يستظهرون عليها ، وبالتالي أن من الممكن تطويرها والتأثير فيها بفعل هذه الرسالة التي أخذوا على عاتقهم القيام بها- أقول كيف تنسجم هذه الدعوى مع دعواهم أنه من غير الممكن التأثير في خواص الجنس ، لأن الصفات الفطرية البيولوجية للجنس هي وراء كل تقدم أو كل تأخر لهذا الشعب أو ذاك ؟ وهكذا يتحول ـ على أيدي دعاة التفرقة العنصرية ـ ذلك التفاوت الإقتصادي والإجتماعي بين الشعوب ، وهو تفاوت مفتعل له أسباب خارجية صرف ـ إلى تفاوت نفسي عقلي ، له ـ بزعمهم ـ أسبابه الداخلية وجذوره في أصل الفطرة والتكوين . وبهذه البيلجة biologisation المتعسفة للأوضاع الإقتصادية والإجتماعية ، وبإرجاع الأساس النفسي إلى الأساس الحيوي ، انتهى العنصريون إلى التوحيد بين مقولتين مُتغايرتين لا صلة بينهما ، هما مقولة الجنس ومقولة الأمة ، أو بين البيولوجيا والسياسية . وهذا في حقَيقة أمره خطأ فادح ، إذ أن مفهوم (الجنس) مفهوم بيولوجي ، على حين أن مفهوم (الأمة) مفهوم سياسي إجتماعي تاريخي . وهكذا يكون التفوق أو الإنحطاط السياسيان صفتين فطريتين في الشعوب لا يجدي فيهما تدخل الإنسان . وبذلك يشوهون ما هو سياسي فيجعلونه نتيجة حتمية للبيولوجي ، ويوحدون بين البيولوجي والنفسي(أو العقلي) ، ويفصلون هذا النفسي عن الظروف المادية للحياة الإجتماعية والإقتصادية . وهكذا يزيفون

الملامح النفسية العقلية للأمم برؤيتها معزولة مستقلة عن أسبابها المادية وظروفها الموضوعية . فالعنصريون إذْ يقيمون حاجزاً نفسياً بين الشعوب ينظرون إلى الأجناس البيضاء على أنها فئة مختارة من الناس ذات مواهب وقدرات خارقة نادرة لا تتوفر لغيرها . فيتجاهلون بذلك ـ الظروف والعوامل الموضوعية العارضة ليثبتوا أن الفروق النفسية والعقلية هي فروق جِبِلِّيَّة وراثية وبالتالي ثابتة لا سبيل إلى تغييرها . فالحق للممتاز والمختار والأقوى ، والواجب على جميع الشعوب أن تذعن له وتستكين .

نحن لا ننكر أن الطبيعة لم تُسوِّ بين الناس في المواهب والقدرات . ولكن هذا التفاوت موجود عند جميع الأمم والشعوب ، وليس مقصوراً على الأجناس غير البيضاء وحدها . أما ما تعاني منه هذه الأجناس الأخيرة من تخلف وضعف فإنما هو نتيجة الظروف الموضوعية الطارئة ، كما قلنا أكثر من مرة ، فإذا تغيرت هذه الظروف انتقلت الأمم من حال إلى حال . فكم من أمة هبطت من العلياء ، وكم من شعب إرتفع إلى القمة ! والشواهد على ذلك تملأ صفحات التاريخ . فلو كانت الصفات النفسية (والعقلية) وليدة الصفات البيولوجية لظلت شعوب القمم في عليائها ، ولبقيت شعوب الحضيض تتسكع بين الوحل والطين إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولما رأينا غير الجنس الأبيض بطلاً مغواراً في جميع عصور التاريخ !!! وهذا ما لا يقول به عاقل . فالرجل الأوروبي الأبيض حديث العهد جداً بالتفوق كما يعرف ذلك كل أحد .

ومما يثبت أيضاً أنه لا وجه للربط بين العوامل البيولوجية والعوامل النفسية، بين علم الحياة وعلم السياسة ، وبين الجنس race والحضارة ـ أقول مما يثبت ذلك ، تاريخ الجرمان . ففي العصر الذهبي لروما لم يكن أجداد الإلمان الحاليين سوى برابرة . وعندما ارتقت ظروف حياتهم فيما بعد ، ومع إحتفاظهم بخواصهم الجنسية raciales فقد حققوا مستوى عالياً من الحضارة . ومعنى ذلك أن الحضارة لا تتوقف على الصفات الجنسية ، ولا شأن لها بها إطلاقاً ، إنما هي تتوقف على العوامل الإقتصادية والإجتماعية والظروف التاريخية التي تؤثر فيها وتحيط بها ، في مسيرتها من طور الوحشية إلى طور البربرية ، إلى طور الحضارة .

ولكن ما بال العنصريين يُصرّون على الكذب والإفتراء ؟ أفلا يعلمون هذه الحقائق الواضحة أم لعلّي أنا أول من نادى بها ورفع عقيرتها ؟

إنهم يعرفونها بلا شك . فلنفضحهم في كل مناسبة ولنكشف باطلهم لإظهار حقنا . ولن أتوانى عن كشف زيفهم بإستمرار لنرى بربرية القرن العشرين التي يمثلون . فلعل تلك النفوس التي أنهكها الضياع وضعف الثقة بالذات من أبنائنا أن تعود إلى الحظيرة وتسترد هذا الثقة فتستأنف عطاءها الخيّر وإسهامها الفعال . إنّ نظرية تفوق الأجناس « العليا » على الأجناس « الدنيا » ، نظرية الحق الطبيعي لبعض الشعوب في السيطرة على بعضها الآخر ، هي الذريعة التاريخية لشن الحروب وإستمرار العدوان . إنها المواجهة الإيديولوجية لتغطية السياسة العدوانية الإمبريالية لهذه الحضارة « المتوحشة » ! .

●

هذا ، والعنصرية إنما تستند ـ فيما تستند إليه من ذرائع ـ إلى مقياس لغوي أكثر منه جنسياً بيولوجياً . إذ يرى العنصريون أن اللغة هي التعبير الصادق عن روح الجنس أو العرق أو السلالة . ولذلك فقد قسموا اللغات بقسمين إثنين لا ثالث لهما : هما اللغات الساميّة واللغات الآريّة ، كما ألمحنا أعلاه دون أن نتوسع أو نخوض في التفاصيل . الأولى هي لغات الشعوب المنحطة ، والثانية هي لغات الشعوب الراقية ـ وهذا بطبيعة الحال من مفترياتهم . والآريّون أنفسهم متفاوتون في صفاء دمائهم ، ولكن أصفى أنواعهم الذين لا تشوبهم أي شائبة ساميّة « منحطة » إنما هم أصحاب الشعر الأشقر والقامة الضخمة، والبشرة البيضاء ، والعيون الزرقاء ، ولا تتحقق هذه الصفات في قوم كما تتحقق في سكان شمال أوروبا Nordiques .

إنّ هذا الكلام كلّه هراء في هراء ، وإلّا لبدت الصفات الجسمية للجنس الآريّ عند جميع الشعوب التي تتكلم اللغات الهندية ـ الأوروبية ، وقد أسلفنا القول فيها ، فالأكراد وكثير من الجماعات البشرية التي تتكلم لغات هندية ـ أوروبية ، ذوو لون أسمر وعيون داكنة وشعر أسود . كما ان القسم الأكبر من أوروبا الجنوبية ينتمي إلى المجموعة اللغوية الآريّة ، لكن غالبية السكان في هذه المناطق لا يختلفون عن الأكراد في لون البشرة والشعر والعيون ، ولا يشبهون بوجه من الوجوه أسلافهم الآريينّ الأسطوريين . وأما الفنلنديون والأستونيون الذين يصنَّفون من حيث طول القامة ولون الشعر والعينين في عداد الأوروبيين الشماليين الخُلَّص ، وبالتالي في طليعة الشعـوب الآريّة ، فإنهم إنما يتكلمون لغات ليس لها أدنى شبه باللغات الآريّة .

فليت شعري! علام يدل كل ذلك ؟ أفلا يدل على تهافت الأسطورة التي تقول بوجود لغة هندية ـ أوروبية أو آريّة أولى كان يتحدث بها شعب محظوظ مختار له مزايا خارقة يباهي بها سائر الأعراق والأقوام ؟ وبسقوط هذه الأسطورة تسقط كل ذريعة للتفرقة بين الأجناس والشعوب ، وإضفاء صفة التفوق والشرف على جنس واحد بعينه فقط يكون بدْعاً من الشعوب .

إنّ الشعوب التي تتكلم لغة واحدة ليست بالضرورة متجانسة في تركيبها العرقي ، بل هي تنطوي على عدد كبير من النماذج البشرية . ففي إلمانيا مثلاً هناك ما لا يقل عن ستة من هذه النماذج .

إنّ زنوج افريقيا يتكلمون لغات متعددة مع إنهم ينتمون إلى جنس واحد كما يقول علماء الأجناس . وكذلك الهنود الآريّون ، وكذلك أيضاً السويسريون . إنّ اللغة الإنكليزية تنتشر في أقطار متعددة غير إنكلترا ، وكذلك الأسبانية والبرتغالية . ولئن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أن الجماعات العرقية الواحدة قد تتكلم بلغات عدة إذا كانت موزعة في أقطارٍ مختلفة ، كما أن اللغة الواحدة قد تتحدث بها شعوب متعددة متفرقة في أماكن مختلفة من العالم إذا غادرت موطنها الجغرافي الأول وأنشأت وحدات سياسية جديدة في الخارج ، لأسبابٍ واعتبارات مختلفة . ثم تذوب هذه الوحدات في وحدات سياسية أكبر منها ، فتنقرض لغاتها الأصلية وتتبنّى لغات الوحدات والبلاد التي استوطنتها .

وهكذا فلا سبيل إلى جعل الأنساب اللغوية أنساباً بيولوجية ، إذ لا إرتباط بين الجنس واللغة ، فاللغة تنتقل من شعب إلى آخر بعوامل متعددة لا شأن لها بالبيولوجيا . إنها تنتشر بالهجرات والفتوحات والغزو الثقافي والفكري والتربية والتعليم ، بل بالمبادلات التجارية والمساعدات الإقتصادية ، من غير أن يكون ثمة مبرر للإنتقال من وحدة اللسان إلى حدة الأرومة ، ولاشتقاق الأصل البيولوجي من المشاركة اللغوية . فشتان بين الإثنين ، ولا سيما في الأماكن التي تقع على طرق التجارة والقوافل ، ويكثر فيها الإحتكاك والإختلاط . وكذلك يسهل إنتشار اللغة في الأماكن التي تقل فيها الحدود الطبيعية أو تتلاشى . ففي مناطق رحبة شاسعة كمناطق السهول الآسيوية الأوروبية التي يقال إنها كانت تتكلم اللغات الهندية ـ الأوروبية وكانت مسرحاً للقبائل الآريّة ، وحيث لا توجد عقبات طبيعية تعوق التنقل ، يصبح من السهل إنتشار لغة واحدة في مساحة كبيرة

من الأرض بين أقوام وأجناس لا تربط بينهم أي رابطة نسب أو قرابة .

ومعنى هذا ان اللغة مقولة إجتماعية وظاهرة حضارية، بينما الجنس مقولة بيولوجية صرف لها قوانينها الخاصة المستقلة عن التاريخ والحضارة. وإذا كان أمر اللغة كذلك فهي لا تعبر إذن عن روح عرقي خفي ، وإن كانت تعبر عن روح هذه الأمة أو تلك . إنها تحمل خواص المجتمع(لا البيولوجيا) وتعبر عن أهدافه وآماله ، وترتبط بنموه ودرجة وعيه ونضجه . فهي تولد وتعيش وتموت طوال عصور التاريخ ، وفي سياق تطور الحضارة ، ولا شأن لها أبداً بالجنس والصفات العرقية والبيولوجية التي تسير بحسب قوانينها الخاصة وعلى وتيرتها الخاصة ونبضها الخاص .

والخلاصة ، لا يجوز الإنتقال من اللغات إلى الناس الذين يتكلمون هذه اللغات . فلا يوجد جنس ساميّ ، بل هناك مجموعة من اللغات اصطُلح على تسميتها باللغات السامية . كما لا يوجد جنس آريّ ، بل هناك مجموعة من اللغات اصطلح على تسميتها باللغات الآريّة . هناك إنفصال كامل بين اللغة والجنس ، بين اللسان والبيولوجيا ، بين اللوغوس Logos والبيوس bios . وكل محاولة للربط بينهما إنما هي عمل غير علمي يقصد به المغالطة والتمويه لتوكيد وجهات نظر عنصرية معينة وتثبيت أوضاع سياسية خاصة تابعة لها .

●

هناك إختلاط شامل بين الأمم والشعوب منذ كان الإنسان . فالجنس الواحد نجده موزعاً في شعوب كثيرة كما أسلفنا ، والشعب الواحد نراه متناثراً في أجناس متعددة . وهكذا اختلطت الشعوب والأجناس والأنساب والدماء والسمات والصفات منذ عصور لا تعيها ذاكرة التاريخ ، حتى لقد أصبحت فكرة النقاء العنصري أسطورة علمية أو اختراعاً أكاديمياً إذا جاز التعبير ، ظاهرهُ خدمة العلم والأغراض العلمية ، وباطنهُ تفرقة عنصرية بين الأمم والشعوب ، أملاها الجشع والطمع وإبتزاز القوي للضعيف .

إنّ الإختلاط بين الأجناس والأقوام والأعراق والأصلاب والذريات ، فضلاً عن أنه عنصر تقتضيه ضرورات التعايش التاريخية ليتسنّى لهم البقاء في أقطار إضطُروا إلى النزوح إليها ، فهو كذلك أمر تتطلبه الحقائق البيولوجية أيضاً ، وذلك لتستمد السلالات والأجناس والأعراق دماءً جديدة وتدب فيها

باستمرار أنسام جديدة تساعدها على استئناف حياتها بقوة ونشاط. ومعنى ذلك، أنه حيث يمتنع الإختلاط والإحتكاك تستحكم العزلة الموحشة وتتسع الهوة بين الشعب المعزول والشعوب الأخرى، وبالتالي يحكم على نفسه بالتخلف والتحجر والجمود في مكانه، هذا إذا لم ينكص إلى الوراء. ولنا في قبائل الأسكيمو وسكان استراليا الأصليين وبعض جزر الهند الشرقية خير دليل على ما نقول وأعظم شاهد. فالنقاء البيولوجي عند هذه الشعوب وأمثاله من أهم أسباب تخلفها. والحق انه لا يوجد شعوب نقية بالمعنى الدقيق للكلمة، فحتى هذه الشعوب بدأت تفقد نقاءها العرقي في القرون الخمسة الأخيرة، بسبب التوسع الإستعماري وأعمال الإستكشاف التي يقوم بها الرواد والرحالة والهواة والبعثات العلمية، ولتقدم وسائل المواصلات التي قضت على الحدود والحواجز الطبيعية بين الأمم والشعوب، وأتاحت لهم فرص الإختلاط والتمازج. وهكذا كلما زاد الإختلاط بين الأمم والشعوب وامتزجت الدماء والأنساب، تجددت ظروف الحياة البيولوجية والإجتماعية معاً، وبالتالي إزدادت فرص الوعي والنضج. ولا غرو في ذلك فالإختلاط من سمات الشعوب التي بدأت تعي ذاتها وتدرك معنى وجودها وتنفض عنها غبار الأجيال والعصور. فالنقاء العرقي عنوان التخلف، والإختلاط أول إمارات التقدم. لقد انقلب السحر على الساحر، فبعد ان كان النقاء عند أصحابه العنصريين صفة مرغوباً فيها أصبح على يد العلماء علامة شؤم وعَرَضاً لمرض وبيل وداء عضال!!

واللغات كالأقوام. فكما انه لا وجود لأمة تستطيع أن تفاخر بأنها نقية خالصة لم تتسرب إليها دماء أمم أخرى غيرها، كذلك ليس بين اللغات لغة واحدة تستطيع أن تباهي بأنها صافية نقية صريحة لم تتأثر بغيرها من اللغات والألسنة. فإن قضية صفاء لغة من اللغات وخلوها من الدخيل، قضية لا يمكن أن يقول بها رجل على درجة من العلم باللغات مهما تكن يسيرة. ولولا اتصال اللغات بعضها ببعض، واختلاط الألسنة وتأثر بعضها ببعض لظلت وجوه التعبير في أكثر بقاع العالم قاصرة عن استيعاب الأعداد والخواطر والأحاسيس والمعاني، كما هو شأن اللغات البداية اليوم.

والخلاصة، لا وجود على وجه الأرض لأمة ذات علم وحضارة وتتسم بدور بارز في التاريخ والإجتماع دون أن تكون من الأمم التي توشجت العلائق بينها وبين غيرها من الأمم والشعوب. فالإغريق الذين يُتخذون ـ وبحق ـ مثالاً

يُحتذى في قوة الإبداع والإبتكار لم يكونوا شعباً تجمعه وحدة الجنس والدم ، بل لقد كانوا أقواماً مختلطي الأصول والأجناس والأعراق والأنساب . فمن الصعب جداً اثبات السلالة الإغريقية الخالصة لجميع الفلاسفة الذين نبغوا في آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل وصقلية وتراقيا ومقدونيا وأتيكا والإسكندرية . فالأمة اليونانية القديمة كانت في حقيقة أمرها تشتمل على شتى الأجناس والأعراق والدماء من غير الإغريق الأصليين . ثم لو كان الإغريق جنساً متميزاً مختاراً فما بال هذا الجنس لم يكن كذلك دائماً وأبداً ؟ فهو لم ينبع إلاّ في مرحلة معينة قصيرة جداً من مراحل التاريخ انطفأت شعلته بعدها إلى غير رجعة . فقد عاش الأغارقة بعد عصورهم الذهبية قروناً طويلة ولا يزالون ، من غير أن يُنجبوا شاعراً ملهماً كهوميروس ، أو مؤرخاً عظيماً كتوكيديدس ، أو حاكماً مقتدراً كبريقليس ، أو فيلسوفاً فذاً من طراز أفلاطون أو معدن أرسطو ، بل حتى دون ذلك بكثير .

فليت شعري ! أي فرق عسانا نجده اليوم بين الشعب اليوناني وسائر شعوب البلقان ؟ تُرى ، هل مما يقلل من عظمة اليونان أن يكونوا متحدّرين من شعوب شتى وأجناس مختلفة ؟ كذلك هل يغضّ من قدر الفرنسيين أن كثيراً ممن انجزوا الأعمال الكبيرة فيهم لم يكونوا فرنسيين أقحاحاً بل كانوا من أجناس مختلفة ، كالنورمانديين والكلتيين والأكيتيين وغيرهم ممن بنوا عظمة فرنسا وكانوا مناط الإلهام والعطاء فيها ؟ إنّ فرنسا مدينة بجزء كبير من تاريخها وآدابها وعلومها وفنونها لمن كانوا غرباء عنها . فنابليون من أصل كورسيكي ، ورونسار الشاعر مَجَري ، وبول ڤاليري إيطالي ، وكذلك دي بروي de Broglie صاحب الميكانيكا الموجية إيطالي هو أيضاً ، وهنري هين الشاعر ألماني ، ومدام كوري بولونية . . . وكذلك معظم علماء أميركا اليوم ليسوا من أصل أميركي ، بل لقد لجأوا إليها حديثاً في أعقاب الحرب العالمية الثانية هرباً من جو الحرب الخانق في بلادهم ، أو طلباً للرزق في موجة هجرة الأدمغة التي تفجرت طاقاتها لا في مواطنها الأصلية بل في موطنها الجديد : الولايات المتحدة الأميركية ، وهذا لا يعيب أميركا في شيء ، بل هو فخر لها . فالفضل إنما يعود إليها لأنها اجتذبت البذور الصالحة فقدمت لها الماء والغذاء ، وتعهدتها بالسقيا والرعاية بعد أن كادت تذروها الرياح في منابتها الأصلية ، فاهتزت في موطنها الجديد وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج .

لهذه الأسباب جميعاً رؤي التخلي عن القول بوجود جنس آريّ متميّز هو

نسيج وحده بين الأجناس والأقوام والشعوب فبضاعة الآريّة إنما هي بضاعة مزجاة ، والأخذ بها إنما هو أخذ بمبدأ قد تخلّى عنه أصحابه لإفتضاح أمره وثبوت عقمه وفقدانه كل رصيد وبريق .

●

وكما سقطت الإيديولوجية الآريّة ، انهارت شقيقتها الساميّة . وأسباب هذا السقوط متشابهة ، لأن أسباب النشأة متشابهة هي أيضاً . فكلتاهما تنبع من الإيديولوجية العنصرية ، وكلتاهما دعوة لتصنيف الشعوب والتمييز بينها على أسس غير علمية . فإنّ دعاة التفرقة العنصرية حتى لو سلموا بوحدة الأصل المشترك للإنسانية جمعاء ، فإنهم يؤكدون ان هناك أجناساً عليا كان تطورها سريعاً، وأخرى سفلى متخلّفة ميئوس منها ، الأولى انطلقت من عقالها بقوتها الذاتية وبفضل ما تتمتع به من إمكانيات وطاقات ، والأخرى صدر عليها حكم التاريخ لتكون خاضعة لغيرها ، فلا أمل في إنهاضها من كبوتها وإقالة عثرتها . إنّ الأجناس العليا قليلة العدد ، وهم وحدهم الذين خلقوا الحضارة المادية والروحية . وأما الأجناس الدنيا فإنما هم غُثاء كغُثاء السّيل ، فليُسخَّروا للأجناس العليا ، وحسبهم أن يكونوا أدوات طيِّعة وأيدي عاملة في خدمة السادة البيض الذين أعطاهم التاريخ وحدهم حق التوجيه والسيطرة على الشعوب . فالتاريخ لا مُعَقّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه . جفّت الأقلام وطُويت الصحف ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ! .

ومع أن الأسباب والدواعي التي أدّت إلى تهافت النظرية الآريّة لا تختلف كثيراً عن تلك التي أدّت إلى سقوط الفلسفة الساميّة ، لأن المنطلقات واحدة ، والأهداف واحدة ، والإيديولوجية واحدة ، فقد آثرنا أن نبحث الفلسفة الأخيرة على حدة لأسباب منهجية صرف تتم بها الموازاة وتكتمل الصورة ، فتبرز معالمها بدقة ووضوح .

لاحظ المعنيون باللغات التي يحشرها علماء الساميّات في مجموعة اللغات الساميّة أوجه شبه ظاهرة بين البابلية والكلدانية والكنعانية والعبرانية والسريانية والآرامية والتدمرية والنبطية والمؤابية والأوغاريتية والحبشية والأمهرية والهررية واللهجات العربية الجنوبية والعدنانية المضرية (القرشية الفصحى) . فالقرابة واضحة بين هذه اللغات جميعاً ، بل هي أوضح وأمتن وأوثق منها بين مجموعة

اللغات التي تسمى باللغات الهندية ـ الأوروبية . فقفز بعض علماء الأجناس من هذه القرابة اللغوية إلى القول بوجود قرابة بيولوجية بين الأقوام والشعوب التي تتكلم هذه الغات معاً ، فأطلقوا على هذه الشعوب اسم (الشعوب الساميّة) .

والأصل في هذه التسمية شجرة الأنساب التي وردت في التوراة ، والتي تنطلق من سام بن نوح أبي البشر بعد الطوفان . وهذه الشجرة لا تعتمد على دعائم علمية مقرّرة صحيحة ، وإنما تقوم على بواعث عاطفية وسياسية يُغذّيها حبّ اليهود وبُغضهم لمن عرفوا من الشعوب ، وعلى الأقوال التي كان يتداولها الناس في ذلك الزمان في النّسب والأنساب وتوزيع البشر . وهكذا حشرت التوراة فيمن يُسمّون بالساميين شعوباً لا يمكن عدُّها بين الشعوب الساميّة ، فأدخلت العيلاميين واللوديين في جملة أبناء سام مثلاً . بينما أخرجت الكنعانيين منهم ، مع أن الكنعانية قريبة من العبرانية ، وهذه قريبة من اللغات الساميّة عند أصحاب النظرية السامية[١] . ويؤكد بروكلمان أن العبرانيين قد تعمّدوا إقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام بسبب العداء الذي كان مستحكماً بينهم وبين الكنعانيين ، والذي يتكشف لنا في أسفار التوراة ، فحملهم عداؤهم هذا للكنعانيين وحقدهم عليهم على التنصّل منهم وعلى التبرؤ من إلحاق نسبهم بشجرة أنساب سام بن نوح ، مع إنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات القربى والنّسب واللسان[٢] . ولذلك فإنّ العلماء الذين يأخذون بالنظرية الساميَّة من أمثال شلوتسر الذي سلف ذكره، لم يتقيّدوا بما جاء في التوراة من إدراج عيلام وأشور في المجموعة الساميّة ، كما لم يجاروا نسّابي التوراة في إلحاق الكنعانيين بالكوشيين أبناء حام ، ولا في جعل نمرود ابناً لكوش بن حام ،، ولا في أمور أخرى كثيرة لا مجال هنا للخوض فيها[٣] . وقد فعلوا ذلك لأسبابٍ واعتباراتٍ لغوية وتاريخية ، فخالفوا ما جاء في التوراة حكايةً عن قصص قديم في الأنساب . لقد أدركوا أن التوراة ليست المرجع الصالح لتقرير هذه الأصول ، فأخذوا عليها مآخذ عدّة ، وخطّأوها في أشياء كثيرة ، وأضافوا إليها أسماء شعوب

(١) د . جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٧ / ٨ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ٢ /٢٨٨ .

لم ترد أسماؤهم في التوراة ، وأخرجوا منها آخرين ليسوا في نظرهم من الساميين . وما كان أحرى بهؤلاء العلماء ألاّ يتّخذوا من التوراة مستنداً تاريخياً لهم ويقحموا أنفسهم في حكايات وأساطير جرت على ألسنة النسّابين فبادر مدوّنو العهد القديم إلى جمعها ، وقدموها للناس على أنها حقائق تاريخية مقرّرة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

وكما انه ليس في استطاعتنا أن نقول بدقة من هي الشعوب الساميّة دون غيرها ، بحيث نتمكن من تعريف الساميّ تعريفاً جامعاً مانعاً ، كذلك ليس من المستطاع معرفة مهد الساميّين وموطنهم الأول . فالآراء كثيرة متعارضة تتفاوت قوة وضعفاً،بل أن الرأي الذي قدلا يخلو من بعض القوة في هذا الباب قد لا يخلو هو أيضاً من بعض الضعف الذي إنما وُلد مع الرأي واقترن به اقتران الموت بالحياة . فهناك من يقول أن مهد الساميّين هو جزيرة العرب ، ومنهم من يقول بل هذا المهد إنما هو جزيرة الفرات ، ويذهب بعضهم إلى أنه بادية الشام ، ويزعم آخرون أنه أرمينية ، بل هناك من يؤكد أن موطن الساميينّ الأوائل إنما هو بلاد الحبشة !! ومن العلماء من لا يريد أن يقطع في هذه المسألة برأي حاسم ، فيتوقف على طريقة «الله أعلم » . وهكذا لم يتوصل أحد حتى الآن إلى معرفة أرض سام بن نوح، هذا مع فرض وجود شخصية تاريخية تُدعى سام بن نوح . . . بن آدم . فليس هناك إذن سوى تكهنات ورجم بالظنون لا مستند لها إلاّ بعض الأقاصيص والحكايا أوردها رواة مجهولون لا يعرف التاريخ من أمرهم شيئاً ، وكان يجدر بالعلماء أن يربأوا بأنفسهم عن الخوض فيها .

وأخيراً ، إذا صحّ وجود الساميّين في مرحلة التاريخ القديم ، فكيف يمكن استمرارهم محتفظين بنقائهم حتى عهدنا هذا ، والشعوب لا تفتأ يختلط بعضها ببعض ، ويندمج بعضها في بعض ، وينفصل بعضها عن بعض . فلا وجود لأمة نقية خالصة بريئة من دماء غيرها من الأمم والشعوب . بل ان الشعوب التي تعدّ ساميّة نجد بينها من التمايز والتباين في الملامح والسمات ما يجعل إطلاق لفظ (الساميّة) عليها بالمعنى العلمي الحديث نوعاً من الإسراف والإفتعال واللغو في القول ، كما أننا نرى تبايناً في صميم الشعب الواحد من هذه الشعوب في الملامح والمظاهر الجسمية . وفي هذا التمايز والتباين ، الدليل القاطع على وجود اختلاط وامتزاج في الدماء قديم قدم الإنسان نفسه .

واللغات كالأقوام . فما ذكرناه عن اللغات الآريّة يسري أيضاً على اللغات السامية سواء بسواء . فليس بين اللغات التي تُعرف بالساميّة لغة واحدة يمكنها أن تفاخر بأنها سامية صافية وأنها لم تتأثر قط باللغات الأخرى التي تنتمي إلى مجموعات لغوية غير ساميّة ، كاللغات التي يُطلق عليها اسم (اللغات الآريَّة) ، والمعروفة أيضاً باسم (اللغات الهندية ـ الأوروبية) . فقضية صفاء لغة من اللغات وخلوها من الألفاظ والكلمات الدخيلة قضية لا يقول بها رجل له قدم راسخة في علم اللغات . وإذا كانت اللغات الآريّة قد تأثرت باللغات الأخرى بسبب اختلاط الشعوب واتصال ألسنتها بعضها ببعض نتيجة لذلك الاختلاط ، فمن الطبيعي أن تكون اللغات الساميّة ـ أو تلك التى جرى العرف على تسميتها كذلك ـ قد أثّر بعضها في بعض ، وأخذ بعضها من بعض . فلا صفاء في اللغات كما لا صفاء في الأقوام . هذا فضلاً عن أن أحداً لم يذكر أنه توصل إلى تشخيص لغة سام أو تمكن من تحديد اللغة التي تحدث بها مع أبيه نوح أو مع أبنائه الذين نسلوا هذه السلالات السامية من بعده ، هذا إذا صح وجود شخصيات تاريخية حقيقية أسماؤها نوح وسام وحام ويافث . وأخيراً فإنّ اللغة الساميّة ، حتى لو وُجدت ، فقد كانت بطبيعة الحال لغة محكية زالت من الوجود بزوال الناطقين بها دون أن تترك أثراً ، كما أن القول بها لا يحل أي مشكلة ، بل يضيف إلى صعوباتنا صعوبة جديدة . وما يطلق عليه اليوم اسم (اللغات الساميّة) إنما هي محصول سلسلة طويلة من التطورات والتقلبات لا تحصى ، اجتازتها منذ عصور موغلة في القدم ، كما أنها أيضاً نتيجة لغات ولهجات منقرضة لا نعرف من أمرها شيئاً .

ولئن دلّ كل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى التخبط الذي يقع فيه أولئك الذين يتكلمون باسم العلم وينطلقون من محرابه ، عندما يريدون أن يجمعوا قسراً وعلى نحو ظاهر الإفتعال بين الحقيقة والأسطورة ، بين الواقع الثابت والخيال المجنّح . فإن أسطورة انحدار الساميين من صلب رجل اسمه سام بن نوح لا يصح أن تكون أساساً لنظرية علمية رصينة . أجل إن الأسطورة لا يجوز الأخذ بها في مجال البحث العلمي ، فما دخلت الأسطورة على علم إلّا أفسدته . فحريّ بالعلم أن يبني أحكامه على وقائع صحيحة مقررة وعلى حقائق موضوعية ثابتة ، وأن يحمي حَرَمَه من القصص والأساطير ، فالقصص والأساطير لا ينتج عنها إلّا قصص وأساطير قد تُغذي الخيال الشعبي وترضي جموحه وطموحه ونزواته ، ولكن هيهات أن يؤسَّس عليها علم يتصدى لإكتشاف قوانين العالم

وإماطة اللثام عما يكتنفه من أسرار وألغاز . هذه بديهيات معروفة لا يجهلها رجل العلم ولكنه قد يتجاهلها أحياناً .

ومن العجيب أن هذا التعبير الأثري (ساميّ) الذي استنتجه الباحثون مما جاء في (سفر التكوين) من أسفار العهد القديم قد انتشر بين علماء الغرب انتشاراً واسعاً ، وسرى إلى مـؤرخيـهم وكتّابهم بطريق العدوى الإقتباسية المعتادة . لقد تقبلوه بقبول حسن لا لشيء إلّا لأنه من صادرات الفكر الأوروبي . فحسبه أن يكون مختوماً بعبارة « صُنع في أوروبا » أو وليدتها « أميركا » حتى يهلل له الكثيرون دون تمحيص أو نقاش . فإذا كانت الكتب القديمة قد أخذت به فإنما فعلت ذلك بحكم الضرورة، إذ لم تجد إطاراً لتفكير أصحابها إلّا في التوراة والقَصص الذي جاء فيها عن سام وعن لغات البشر ، وعن بابل ولغاتها ، وعن الطوفان وما شاكل ذلك ـ أما نحن فما مبرر استعمالنا لهذا التعبير وقد أغنانا العلم عنه وعن كثير من أمثاله ؟ .

وعلى كل حال ، ان القول بوجود فوارق عقلية ونفسية خاصة بين الأجناس والأقوام والشعوب يقتضي القول بوجود أجناس وأقوام صافية خالصة ذات دماء نقية لم تمتزج بها دماء غريبة ، وبوجود لغات صافية نقية خالية من الدخيل ، وبوجود عزلة تامة تفصل هذه الأجناس والأقوام والشعوب واللغات بعضها عن بعض ، لأن العزلة التامة هي التي تحفظ السلالة واللغة والمدارك، وكل ذلك محال ، لأن البشرية لم تعرف العزلة منذ وجد الإنسان ، ولأن الشعوب لم تَبْن حولها أسواراً مرتفعة وحواجز تحول بينها وبين الاختلاط بغيرها . فالشواهد التاريخية والبحوث العلمية جميعاً تؤكد العكس وتثبت أن الاختلاط والامتزاج بين الأفراد والجماعات سُنّة الحياة والتاريخ والحضارة . فما يُقال عن تمايز الشعوب في العقليات والمشاعر حولها أسواراً مرتفعة وحواجز تحول بينها وبين الإختلاط بغيرها . فالشواهد التاريخية والبحوث العلمية جميعاً تؤكد العكس وتثبت أن الاختلاط والامتزاج بين الأفراد والجماعات سُنّة الحياة والتاريخ والحضارة . فما يُقال عن تمايز الشعوب في العقليات والمشاعر والأذواق تمايزاً فطرياً إنما هو حديث خرافة أوحت به العواطف والأهواء والمصالح . . . أما ما نشاهد من اختلاف في أساليب الفكر وفي فهم الأمور فليس مرده إلى الدم بل إلى البيئات الطبيعية والإجتماعية والثقافية . فليست هناك فروق عقلية ونفسية واضحة بين السلالات والأجناس التي تُعطَى فرصاً متكافئة ، إنما تكون الفروق بين الجماعات التي تُحرم

من هذه الفرص كما سنرى بعد قليل . فليس العامل الحاسم في تطور الشعوب تركيب الأجسام والأبدان وأشكالها وألوانها ، بل العامل الحاسم إنما هو الإستعدادات الفردية والظروف الإجتماعية والثقافية ، والأجواء والمناخات التي تمكّنها من تحقيق وجودها وإبراز استعداداتها على الوجه الأكمل ، وممارسة حقها في الحرية والتعليم والعيش الطيب الهنيء الكريم . فما أكثر الأكاذيب وحملات التخرّص والإفتراء في مواسم التحدي ويقظات الشعوب يُستدرج إليها الأغرار وضعفاء العقول ، لإسكات أصوات تريد أن ترتفع ، وكبت دوافع تتطلع إلى القمم ، وإشاعة التخاذل والإستكانة في نفوس هبّت من رقدتها وبدأت تنفض عنها غبار الأجيال .

ليس في التاريخ شعوب مختارة وأخرى منبوذة بحكم الطبع والفطرة ، وإنما هي فرص أتيحت لبعض الشعوب دون بعض ، فاستقوت الأولى واستضعفت الثانية . والحضارة لا تدين لشعب دون آخر . إنها نتيجة جهود مشتركة أسهم فيها أفراد وقبائل وشعوب لا تقع تحت حصر ، تضافرت جميعاً لخدمة أغراض التقدم وخلق قيم ومثل تساعد الإنسان على تحقيق ذاته وتأخذ بيده في صراعه مع الطبيعة وتنازع البقاء . فجميع الأجناس والأقوام والأعراق قد ارفدت هذا العمل الجبار برفدها وأمدّته بعطائها ، وألقت بنصيبها المقدور في تيارة الزاخر العظيم .

أجل ، ليس في التاريخ شعوب لها صفات خارقة وأخرى محرومة من المواهب والطاقات ، وإنما الشعوب تتدرج وتتطور ، وتعلو وتهبط ، وتتقلب في مسار التاريخ وعلى مدار الزمن ، بما يتهيأ لها من فرص الحياة وما يحيط بها من ظروف وأحوال من التجاور المكاني والتماسّ الحضاري ، وما يُطرح فيها من مشاكل ومعضلات ، وما يُلحّ عليها من حاجات وضرورات مادية وروحية ، وما ينشأ فيها من مواقف ويتفجر من طاقات . وبحسب قدرة هذه الشعوب على رد التحدي أو دفع الغائلة والتكيف للظروف والأحوال تكيفاً ملائماً أو غير ملائم بحسب كل ذلك تتحدد درجاتها وأقدارها ومراتبها في سلم التطور . فكل أولئك يؤثر في مسارها ، فيرفع هذا الشعب إلى القمة ، ويهبط بذاك إلى الحضيض ، ويطبع هذا الشعب أو ذاك بمزاج نفسي خاص وتكوين عقلي معين يبقى ما بقيت هذه الظروف والأحوال ، ويتغير بتغيرها ، ويزول بزوالها ، فتبعاً للملابسات التاريخية وظروف الحياة الاقتصادية والثقافية ، وأوضاع المجتمع والحضارة في

شعب من الشعوب أو أمةٍ من الأمم ، يتقلب هذا الشعب أو تلك الأمة في مدارج مختلفة من الرقي والانحطاط ، وتبرز عنده (أو عندها) ميول ورغبات وحاجات ومطالب ومطامح أو آمال أو تنعدم ، وتتفجّر فيه (أو فيها) طاقات ومواهب أو تجفّ وتذبل . . . كل ذلك يجري والشعب لم يفقد شيئاً من ملامحه البدنية وطابعه الجسمي وتكوينه البيولوجي المتميز . . . ولا أدل على ضعف شأن العوامل الجسمية (شكل الجمجمة ، لون البشرة . . .) في هذا السبيل من أن اليونان القدماء مثلاً لا يختلفون من الناحية الجسدية عن اليونان المحدثين ، ولكن هناك فروقاً شاسعة بين اليونانَيْن ، يونان الأمس ويونان اليوم ، حتى لكأن هؤلاء ليسوا أحفاد أولئك . إنهم شعب لا يجمعهم بأسلافهم الأولين إلا الاسم المشترك والملامح الجسمية والرقعة الجغرافية (بل حتى هذه قد تقلصت كثيراً) و . . . أما ما عدا ذلك فقد تبدد وتلاشى كأن لم يكن بالأمس . لقد ذهبت أثينا إلى الأبد ، أثينا العلم ، وأثينا الفلسفة ، وأثينا الإشعاع . . . أما أثينا الحجارة ، أثينا البشر ، أثينا الجزر والجبال والمناظر الخلابة ، فلا تزال كما هي لم يمسها سوء . واحسرتاه على أثينا اليوم . فالناس غير الناس ، والمجتمع غير المجتمع ، والمُثل غير المُثل . لقد أصبحت أعداداً من البشر يصخبون ويروحون ويغدون على هامش التاريخ بعد أن كانوا قدوة للبشر وصنّاعاً للتاريخ ، ومجداً من أمجاد العقل ، ومدرسة في العلم والفكر والحضارة !

إيه أثينا ! ماذا دهاكِ ! كيف أصبحتِ أطلالاً وخرائب ينعق فيها البوم ؟ ما بال الناس قد تولّوا عنكِ وانفضّوا من حولكِ ؟ .

لقد ذهبت أثينا كأن لم تكن . . . تُرى هل تعود ؟

●

وبعد ، إن العامل الحاسم المؤثر في سير التاريخ والعلم والحضارة لا ينحصر في الظواهر البدنية ، وبطريق الأوْلى ، في الانتماءات العرقية والسلالية . كلا . إنه يتخطى هذه الظواهر المحسوسة إلى معانٍ غير محسوسة ، تمتطي هذه الظواهر وتتلبسها وتنثال عليها. ليس التكوين الجسمي هو المسؤول عن الرقي الفكري ، إنما المسؤول عن ذلك ما يُرافق هذا التكوين من إعداد وتربية ، وما يتجمع له من تجارب وخبرات،وما يشغله من مبادىء ومُثُل وغايات ، وما يراوده من آمالٍ وأحلام وتطلعات ، وما يتخذه من مواقف أو يضطلع به من التزامات

وتبعات ، وما ينشئه مع الأفراد والجماعات والأشياء من روابط وعلاقات ، وما يتحلى به من قدرات ومواهب تمكّنه من فهم العالم والسيطرة عليه وقهره وتغييره ، بدلاً من الرضوخ له والوقوف أمامه مقهوراً مسحوقاً . فكل هذه المعاني هي التي تصوغ شخصية الفرد ، وتجعله إنسانياً حقاً وصدقاً بعد أن كان شيئياً ، وتنقله من دنيا التراب إلى آفاق الفكر ، وتقفز به من عالم الأعيان إلى عالم الأذهان . فليست العبرة بالأجسام والألوان والأشكال ، وإنما العبرة بالأفكار التي تحرك هذه الأجسام وتتكشف بهذه الألوان والأشكال ، بالمثل التي تثيرها والأهداف التي تسعى إليها . فالأجسام هي الأجسام في كل زمان ومكان . الأجسام مطايا الأفكار ، وبالأفكار إنما يتعين وجود الإنسان ويصبح له معنى وغاية . وبعد أن كان وحلاً وطيناً في قرار الأرض ، أو مُضغة في أفواه الآكلين ، أو علفاً للحيوان أو سماداً للنبات ، أو هشيماً تذروه الرياح ، غدا فكراً يرود أرجاء العالم ويصلح مسيرة الأشياء ، ويسخر كل شيء لمصالحه وأغراض وجوده . لقد أصبح له معنى بعد أن لم يكن له أي معنى . أرأيتَ إلى هذا الحدث العظيم !!!

●

والأفكار لا تورّث ، وإنما هي أمور اكتسابية صرف . فمهما كان الشعب عريقاً في أفكاره وثقافته ومهما كان رصيده من المفاهيم والتصورات كبيراً ، فإنّ شيئاً من ذلك لا ينتقل من السلف إلى الخلف إلّا باستئناف عملية الإكتساب من جديد ، فلا ينتقل من الآباء إلى الأبناء وذرياتهم إلّا ما حصلوه بأنفسهم بالكسب والكد والتربية والتعليم ، وإلّا ظلّوا بمعزل عنه مهما كان نصيب آبائهم وأجدادهم منه . والعكس صحيح أيضاً : فمهما كان الشعب محروماً من هذا الميراث الطويل ، ومهما باعد الإستعمار بينه وبين حقه الطبيعي في تلقي المعرفة من مناهلها والتقاطها من جميع مظانّها ، فإنه ما إن ترتفع عنه هذه الحواجز وتزول الحجب ، ويملك زمام أمره ويكون سيد مصيره ، حتى يلحق بالركب ويستدرك ما فات . وهكذا فالعلم لا يُتوارث ، كما ان الجهل لا يُتوارث أيضاً . فما يُتوارث حقاً إنما ينحصر في عالم الأجسام ، وبتعبير أصح في حبيبات مادية دقيقة جداً في غاية التعقيد والتنظيم لا يخلو منها انسان بما هو انسان ، أبيض كان أو أصفر أو أسود ، إنها المفتاح الذي يفتح له مغاليق كل شيء ، إنها إجازة المرور إلى آفاق رحبة لا حدود لها ذات أسوار منيعة على كل موجود إلا الإنسان ، بصرف النظر عن جنسه ولونه وشكله . . .

وبمعنى ما ، يمكننا أن نقول أن هناك نوعين من الوراثة : وراثة بيولوجية ووراثة اجتماعية . الأولى تنتقل من الوالد إلى ولده من بعده انتقالاً آلياً مباشراً لا يتطلب من الطرفين أي جهدٍ واع ، وأما الثانية فلا بد فيها من الجهد العقلي المستمر وتركيز الوعي والإنتباه . ولّا يكون ذلك إلّا بالتربية والتعليم والإقتباس والتحصيل . الأولى تتوقف على البيولوجيا ، ومن ثَم فهي ميسّرة لكل أحد من غير نظر إلى الجنس أو اللون أو الشكل . . . وأما الثانية فتتوقف على المجتمع ، ومن ثم فهي تختلف من مجتمع إلى آخر . وهكذا فالشيء الذي يُتوارث بيولوجياً ليس هو التصورات والمفاهيم والمواقف وأنماط المعرفة والسلوك وما إلى ذلك مما لا سبيل إليه إلّا بالتعليم والتثقيف والإكتساب والتحصيل . . . كلا ، وإنما هو آلية النشاط الوراثي والعصبي الذي يقوم بدور الأساس الفسيولوجي لعملية المعرفة . . .

أجل إن نتائج المعرفة لا تورّث بيولوجياً ، وإنما طريقها الوراثة الإجتماعية ، إذ يرث الإنسان ـ بحكم انتمائه إلى مجتمع معيّن ـ خبرة الأجيال السالفة ، بالتربية والتعليم بعد الإحاطة بلغة هذا المجتمع ، إنها إنما تُكتسب بالإتصال المباشر بالأشخاص الذين عانوها والإطلاع على كتبهم وآثارهم . فكل ما يملكه الإنسان بالوراثة ـ أيّ إنسان ، وإلى أيّ جنس بشري انتمى ـ إنما هو الحد الأدنى من السلوك الفطري الغريزي الثابت ، ولكنه يملك في مقابلة ذلك مقدرة هائلة على التعلم والإكتساب يستطيع بها وبمساعدة الكبار أن يكيف محيطه ويتكيف له . إنّ هذا الحد الأدنى إذا أحسن استغلاله يكفي وحده لإمتلاك ناصية العلم وتذليله لحاجاته وضرورات وجوده على هذه الأرض . فلا حدود لما يمكن أن يتلقى أو ينهل ما دام قد تأمّن له الحد الأدنى البيولوجي وما دام قد استحوذ عليه ، وبالتالي ما دام أنه انسان ـ إلى أيّ جنس انتمى هذا الإنسان ـ على أن يتأمن له إلى جانب ذلك الحد الأدنى الإجتماعي ، بأن تتاح له أولاً الظروف والإمكانيات والفرص المتكافئة المتاحة لغيره ، دونما اعتبار للجنس أو اللون أو الشكل . . . وبعبارة أخرى ، إنّ جزءاً يسيراً جداً من أنماط السلوك ـ وهي التي تمكّن الإنسان من قضاء حاجاته الضرورية ، والتي بالتالي تعطية مفتاح هذا العالم ـ موروث ، ولكن القسم الأكبر الباقي من سلوكه ، مكتسب ومتعلَّم بالمخالطة والتقليد والإقتباس والتربية والقدوة و . . . وإنّ اعتماد الإنسان في سلوكه على الإكتساب والتعلم هو سرّ تفوقه على سائر المخلوقات وتمكّنه من السيطرة على هذا العالم وما

فيه من قوى تؤثر فيه وتتأثر به ، حتى لقد اتخذ سبيله إلى الفضاء سرباً ، ليبني لنفسه هناك مجداً جديداً لم تتسع له الأرض على رحبها ، هذه الأرض التي تخطتها أحلامه ورؤاه ، فتطلع إلى الكواكب والنجوم ! .

وهكذا تنشأ فوارق الجنس والسلالة من فوارق الفرصة والبيئة . لذلك كان من العسير أن يقال إنّ عامل الجنس هو العامل الحاسم في التاريخ ، فكل الجماعات الإنسانية تقف على قدم المساواة التامة من حيث العناصر البيولوجية ، التي تدخل في تكوين هذا العامل ، ولا يبدأ الإختلاف إلّا حيث تنتصب الحواجز المصطنعة ويحال بين الإنسان وبلوغ أهدافه ، وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن كلّ الجماعات الإنسانية قد أسهمت بأنصبة متكافئة واحدة في نمو الحضارة ، إذ كيف السبيل إلى ذلك والفرص المتاحة ليست واحدة بل تختلف بإختلاف الحوادث والمصادفات التاريخية والظروف الإجتماعية والإقتصادية والمواهب الفردية والحواجز الجغرافية والطبيعية .

لا يستبعد البعض أنه ربما كانت توجد في الأصل اختلافات وراثية في الذكاء بين بعض الجماعات الجنسية الأصلية الصغيرة التي كان ينقسم إليها الإنسان القديم . إننا حتى لو سلّمنا بهذا الإحتمال الضعيف الذي أثاره أحدهم بغير سند علمي ، فإنّ اتصال تلك الجماعات بجماعات بشرية أخرى ودخولها معها في علاقات جنسية جديدة ، مشروعة كانت أو غير مشروعة ، وتنافسها فيما بينها في معركة تنازع البقاء ، يضاف إلى ذلك قانون الإنتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح الذي كان يعمل آنذاك بحرية أكبر كثيراً منها اليوم - إنّ كل أولئك ظل يغربل الرصيد الوراثي لتلك الجماعات ويمزجه برصيد جماعات أخرى ، ويقلّبه في الأصلاب والأرحام ، ويصرّفه ويعيد تقليبه وتصريفه منذ أقدم العصور بلا كلل أو ملل ، حتى اختلطت الأوراق وامتزجت الأمشاج والخصائص . بحيث إنه إذا كان في أي جماعة منكودة سيئة الحظ نقص بيولوجي باطن من شأنه أن يجعلها أقل من سواها ، فإنّ هذا النقص - إن صحّ وجوده - قمين أن يزول ويختفي بعد هذه العمليات الطويلة المعقدة من المزج والمشج والمخض ، والتنقيح والتصحيح ، والجمع والتفريق ، وما إلى ذلك من العمليات التي تؤثر في صميم الرصيد الوراثي للأقوام والأجناس والشعوب ، وتُقارب بينها ، وتصهرها معاً في بوتقة واحدة أو تكاد .

فالإمتزاج بين الشعوب والأمم ضرورة بيولوجية كما هو أيضاً ضرورة حضارية . فالحضارة إنما تغنى وتتسع بما يصب فيها من تجارب وخبرات بشرية مختلفة ، وبالإمتزاج البطيء بين الأقوام والأجناس والجماعات في مراكز تتعدد فيها الإتجاهات والمواقف ، وتلتقي فيها تيارات ومدارس وفلسفات وإيديولوجيات متباينة ، في هذه المراكز ـ وفي هذا المراكز وحدها ـ يسرع التاريخ وتتقدم المعرفة ، وينضج الوعي ويكمل الشعور ويستبحر العمران وتستفحل الحضارة ، وما عداها ركود وخمود وجمود . فالإمتزاج بين الشعوب له نفس التأثير المجدد للشباب الذي ينتج عن تزاوج البروتوزوا ، حيث يستقوي كائنان حيان بعد فسادهما وعجزهما عن الإستمرار في الحياة ، فيتجددان ويعود إليهما الخصب والإمراع بتبادل مادة النواة .

ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف تُرانا نُقوّم النظرية المضادة التي ينادي بها غوبينو ونيتشه وتشمبرلن وآخرون ، ومؤداها أن التزاوج بين شعوب متميزة بعضها من بعض وتفصل بينها فوارق حضارية كبيرة ، من شأنه أن يفضي إلى إفساد الأخلاق وانحلال الحضارة ؟ والحق أن هؤلاء المفكرين اللامعين ينظرون إلى الأمور نظرة مقلوبة ، بمعنى أن الفساد الذي يتحدثون عنه هو الذي أدى إلى هذا التزاوج لا العكس . فإنّ انحلال روما قد ظهر قبل غزو البرابرة بزمن طويل كان فيه الشعب الروماني قد تفسخ وتمزق ، مما هيأ الفرصة لغزو البرابرة . وتضرب جذور ذلك الإنحلال في الترف المخنّث أولاً وإنهاك قوى السلالة الرومانية القديمة ثانياً ، فكان التزاوج مع البرابرة الجرمان ـ إذا صح أنهم كانوا برابرة ـ ثمرة استنزاف الجنس ، وليس علة له . لقد التمسوا في هذا التزاوج إصلاح السلالة دون إصلاح الأسباب التي أدت إلى فسادها ، فهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟

●

جاء على العلوم الإجتماعية حين من الدهر كانت تفرق فيه بين نوعين من العقليات : العقلية البدائية والعقلية المتمدنة ، العقلية اللامنطقية (أو السابقة على المرحلة المنطقية) والعقلية المنطقية ، وهي تفرقة تُعدّ امتداداً للتفرقة العنصرية ، تسير في خط واحد معها وتلتقي وإياها في كثير فن مراحل الطريق . وليڤي بريل هو زعيم هذه التفرقة وفارسها المغوار ، وهو المتنكر لها بعدما تبين له

من العلم ، فالرجوع عن الخطأ فضيلة ، وهذا من أخلاق العلماء . فقد أقام طويلاً بين الشعوب البدائية يدرس حياتهم ويتفهم أحوالهم وعاداتهم ، وينقّب في نظمهم وتصرفاتهم ، ليسبر أغوارها وينفذ إلى أعماقها . فجمع عدداً من الحالات انتزعها من القبائل البدائية التي تعيش في الوقت الحاضر ، ولا سيما زنوج افريقيا الوسطى والجزر الأوقيانية . ثم قارنها بعضها ببعض وحاول أن يستخلص الصفات النفسية المشتركة بينها ، للوصول إلى معرفة الأشكال والصور التي تتخذها المقولات المنطقية في أذهان البدائيين ، والوقوف على الملامح الأساسية المميزة لأخلاقهم وأدواتهم ونظرتهم إلى الأشياء والعالم .

والنتيجة التي خلُص إليها ليقي بريل لأول وهلة ، هي ان هناك طرازين من التفكير متباينين غاية التباين هما طراز التفكير البدائي وطراز التفكير الراقي ، وان هناك حاجزاً منيعاً بينهما فلا مجال للقاء . فلقد قُدَّ البدائيون من طينة غير طينتنا وتحدّروا من سلالة غير سلالتنا ومن نوع غير نوعنا . لقد عزا إليهم هذا الباحث طرقاً من التفكير تغاير في طبيعتها جنس التفكير لدى الشعوب الراقية المتمدنة . كيف لا والحياة العقلية عند الجماعات البدائية مليئة بأوجه التناقض والإضطراب ، وسلوكهم لا يستند إلى أي تفكير منطقي سليم متزن ، حتى لقد وصفهم بأن عقليتهم عقلية غير منطقية ، أو قل هي سابقة على المرحلة المنطقية mentalité prélogique ، بمعنى أن عقلية الرجل البدائي لا ينحصر الخلاف بينها وبين عقلية الرجل المتمدن في أنه مجرد خلاف في الكم والدرجة ـ أي يمكن تلافيه وإصلاحه بالتربية والتعليم و . . . ـ كلا ، بل هو أيضاً خلاف في النوع والكُنه والطبيعة ، فلا سبيل إلى اصلاحه ، ولا أمل في التخفيف من وطأته ، لأنه في أصل الفطرة والجِبِلّة والتكوين[1] .

لكن ليقي بريل لم يتمسك بهذه الآراء طوال حياته ، بل لقد تخلى عنها شيئاً فشيئاً في كتاباته الأخيرة[2] ومات ليقي بريل في أواسط عام ١٩٣٩ والجميع يعتقدون انه لا يزال على موقفه المتعنت السابق[3] حتى كان عام ١٩٤٩ إذ نشر موريس لينهارت مذكرات ليقي بريل الأخيرة التي بدأت من ٢٠ / ١ / ١٩٣٨

(١) انظر كتابنا : قبل أن يتفلسف الإنسان صفحة ٣٨ .

(٢) انظر مثلاً : Bulletin de la Société française de philos-1929. p. 109 .

(٣) يستثني من ذلك رسالة أرسلها إلى صديقه جان ماريتان يتخلى فيها عن موقفه القديم . انظر كتابنا المذكور صفحة ٣٩ .

وانتهت في ١٣/٢/١٩٣٩ بعنوان : Les Carnets de Lucien Lévy - Bruhl ففي هذه المذكرات يتراجع ليڤي بريل عن موقفه السابق تراجعاً سافراً ليأخذ بالرأي الذي يتفق مع العقل السليم والمنطق القويم .

يقول في هذه (المذكرات) : « فلنصحح بغير مواربة ما كنت أعتقد عام ١٩١٠ إنه عين الصواب . لا . لا وجود لعقلية بدائية متميزة من [العقليات الأخرى بصفتين هما وقف عليها [وهما أنها عقلية صوفية. وإنها لا تزال تتسكع في مرحلة ما قبل المرحلة المنطقية] . نعم هناك عقلية صوفية أكثر بروزاً لدى البدائيين منها لدى جماعاتنا نحن معاشر المتحضرين ، ومن الممكن ملاحظتها عندهم على وجه أكثر يسراً . ولكن هذه العقلية لا يخلو منها أحد من بني الإنسان »(١) . كما يتخلى ليڤي بريل في هذه « المذكرات » أيضاً عن القول بعقلية ما قبل المرحلة المنطقية ، فيقول : « إن البناء المنطقي للفكر هـو هو في الجماعات البشرية المعروفة كافة . . . فلنقلع منذ الآن عن الحديث عن عقلية ما قبل المرحلة المنطقية »(٢) .

فإذا كان الحال كذلك ، وإذا كانت العقلية البدائية لا تختلف في جوهرها عن عقليتنا نحن ، فما عساها أن تكون علة التناقض والإضطراب في عقلية الشعوب البدائية ، وهما اللذان كانا وراء قول ليڤي بريل بعقل بدائي مخالف في جوهره للعقل المنطقي الراقي ؟ .

ليس في الأمر الأمر تناقض أو اضطراب ، وإلّا لحقّ القولُ على البدائيين ولخرجوا من زمرة الإنسانية وكانوا نوعاً آخراً غير بني البشر . فكل ما بيننا وبينهم من خلاف إنما يكمن في أنهم لا يحسنون في كثير من الأحيان إستعمال عقولهم ، فيقعون في أخطاء يقع فيها البدائيون وغير البدائيين على السواء . إنهم لا يُخضعون عملية التفكير لرقابة التجربة ، كما أنهم ينطلقون من مقدمات رعناء غير مُحكمة لا توحي بالثقة . ومن هنا خبطهم وأغاليطهم . فإذا كانت عمليات التفكير لا رادع لها من تجربة أو واقع ، اختلط فيها الوهم بالواقع وتلاشت الحدود بينهما . وإذا كانت المقدمات فاسدة غير موثوق بها فمن الطبيعي أن تكون النتائج

---

(١) صفحة ١٣١ .
(٢) صفحة ٦٢ .

فاسدة غير موثوق بها هي أيضاً . فالفساد لا يُنتج إلاّ فساداً مثله . أي إن البدائيين إنما يعانون من نقص في التجربة ، لا من عجز في التفكير . فالتفكير عندهم سليم ، لكن منطلقاته مشكوك فيها إذ لم تنضجها الخبرة ولم يصقلها التجريب . وهذا ما يقع لنا نحن معاشر المتمدنين كل يوم .

وصفوة القول إن عملية الإستنتاج عند الشعوب البدائية صحيحة لا غبار عليها ـ وهذا بيت القصيد ـ وإن كانت النتيجة فاسدة لفساد المقدمات . فما بُني على الفساد فاسد ضرورةً كما يقول المناطقة .

من ذلك مثلاً أنهم يقومون بأعمال سحرية معينة للتأثير في الأشياء والأشخاص عن بُعد . فمن الوجهة المنطقية الصرف ليس من الخطأ أن يعزو البدائيون موت أحد رؤسائهم إلى فعل ساحر اقترف جريمته الشنعاء بتلاوة الرُّقَى والتعاويذ من مكان بعيد ، ثم يستنتجوا من ذلك ضرورة إقامة الحد عليه . فما داموا يؤمنون بتأثير السحر وقدرته على الفعل والتأثير ، وما دام الساحر هو القاتل ، فلا حرج عليهم بعد ذلك ـ من الوجهة المنطقية على الأقل ـ ان يستنتجوا ما استنتجوا . الإستنتاج هنا صحيح لا شائبة فيه منطقياً كما قلنا ، ولكن المقدمتين اللتين انطلق منهما هذا الإستنتاج (وهما : السحر مؤثر ، والساحر هو القاتل) فاسدتان تجريبياً . ومن أخطائهم التجريبية ـ لا المنطقية ـ أيضاً أن أحدهم إذا كان يرفض أن يستولي الآخرون على صورته ، أو أن تقع في أيديهم قصاصة من ثوبه أو ضفرة من شعره ، فذلك نتيجة منطقية لإعتقاده الراسخ أن هذه الأشياء إنما هي جزء لا ينفصل عن شعره، فأي أذى يلحق بها لا بد ان يلحق به هو أيضاً . ولما كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة ، ويعتقدون أن الموت إنما هو نوع من الحياة ، إنه إنتقال من برزخ إلى برزخ ، فلا تثريب عليهم ـ منطقياً على الأقل ـ أن يقدّموا بين يدي مليكهم وقد فارق الحياة ، أهم متاعه لينتفع به في مُقامه الجديد ، وأن يدفنوا معه جميع خدمه وعبيده الذين سيعيدون له على جناح السرعة بناء قصره هناك وسيتولون تأثيثه وتنظيمه .

ولا يقل البدائيون عنا إيماناً بمبدأ العلية (السببية) ، ولكنهم لا يحسنون تطبيقه ، لا لعجز في تفكيرهم ، بل لنقص في خبراتهم وتجاربهم . وأكبر شاهد على سلامة إيمانهم بهذا المبدأ صناعة الأفخاخ والأسلحة النارية لديهم (كالكلاليب والسهام والبنادل والمقاليع . . .) . فهذه الصناعة لا سبيل لهم

إليها لولا إيمانهم الوطيد بوجود علاقة ما بين السبب والمسبّب ، بين الفخ والفريسة ، بين السهم المصنوع بحيث يصيب مقتلاً في الحيوان وبين الحيوان المقتول إلخ . فنحن ههنا بإزاء منطق عملي سليم للسيطرة على عالمهم لا مجال للشك فيه ، ولكن السحر الذي غرقوا فيه قد أفسد عليهم أمرهم(١) .

إنّ التفكير البدائي تفكير سهل جذاب يغري الكثيرين ببساطته وقلة تعقيده ، بل قل هو عنوان البساطة ، إنه يتوخى البساطة في كل شيء ولا يدخر وسعاً لتحقيقها والوصول إليها . فهو يعبر عن التجربة الإنسانية في أبسط صورها وأيسر طرقها وأكثرها فطرية وطهراً وسذاجة ونصاعة . وقد أظهرت بحوث لويس ويبر L. Weber أن هذا التفكير ينزع في جوهره إلى مبدأ الإقتصاد في الجهد ، أي إلى بذل أقل مجهود ممكن لتحقيق أهدافه وغاياته . فمما لا شك فيه أنه لأَهْوَن على المرء أن يؤمن بفضائل تلاوة الرُّقَى والتعاويذ ويأخذ بالتمائم والطِّلَسْمات ، ويدين بالتأثير عن بُعد بواسطة السحر والنفْث في العُقد ـ أقول أن ذلك أهون عليه من أن يصنع علماً صحيحاً يتطلب منه نصيباً كبيراً من الدأب والمعاناة والعمل المتواصل ، ويستدعي تعاون فريق كبير من الباحثين والعلماء ، وتضافر جهودهم المشتركة . ففي السحر تحطيم للحواجز وتذليل للصعوبات وتحقيق للإماني والأحلام بأقل جهد وأرخص ثمن . فيه خداع للنفس وإضفاء هالة من القوة المستعارة عليها ، وإشعار لها بالسكينة والصحة والعافية ! .

هذا وليست العقلية البدائية مقصورة على الجماعات البدائية وحدها . ففي المجتمعات التي توصف عادة بأنها مجتمعات متحضرة راقية ـ ناهيك بمجتمعاتنا نحن معاشر المنتمين إلى العالم الثالث ـ عدد لا يستهان به من الناس لهم عقلية بدائية . فالمجتمع الواحد ، كما يقول غوستاف لوبون بحق ، لا تجانس فيه أبداً من الوجهة العقلية ، بل هو يشتمل على جميع المراحل التي مرت بها الإنسانية ، في عصورها المختلفة ، وفيه نماذج من جميع العقليات وأنماط التفكير(٢) . ولست أقصد مجتمع العالم الثالث فقط ، بل مجتمع العالم الأوّل ، العالم المشع المتحضر ،

---

(١) انظر كتابنا السالف صفحة ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) نقلاً عن : Gaston Bouthoul: Traité de sociologie, I, 445. .

عالم أميركا وانكلترا وفرنسا . . . إن الرجل المتحضر يعيش في الغالب حياتين : حياته الرسمية الظاهرة التي يعرفها الناس عنه ، وحياته الدفينة الخاصة التي لا يطلع عليها سواه والتي هي ادنى إلى حياة البدائيين . وفي ذلك يقول اخيل أوى : Achille Ouy « ان كثيراً من معاصرينا لهم أدمغة الأطفال تعلوها كلمات الخبراء ورجال الإختصاص[٢] » ففي المجتمع الواحد طبقات متفاوتة من النمو النفسي والنضج العقلي والوعي اليقظ بعضها فوق بعض . هذا ما أسفرت عنه الدراسات الفولكلورية الحديثة . بل إن هذه الطبقية موجودة في الفرد الواحد أيضاً . ذلك بأن نمونا العقلي ليس متكافئاً دائماً مع قوانا النفسية الأخرى ، وإنما هناك إختلاف وفوضى في التوزيع غير العادل لقوانا وطاقاتنا قلَّ أن ينجو منها انسان . ولا أدري ما إذا كان ذلك من أسباب سعادتنا أو مصدراً لكثير من مآسينا .

ليس هناك عقلية تخلو من حد أدنى من المرونة والاستعداد للتقدم والوصول إلى أعلا الذرى . كما أن أشكال التفكير البدائي موجودة في الغالب على وجه الكُمون على الأقل ، في أكثر المجتمعات تقدماً ورقياً واستبحاراً في العلم والفكر . فإنّ عدداً كبيراً من الأشخاص المتمدنين تبقى فيهم ـ حتى في سن النضج ورغم ما يتلقونه من تربية وتعليم ـ نزعة دفينة لذيذة إلى السخف والإعتقاد بالسحر والخرافة . فالذهنية الوضعية المتعقلة تحقق للرجل المتمدن ضرباً من التوازن العقلي في أصفى حالاته وأكثرها إشراقاً ، ولكن هذا التوازن غير دائم ـ فضلاً عن انه غير طبيعي أيضاً ـ يهدده باستمرار ما في الحياة العملية من فواجع واحزان ومآس وخطوب ، بل من مغريات ومسرّات تُخلُّ به وتفجر فيه بالتالي ينابيع التصوف وتهيئه للرؤى والأحلام ، وتلقّي الفتوحات الإلهية والفيوضات الربانية . . . فراراً من هذا التوازن الثقيل الذي لا يطيقه كل أحد . فالإنسان ـ أيّ انسان ـ عرضة دائماً لموجات وتقلبات وتصاريف لا ضابط لها ومن الصعب على كثير من الناس أن يتحكموا فيها ، إلاّ مَنْ رحم ربُّك ، وقليل ما هم ! .

إن عالم السحر عالم جميل حقاً ، عالم تدغدغه الرؤى والأحلام . إنه عالم لا يعرف المستحيل ، ولا يقف في وجهه شيء لا يؤسى كَلْمُه ، ولا يُرتَق فتقُه ، ولا يُلأم صَدْعُه . أفنعجب بعد ذلك ان يفرّ إليه جماعة من الناس ضاقت عليهم سبل

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق .

الحياة ، وطاردتهم قوى الطبيعة الغاشمة ، فآووا إلى كهفهم الهادىء المطمئن ، وحققوا بالأسرار والقوى الخارقة ، ما لم يستطيعوا تحقيقه بقوى الطبيعة وقوانينها ؟ لقد رجعوا القهقرى وعاجوا إلى عالم زاهٍ من الأشباح والأرواح ليس للأشياء فيه ثبوت واستقرار ، بل يختلط الواقع فيه بالخيال وتضيع فيه معالم الأشياء . إن العقل ليس هو نقطة البداية في حياة الإنسان ، إنه نهاية المطاف . ولذلك لا استقرار له في الإنسان ولا رسوخ ، وما أسرع ما يفرُّ من قفصه الذهبي الجاف إلى الفلاة والفضاء الواسع ، ليجدد نشاطه ويشفي غليله بماء عذب فيه ريٌّ ودفق .

●

قد يؤخذ على البدائيين أنهم عموماً أقل قدرة على الإنتباه من نظرائهم المتمدنين . ولكن هذا الفارق بيننا وبين البدائيين لا تخلو منه الشعوب المتحضرة أيضاً . إنه في معظمه وليد التربية وثمرة من ثمراتها ، وإن من أكبر واجبات علماء التربية وعلماء النفس في الوقت الحاضر أن تتضافر جهودهم ومساعيهم لتحقيق الوسائل الكفيلة بتقوية الإنتباه في الأطفال والشبان وتعويدهم عليه بالدربة وضبط النفس والإستقواء عليها . فمن ملَكَ نفسه مَلَكَ العالم ، وانقادت له الأشياء .

إن التصديق بوجود ما يسمّى بالعقلية البدائية التي لها عملياتها العقلية الخاصة المغايرة في طبيعتها لجنس العمليات العقلية عند الأمم المتمدينة ـ أقول إن التصديق بذلك أمر لا يعود على العلوم الإجتماعية بأي فائدة ، بل يزيد في تعقيدها ويخلق صعوبات جديدة أمامها . فالعلوم الإجتماعية تندفع في شعاب محفوفة بالمخاطر إذا وضعت حدوداً وحواجز بين عقليات الأمم والشعوب . إن القول بوجود مثل هذه الحواجز فرضية خاملة لا تتطلب من صاحبها أي جهد أو معاناة . وكأني به ينظر إلى الجزر المتناثرة في المحيط على أشكال مختلفة وصور متباينة فيخال باديَ الرأي انها عوالم وأكوان لا رابط بينها ، ولا جامع يجمع شملها ويلم شعثها . انه ينسى انها قمم جبال عالية تقع سفوحها في قاع محيط واحد وترسو على أرض واحدة . . . وبدلاً من أن يقول بعقل إنساني واحد له بنية منطقية واحدة وتكوين واحد ، فإنه قد تعجل الحكم وقال بعقول متعددة لكل منها بنيته المنطقية الخاصة . إن هذه الفرضية لا تكلف صاحبها شيئاً ، فهي نظرة سطحية مكسال لا تمحيص فيها ولا تحقيق ، تكتفي من الأشياء بظواهرها . إنها

تخرب ولا تعمّر ، وتهدم ولا تبني ، وتزرع في القلوب الشكوك والأحقاد،من غير أن يجني العلم من ذلك شيئاً . فنحن إلى التوفيق أحوج منا إلى التفريق ، وما أغنانا عن الشحناء والبغضاء في عالم انهكه الصراع والشقاق فتطلع إلى الحب ليتنسّم عبيره ويستروح في حماه . . .

فالفكر الإنساني شديد التنوع ، كثير التشعب ، بالغ التعقيد ، متعدد الجهات والألوان ، لكنه مهما تعددت شعابه واختلفت اتجاهاته وتباينت طرقه ومسالكه،فانه في الجنس الأبيض هو نفسه في الجنس الأصفر ، وهو نفسه أيضاً في الجنس الأسود . انه يصدر عن حوض واحد ، ويُسقى بماء واحد . فإذا لمح الدارسون في هذه الوحدة عناصر افتراق وتباين فإنها ليست من التشتت والتفتت بحيث تغيب فيها آيات الوحدة . فان عناصر الإفتراق التي تطفو على سطح الفكر الانساني أشبه بالاشياء التي تطفو على سطح البحر . ان أحداً لا يستطيع ان يقول ان هذا الثبج الطافي وهذا الزبد الراغي ، وهذا الحطام المتماوج ، وهذا الهدير الصاخب ، وهذه السفن الماخرة . . . ليست أشياء هذا الخضم العظيم الواحد ، أو ليست معالم ثابتة أو متحركة له .

ان التفكير البدائي هو ظاهرة اجتماعية تاريخية طبيعية . انه تفكير مرحلي لا يبقى على حاله ، بل هو قابل للتطور دائماً إلى أنماط أرقى من التفكير ، وذلك عند سنوح الفرصة ونضج الظروف الملائمة . فطبائع الشعوب لا تبقى على وتيرة واحدةعلى مر العصور والدهور ، وإنما هي تتغير وتتبدل ويطرأ عليها أحوال تحددها خصائص تطورها التاريخي . ومن يتوهم الاستقرار في طبائع الأمموالشعوب هو كمن يظن ان لأمواج البحر ثباتاً ودواماً . وبعبارة أخرى ، لا يجوز أن ننظر إلى الخصائص المميزة لتفكير شعب من الشعوب في مرحلة معينة من تاريخه فنجعل منها طبيعة عرقية ثابتة لا تتغير ولا تتطور ، ونعممها على تفكيره في مختلف مراحله التاريخية ، متجاهلين ظروف الواقع الموضوعي . فخصائص التفكير لكل شعب ولكل أمة انما ترتبط بظروف الواقع الموضوعي لحياة هذا الشعب أو تلك الأمة . إنها حصيلة عملية تاريخية مستمرة تجري في اطار حركة تطور المجتمع في الزمان والمكان تطوراً تحدده أوضاع وحالات مستقلة عن الذات المفكرة الواعية وإن كانت تؤثر فيها وتتفاعل وإياها . فالتعميم في مثل هذه الأحوال خطأ فادح ما دامت حياة الأمم والشعوب دائبة الحركة والتغير ، وليست ثابتة جامدة تبقى على حالها في كل مرحلة من مراحل تطورها التاريخي .

إن التخلف ليس له جنسية أو وطن أو دين . إنه يختار ضحيته حيث يستطيع ذلك ، كالميكروب يفتك بجميع الأجسام التي يتاح له الفتك بها ، لا فرق في ذلك بين غني وفقير وصعلوك وأمير . وإنها لكذبة كبرى أن نتصور للتخلف لوناً أو ديناً أو وطناً . فجميع الأجناس والأقوام والأعراق عرضة له في بعض مراحل حياتهم . هذا ما يقرره المنهج التاريخي في دراسة الشعوب . فالقصور الذي يُنسب إلى البدائيين إنما هو قصور تاريخي مرحلي ، وليس شيئاً ثابتاً في جِبِلَّة القوم وأصل تكوينهم وصميم وجودهم .

ولو صح أن العقلية البدائية متخلفة بفطرتها عاجزة عن اللحاق بركب الحضارة ، غير قابلة للتطور إلى أنماط أرقى من التفكير ، فليت شعري كيف استطاع أسلاف الاوروبيين الحاليين الذين كان لهم في عصور ما قبل التاريخ حضارة أدنى إلى حضارة زنوج افريقيا ، أو إلى حضارة الأوقيانيين في القرن الماضي ـ أقول كيف استطاعوا أن ينتقلوا من عقلية إلى أخرى ، وأن [illegible]روا عبر العصور من طور الهمجية إلى طور المدنية ؟ أجل ، كيف تمكن الأخلاف المباشرون للأسلاف المتوحشين أن يصلوا إلى قمة الحضارة الحديثة ، ويحققوا في ميدان العلم والأدب والفلسفة والفن أمجاداً وانتصارات لا عهد للانسانية بها من قبل ؟

إن الأمثلة نادرة جداً ـ هذا إذا لم نقل إنها منعدمة ـ حتى الآن على شعوب بدائية لم يمكن تحضيرها . نحن لا ننكر أن يكون فيها أفراد أمْحَلَت عقولهم واجدبت أذهانهم ، حتى لقد فقدت كل قدرة على التفكير وكل تطلع إلى الأفضل . ولكن هؤلاء ظاهرة عامة في كل المجتمعات ، ولا سيما المجتمعات الراقية التي لا تخلو هي أيضاً من عدد لا يستهان به من هؤلاء الأغبياء الذين لا يكادون يفقهون قولاً . إنهم كالانعام ، بل هم أضل سبيلاً ! وإني لأُهيب بمن يشك في ذلك أن يزور مستشفيات الأمراض العقلية في كبريات العواصم العالمية . وهناك سيرى العجب العجاب . وأنا به زعيم !

●

إن تقسيم الأمم وفق سلم عقلي تتفاوت فيه مراتبها وأقدارها هو عمل غير أخلاقي مشين . إنه الأكذوبة الكبرى . فأنا لا أعرف أمة لا تستطيع إنجاب النوابغ والأفذاذ ، ولكنني أعرف أُمماً كثيرة لا تتيح لهؤلاء فرصة العمل والظهور .

ثمة عبقريات كثيرة برزت في المجتمعات المتطورة ، ثم أجدبت وانطفأت عند رجوعها إلى مواطنها الأصلية في العالم الثالث . لا بد للعبقرية من مناخ ومن جوٍ اجتماعي وشروط موضوعية وعينية ، تساعد على الخلق والابداع . فقد ظهرت منذ البداية ، وفي كل المجتمعات ، مستويات مختلفة من الرجال والنساء ، وأنواع مختلفة من الفرص . فالأقوام الذين استقروا على الشواطىء المائية تكونت لهم فرص تختلف عن فُرص أبناء عمومتهم الذين أوغلوا في القفار أو سكنوا الغيران والكهوف . وكانت كل ميزة تقدمها الطبيعـة تخلق في الأفراد حاجات خاصة . وانقرضت هذه الحاجات أو بعضها بمرور الزمن : وفي هذا لعمري تفسير لبعض الفنون الانسانية التي وصلت إلينا من عصور سحيقة موغلة في القدم . فقد استطاع الإنسان الأول صنع أشياء نعجز نحن اليوم عن صنعها ، وواجهته أخطار لا يمكن تصورها في الوقت الحاضر .

أجل ، ليس هناك شعوب متخلفة بالفطرة والغريزة ، وأخرى متقدمة بالفطرة والغريزة ، وإن كان هناك أفراد متخلفون بالفطرة والغريزة في الجانبين معاً على السواء . فالانسان هو الإنسان في كل زمان ومكان ، لأن نشاط المراكز العليا في الدماغ هو في جوهره واحد في جميع الأجناس البشرية ، وانما البيئات والفُرص المتاحة تفرق بين الشعوب . وقد لاحظ داروِن هذه الحقيقة الناصعة منذ وقت مبكر ، وقبل أن تُستكمل الدراسات الخاصة بها بزمن طويل . وفي ذلك يقول : « يُصنَّف الفوجيون Fuegiens في عداد اشد البرابرة فجاجة . ومع هذا فقد أدهشني ، وأنا على متن السفينة بيغل Beagle، أن أرى كيف أن ثلاثة نفر من هذا الجنس كانوا قد عاشوا بضعة أعوام في انكلترا ، وكانوا يتكلمون الإنكليزية قليلاً ، يشبهوننا في معظم الصفات والملكات العقلية[1] » .

ولم يفسر داروِن إنحطاط المستوى الحضاري لسكان أرض النار (الفوجيين) هؤلاء بخواصهم النفسية العرقية ، بل لقد التمس تفسير هذه الظاهرة في العوامل الاجتماعية والاقتصادية . فلولا أنهم أقاموا في هذه الأرض القاحلة الجرداء البعيدة عن مراكز الحضارة والعمران ، والتي ربما ألجأهم إليها بعض القبائل الغازية ، لربما كانوا أحسن حالاً منهم اليوم[2] . والنتيجة التي ينتهي

(١) نقلاً عن : Nestoutkh : Les races Humaines , P . 106

(٢) المصدر السابق صفحة ١١٧ .

إليها داروِن من خلال أبحاثه وبعد مقارنات كثيرة ، هي أنه كلما أوغلنا في التاريخ وجدنا أن جميع الأجناس البشرية تتشابه في الذكاء والقدرة على الخلق والابتكار(١) .

وهذا هو رأي المدرسة الانكليزية عموماً . إذ يذهب رجال هذه المدرسة (تايلور ، لوبوك ، فريزر الخ) . إلى أن العقل الانساني واحد لدى جميع الأجناس والأقوام والشعوب . فالكل يشتركون فيه على حد سواء ، وله عندهم منطق واحد ، ومقولات واحدة ، لا فضل في هذا لأبيض على أسود ، ولا لأوروبي على منغولي . فإن فريزر ـ عميد هذه المدرسة ـ قد انكبَّ في شتى كتبه التي أصبحت كلاسيكية وأهمها (الغصن الذهبي) على دراسة مختلف نظم الحياة البدائية ، الدينية والاجتماعية والسياسية (خرافات ، سحر ، طلسمات ، آراء في السلطة والملكية . .) واستقصى الصور والأشكال التي تتخذها هذه النظم عند مختلف الاقوام والأجناس ، ثم قارنها بعضها ببعض وبما يشبهها عند الشعوب البدائية وعند أنصاف البدائيين الموجودين في الوقت الحاضر ، وقارن ذلك كله أيضاً بما يشبهها لدى الشعوب القديمة وتلك التي توغل في عصور ما قبل التاريخ . فاكتشف أوجهاً من الشبه عظيمة بين هذه الشعوب جميعاً ، جعلته يحجم عن القول بوجود فروق جِبِلية congenitales بين الشعوب ، ويعلن على رؤوس الأشهاد أن هذه المشابهات إنما هي نتيجة منطقية لوحدة العمليات العقلية لدى جميع هذه الأقوام والأجناس ، رغم تباينهم وإختلاف ألوانهم وأشكالهم وتباعد أوطانهم . بل هو يؤكد أيضاً أن الخرافات والسحر والتعاويذ السائدة بين البدائيين لا تمسّ بنية التفكير الأساسية عندهم ولا تطعن في سلامتها . وما ذلك إلا لأن طرق التفكير وبنية العقل الإنساني وقيامه بوظائفه هي هي في كل زمان ومكان . فما يتغير إنما هي تجارب الناس وأشكال الحياة في المجتمع . وبعبارة أخرى إن مقولات الفكر ووظائفه تظل هي هي عند جميع الأمم والشعوب ، أما ما يتغير ويتبدل بتبدل الزمان والمكان واختلاف الظروف والأحوال فانما هو مضمون الفكر وحده ، المادة هي التي تتغير ، وأما الصورة فتبقى على حالها منيعة صلبة .

---

(١) المصدر السابق .

في المؤتمر الدولي لعلم الانسان الذي انعقد بكوبنهاغن في صيف عام ١٩٣٨ حاول بعض العلماء الألمان الرجعيين أن يثبت في التقارير التي تقدم بها إلى المؤتمر وجود ملامح نفسية عرقية موروثة . وقد ذهب هذا البعض في دفاعه عن التفرقة العنصرية إلى حد القول بأنه إذا كان سكان استراليا الأصليون على وشك الانقراض التام فما ذلك إلاّ بسبب تكوينهم النفسي العرقي الرديء . ويؤيد رأيه هذا بالماوريس Maoris ـ سكان زيلاندة الجديدة ـ الذين لم ينقرضوا لأنهم أوروبيون !! بل إنهم علاوة على ذلك قد تمثلوا الحضارة الأوروبية ، وأصابوا في ذلك نجاحاً كبيراً . ولكن سائر أعضاء المؤتمر اشمأزوا من ذلك وردوا على زملائهم ردوداً مختلفة ، فأنكروا وجود تكوين نفسي متميز لكل جنس من الأجناس البشرية ، وأثبتوا أن المستوى الحضاري (أي ظروف البيئة المتاحة) هو الذي يحدد عقلية الناس ويعطيها مضمونها ومادتها[١] .

فعندما تكون ظروف الحياة الإجتماعية ظروفاً ملائمة في قطر من الأقطار تتفتح براعم الحضارة بين أبنائه مادياً وروحياً . فالتكوين النفسي للأفراد وطابعهم القومي ، وسلوكهم في الحياة ، واستجاباتهم وردود افعالهم إزاء الناس والأشياء ، ونظم الحكم ـ كل أولئك إنما يتشكل ويتبلور بعامل البيئة والمحيط ، وهو العامل الحاكم في هذا المضمار .

وهناك ـ علاوة على جميع ما ذكرنا ـ دراسة كان قد قام بها عالم روسي مشهور هو ميكلوخو ـ ماكلاي Mikloukho - Maklai للذكاء الفطري عند قبائل أوقيانيا « المتوحشة » . فقد عاش هذا العالِم سنين طويلة بين رجال قبيلة . البابو Papous وعقد مع أفرادها علاقات صداقة ومودة متينة ، فخلُص إلى هذه النتيجة : وهي أن التكوين النفسي لهؤلاء الأقوام لا يقل نضجاً عنه لدى الأوربيين . ويصف ميكلوخو ـ ماكلاي البابو بأنهم يتمتعون بإحساس مرهف وذوق جمالي رفيع . فهم ينحتون بكثير من الإستعداد الفني دُمىً تمثل أسلافهم القدماء ، ويصنعون زخارف أوفت على الغاية في الجمال[٢] . وينتهي من ذلك إلى القول بأن البابو قادرون على الوصول إلى مستوى من التطور الثقافي لا حدود له .

---

(١) انظر Nestourkh p . 108

(٢) المصدر السابق صفحة ١١٠ .

فهم من هذه الناحية لا يقلّون عن الأوربيين أيضاً .

إن دراسة ميكلوخو- ماكلاي ودراسات أخرى كثيرة سبقتها وأعقبتها فضحت جميعاً الروح غير العلمي والنية السيئة لدعاة التفرقة العنصرية الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويُسخِّرون النظريات العلمية لأغراضهم الدنيئة المنحطة ، ويتشدقون صباح مساء بأن الملونين عاجزون بطبيعتهم عن استيعاب منجزات الحضارة الاوروبية العتيدة استيعاباً ناضجاً واعياً . فقد نذر هذا العالِم الروسي الكبير حياته كلها - وماأقصرها للأسف ! - للدفـاع عن مبدأ المساواة البيولوجية بين الأجناس البشرية . جميع الأجناس في نظره يمكنها - عند توفر مجموعة من الظروف الخارجية الصرف - تحقيق أعظم المنجزات العلمية والحضارية ، مهما كانت منزلتهم منخفضة في سلم الحضارة .

وقد سبق ميكلوخو- ماكلاي رعيل كبير من العلماء الروس البارزين ، منهم تشرنيشفسكي : Tchernychvsk وستشنوف Setchenov وغيرهما . فجميعهم قد رفضوا التفرقة العنصرية وتأثير الإنتماء العرقي في تقدم الشعوب ، وقد بنوا آراءهم ونظرياتهم على أبحاث ودراسات علمية مضنية قاموا بها على الجهاز العصبي والمخ . ويؤكد إيفان ستشنوف السالف الذكر « أن آلية التفكير لدى الانسان بما هو إنسان ، وكذلك ردود فعله العاطفية ، لم تتغير في جوهرها طوال عصور التاريخ . كيف لا وهي لا ترتبط بالجنس ولا بالبيئة الجغرافية ولا بالمستوى الحضاري »[1] .

إن أشد الناس تعصباً للنظرية العنصرية لا يجحدون نهضة اليابان العظيمة وتعدد مواهب أبنائها في جميع الحقول والميادين . وهي دولة آسيوية انتبذت في أقصى الشرق مجموعة من الجزر القلقة ، فوطّأتها بالعلم والتكنولوجيا وشذّبتها ، وخططتها بلاداً عامرة ومساكن طيبة ، ومراتع واسعة ، وجعلتها مهاداً لأحدث حضارة صناعية يحسب لها الغرب اليوم ألف حساب .

والصين ، وما أدراك ما الصين ! ها هي ذي أميركا تخطب ودها . لقد خرج المارد الأصفر من القمقم ينازع الرجل الأبيض حقه في البقاء !

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق صفحة ١١٠ - ١١١ .

كذلك لا أحد ينكر مهما بلغ به التعصب العنصري ـ أن عدداً ضئيلاً جداً من الزنوج الأذكياء يفوقون عدداً كبيراً جداً من الأوروبيين البيض العاديين . أما آسيا فحدّث عنها ولا حرج . فهناك رجال دولة أسيويون وأفريقيون وصلوا إلى أعلى المقامات : كالمهاتما غاندي ، وجواهر لال نهرو ، واحمد سوكارنو ، وكوامي نيكروما ، وليوبولد سنغور وغيرهم من كبار الرجال ، وحسبنا أن ننوه بباتريس لومومبا الذي ضحى بحياته في سبيل تحرير بلاده . أن عدداً كبيراً من الزنوج قد وصلوا إلى قمة الابتكار العقلي والفني ، نذكر منهم على سبيل المثال العالِم الكبير وليم دي بوا W . Du - Bois والمغنّي العظيم بول روبنسون بطل السلام ، والمصور والفنان الإسترالي البير نامات جيرا A . Namatjira .

لقد حطم العلم أسطورة (الغريزة العرقية) التي تثير الضغائن وتستفز المشاعر وتوغر الصدور . . . لقد انصبّت جميع القنوات في مجرى وحدة العقل والنفس والشعور بين جميع الأقوام والأجناس . وها هي ذي كرامة الانسان التي أثخنتها الجروح ، وأثقلتها القروح ، وأدمتها الكلوم ، تخرج من المعركة مرفوعة الرأس ناصعة الجبين . . . فالانسان أخو الانسان ، أحب أم كره : هذا هو المغزى الكبير الذي يتمخض عنه العلم في الوقت الحاضر .

ولكن هل يسمع ذلك رجال السياسة والعسكريون ، أم إن على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقراً ؟

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حياً ولكن لا حياة لمن تُنادي

●

والآن ، هل لم يبق في قوس العلم منزع أم في القوس منازع أخرى أيضاً ؟

هل انتهت ـ نظرياً على الأقل ـ قضية التفرقة العنصرية في صراعها مع العلم أم هناك فصول أخرى من القصة أيضاً ؟

وبعبارةٍ أخرى ، هل ما أسلفنا هو كل ما في جعبة العلم في صراعه مع أسطورة تفوّق الجنس الأبيض، أم لا يزال هناك شواهد غير ما ذكرنا ؟

ان تقدم العلم عملية لا تنتهي ، فما ذكرناه إنما هو غيض من فيض . وهاك بعض الشواهد الأخرى التي تضيف بعض الجديد والتي تصب دائماً في قناة

المساواة بين الأجناس والأقوام والشعوب .

هناك عاملان إثنان لا بد من تفاعلهما معاً لتحقيق أي مدى من التقدم والإزدهار وأي حركة بنّاءة في التاريخ ، وأعني بهما الذكاء الوقّاد والفرصة المؤاتية ، ولا قيمة لأحدهما دون الآخر . فلنبحث كلاً منهما على حدة .

١ ـ إن التفكير والذكاء هما عنوان تفوّق الانسان على الطبيعة الجامدة وهما مبرر وجوده . فكل تقدم في العلم والحضارة إنما تصنعه الصفوة المختارة والقلة المفكرة الذكية التي هي مناط التاريخ وسره المكنون . لذلك لا يجود بها الزمان إلا بمقادير شحيحة جداً لأسباب لا تزال مجهولة . في هذه الصفوة المختارة تتجسد آمال البلاد وفلسفتها ومُثلها ، وبها إنما يتخطى التاريخ ذاته ويحقق قفزاته المذهلة . إنها أداة التطور والدينامية ، وبها تتم جميع التحولات المفاجئة وتندلع الثورات وتُصنع المعجزات . فالأبطال والرواد والقادة والفلاسفة ، والأفذاذ في أي ميدان من ميادين العلم والفن والأدب ، والمخترعون والمستكشفون وأصحاب القرائح ، وكل من شب عن الطوق وارتفع فوق مستوى الجماهير وتصدى للمسؤوليات الكبيرة وإتخاذ القرارات الحاسمة والمواقف الصعبة ، وكل من تفجر لسانه بالحكمة واتسع قلبه ووجدانه وانثالت عليه المعاني . . . هؤلاء النادرون إنما يقع عليهم العبء الأكبر في صنع التاريخ وتوجيه الأحداث . إنهم العقول المدبرة التي إنما تخطط وتبرمج وترسم ، وتضع المبادىء والمناهج والأصول ، وعلى الجماهير بعد ذلك استكمال ما بدأه هؤلاء ومتابعة الطريق الذي شقوه لهم وجني القطوف والثمار . يا لسخرية التاريخ : الزارع يموت ولا يبقى إلا الحاصدون الكسالى ، كالشمعة تحترق لتضيء الآخرين ! كم من رجل عظيم أضاء للانسانية طرقاً كانت مظلمة ثم مضى في قوافل النسيان التي يفترسها الليل . . . المجهولون الذين تركوا في أيدي الانسانية آثارهم ثم غابوا هم قوافل بلا وجوه ولا ملامح ، وإن أحداً لا يكاد يعرفهم بل أن يقرّ لهم بفضل . انهم أضواء خافتة على المغيب تمر لتؤدي دورها ثم تغرق في المحيط العظيم . لقد غابوا جميعاً ، فلم يبق إلا التافهون ، إلا المقلدون ، إلا الببغاوات يغدون ويروحون كأنهم صناع العالم . أن هؤلاء ينتمون إلى مدرسة كبيرة ، كبيرة جداً ، ضاعت من بين أوراقها بطاقات الهوية والإنتماء ، وأُلغيت من قاموسها كلمات الحصانة والشخصية المستقلة التي تعي ذاتها ووجودها . . . حسبهم أن يعيشوا كالسائمة بأعين مغمضة وفراغ قاتل .

هذه سنة من سنن الطبيعة ، لا أفهم لها معنى . إنها ضريبة الفكر ، وما أبهظها من ضريبة ! إنها مجده ومأساته في وقت واحـد . عجيب أمر هذا الفكر يقتل ذاته لإحياء غيره !

نحن لا نلقي العبء كله على القلة وحدها ، ولكننا إنما نبين موقعها القيادي في صنع الأحداث . فالدهماء قوة ، ولكنها قوة طائشة غير واعية لا تدرك ما يجري حولها ولا ترى ما يرتسم في الأفق البعيد . أن لها مطامح تنحصر في المطعوم والمشروب والمنكوح ، وليكن بعد ذلك الطوفان . وكم استخفها الحكام وبذلوا لها الوعود والأماني ، فأطاعتهم وأسلمت لهم قيادها كالنعاج يسوقها الجزار إلى المسلخ . إنها لا تعرف ماذا تريد ولا تحسن التعبير عما تريد . وكم غرر بها المغررون ونطق باسمها الناطقون . وكم نسيت الصفعة واللكمة أو تناستها ، لِفُتات من الطعام يسير ولِعَرَضٍ من الدنيا قليل !

هنا تبرز الصفوة المختارة لتقوم بالمهمات الجسام . هنا تكمن أهمية القلة النادرة التي لا تجود بها الطبيعة إلا بحساب دقيق جداً . بينما تلقي ذات اليمين وذات الشمال بأعداد لا حصر لها من التافهين والعاطلين والفارغين الذي لا أرى لوجودهم من معنى إلا أن يعيشوا عالة على الصفوة المختارة التي تمنحهم الدفء والرفد وأسباب الحياة ، ثم تهوي كما يهوي الآخرون في لجة سحيقة لا قرار لها . فالأمم إنما تقاس من هذه الناحية لا بعدد السكان ، بل بعدد العقول والأدمغة التي تخطط وتبرمج ، وترود وتستطلع ، وتسبر وتستقصي وتحلل وتدقق ، لتؤمّن للسكان العيش الهنيء والرفد الشريف والرزق الحلال . وكم عقّها العاقون وائتمر بها المؤتمرون ليقتلوها ويخنقوا أنفاسها . وكم سقطت صريعة مبادئها ومُثلها بعد أن أضاءت الظلمات واجترحت المعجزات . إنها - يا للمهزلة ! - الصفوة الذبيحة تخرّ في الطريق ليلتهم الوحوش أشلاءها وينهشوا عظامها ، ثم يغطّوا بعد ذلك في نوم عميق تدغدغهم الأحلام الجميلة والرؤى السعيدة !

وصفوة القول : إننا مدينون دائماً لتفكير فرد من الأفراد حبته الطبيعة مواهب خارقة . فالموهوبون هم عُدة الأمة ورصيدها وثروتها وعنوان مجدها . والأمة الذكية الواعية هي الأمة التي تحرص على اكتشاف الموهوبين من أبنائها وتفسح المجال لهم لكي يحققوا ذواتهم ويفجّروا طاقاتهم ويصلوا إلى مراكز القيادة والتوجيه ، فيُقيلوا عثرتها ، ويصححوا مسيرتها ، ويجنبوها مزالق الطريق ووعورة

المسالك ، ويدفعوا عنها غوائل الزمان .

إن البيت الصالح ، والمدرسة الجيدة هما البوتقتان الأساسيتان اللتان تنصهر فيهما هذه المعادن الثمينة ، ثم يأتي المجتمع الصحي السليم ليتعهد السبيكة ويجنبها الأخباث والأرنجاس والأوضار والشوائب . وستتدفق عليه الثروات بعد ذلك عاجلاً أم آجلاً ، وستدرّ عليه اللذات العلى . فليتق الله في هذه المعادن ، وحذار حذار أن يفرّط فيها أو يبخسها حقها .

إن إعتماد الانسان في سلوكه على الاكتساب والتعلم سواء في البيت أو المدرسة أو المجتمع، هو سر تفوقه على المخلوقات جميعاً وتمكّنه من السيطرة على هذا الكون، وما فيه من قوى وأفاعيل تؤثّر فيه وتحدد نمط سلوكه وتفتق مواهبه لتوجيه هذه القوى والأفاعيل وجهة تخضد شوكتها وتُسخّرها لمصالحه وأهدافه ، وكل ذلك في حركة ديالكتيكية متصلة من التأثير والتأثر ، والفعل والانفعال ، والأخذ والعطاء لا يسبر غورها ولا يُدرك كنهها .

إن التفوق العقلي الذي يتمتع به بعض الأفراد ثروة لا يُقدَّر بثمن . فإذا ما أتيحت لهم الفرصة السانحة فقد حصل الكمال . هذا التفوق ، هل هو مزية لبعض الشعوب على بعض أم هو حظ مشاع بين جميعها ؟ هل من الممكن وضع خريطة يتسنى لنا بها تتبع تركيزه في بعض المناطق دون بعضها الآخر ؟ هل يمكن وضع سلم ذكائي للأمم والشعوب ؟ كل الدلائل تجيب بالنفي . ولكن العنصريين لم يقتنعوا ولن يقتنعوا ولو جئناهم بكل آية . إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . فقد حاول العنصريون عبثاً وضع خريطة لتوزيع الذكاء يجده المرء فيها كثيفاً في دول غرب أوربا وشمالها ، . ثم يقل ويقل بعد ذلك في خطين يتجه أحدهما شرقاً والآخر جنوباً ، بإستثناء بعض الجيوب الأخرى التي وصل إليها الأوروبيون بحكم استعمارهم لها أو استيطانهم إياها ، حيث يتركز الذكاء من جديد في بؤر ضيقة وخطوط متعرجة تزيد وتنقص وتطول وتقصر تبعاً لكثافة الوجود الأوربي أو ضحالته .

إن خريطة من هذا القبيل ـ فضلاً عن أنها غير أخلاقية ، إذ يمليها الاستعلاء وحب السيطرة وابتزاز الشعوب ـ فهي أيضاً خريطة غير علمية . فالأسرة الانسانية أسرة واحدة ، والفوارق بينها إنما هي فوارق فرص وظروف تتاح هنا ولا تتاح هناك ، وتسخو بها الطبيعة لفريق وتشحّ بها عن فريق . . . وما عدا

ذلك فأشكال وأطوال وألوان ، وأسماء وعناوين وألقاب ، ونحو ذلك مما لا يدخل في إنسانية الإنسان . فالإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان . وقد تقدمت شواهد كثيرة على ذلك ، وسنقدم المزيد أيضاً . فالعلم لم تفرغ جعبته بعد ولن تفرغ ، ما دام هناك إنسان يفكر ، وعقل ينبض ، وسر يتكشّف وتتبدد الحجب من حوله .

فقد جاءت اختبارات الذكاء بدلائل جديدة تثبت هي أيضاً أن جميع الأمم والشعوب متشابهة في استعداداتها العقلية وتوزيع المواهب والقدرات فيها ، بل هي متساوية في الذكاء والغباء ، متساوية في العبقرية والبلاهة ، متساوية في الأوساط الذين يتراوحون بين ذلك . وعندما نقول أن جميع الشعوب متساوية في الذكاء فاننا لا نعني بطبيعة الحال أن كل فرد فيها فذ في ذكائه ، وإنما نعني أن نسبة عدد الأذكياء في هذا الشعب هي كنسبته في أي شعب آخر . أي لا تخلو أمة من الأمم من عدد معين من الرجال الأذكياء فيها ، وهؤلاء الأذكياء يزيد عددهم كلما زاد عدد السكان . وليس الذكاء وحده مما تتساوى فيه الأمم والشعوب ، فيزيد بزيادة عدد السكان ويقل بقلتهم ، بل الغباء يجري توزيعه بهذه النسبة أيضاً . فكما لا يخلو شعب من الشعوب من عدد قليل جداً من الرجال اوذكياء هم صفوته المختارة ، كذلك لا يخلو من عدد قليل جداً من الأغبياء هم غثاؤه وحثالته . ومعنى ذلك أن الأذكياء قلة ضئيلة في المجتمع ، كما أن الأغبياء قلة ضئيلة أيضاً . فالذكاء نادر الوجود لسوء الحظ ، والغباء نادر الوجود لحسن الحظ . كلاهما استثناء ، وكلاهما خروج على طبيعة الأشياء وأكثر الناس (حوالي ٦٥ ٪) أوساط موزعون بين هذين القطبين . أي أن القسم الأكبر من الناس في المجتمع متوسطون في الذكاء ، ونسبتهم هي حوإلى الثلاثين تقريباً ، وأما الثلث الباقي فنصف أفراده فوق المتوسط ، والنصف الآخر دون المتوسط . وهناك تفاوت في درجة هذا الذكاء المتفوق ، كما هناك تفاوت أيضاً في درجة الغباء . فهناك العباقرة في أعلا القمة ، وهناك البّله في أسفل السلم ، وما دونهما فأوساط في أوساط ، وهكذا فإذا كان الذكاء نادراً في الطبيعة فان العبقرية أكثر ندرة ، كما أن الغباء إذا كان نادراً في الطبيعة فإن البلاهة أشد ندرة . هذا قانون إحصائي عام . وككل القوانين الاحصائية يُشترط لصدقه الأعداد الكبيرة . فهو في الولايات الامريكية المتحدة أو الاتحاد السوفياتي أصدق منه في سويسرا مثلاً . لِمَ تسير الأمور على هذا النحو؟ لا أدري . ففي الطبيعة طلاسم وألغاز لا قِبلِ لنا حتى الآن بفهمها .

وعلينا قبل أن نصرف الجهد والفكر في فلسفة هذه الطلاسم والألغاز ونغوص في حكمتها وميتافيزيقاها ، أن نحاول الاستفادة منها أولاً ونُسخِّرها لأغراض الحياة بقدر ما تتسع له طاقاتنا ، فنقلل الأعباء التي يفرضها علينا وجود الأغبياء - إذ لا أمل في التقليل من عددهم فضلاً عن شقائهم[1] - ونتيح للأذكياء شتى الفرص والامكانيات التي تفجّر طاقاتهم وتكشف مواهبهم دن أن نفكر في زيادة عددهم ، فذلك دونه خرط القتاد . حسبنا أن نبرزهم إلى السطح ونقدم لهم الفرص المطلوبة وهم سيتولون الباقي بأنفسهم . كما نقدم فرصاً متكافئة لأوساط الناس ونحسن توجيههم ونوفر لهم البيئة الصالحة والمنـاخ الملائم . ثم ليخوضوا بأنفسهم معركة تنازع البقاء وإنهم على ذلك لقادرون .

ولا شأن لنا بعد ذلك فيما وراءهذا التوزيعالاحصائي وحكمته ومقاصده. فإنما العبرة في مغزاه وفي الدرس الذي يمكن أن يلقنه لنا . وأما المقاصد والغايات فإنها لا تهمنا هنا في قليل ولا كثير ، هذا إذا صح وجود المقاصد والغايات . وهذا التوزيع يثبت لنا مرة أخرى أن النقص في الذكاء ليس مكتوباً على الأقوام البدائية والشعوب المتخلفة ، كما أن الزيادة فيه ليست امتيازاً للشعوب البيضاء وحدها . فكلاهما حظ مشاع بين الأمم يستوي فيه البدائيون وغير البدائيين ، وتشترك فيه الشعوب البيضاء والشعوب الملونة بحظوظ متساوية دقيقة . فان أكثر الأمم رقياً وأشدها استبحاراً في العلم والحضارة لها نصيبها المقرر من المتخلفين عقلياً ، كما أن أكثرها تخلفاً لها حظها الثابت من القادة والمفكرين . فلا فضل لشعب على آخر - بعد أن أصبح الرصيد العقلي واحداً وتأمَّن رأس المال للجميع - إلا بالفرصة المؤاتية والمُناخ الملائم . بهما يبرز الذكاء وتتكشف المواهب وتقل مضارّ التخلف إلى حدها الأدنى . بانعدامهما يخمد الذكاء وتنطفىء شعلته ، وتكثر أعباء التخلف وتتفاقم شروره وويلاته . فالغباء والتخلف العقلي إذا أُحسن توجيهه وتوفرت له البيئة الصالحة أصبح أداة منتجة ، بعد أن كان عبئاً على المجتمع الذي يعرف كيف يستغل كل طاقة - مهما قل شأنها - من طاقات أبنائه ، عقلية كانت أم عضلية ، فلا يهدر شيئاً منها ، إذ يستعيض ببعض وجوهها عن بعض ، ويسدّ ببعض مسدّ بعض . هكذا يبني الشعوب من صحّت عزيمته حقاً على عملية بناء

(١) هناك محاولات جادة تجري على قدم وساق في ميدان الهندسة الوراثية لتصحيح ما أعوج من الطبيعة الإنسانية سواء من الناحية الجسمية أو العقلية . وقد بدأت التجارب - كالعادة - على الحيوان . ويعلق العلماء على هذه التجارب آمالاً كبيرة لتطبيقها على الإنسان .

الشعوب ، فاتجه إليها بكُنه الهمة وأقصى الجهد ، ولم يدخر في سبيلها علماً ولا مالاً .

٢ ـ قلنا في فقرة سابقة أن هناك عاملين اثنين لا بد منهما لتحقيق أي مدى من التقدم ، وهما الذكاء والفرصة . وقد تحدثنا عن العامل الأول ، فلنبحث الآن العامل الثاني . فالمسألة إذن ليست مسألة عقلية بدائية أو جنس ملوّن يختلف عن الجنس اوبيض اختلافاً جذرياً ، وإنما المسألة كما رأينا مراراً مسألة فرصة ، مسألة بيئة وحضارة . فالشعوب ـ جميع الشعوب ـ قد تحدّر بعضها من بعض ، ونشأ بعضها من بعض ، واختلط بعضها ببعض . لكن الظروف والفرص والملابسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية ، هي التي فرقت بين الأخوة والأشقاء ، فارتفعت ببعضها إلى أسمى المقامات ، وتدهورت ببعضها الآخر إلى أسفل الدركات . هذا هو العامل الثاني الموضوعي الخارجي الذي لا بد منه لتحقيق أي مدى من التقدم ، في مقابلة العامل الداخلي الذاتي الأول ، عامل الذكاء . فإذا كان هذا الأخير موزعاً بالقسط توزيعاً إحصائياً دقيقاً بين جميع الأمم والشعوب كما رأينا ، فان توزيع عامل البيئة توزيع جائر مجحف ليس فيه أثارة من عدل . إنه تجسيد للظلم والاستغلال والجشع كما أسلفنا . هناك بؤر غنية قليلة جداً في العالم مركّزة في مناطق محددة من أوربا وأمريكا واستراليا وبعض المستعمرات التابعة لها كجنوب افريقيا مثلاً . وأما سائر مناطق العالم فإنما هي بقرة حلوب للبؤر السابقة تستنزفها وتمتص دماءها وهي تبذل لها الوعود والأماني . إنها تعطيها باللسان ما تسلبه منها بالسّنان ، وتنهب خيراتها وتضنّ عليها بخبراتها . فإذا ما ثارت النعاج وتمردت ، كشّرت الوحوش الضارية عن أنيابها . فهي إذا جدّ الجدّ لا تألو في هذه النعاج إلاًّ ولا ذمة ، ولا تتساهل مطلقاً في حق القوي على الضعيف ، والغني على الفقير والجزار على البقرة . . . وكما أن المال يجرّ المال ، فان الفقر يجرّ الفقر أيضاً ، والتخلف يجرّ التخلف . ومن دواعي التخلف والفقر الفرقة والمشاحنات الداخلية تغذيها الأطماع الخارجية ، غُثاء كغثاء السيل تحسيهم جميعاً وقلوبهم شتى . . .

وهكذا اتسعت مسافة الخُلف بين الفريقين وتباعدت ، فنما الذكاء في فريق وأُهدر في فريق . وعلى الرغم من ظروف القهر والفقر والحرمان التي تعيش فيها شعوب العالم الثالث ، فقد بدأت هذه الشعوب تستيقظ . واستطاعت أن تُخرج إلى السطح بعض الأفذاذ القلائل الذين هم معقد آمالها ومناط رجائها . منهم من

وصل إلى تولي بعض القيادات فيها ، ومنهم من ينتظر ، ومنهم من لا يزال يتعثر في القاع . ومن حين إلى آخر نجد وجوهاً جديدة تطفو على السطح بعد عمليات شاقة ومخاض عسير .

ولئن دل كل أولئك على شيء فإنما يدل على أن المنهج التاريخي وحده يقدم لنا التفسير الحقيقي للتخلف الذي توصم به الشعوب البدائية والشعوب الملونة وسائر شعوب العالم الثالث . فهذا التخلف إنما هو تعبير عن حالة اجتماعية وتاريخية خارجية عارضة . إنه حصيلة ظروف موضوعية قاسية أرهقت هذه الشعوب بالأعباء والمطالب حتى لكادت تشلّ قواها ، أو لعلها شلتها بالفعل . إنه مرحلة مؤقتة في نمو المجتمع ومسيرته التاريخية ، إنه نتيجة للابتزاز والانتهاب والإستنزاف المبيّت والمخطَّط له في الدوائر الاستعمارية ، إنه من عمل مراكز الاشعاع وهي تهزم النور وتنشر الظلام . . . وبكلمةٍ أكثر صراحة ، إنه في جزء كبير منه من عمل حضارة التوحش أو الوحشية الحضارية. وبعبارة أخرى أيضاً ، ليس التفكير المتخلف في هذه الأحوال ظاهرة بيولوجية تتسم بها بعض الأجناس البشرية دون بعض ، وإنما هو ظاهرة اجتماعية يسري عليها ما يسري على الظواهر الإجتماعية الأخرى من صفات الآنيَّة والمرحلية والتاريخية وإمكانية أن تضعف وتتلاشى إذا تغيرت الظروف الموضوعية والشهية الإستعمارية والضغوط الخارجية .

فليس من الممكن أبداً فصل عقلية الجماعة عن وضعها الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري . . . فعقلية الجماعة هي دائماً تابعة لظروفها الموضوعية الخارجية وتعبير صادق عنها ومرآة عاكسة لها . إن الجماعات تتساوى في الذكاء ولكنها لا تتساوى في تكافؤ فرص الحياة ، وهنا تكمن مأساتها . فالفرصة السانحة هي المجال الطبيعي لممارسة الذكاء، انها قطرة الماء التي تكفل الحياة للنبتة الصالحة ، وإلاّ جفّ نسغها وكانت حطاماً تأكله النار أو هشيماً تذروه الرياح . فابتزاز الشعوب وانتهاب ثرواتهم وكبت حرياتهم ، وقمع كل انتقاصة فيهم ، وحرمانهم من التعليم والاستشفاء وسائر حقوقهم الطبيعية ـ كل أولئك يشلّ قواهم ويصيبهم بالجدب والمَحْل والقحط ، ويجعلهم قوماً بوراً . وبذلك تتسع الهوة بين الأمم المتقدمة والأمم المتخلفة ، الأمم التي تُسخّر كل طاقات أبنائها لأغراض التطور والحياة فيها ، والأمم التي تُهمل هذه الطاقات وتظل في شغل شاغل عنها ، بل كثيراً ما تحجر عليها وتلقي بها في غيابت

السجون ، لأنها غدت هاجساً قوياً يقلق الحكام والطغاة الذين ابتليت بهم دول العالم الثالث ، إلا من رحم ربك وقليل ما هم !

وهكذا فإن التفرقة بين عقلية بدائية وعقلية راقية ، بين جنس ساميّ وجنس آريّ ، بين شعوب بيضاء وشعوب ملوّنة ـ إن هذه التفرقة قد تلاشت اليوم وذهبت إلى غير رجعة ، ان لم يكن في الواقع فعلى الأقل في الكتب والمراجع الأكاديمية . انها خطوة إلى الأمام لا بأس بها . أجل لقد تلاشت هذه التفرقة أو كادت وحلت محلها التفرقة بين بيئات محرومة من أسباب الحياة وأخرى مُتخَمة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . فأسباب النكوص والركود إنما تكمن في النظام الإجتماعي والإقتصادي أكثر منها في النظام العقلي والمواهب الفطرية . فهناك تقابل شديد بين العقلية والنظام القائم ، فإذا صلح هذا النظام استيقظت الملكات الكامنة في مهاجعها تنتظر الفرصة ، فانطلقت الطاقات وتفجرت قوى الإبداع . وبعبارة أخرى ، أن الطاقة العقلية لا تتردّى بالفطرة ، وإنما تخنُس وتستكين ، بل قُل إنها تُقهر بفعل الظروف الخارجية . لقد حُرمت من أسباب نموها التي هي حق طبيعي لها فهجعت أو توقفت عن النمو وعادت القهقري . . . فالفقر والجهل والمرض ، والقمع والإستبداد والإستغلال والإبتزاز و . . . كل أولئك يفتك بالعقول بعد أن فتك بالأجسام ، ويخنق الأفكار بعد أن خنق الأنفاس ، ويقضي على جميع التطلعات والأهداف ومنافذ الحياة .

إن جيلاً واحداً فقط من الإهمال والبطش والتخريب والفوضى قمين أن يعود بالبلاد أجيالاً إلى الوراء ، ولو كانت قد بلغت أعلا الذرى أو وصلت إلى السحاب . فالهدم هو دائماً أهون من البناء ، بل إن ساعة هدم تقضي على جهود مئات السنين من البناء . فالحضارة ـ على حد تعبير ديكارت ـ « خلق متواصل » وعمل مستمر دائم . إنها نتيجة الدأب المتلاحق ، والجهد المكثّف ، والتصميم الأكيد ، والعزيمة الصادقة التي لا تلين . وأيّ توقف في هذه الحركة ، أيّ انقطاع في حلقة من حلقاتها يهدد العمل بكامله ، ويُعرِّض البناء كله لخطر التصدع والسقوط .

لذلك كله ، لم يعد العلماء اليوم ـ إلا قلة متشنجة لها مُسوح العلماء أعماها الإستعلاء والغرور وحب التسلط ـ يعلقون أهمية تذكر على فكرة الإنتماء إلى سلالة خاصة أو جنس بشري بعينه . فالصورة قد أصبح لها معنى آخر اليوم خرج بها

عن حدود الإعتبارات العرقية . لقد خرجت من يد السياسيين إلى يد العلماء ، ولو نظرياً على الأقل . إذ العبرة عند العلماء اليوم هي بالإنتماء إلى بيئة حضارية معينة تتفجر فيها المواهب والطاقات أو تذبل وتمحَل . هذا الإنتماء الجديد قد وضع حداً لجميع الإنتماءات السابقة ، وصرف الأذهان إلى آفاق جديدة في البحث والنظر تبشر بأعظم النتائج .

فالبيئة بهذا المعنى صنو البيولوجيا ، والحضارة أخت الوراثة . بل من العلماء من يقدم البيئة على البيولوجيا ، والحضارة على الوراثة ، أما الجنس والعرق فأمر غير « وارد » سواء عند علماء الوراثة أو عند علماء الإجتماع . وعلى كل حال ، ان الطبيعة الإنسانية مادة خام تزخر بالطاقات والإمكانيات الكامنة التي تنتظر الشرارة لكي تبرز وتتحقق . والمجتمع هو الذي يطلق هذه الشرارة وهو الذي يُمسكها ان تنطلق . بيده الأمر من قبل ومن بعد . انه يصوغ المادة الخام ويوجهها بحسب مقتضيات الأحوال فيها ، بل قد يحيد بها عن هذه المقتضيات أحياناً إذا بلغ فعله في المادة الخام أقصاه . حتى أن الأخوة الأشقاء بل التوائم الذين إنّما هم نُسخ متماثلة من الإستعدادات الوراثية الواحدة قد يختلفون إذا اختلفت البيئات التي يعيشون فيها. والتوائم الخمسة لآل ديون Dionne أكبر شاهد على ذلك[١] . فقد أثبتت التجربة أن وحدة المورثات Genes في التوائم التي خرجت من بويضة واحدة ، وبالتالي تلك التي يُفترض أن تكون ذات إستعدادات واحدة [٢] ، عقلية وجسمية ـ لا تستلزم بالضرورة أن تسفر اختبارات الذكاء التي تجري على أفرادها عن نتائج واحدة إذا وضعت في ظروف بيئية مختلفة ، بينما وحدة الظروف البيئية تستلزم ذلك ، كما أثبتت التجربة أيضاً[٣] .

بل هناك ما هو أخطر من كل ذلك وأكثر ثورية . فلا تظنَّنّ أن القوس قد نفدت منازعها ، إن العلم لم يفرغ جعبته ولن يفرغها ما دامت السموات والأرض . فلا يزال في القوس ألف منزع ومنزع . ذلك بأن المورث الواحد ليس له تعبير واحد ، بل يتخذ تعبيرات متنوعة شتى تختلف باختلاف الظروف والملابسات التي تحيط بالفرد ، كما أن التعبير الواحد قد يُستثار بأكثر من عامل

---

(١) انظر Goeston Bouthoul : Traite de sociologie i , 445

(٢) انظر W.C. Boyd :Génétique et races humaines , p . 102 - 107 .

(٣) O . Klinberg : race et psychologie , p . 18 .

واحد[١] .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، إن تصوّر الفرد وحدةً استاتيكية قد مضى عهده وحل محله اليوم تصوره عمليةً تاريخية دينامية ، بمعنى ان الفرد بعد ان كان يُنظر إليه على انه كيان ثابت مستقر له طبيعته الخاصة يُعبَّر عنه (بالأنا) تارةً ، و (بالشخصية) تارة أخرى ، قد أصبح يُنظر إليه اليوم على انه مجرّد دَوْر اجتماعي role sociale . ذلك بأن الجوانب المحسوسة لما يُسمى (بالأنا) إنما تظهر في الأدوار التي يقوم بها هذا الفرد (الأنا) . فبالأدوار ، وبالعلاقات القائمة بين مختلف الأدوار إنما تتكشف أشكال الوعي وتتجسّد على أحسن وجه . لذلك رؤي من الأفضل اتخاذ الدور مَعْلَماً هاماً من معالم الوعي وتقديمه على فكرة (الشخصية) أو (الأنا) . فإن (الشخصية) أو (الأنا) معنيان مجردان يكتنفهما كثير من الغموض الميتافيزيقي ، بل يوغلان في الميتافيزيقا وعلوم الأسرار بمجرد أن نُمعن النظر فيهما . بل إن الدور سابق على الأنا، يظهر قبله بزمن ليس بالقصير . فليست الأدوار هي التي تصدر عن (الأنا) ، بل العكس هو الصحيح : فإنما (الأنا) هو الذي يصدر عن الأدوار[٢] . ويعلق أستاذنا جورج غورفيتش رحمه الله[٣] على هذا التحوّل الكبير في النظر إلى الفرد قائلاً : إن هذه الفكرة الجديدة تُظهر للملأ ما في علم الطباع caractérologie من بطلان وزيف . وذلك لإهمال هذا العلم التنوع الكبير في المظاهر التي يمكن للفرد الواحد أن يتخذها تبعاً للأدوار التي يؤديها في جماعات مختلفة ومواقف متباينة . فأصحاب المزاج الغضبي والإنفعالي والبَلغمي ، وأصحاب التفكير المحافظ الزميت ، وأصحاب التفكير الحر المنطلق - جميع هؤلاء تتغيّر طباعهم وفقاً للأدوار التي تُسند إليهم ، كما أن الشخص الواحد يمكنه هو نفسه أن يقوم في مجتمع من المجتمعات بدور غير الدور الذي يقوم به في مجتمع آخر .

ويضرب غورفيتش مثلاً آخر : أن نفس الأفراد ونفس الجماعات يمكنهم تبعاً للظروف الإجتماعية والسياسية المختلفة أن يضطلعوا بأدوار متباينة جدّاً ، هذا

---

(١) W . C . Boyd : Génétuique, p. 91..

(٢) J : B . Moreno . Fondéments de la sociométrie, P . 29 .

(٣) Georges Guvitch: La vocation actuelle de la sociologie. p. 68- 69

إذا لم تكن متعارضة . فالثوريون قد ينقلبون محافظين ، إما لأن الثورة قد انتصرت أو لأن أفراداً آخرين أو جماعات أخرى أكثر منهم تقدمية قد تجاوزوهم وخلّفوهم وراءهم ظهرياً . فإنما نحن هنا بإزاء تبدل أساسي في طبيعة الأدوار الإجتماعية التي تجري في صميم المجتمع الواحد . وهذا ما تنبه إليه بمنتهى سداد الرأي كارل ماركس في نظريته الخاصة بالتبدل التاريخي لدور شتى طبقات المجتمع ، ولا سيما الطبقة البورجوازية الصغيرة[١] .

ولعل ذلك يتضح أيضاً في المثل التالي : في كل مجتمع عام ، في كل جمعية ، في كل مؤسسة ، في كل منظمة ، في كل هيئة ، في كل رابطة ـ توجد أدوار متميزة يتطلع إلى القيام بها عدد من الأعضاء أو التكتلات . إن الوصول إلى هذه الأدوار إنتصار للذين وصلوا ، ولكنه هزيمة للذين خُذلوا . فالتعارض هنا بين الأدوار التي نجح أصحابها في تأديتها والأدوار التي أخفق أصحابها فيها تصبح له أهمية كبيرة ، إذ ليس كل من يتصدى لإحدى المسؤوليات التي يطمح إليها ينجح دائماً في القيام بالأدوار المطلوبة ويصل بالفعل إلى المركز الذي يعتقد أنه كفء له . وهذا ما يكون سبباً في حدوث الأمراض العصبية وعُقد النقص ، فضلاً عن الخسائر المادية والمعنوية الأخرى[٢] .

والخلاصة « لا وجود لطبيعة إنسانية [لها صيغتها المستقلة الثابتة] غير تلك التي يصنعها حافز حضاري عتيد يؤثر في الجزء الجامد من الكائن [الإنساني] » ، على حد قول مارفي Murphy ومارفي وتيوكومب[٤] Murphy et NEWCOMB وبعبارةٍ أخرى ، ليست العبرة بالمورِّث ، (لأن الشعوب متشابهة إحصائياً من حيث نسبة توزيع القوى العقلية) إنما العبرة بالتعبير الذي ينبثق عن هذا المورث . وكذلك ليست العبرة بالفرد ، (لأن الفرد لا حقيقة له مستقلة عن العلاقات والأوضاع والملابسات والأحوال التي بها يتقوم وجوده ، فضلاً عن أن هذه الحقيقة زئبقية ، إذا صح التعبير ، متموجة ، صيرورية تاريخية لا تثبت على طبيعة واحدة) . إنما العبرة بذلك الدور الذي يضطلع به الفرد ويكشف وجهاً من وجوه وجوده . وليس التعبير والدور نتيجتين للوراثة ، فضلاً عن أن يكونا

---

(١) المصدر السابق صفحة ٦٩ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) نقلاً عن Roger Girod : Attitudes Collectives et relations humaines, P . 24

نتيجتين للجنس أو اللون أو السلالة ، وإنما هما نتيجة لدينامية الواقع والمواقف والقيم التي تواجهها كل حالة بعينها .

هل معنى ذلك ان البيئة اقوى تأثيراً من الوراثة ؟ وإلّا فأيهما أشد تأثيراً من الآخر ؟ إذا توخينا الدقة قلنا إن النزاع بين العلماء في مدى تأثير كل من الوراثة والبيئة قد مضى عهده ،فليست هناك وراثة على حدة أو بيئة على حدة ،بل هناك تفاعل ديناميكي عميق بينهما تضيع فيه معالم كل منهما، هناك كلٌّ أكبر من مجموع جُزْئَيْه ، ونحن لم نفصلهما ونبحث كلاً منهما على حدة إلّا لأغراض منهجية صرف يقتضيها التحليل العلمي ولتتبع المسار التاريخي الذي تحركت فيه هذه المسألة من لدن نشأتها حتى الآن على وجه الإيجاز . أجل ليست هناك وراثة يمكن أن تنفصل عن البيئة . هناك صيرورة واحدة لها جوانب متعدّدة ومظاهر مختلفة يُعبَّر عنها بكلمة (وراثة) تارة ، و (طبع) حيناً ، و (فطرة) حيناً آخر ، كما يُعبَّر عنها بكلمة (بيئة) مرة ، و (مجتمع) طوراً ، و (حضارة) أو (ثقافة) مرة أخرى . فنحن إنما نسلِّط الضوء على أشياء ونترك أخرى في الظل لتسهيل عملية الرؤية وإبراز ما يراد إبرازه على نحو صارخ وطمس ما يراد طمسه ، لضرورة حازبة وحاجة في نفس يعقوب . والإ فالكل واحد ، ولا حقيقة للاشتات .

الكل متشابك بالكل ، متداخل فيه ، متكامل به مندمج فيه ، ومن العبث إحداث أي شرخ فيه أو فصم عراه دون أن يفقد وجوده . ولما كان لهذا التداخل منطقه الخاص وديالكتيكه الفريد ، وإذْ كان لهذا التشابك أشكاله وأوصافه وضغوطه ، وبما أن هذا التكامل له درجاته ومستوياته ومقاماته ، فقد طلع علينا علماء الإجتماع الأميركان بكلمة جديدة أُريد بها استيْعاب فكرتي الوراثة والبيئة معاً وتخطِّيهما ، كلمة تنبض بهما وتستغرقهما دون التفريط في إحداهما أو التضحية بها على حساب الأخرى . هذه الكلمة الجديدة هي كلمة (موقف Attitude ، « والموقف هو الحالة التي يكون عليها الشخص وهو بإزاء موضوع ما ، بازاء فكرةٍ ما ، بازاء موجودٍ ما ، في ظرفٍ مادي محسوس[1] » . إن الموقف يتكوّن دائماً لا وفقاً لمقولة الجنس أو اللون أو السلالة أو الوراثة أو البيئة أو المجتمع ، بل تبعاً لنظام الإسناد السائد Système préétabli de réference وهو

---

(١) المصدر السابق صفحة ٢٩ . انظر أيضاً : Jean Maisonneuve : Psychologie sociale p . 10 sq

النظام الذي وضعته الجماعة كلها وترجع إليه في نظرتها إلى الأشياء وتقويمها للأحكام وأنماط السلوك والذي ينتمي إلى حضارتها هي وطراز تفكيرها[١] . وبعبارة أخرى ، إن المواقف التي تتخذها جماعة من الجماعات أو فرد من الأفراد من مسألة ما ، لا يمكن تفسيرها إلا بالنسبة إلى دلالة هذه المسألة في هذه المواقف ، وهذه الدلالة تختلف باختلاف البنية الإجمالية العامة للحضارة المعتبرة وتتوقف عليها[٢] .

وهكذا يتلاقى علم الحياة وعلم النفس وعلم الإجتماع وعلم خصائص الشعوب والأجناس البشرية ومنطق الحضارات ـ أقول تتلاقى هذه العلوم جميعاً ، بعد طول افتراق وشتات ، لتُبطل مزاعم الثنوية وأصحاب الفرقة وذوي الأغراض والأهواء ، وتُظهر للملأ ان الألوان وان تعددت ، والأنساب وإن اختلفت ، والأقطار وإن تناءت ، والأقاليم وإن تباينت والشقة وإن بعدت ، فالفكر مشترك ، والمنطق واحد ، والإنسان هو الانسان ، في كل زمان ومكان .

---

(١) انظر : Girod P. 50 .

(٢) المصدر السابق .

القسم الثاني

تطبيق هذه النتائج
على الفكر العربي الإسلامي

هذه هي في رأينا أهم الحقائق والمعطيات التي إنما كان ينبغي أخذها بالحسبان قبل التصدي لدراسة الفكر العربي الإسلامي وإصدار الأحكام الجائرة عليه . بذلك فقط يتسنى للباحثين والعلماء دراسته دراسة موضوعية رصينة ومواجهة الحملات العنصرية الحاقدة التي تُشنّ عليه . فمن أسهل الأشياء على الإنسان أن يهرف بما لا يعرف ، لكن من أصعب الأشياء أن يكون لكلامه معنى إيجابي يمكن استخلاصه منه . ليست العبرة بإصدار الأحكام ، وإنما العبرة أن تتسم هذه الأحكام بالتجرد والموضوعية ، وأن تكون مبنية على معطيات وحقائق ملزمة . فلا شأن للساميّة والأريّة في تكوين الفكر العربي ، ولا مدخل للجنس أو اللون أو السلالة في تفتح مواهبه أو ذبولها ونضوب معينها .

نحن لا ننكر بطبيعة الحال أن كثيرين من مفكري الإسلام قد تحدّروا من أصل غير عربي ، ولكن المسألة لا تُحل أبداً بمثل هذه البساطة ، ولا يصح مناقشتها على هذا المستوى من السطحية والضّحالة ، اللهم ما لم يكن ذلك تغطية لأغراض وأهواء معروفة . إنها أعقد من ذلك بكثير . فهناك أعماق كان من الواجب التنقيب فيها ، وهناك آفاق وأبعاد كان من الضروري إدراكها والوصول إليها ، وهناك دراسات وأبحاث كان لا بد من القيام بها - إذا أريد للأحكام التي أطلقت على الفكر العربي الإسلامي أن يكون لها معنى . فكون بعض مفكري الإسلام من أصل غير عربي لا يضير الفكر العربي في شيء ولا يقدح في إمكانياته وطاقاته . فلقد رأينا تهافت أسطورة تفوق بعض الأجناس على بعضها الآخر

بحكم الطبع والفطرة ، كما رأينا أيضاً كيف حطم العلم أصنام الوراثة والطبع (أو الفطرة) والبيئة والمجتمع ، وأقام على أنقاضها مفاهيم جديدة ومقولات جديدة (دور ، تعبير ، دلالة ، موقف ، نظام الإسناد الخ . . .) إن المقولات البيولوجية (فطرة ، طبع ، وراثة ، عرق ، سلالة ، لون . . .) قد اجتذبت إليها العقول والأذهان فترة من الوقت كانت العلوم الإجتماعية فيها تحبو في طفولتها . أما وان هذه العلوم اليوم قد استقام عودها وانتصبت قامتها فلا معنى لتجاهلها بعد الآن ، ولا فائدة في استمرار التعامل بعملة قديمة فقدت قيمتها ، فتهافت عليها هواة جمع التحف والآثار . أجل لقد مضى عهد المقولات البيولوجية وفقدت ما كان لها من إغراء وفتنة ، فلا يتشبث بها بعد اليوم إلا أحد اثنين : عالم منشق متعصب يتعامى عن الحقيقة ليبلغ حاجة في صدره ، أو دعيّ جاهل يعلم ظاهراً من العلم .

فليس بضائر الفارابي ان يكون من أصل تركي ، وابن سينا والغزالي من أصل فارسي ، وابن الصائغ من أصل افرنجي . . . ما داموا قد نشأوا في الإسلام وتكلموا العربية . كما ان إثبات الأعجمية لأصولهم لن يضيف إليهم مجداً جديداً بعدما أقاموا لأنفسهم في مجتمعهم الجديد صرحاً شامخاً من الذكر والفخر . إن دماء هؤلاء وأمثالهم وان لم تكن عربية فان عقولهم قد تكونت تكويناً عربياً إسلامياً . وهذا التكوين العقلي أهم لأمثالهم من التكوين الجسمي والأصول البيولوجية التي انحدروا منها . لقد كانوا يعبرون عن عصر تطور إنساني عام تحت تيار جارف من لغة القرآن وتعاليم الإسلام .

إن الفارابي والرازي وابن سينا والغزالي وابن باجة وغيرهم وان تحدّروا من أصول شتى وجنسيات مختلفة فإنهم جميعاً عرب باللغة المنطوقة والفرص المتاحة والهوية الحضارية والشخصية الثقافية ، ما داموا قد نشأوا في جو الإسلام وعاشوا في مناخه وقيمه وتكلموا لغته ، وأفادوا من الفرص والإمكانيات التي أتاحها لهم . لقد كانوا عرباً بالإحساس والعقل والروح والمصير والآمال والآلام ، وكانوا رسلاً للثقافة العربية والفكر العربي والحضارة العربية . ماذا أقول ؟ إن الإسلام نفسه وليد العبقرية العربية ويدين بأعظم منجزاته للعبقرية العربية . وبرغم ما تسرب إليه من العناصر الأجنبية وكل ما خضع له من التيارات والروافد الخارجية ـ هدّامة كانت أو بنّاءة ـ فانه يظل أثراً فذاً من آثار العبقرية العربية

وإشراقة فياضة من أعظم إشراقاتها . ولا أدري أي مصير كان سينتظر الإسلام لولا أن تبنّاه العرب ودانوا به واستُشهدوا في سبيله ، واضطلعوا بأعبائه ومسؤولياته ، وتولوا نشره في الآفاق ، وجعلوا منه ديناً عالمياً ومملكة عالمية بسرعة مذهلة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً من قبل ومن بعد .

يضاف إلى ذلك ان الإسلام ليس ديناً فقط ، ليس مجرد علاقة بين العبد والرب ، انه دين وحضارة .

دين ارتفع بمشاعر بنيه إلى أجواز السماء ، وحلّق بهم إلى سدة العرش وجنّة الخلد ومُلك لا يبلى .

وحضارة لم تعترض سبيل العلم والفكر ، بل لقد أيدته وشجعت عليه وكانت مركزاً هاماً من مراكز إشعاعه . ولم تحارب الفلسفة ، بل لقد جدّت في طلبها والبحث عنها في جميع مظانها ، واتسع صدرها لشتى الآراء والمذاهب والملل والنِّحل حتى أنه لا يمكن لمن يتحدث عن الرقي الإنساني ونهضة العلم والفكر ألاّ يذكر الإسلام ديناً وحضارة . وألاّ يشيد بالقيم والمُثل التي دعا إليها والتي كانت من أسباب توسعه وانتشاره بين أقوام وجدوا فيه الملجأ والحمى والملاذ .

. إن كلمة (عرب) التي تكاد تقترن دائماً بكلمة (إسلام) لا تعني فقط أولئك الذين تحدّروا من أصل عربي فقط ، إنها تشمل أيضاً جميع الذين خضعوا للسيادة العربية أو شاركوا فيها واستعملوا اللغة العربية للكتابة والتعبير ، سواء دانوا بالإسلام أو لم يدينوا به وناصبوه العداء . فجوهر العروبة ليس جغرافياً أو عرقياً بيولوجياً وإنما هو إجتماعي وثقافي . العروبة لغة وتراث وتاريخ طويل ، وليست طائفة أو عقيدة أو طقوساً وشعائر . العروبة ليست العبرة فيها بالمضمون العرقي واللغوي ، إنما العبرة فيها بالمضمون الحضاري . ليست العروبة انتساباً إلى جنس بعينه ، وإنما هي اشتراك في تجارب تاريخية وعقلية وروحية واحدة ، إنما هي اشتراك في آمال وآلام وَهموم واحدة ، في أفراح وأتراح واحدة . نحن لا ننكر الفروق بين الجماعات والأعراق التي دخلت الإسلام ، ولكننا نضع هذه الفروق في إطارها العلمي الصحيح ونردها إلى حجمها الطبيعي المعقول . لقد كان التعدد ميزة أثْرت حياة هذه الجماعات التي تعربت واغنت قسماتها المشتركة ، بالتناصر بدلاً من التناحر ، وبالتعاون بدلاً من الشقاق.فاللغة أداة للتفاعل القومي والحضاري ، وبوتقة للانصهار . . . إنها ليست مجرد أداة للتوصيل أو التبليغ ،

ولكنها غذاء للقلوب والعقول والأرواح ، إنها كما يقول الفيلسوف الإلماني فشته : « تُلازم الإنسان في حياته ، وتمتد إلى أعماق كيانه ، وتبلغ إلى أخفى رغباته وخطراته ، وتجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصّاً خاضعاً لقوانين واحدة ، لأنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأعيان وعالم الأذهان » . فَلِلُّغة آداب ، وهذه الآداب هي التي ينتج عنها أخلاق الأمة وعاداتها وتقاليدها وما نسميه (تكوينها النفسي) . فلكل لسان آداب تتولد عنها سمات تؤلف وتجمع دون أن تقضي على ميزات التعدد والتنوع . فقد جمعت العربية أقواماً مختلفي الأجناس والأديان والعقائد والأفكار ، فصهرتهم في بوتقتها حتى صاروا جميعاً عرباً بالقومية والثقافة والحضارة والولاء . فهي لم تكن وسيلة تعبير وكفى ، بل لقد كانت أيضاً وسيلة نظر وتفكير . فقوالب التفكير عند من يتكلم العربية هي غير قوالب التفكير عند من يتكلم الفارسية أو الإنكليزية مثلاً . ومن هنا استحالت الترجمة الكاملة من لغة إلى أخرى ، ما لم تكن هذه الترجمة تقريبية . ولذلك فان هدم اللغة العربية فيه تقويض لمفاهيم الإسلام ـ لأن العربية هي لغة القرآن ـ وفيه أيضاً تقويض للتاريخ العربي والتراث العربي ـ لأن العربي لا قوام له بغير لغته العربية ـ وبالتالي فان هدم اللغة العربية فيه تقويض للفكر العربي أساساً ومضموناً . وهكذا فزوال هذه اللغة يجرد العربي من كل شيء ، ولا يُبقي له قواماً يميزه من سائر الأقوام ، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم فلا تبقى له باقية . . .

والخلاصة لقد كانت اللغة العربية أداة توحيد في المشاعر والآمال والآلام والغايات . فبرغم الخلافات والإنقسامات والتباين في الآراء والمذاهب والمعتقدات ، فقد كانت هناك حياة مشتركة ، وإرادة مشتركة ، ووعي مشترك ، ووحدة في الهدف والأمل والمصير .

فليس الذي يُكوّن الأمة إذن ويربط أجزاءها ويوحد شعورها وما تناثر من عِقدها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة أو من أصل قومي واحد ، وإنما الذي يفعل ذلك إلى مدى بعيد هو تكلمها بلسان واحد . فلو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان غير لسان الآخر في قطرين متباعدين ، وشاهدتَ ما بينهما من اختلاف نظر ، وتباين قصد ، وتباعد تفكير ، ثم عمدتَ إلى مصري وسوري ينطقان باللسان العربي ، ورأيتَ ما بينهما من اتحاد وتقارب . لو فعلتَ ذلك لرأيتَ العجب العجاب ، ولأدركتَ بالتجربة والمشاهدة

الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم وصهر الشعوب .

وكندا نموذج حي له دلالته في هذا المضمار ، فالناس في كندا يتكلمون لغتين اثنتين هما الفرنسية والإنكليزية . ورغم ان كل ظروف العقل والمنطق والمصلحة تقضي بأن تظل كندا بلداً واحداً إلا أننا نجد الآن في أواخر القرن العشرين وفي عصر الوحدات والتكتلات الكبرى ، حركة انفصالية عنيفة تتزعمها مقاطعة كويبك الفرنسية . وهذا يثبت لنا مرة أخرى أن اللغة ليست مجرد وسيلة تخاطب وإنما هي كما ذكرنا وعاء الفكر ووعاء العاطفة والشعور . فالفرد في كويبك لا يتحدث بالفرنسية فقط ، إنه يفكر بالفرنسية ويشعر بالفرنسية ، حتى لقد صارت روابط كويبك الثقافية والعقلية والوجدانية بفرنسا عبر الإطلنطي أقوى وجداً بعاصمة دولتها أوتاوا .

هذا ما تفعله اللغة ـ كل لغة ـ في حياة الأمم والشعوب ، وهذا ما فعلته في حياة العرب والمسلمين، بل ان ما فعلته العربية أكبر مما فعلته أي لغة في التاريخ . فقد كانت عامل توحيد وربط بين شعوب وقوميات امتدّ إليها الإسلام كانت قبله متباعدة متنافرة . لقد كانت من أمضى الأسلحة التي حطمت الحواجز بين الأقوام والأجناس وساعدت على انتشار النفوذ العربي وتوكيد الهوية العربية فضلاً عن المشاركة الوجدانية والتأثير العقلي والديني . ولو لم يكن لها من أثر إلا تعريب منطقة بكاملها كانت خليطاً متبايناً من الألسنة واللغات فدحرتها جميعاً ـ أقول لو لم يكن لها إلا هذا الأثر فناهيك به شاهداً على عظمة هذه اللغة العملاقة التي تحولت بطرفة عين من لغة السيف والنخل والبعير، إلى لغة القلم والعلم والفلسفة ، من لغة محلية ضيقة مقصورة على بضعة آلاف من الأميين، إلى لغة عالمية تلهج بها الملايين ولا يعرف العالم المتحضر آنذاك أداة للتعبير غيرها ، وبكلمة واحدة ، انتقلت من لغة البداوة إلى لغة الحضارة . وبينما لم تصمد اللغة اللاتينية للهجات المحلية التي اشرأبت بأعناقها واستقلت عن اللغة الأم لتثمر اللغات الأوربية الحديثة ، فان اللغة العربية قد امتصت جميع اللغات ـ لا اللهجات وحدها ـ التي في المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط واحتلت مكان الصدارة فيها . أرأيتَ الى هذه المعجزة ! فجميع الذين دخلوا في الإسلام وأصبحت العربية لغتهم والولاء لحضارتها موقفهم ، ومناخها غذاء لهم ، هم عرب بصرف النظر عن الأصول العرقية والمواريث الحضارية لأسلافهم . فمن لم يكن عربياً فقد تعرَّب . لقد

ربطتهم اللغة بعرى لا انفصام لها من المشاعر والآمال والأماني والمصير المشترك . لقد فتنتهم وكانت مهوى أفئدتهم . حتى قال قائلهم عبارته المشهورة التي أصبحت قولاً مأثوراً « والله لأنْ أُهجى بالعربية أحبَّ إليّ من أن أُمدح بالفارسية ! » .

وصفوة القول أن العروبة ليست عِرقاً ولا نسباً ، وإنما هي لغة وآداب وتاريخ وتكوين نفسي وحضارة وولاء ، وذلك كله إنما يُكتسب اكتساباً ، وليس أمره مرهوناً بالتوارث المحكوم بنقاء الدم وصفاء الأصل واتصال شجرة الأنساب . وقد نتج عن ذلك كله حضارة مزدهرة يانعة تزاوج فيها الدين والعلم والفلسفة والأدب، وتولت قيادة العالم المتحضر قروناً طويلة .

إن اللغة العربية هي الحبل الذي يشدنا إلى الماضي ، وهي سبيلنا إلى المستقبل . إنها الرباط بيننا وبين أجدادنا تشد أرواحنا إلى أرواحهم. إنها وحدها اللسان الذي نفخر به ، وهي المعبر عما في القلب من عقائد ، وما في العقل من أفكار ، وما في النفس من آمال وآلام : إنها طوق النجاة لنا ، والحارس الأمين لتراثنا ومستقبلنا . عزها عزّ لنا ، وذلها ذل لنا . ان لها تاريخاً طويلاً يوغل في القدم ، ومع ذلك فهي لا تزال في شرخ شبابها ، لم يهن منها عظم ، ولم يتضعضع لها ركن ، وما عليها من المشيب إلا رُواء من يشيب ! وقد صارعت كثيراً من اللغات فصرعتها جميعاً ، واستظهرت عليها جميعاً ، فأعِظمْ بها وبالأمة التي أنجبتها والتي عانت كثيراً من الكوارث والمحن والبلايا أكثر من أي أمة أخرى في التاريخ ، وهذا سر بقائها شامخة دون الكثير من أعدائها . لقد استعصت على الذوبان في الأمم التي هي أعرق منها ، بل إن كثيراً من تلك الأمم قد ذابوا فيها ، تلك أُمة ذات حضارة زاهرة ، وقيمٍ سامية ، ومُثل رفيعة ، وإمكانيات ضخمة هائلة للإشعاع الفكري والإسهام العلمي والثقافي .

وهكذا فإذا لم يكن المفكرون الذين أنجبتهم بلاد الإسلام أو اجتذبتهم إليها فعملوا فيها وشاركوا في آمالها وآلامها ، واضطلعوا بمسؤوليات الحكم والبناء فيها ـ أقول إذا لم يكونوا من العرب الأقحاح فقد أثّروا في تطور العربية وتأثروا بها وتفاعلوا وإياها بواسطة لغة العرب وبلسان العرب . فهم ـ مهما كانت أعراقهم الأصلية ـ أبناء العربية وجنودها ، وأدوات التطور والبناء فيها : بها كانوا يفكرون ويبحثون ويؤلفون ، وإليها روحياً وعقلياً ينتمون . وإذا ذكرهم التاريخ

فإنما يذكرهم لا بأنسابهم العرقية ، بل بثقافتهم العربية ، وهويتهم الإسلامية ، وانتمائهم الحضاري العربي الإسلامي .

لقد اقتحموا كل ميدان وخاضوا كل لُجّة ، وكانت لهم محاولات رائدة في كل مضمار دفعتهم إليها طبيعة التطور وحاجات التقدم ، وقد اتفقوا في أشياء كثيرة واختلفوا في أشياء كثيرة أيضاً ، إلا أن اتفاقهم واختلافهم لم يكونا أبداً محكومَيْن بعوامل الجنس والسلالة ، بل بعوامل متعددة أهمها الإسلام الذي به يدينون ، واللغة التي بها يتفاهمون ويكتبون ويفكرون ، والبيئة التي في كنفها يعيشون وفي أجوائها يتنفسون ، والفكر الذي إليه ينتمون ، والمثل التي بها يؤمنون ، والآمال التي إلى تحقيقها يصبون ويطمحون ، والثقافات الغنية الوافدة التي بها ينمون ويغتذون ، وبعوامل أخرى مشابهة لا شأن لها بالدم والجنس والسلالة تفاعلت ونمط الحياة الجديدة ، وما يجيش فيها ويموج من استعدادات فطرية ومواهب عقلية وعبقريات فنية . . . فتأثرت بها جميعاً وأثرت فيها جميعاً وأعطتها هويتها العربية وشخصيتها الإسلامية وصيغتها الفريدة المتميزة .

لقد اندفعوا كالسيل في كل أفق ، يشْدون من كل فن،في تيار قوي جارف من لغة القرآن وتعاليم الإسلام . لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالعلم والأدب والفلسفة والأخلاق ؛ فبرزت عبقريات سامقة ، وظهرت قرائح لا حصر لها ، تجلّت في مئات الشعراء والأدباء والأطباء والعلماء ، والفقهاء والفلاسفة والرياضيين ، والمفسرين والمؤرخين ، والجغرافيين والرحالة الخ . . . الذين استفاضت كتب التراجم بأسمائهم وبنبوغهم وآثارهم ، والذين يحلو للمصابين بعقدة العروبة والإسلام أن يعودوا بهم الى أصول عرقية أجنبية يحصرون الفضل ـ كل الفضل ـ فيها . فما هؤلاء الأفذاذ جميعاً سوى عطاء بيئتهم العربية الإسلاميَة بكل خصبها وغناها ، وما تلقّت من روافد التراث الفكري القديم ـ اليوناني وغير اليوناني ـ فهضمته بعقليتها المتميزة ، وتمثلته بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها ومقتضيات تاريخها. بل لعل معجزة العرب الكبرى ـ الذين إنما كانوا جنساً واحداً فقط من أجناس متعددة اعتنقت الإسلام كانت أكثر منهم عُدة وعدداً ـ أنهم بدلاً من أن يذوبوا في هذا البحر المتلاطم من الأجناس والأقوام ، فقد فرضوا عليهم لغتهم ودينهم ، لا بمعنى الفرض العسكري المتسلط ، بل بمعنى الغزو الفكري الحضاري . لقد كان غزو أنظمة ومثل وقيم ومبادىء ، لا غزو

إبادة وتخريب وتدمير ، كما فعلت روما قديماً ، وحفيدتها أوربا حديثاً ، وانه لعمل لو تعلمون عظيم ! انه عمل خارق فذ لا مثيل له في تاريخ اللغات والأديان . فانه لم يحدث قط ان شعباً صغيرا كالعرب غزا بدينه ولسانه ـ لا بالسيف بل بالفكر والقلم ـ أُمماً كالأمم التي دانت بالإسلام ، ورقعة شاسعة لا حدود لها من الأرض كالرقعة التي انتشر فيها الإسلام انتشار النار في الهشيم . ولم يكن ذلك بطريق القسر والإكراه كما فعلت المسيحية بالعرب الذين ظلوا في اسبانيا بعد خروج المسلمين منها مثلاً ، بل بوحدة الحاكم والمحكوم ، والغالب والمغلوب ، والمشاركة التامة في المغانم والمغارم ، والحقوق والواجبات ، والمسؤولية والإلتزام . لم يكن هناك استتباع من نوع استتباع فرنسا للجزائر قبل الإستقلال مثلاً ، وإنما كانت هناك هوية واحدة بين الغالب والمغلوب والحاكم والمحكوم ، سواء قَبِل هذا الأخير الدخول في الإسلام أو لم يقبل ، ما دام عضواً فاعلاً في مجتمعه الجديد . وهي بدعة جديدة لم يعرفها العالم قبل العرب وتكاد تكون شيئاً غير مفهوم في هذه الأيام التي لا تزال تمارس فيها محاولات فاشلة للتنصير بحد السيف ، وما أمر الإستعمار الفرنسي مع مسلمي الجزائر في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن عنا ببعيد . وحسب العرب فخراً أنهم في صميم العصور الوسطى ، عصور الإضطهادات الدينية والتعصب الذميم ، لم يكرهوا الناس حتى يكونوا مسلمين . بل لقد تركوا لهم حرية الدين والمعتقد دون أن يتدخلوا فيهما أو يمارسوا أي ضغط بشأنهما . نعم لقد كانت الحرب سجالاً بين السُّنة والشيعة ، ولكنها لم تكن حرباً دينية ، بل كانت نزاعاً على السلطة والنفوذ . وهي في جميع الأحوال حرب بين المسلمين أنفسهم ، لا بينهم وبين أصحاب الديانات الأخرى لفرض الإسلام عليها . وعلى كل حال لقد جاء العرب ببدعة جديدة لا عهد للقرون الوسطى بها ، وهي التسامح مع أصحاب جميع الديانات . وقد اعترف بذلك أكثر الدارسين المنصفين من رجال الإستشراق . فالإسلام ذو مضمون تحريري لا يمكن لعين متأملة مخلصة أن تخطئه ، وإلا لما أسهم المسحوقون النصارى مثلا في مصر والشام والمغرب والأندلس جنباً إلى جنب مع العرب المسلمين ، ووقفوا في وجه أبناء دينهم من حكام هذه البلاد الذين استرقوهم قبل الفتح الإسلامي وامتصوا دماءهم وعاثوا فيهم فساداً وتخريباً مستغلين وحدة الدين والعقيدة . وبذلك لم تكن أرض الخلافة تلك الإمبراطورية الفسيحة الممتدة من الخليج إلى المحيط بقدر ما كانت تلك القيمة الإنسانية الحضارية التي ظلت عبر القرون والدهور نموذجاً

حياً للاشعاع العقلي والسمو الروحي والقيم الرفيعة ، وصيغة فريدة فذة للتعايش الإنساني سبقت جميع صيغ التعايش المعروفة اليوم . وكل أولئك أمور غريبة يجد الإستعمار الإوربي صعوبة كبيرة في فهمها . لذلك يزوغ ويروغ ويفسر الأحداث العربية الإسلامية بالمفهوم الإستعماري الحديث وعلاقات القوة والضعف .

وعلى العموم لقد ترك الآباء للأبناء نتاجاً ضخماً غنياً بالقيم الحضارية والمُثل الإنسانية . وهذا النتاج عربي كله ، مهما كانت الأصول العرقية للرجال الذين اشتركوا به . وهو إسلامي كله ، مهما كانت دياناتهم وعباداتهم . فهو عربي من حيث أنه قد كُتب بالعربية ومن حيث أن بنيته اللغوية هي في الوقت ذاته بنية فكرية واجتماعية وسياسية ، وهي أيضاً بنية فيلولوجية وانطولوجية وسيكولوجية . وأما صيغته الإسلامية فهي مرتبطة بهذه البنية بجميع تشابكاتها وعلاقاتها الداخلية ارتباط تفاعل وتجاوب ومصير . فلا فصل بين الإسلام والعروبة في هذا النتاج ، الإسلام بالمعنى الحضاري المنفتح ، لا بالمعنى الديني المتزمت الضيق ، والعروبة بمضمونها الثقافي والتاريخي والإجتماعي الخصب ، لا بمدلولها البيولوجي المحدود العقيم . لذلك لا يجوز النظر إلى أصحاب هذا النتاج على أساس أن هذا عربي وهذا أعجمي ، وهذا مسلم وهذا كافر ، بل على أساس أنهم جميعاً عرب مسلمون فكراً ومجتمعاً ومناخاً وتاريخاً وحضارة . وهكذا اتّحد الإسلام بالعروبة ، والدين باللغة ، إتحاد المعنى بالمبنى ، والجسم بالروح ، والمادة بالصورة ، فتفجرت الطاقات وبرزت العبقريات ، وتفتقت المواهب في جميع الحقول والميادين ، وظهر على مسرح الأحداث أبطال وأفذاذ يُعدّون من مفاخر التاريخ الإنساني بعامة ، والعربي الإسلامي بخاصة . وسنُفَصِّل ذلك كله في كتاباتنا القادمة تفصيلاً يُزيل كل شك ، ويدفع كل شبهة . ونرجو أن يكون ذلك في وقتٍ قريب[1] .

وعلى ذلك فإن عبقريات الإسلام إنما تدين بتفتقها وإشراقها لا لاعتبارات عنصرية أو بيولوجية ضيقة ، وإنما هي تدين بذلك ، وتدين فقط ، لملابسات وظروف اجتماعية ثقافية حضارية عامة كانت متوفرة للعرب دون غيرهم في مرحلة

(١) من أراد المزيد من التفصيل فليرجع إلى كتابنا (الفكر العربي في مخاضه الكبير) وقد صدر القسم الأول منه سنة ١٩٨٥ ، عن دار الجيل ، بيروت ، وصدر القسم الثاني منذ اشهرٍ قليلة

معينة من مراحل تاريخهم . إنها إنما تدين للحضارة الإسلامية التي قد نشأ فيها أصحاب هذه العبقريات وتفتّحت فيها براعمهم ، للمواقف التي اتخذوها من هذه الحضارة ، للقيم الباطنة التي تتضمُنها ، للمهمات التي وُسِّدت إليهم فيها ، للأدوار التي كان عليهم القيام بها ، للمسؤوليات والتبعات التي اضطلعوا بها وهم يعيشون هذه الحضارة ، للدلالات التي كانت لها في نفوسهم ووجداناتهم ، للآمال التي سعوا إلى تحقيقها فيها، للدموع التي سالت من مآقيهم خوفاً عليها ، للأحزان والآلام والتضحيات التي عانَوها وهم يضعون لَبِناتها ، للدماء التي سُفكت دفاعاً عنها ، للأرواح التي أُزهقت حفاظاً عليها ، للرسالة التي شعروا أنهم يؤدونها للعالم وهم يبشرون بها ويدعون إليها ، لإرضاء الشعور بالإنتماء إليها والولاء لها ، للمثل الأعلى الذي استهواهم فيها وَمَلكَ عليهم قلوبهم ومشاعرهم وهم يتفيأون ظلها ، بل ـ ماذا أقول ؟ ـ للضغائن والأحقاد التي اشتعلت في قلوب الذين ماتوا بغيظهم لنجاح حركتها وانتظام أمرها، فما انفكوا منذئذ يُعملون معاولهم فيها ، فأتوا من فنون الرأي والفكر بكل جديد وطريف ، ما كان لهم أن يأتوا بمثله لولا عداؤهم للاسلام وخصومتهم له .

ان المُثل والأفكار حين تغزو العقول والأذهان وتستولي على الوجدان والضمير ، وتهوي إليها القلوب والمشاعر ، وعندما يتوفر للناس القيادة القوية والتماسك والتنظيم الذي يضمن للعقول والأذهان حداً أدنى من حرية التحاكّ والتجاوب والتفاعل ـ أقول أن المثل والأفكار حين تفعل ذلك تأخذ بتلابيب أصحابها وتترك فيهم ـ بين عشية وضحاها ـ أثراً هو بالسحر أشبه . فإذا القوم غير القوم ، وإذا الناس غير الناس[1] . لقد انقلب كل شيء رأساً على عقب ، فإذا بالمسار الفكري والموقف العقلي للأفراد والجماعات يتخذ منعطفاً جديداً ومنحىً لا عهد للقوم بمثله . لقد تغيرت نظرتهم إلى الكون والإنسان والحياة والمصير ، وتبدلت موازين الأخلاق والسلوك عندهم ، وانقلبت المفاهيم والأحكام في رؤوسهم ، وتولدت بينهم أفكار واتجاهات ومواقف وتيارات أخذ يصطرع بعضها ببعض ، ويناضل بعضها بعضاً ، وأسفرت هذه المعارك عن شتى المدارس الفكرية ، والمذاهب العقلية ، والنظم الإجتماعية والإقتصادية والثقافية . وعندما استتب الأمر للفكر ووصل إلى مستوى معين من الإستقرار النسبي أخذت الأمور تسير « على نارٍ خفيفة » إذا صح التعبير ، وبقليل من المؤونة وبحكم قوة الإندفاع الذاتي ، وما زال الأمر كذلك حتى بدأت الجذوة تنطفىء وينضب المعين . ولكل

ذلك سننه وقوانينه ومواسمه ، على أن نأخذ كلمة (قانون) هنا بالمعنى الواسع المرن ، لا بالمعنى الرياضي الذي نجده في الفيزياء والكيمياء ، إذ لا قوانين صارمة في شؤون الإنسان والمجتمع . هذا ما حدث في بلاد اليونان القديمة ، وهذا ما حدث بعد الثورة الفرنسية في أوربا ، وهذا ما يحدث اليوم في مراكز الإشعاع في الغرب . وهذا هو نفسه ما حدث في شبه الجزيرة العربية بعد مخاضها العظيم في أوائل القرن السابع للميلاد .

لذلك فإن عرب ما قبل الإسلام ليسوا في نظري هم نفس العرب بعد أن غزا الإسلام مشاعرهم ووجداناتهم ، واتخذوا منه منهجاً وفكراً وعقيدة . لقد تبدل القوم غير القوم فأصبحوا وقد اعتنقوه شيئاً آخر لم يكونوه من قبل ، هذا مع أن هياكلهم وجميع مقوماتهم البيولوجية لم يطرأ عليها أي تغيير يذكر . لقد نفذ الدين الجديد إلى الأغوار العميقة التي يُصنع فيها الإنسان وحيث جوهر الإنسان وحقيقة الإنسان . هنالك لا تجدي قوانين البيولوجيا ولا تغني عن أصحابها شيئاً ، مهما ابيضّ لون جلودهم أو اسودّ ، ومهما اتسعت أحجام جماجمهم أو ضاقت ، ومهما صفت دماؤهم أو اختلطت بغيرها من الدماء ، وسواء رجعوا بأنسابهم إلى ما يسمى بالجنس الساميّ أو الآريّ . لقد تغلغل الإسلام في أغوار ، ومسّ شغافاً ، ووصل إلى تخوم وأبعاد انتهى فيها فعل البيولوجيا منذ زمان طويل ـ هذا إن كان لها هنا أي فعل ـ وبدأ فعل السيكولوجيا ، فوريْت الزناد ، وتفجرت الطاقات ، وبدأت المسيرة . ولم يكن ذلك لمزية في العرب لم تتوفر لغيرهم من الأمم والشعوب ، وإلاّ وقعنا في عنصرية بغيضة طالما نددنا بها وأعلنّا النكير عليها ، فان ما حدث للعرب قد حدث هو نفسه للأمم الإخرى التي انصهرت في الدين الجديد . فهؤلاء وأولئك فئة جديدة من الناس ألهبتهم مُثل جديدة فأصبحوا قوماً آخرين . بل ان هذا ما يحدث كل يوم وفي كل بلد نشبت فيه ثورة ايديولوجية جديدة كثورة الإسلام . وما أمر الثورة الفرنسية والثورة الأميركية عنا ببعيد . وهكذا فليس الإسلام بِدْعاً من الأديان والمذاهب والدعوات . فالبشر إنما هم أوعية وقوالب متحركة بالمُثُل والأفكار والمعاني . فترى بعضها يفتنه معنى دون بعض ويجد هوى في نفسه حتى يؤرقه ويأخذ بتلابيبه . فهناك صرعى الأفكار كما هناك صرعى السيوف والرماح . فالأفكار هي قيم الشعوب ومناط الحكم لها أو عليها . فبالأفكار إنما تسمو الشعوب وتعرف أقدارها ، وبانعدامها إنما تنحط وتهوي .

هناك معزوفة تتردد كثيراً في دوار الإستشراق مؤداها أن حَمَلَة العلم في الإسلام لم يكونوا عرباً بل كان أكثرهم من الأعاجم ، وهذه المقولة من الشيوع بحيث أن عدداً كبيراً من الباحثين العرب يعدونها من المسلمات . فالعرب عاجزون عن إنجاز الأفكار العظيمة ، بزعمهم ، وإن أقصى ما بلغوه ينحصر في الخطاب الديني ، وما عدا ذلك فإنه يدين للإغريق وسائر الأعاجم . إن هذه الظاهرة تلفت النظر حقاً . وقد لاحظها المسلمون أنفسهم قبل المستشرقين بزمن طويل . ثم جاء ابن خلدون فعقد لها فصلاً خاصاً في (المقدمة) فقال فيه إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم ، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته[1] . وخلاصة ما يقول في تفسير هذه الظاهرة أن العلم والتعليم من الصنائع ، وأن الصنائع من منتحل الحضر ، وأن العرب أبعد الناس عن الصنائع . فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها ، مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذٍ لأنه من جملة الصنائع . وهكذا شغلتهم الرياسة في الدولة العباسية عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فالرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها ، ودفعوا بذلك إلى من قام به من العجم والمولدين[2] .

هذا هو بإيجاز تفسير ابن خلدون لهذه الظاهرة . وجدير بالذكر أن عدم انتحال العرب للعلم لا يعود في نظر ابن خلدون إلى نقصٍ تكويني في العرب ، بل إلى أسباب سياسية وظروف موضوعية لا تمس في شيء ، الخصائص التكوينية للعرب ، وإذن فلا يجوز بعد اليوم استغلالُ مقولة ابن خلدون وإعطاؤها أبعاداً لم تخطر له على بال .

فلا شأن للون والعرق والجنس بعدم انتحال العرب للعلم ـ هذا إذا صح عدم انتحالهم له ـ وإنما الشأن كل الشأن للظروف والعوامل التاريخية التي مرَّ بها العرب في عصورهم الكلاسيكية ، وبالتالي فلا صحة لتفوق الأعاجم على العرب تفوقاً عرقياً وهذا مايؤكده فن التحليل النفسي وعلم الإجتماع المعرفي . فالمعلوم أن معظم هؤلاء الأعاجم كانوا من الموالي أو من المتحدرين من موالٍ ، وبالتالي كانوا

---

(١) المقدمة ٤ / ١٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق صفحة ١٢٤٨ / ١٢٤٩ .

ممن يُنظر إليهم شزراً من قبل بعض المتعصبين من العرب الفاتحين الذين قوّضوا عروش الأعاجم ومزقوا مُلكهم ونالوا من عزتهم القومية وكبريائهم الوطنية، فأورثوهم عُقد النقص والشعور بالتدنّي. لذلك كان لزاماً عليهم أن يؤكدوا وجودهم للعرب الغزاة، بالتفوق عليهم لا في المجال العسكري الذي فقدوا أسبابه، بل في مجال الدين والأدب والعلم والفلسفة والفن و... وهو المجال الذي كانت له سوق رائجة آنذاك وكانت جميع ظروف الحضارة الناشئة عوامل مؤاتية له، مساعدة على نموه واتساع نطاقه.

ذلكم هو الحل الذي يقدمه لنا فن التحليل النفسي. وهاكم حلاً آخر يكمله ويلقي أضواء أخرى على هذه المشكلة ويزيل كثيراً من جوانب الغموض فيها. فهناك من يتساءلون دائماً عن سبب تفوق اليهود في البلاد التي يستقرون فيها. وقد عالج كارل مانهايم أحد مؤسسي علم الإجتماع المعرفي هذا الموضوع من زاوية علمه الجديد وأتى بعناصر جديدة يمكن الإفادة منها كثيراً في فضح أسطورة تفوق الأعاجم في عصور الإزدهار الإسلامي وتفنيد مزاعم القائلين بها.

يقول مانهايم: «ان المثَل التالي يُظهر لنا كيف أن طائفة من الناس يمكن أن تنمّي في أفرادها ـ بحكم وضعهم الخاص في المجتمع ـ ملكات دون غيرها. وهكذا فان الأقليات ـ كاليهود مثلاً ـ يجب عليها في سبيل الحفاظ على وجودها ألاّ تكفّ عن التفكير في السلوك الذي ينبغي عليها اتخاذه لتتكيف للبيئة الإجتماعية التي تعيش فيها. فأبناء البلاد الأصليون يعيشون تلقائياً بحسب معايير مجتمعهم. وأما أبناء الأقليات فلا ينجحون في العيش في هذا المجتمع الا بجهدٍ فيه قسط كبير من التفكير، ومن هنا طابعهم العقلي»(١).

وهكذا، فإذا بدا للسذج أن اليهود متفوقون على غيرهم، فليس ذلك لمزية عنصرية فيهم ليست لغيرهم، بل لأن التفكير إنما هو أداة البقاء الأساسية والوحيدة بالنسبة إليهم وإلى سائر الأقليات الأخرى التي لا يفتأ وجودها مهدداً باستمرار. ولذلك يظل تفكير أعضائها على وجه العموم مرهفاً متوتراً، سيماه الحذر واليقظة وادامة التأمل والنظر في أوضاعهم وظروف حياتهم. وأما الآخرون أصحاب البلاد فإن للبقاء عندهم وسائل وأدوات كثيرة لا يعدو التفكير أن يكون

---

(١) نقلاً عن Jacques Maquet: Sociologie de la connaissance.

مجرد أداة واحدة منها . انه أداة من أدوات ، وأما بالنسبة إلى الأقليات فانه الأداة . أرأيتَ إلى الفرق بين الحالين ، بين أن يكون التفكير قوة بين قوى كثيرة ، وبين أن يكون القوة الوحيدة ؟

وقد حدث شيء من هذا القبيل للأعاجم وإن اختلفت المعادلة بينهم وبين العرب . فإذا لم يكونوا أقلية عددية فقد كانوا أقلية سياسية ، بمعنى أن الحكم لم يكن بأيديهم وإنما كان بأيدي العرب الذين يمثلون الأقلية العددية والأكثرية السياسية . وعندما اندفع هؤلاء كالسيل في البلاد التي غَلبوا عليها ارتبطوا بالأرض الجديدة ارتباط أبناء البلاد تدعمهم في ذلك قوى مادية وروحية هائلة . ولذلك لم يشعروا بالغربة والضياع بقدر شعور الموتورين الآخرين من أهل البلاد الذين أصيبوا في مجدهم وكبريائهم وشعورهم القومي . فالفرس وقد ثُلت عروشهم وغُزيت أوطانهم أصبحوا غرباء من عقر دارهم . فهم رغم كثرتهم قلّة . فحملهم الشعور بالغربة والضياع وحساسيات أبناء الأقليات على توكيد وجودهم الذي لا يمكن الحفاظ عليه إلا بجهد غير قليل من العمل العقلي والتوقد الذهني . ومن هنا تفوقهم في ميادين العلم والفلسفة والدين والإجتماع الخ . . .

وهكذا نشط التفكير في فريق كبير منهم حتى لقد بدا للسذج والبسطاء أن الأعاجم كانوا هم دون العرب مراكز الإشعاع العقلي في بلاد الإسلام . وأما العرب الذين توطد سلطانهم واستتب لهم الأمر في بلاد الفرس فقد كان التفكير أحد مشاغلهم ووجهاً واحداً فقط من أوجه نشاطهم في سبيل البقاء . واستسلموا لهذا الغرور الكاذب حتى مادت الأرض من تحت أقدامهم . وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن العرب لم يسهموا في الحركة العقلية أو أنّ التفكير فيهم قد هجع واستنام . كلا . ففضلاً عن أن أعمال السلطان وتوطيد الحكم لا بد لها من حظ وافر من التفكير ، فانهم ما إن شعروا بالزلزال يكاد يطيح بهم حتى استفاقوا من غفلتهم وانصرفوا إلى العمل العقلي البحت . فمن الظلم والتجني حقاً أن يقال عن قوم كانوا عمالقة في ميدان الحكم والسلطان والإدارة والقيادة ، فضلاً عن الفتح والدعوة ، انهم أقزام في الميادين الأخرى . فإن الذي ينبغ في مجال ما لاستغراقه فيه ، في مقدوره أن ينبغ في مجال آخر لو استغرق فيه أيضاً . فالعرب لم يستطيعوا أن يجمعوا بين العمل العسكري والعمل العقلي في وقت واحد وبقبضة واحدة . ولعل ذلك راجع إلى أن التفكير العقلي الأصيل هو الذي يكون وليد

بيئته وأوضاعه وخبراته ، ولا بد له من الرويّة والأناة ، وبالتالي لا بد له من وقت طويل وتجارب مريرة . ولذلك لم يكن العرب في عجلة من أمرهم في هذا الميدان بقدر عجلتهم في ميادين الفتح والسلطان وتثبيت أقدامهم فيها . ماذا أقول ؟ حتى هذه الميادين بما فيها من انتصارات وهزائم ونكسات وكر وفر قد ساعدت كثيراً على نمو التفكير النظري وكـانت حاضنـاً مهماً له . لقد نما التفكير مع الأحداث أولاً ثم انفصل عنها بعد استكمال مقوماته . وهذا لعمري من أخص خصائص التفكير الأصيل ، لأنه وليد حاجات داخلية ولم يبدأ ترفاً مستورداً من خارج . وعلى كل حال ، ان الأعاجم لم يتفوقوا على العرب في الميادين العقلية لمزية آريّة فيهم ، كما ان العرب لم يتقاعسوا في هذه الميادين لآفة ساميّة فيهم ، ففي كلا الحالين كانت الظروف الموضوعية تنعكس على المواقف الذاتية فتوجهها هذه الوجه أو تلك ، تبعاً لمعادلة لم يستطع كل من الفريقين بمقتضاها أن يجمع بين أسباب التفوق كلها في وقت واحد : فلئن تفوق الأعاجم فكرياً فقد أخفقوا عسكرياً ، ولئن أخفق العرب ـ وبتعبير أدق قطاع كبير منهم ـ فكرياً فقد تفوقوا عسكرياً ، كأنما الجمع بين أسباب التفوق عند كل من الفريقين عملية مستعصية !

وليس معنى ذلك أن العرب لم يكن لهم أي إسهام في الحركة العقلية في فجر الإسلام ، بل لقد كان لهم نصيب وافر من هذه الحركة غير أنه كان مختلطاً بضباب كثيف من المشاعر الدينية والسياسية والأبهة العسكرية . ولم يَصْفُ ويتبلور ليتخذ مساراً عقلياً واضحاً نستطيع أن نسميه تفكيراً نظرياً حقيقاً بهذا الإسم إلاّ بعد أن قطع أشواطاً في مراحل الطريق . ولسنا الآن في معرض تفصيل القول في ذلك ، فمجاله الواسع كتابنا (الفكر العربي في مخاضه الكبير) بقسميه النظري والتطبيقي . لكن ما نريد توكيده هنا والإلحاح عليه هو أن العوامل التاريخية الطارئة ـ من نفسية وإجتماعية وسياسية وإقتصادية أي مجموعة الظروف الموضوعية ـ تكفي وحدها لتفسير ما يعزى إلى الأعاجم من تفوق واعتبار ، وإلى العرب من تقصير وقصور ، وذلك دون إقحام العوامل البيولوجية والإعتبارات العرقية . فقد انصرف الأعاجم إلى العلم والدراسة بعد أن فقدوا الولاية والحكم . لقد استعاضوا عن رياسة الحرب والولاية برياسة العلم وشرفه . فكان ما كان من مكاثرتهم للعرب في هذه الرياسة وهذا الشرف في بعض مراحل الطريق فقط ، لا في جميع المراحل . لقد رأوا فراغاً كبيراً فازجوه بالدرس والتنقيب والبحث والنظر ، فجاء العرب من بعدهم وأكملوا ما بدأوه .

فللأعاجم شرف الطليعة والريادة ، وللعرب شرف البحث واستمرار المسيرة والحفاظ على الشعلة متقدة متوهجةً . لقد عثر الأعاجم على رياسة خالدة فشروها برياسة وقتية ، وعثر العرب على ملك عضود فآثروه على ملكوت دائم . فكان هذا الحل ضرباً من ضروب الدفاع عن النفس عند فريقٍ وتعويضاً له عن فردوس مفقود ومغانم ذهبت إلى غير رجعة ، كما كان هذا الحلّ نفسه أيضاً عند الفريق الآخر نوعاً من إرضاء غرور القوة والشعور بالإستعلاء والعظمة وأبهة السلطان . وحدث ذلك بحركة لا شعورية معقدة يأبى الفريقان فيها التفكك والزوال .

ورب معترضٍ يقول : لقد رأينا الهزائم السياسية والعسكرية إذا حلت ببلدٍ ما لا بد أن تشلّ حركة الفكر فيه فلا تكاد تقوم له بعدها قائمة ، بحيث تنعدم فيه القابلية لحدوث أي تعويض نفسي كالذي ذكرنا . فما بال الفرس وقد أنهكتهم الهزائم على أيدي العرب ينجبون في العصر العباسي والعصور التالية عدداً من الرجال الأفذاذ قد لا نرى لهم مثيلاً في العصور الذهبية لفارس ؟ والرد على ذالك سهل بسيط : فالضربة التي لا تقصم الظهر لا تميت . هذا أولاً ، وثانياً تنفرد الفتوحات الإسلامية بمزية لم تعرفها الفتوحات الأخرى : فقد كانت للمغلوبين في جميع البلاد التي فتحها العرب حقوق متساوية مع الفاتحين إذا قبلوا الدخول في الإسلام ، بل حتى لو رفضوا الدخول فيه على أن يكونوا أعضاء مخلصين للمجتمع الجديد في إطار من الإحترام المتبادل ومعرفة كل فرد لحقوقه وواجباته . وهكذا اختلط شعور الهزيمة عند الفرس بشعور الإنتماء للدولة المنتصرة التي أصبحوا جزءاً منها يسهم في رقيها وتقدمها كأبنائها الأصليين سواء بسواء . وهذا ما لم يحصل إلا في بلاد الإسلام وفي ظل حكم الإسلام حيث أن الشعور بالهزيمة لا يلغي نشوة النصر . فالمهزوم منتصر في بلاد الإسلام ، إنه لم يخسر شيئاً بل لقد زادت مكاسبه ، أو على الأقل إن ما خسره من وجه قد نال عوضه من وجهٍ آخر : فلئن انتهى المغلوبون فارسياً فقد انتفضوا من جديد عربياً وإسلامياً . وهذا قريب مما يسميه الماركسيون (الحظ التاريخي) : فالتدمير الناتج عن الفتح إذا لم يكن كاملاً قد يكون شرطاً لتقدم لاحق . ولا سيما إذا انضم إليه عامل مساعد . فقد عجل بهذا التقدم كثيراً ما ذكرناه من مساواة في الحقوق والواجبات بين الغالبين والمغلوبين في بلاد الإسلام . وهكذا بدأ الفرس بداية ثانية أكثر حرية وأكثر سرعة من البداية الأولى ، وذلك بفضل الإعصار التاريخي الناتج عن انهيار امبراطوريتهم على أيدي العرب . فهذا التقهقر الذي أعقب الإعصار بما انضم

إليه من عوامل إسلامية مؤاتية ـ أدى إلى زوال عهد وإقبال عهد . فهو بإرغامه الفرس على إعادة اكتشاف ذاتهم قد مهد الطريق لتقدم لاحق قام بأكثر من إلغاء أثر التقهقر . فالتاريخ كما يقول ماركس يتقدم من « الجهة السيئة » في بعض الأحيان ، تلك هي طلقة الرحمة تلقتها فارس من أيدي العرب . وهؤلاء ـ على الأرض التي كانت فارس أنضجتها والتي كان انهيارها يتركها حرة ـ وجدوا نقطة انطلاق تطور جديد .

ولنعد إلى عبارة ابن خلدون . فحتى لو سلّمنا أنه كان على حق في قوله إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من الأعاجم، فليس في هذا القول ما يقدح بالعرب أو يضيف إلى الأعاجم مجداً جديداً ، إذا تذكرنا ذلك الخضم الهائل العظيم من الأمم والشعوب والأجناس والأقوام التي دخلت الإسلام . فمن الطبيعي أن يظل العرب الخلّص أقلية ضئيلة بالنسبة إلى الأعداد التي لا تحصى من الأعاجم والتي ما انفكت تتزايد وتتعاظم بدخول عناصر جديدة في دين الفاتحين . وقد شملت عملية التعرب هذه العناصر جميعاً ، وهي عملية لم تتوقف قط . أما العرب الأقحاح فلم يزد عددهم شيئاً يذكر بالقياس إلى المتعربين . ومع ذلك فقد أنجبوا أعداداً لا حصر لها من حَمَلَة العلم تفوق نسبتهم العددية في المحيط الأعجمي المتعرّب الكبير . بل إني لا اعتقد أن الفرق كبير بين علماء العَرَبَيْن ، العرب الأقحاح والعرب المتعربين ، من حيث عدد حَمَلَة العلم . فقد دفعت القلة العربية بأعداد هائلة من حملة العلم . فكان ينبغي بالتالي على العرب المتعربين (الأعاجم) أن يدفعوا بأعداد أكبر جداً مما فعلوا ليلحقوا بالأعداد العربية ولتبقى النسبة بين الفريقين ثابتة . ولكنهم لم يفعلوا . وحبذا لو يتوفر بعض الباحثين للقيام بمقارنات إحصائية لتحقيق هذه المسألة تحقيقاً علمياً دقيقاً يشفي صدور قوم مؤمنين بالعروبة فكرة وتاريخاً ومصيراً . وعندئذ تقطع جهيزة قول كل خطيب ! فالحدس هنا جهد ضائع وعبث لا يغني من العلم شيئاً .

يخلص معنا من كل ما تقدم أن حضارة العرب لم تقم على أكتاف الأعاجم وحدهم . فان من دخلوا في الإسلام من الفرس والروم والقبط والسريان وغيرهم إنما درسوا في مدرسة العرب ، وتعلموا لغتهم وثقافتهم وعاداتهم . كما أنها لم تقم على أكتاف العرب وحدهم ، فان العرب قد درسوا علوم الفرس والروم والقبط والسريان وغيرهم وتسربت إليهم ثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ونتج عن ذلك

كله مزاج جديد لا هو بالعربي صرفاً ، ولا هو بالأعجمي محضاً ، وإنما هو كلاهما وأكثر منهما . بمعنى أن هذا المزاج ليس مجموعاً كمياً تحتفظ الأجزاء فيه بقيمها وأقدارها وأحجامها ودلالاتها ووظائفها ، وإنما هو مجموع نوعي جديد تفاعلت فيه الأجزاء والعناصر فأنتجت كلاّ نسيج وحده لا ينتمي إلى هذا الفريق أكثر منه إلى الفريق الآخر . فإذا كان ابن سينا والغزالي والرازي والبيروتي و . . . أعاجم تعرّبوا لغةً وديناً ومجداً سياسياً ، فإن الكندي والجاحظ وابن رشد وابن زهر وابن النفيس وابن خلدون و. . . عرب استعجموا علماً وحضارة ومجداً عقلياً . فلا غالب ولا مغلوب في هذه المواجهة ، وازداد الجميع منزلة وكرامة . وانتصر الإسلام بجناحيه العربي والأعجمي وحلّق النسر بين النجوم . وعلى الرغم من هذا التفاعل العميق بين الفريقين ، فقد ظلت الصيغة العربية محتفظة بقوامها ، بل لقد اغتنت وازدادت قوة وثراء . لذلك فالفريقان عرب بلغتهم ودينهم وتربيتهم وثقافتهم . ومن هنا يمكن القول أن العروبة ليست بالدم بقدر ما هي بخدمة لغة العرب وآداب العرب ودين العرب وعلوم العرب .

خاتمة ـ يخطىء من يظن أن الحضارة العربية إنما هي حضارة الأقوام والأجناس والشعوب التي اعتنقت الإسلام ، وأن العرب كانوا حشواً مهملاً غريباً بين هؤلاء لا هوية له ولا عمل إلا الغزو والسطو وانتجاع الكلأ والطعن بإبلهم في القفر وورود مياهه القليلة المَلِحة طلباً لما خض النتاج في رماله . فهم أشد الناس توحشاً ، ينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم . فهل هؤلاء أهل للقيام بأي إنجاز حضاري ؟ فإذا كان لهم من نصيب في الحضارة التي تحمل اسمهم فإنما ينحصر ـ بزعم أعداء هذه الحضارة ـ في هذا الغشاء الرقيق من اللغة التي كانت مجرد أداة للتعبير ، وهو شيء تافه لا يُعدّ إسهاماً ذا بال ! !

إن هذا الكلام فاسد متهافت جملة وتفصيلاً لأسباب كثيرة أهمها التقليل من شأن اللغة في حياة الشعوب وبناء الحضارات . يلي ذلك ، النظرُ إلى العرب قبل الإسلام على أنهم هم أنفسهم عرب ما بعد الإسلام ، كأنما الإسلام شيء عارض تافه لا أهمية له في وثبة العرب واقتحامهم الآفاق ، وكأنما الأفكار بالتالي أمور ثانوية لا قيمة لها بالنسبة إلى هياكل الأجسام وألوان الأبدان وأحجام الجماجم . فكأنما قطرة دم خير من ومضة فكر ، وصبغة جسم أولى من نفثة وجدان ، وقطعة

عظم أهم من انثيال معنى !

خاب فألهم وسفهت أحلامهم . فالإنسان بفكره لا بعظمه ، وبما ينبثق في عقله لا بما يصبغ بَشَرته ، وبما يدور في خاطره لا بما يجري في عروقه ، وبما ينطوي عليه دماغه من معان لا توزن بميزان ولا تُكال بمكيال ، لا بما يثقل الميزان ويملأ المكيال . الأبدان هي الأبدان في كل زمان ومكان ، ولكنها الأفكار تفرق بين الأبدان . الأبدان مطايا الأفكار ، وما قيمة الأبدان بلا أفكار ، ولو أعجبك حسين الأبدان ؟ . . .

والأمم ، وما أدراك ما الأمم ! فهي ليست كومة من الأفراد ، ليست مجموعاً حسابياً ، ليست حصى بشرية ، انضم بعضها إلى بعض ، وتراكم بعضها فوق بعض . إنها نظام من العلاقات المتشابكة المعقدة المشحونة بالرموز والمعاني . إنها ليست حشداً كمياً من الأصول البشرية والعناصر الجنسية . إنها قيمة نوعية جديدة وصراع فكري وحضاري تتفاعل فيه موازين القوى .

أجل إن جوهر الأمم ليس الكثافة العددية ، بل القيم الروحية والمثل العقلية والحضارية . وهذه القيم والمثل كفيلة بصهر الناس في بوتقة واحدة وإزالة جُل ـ ان لم يكن كُل ـ الشوائب العنصرية والزّبد العرقي . فالأمة الواحدة كلّ عضوي متكامل ، له وحيه الخاص ويحيا صيرورته الخاصة وتجربته الخاصة على أنحاء ووجوه تتنوع كعدد أنفس بني آدم . وهو ينمو ـ لا كما تنمو البلوريات بضم أجزاء خارجية إلى جرمها الأصلي ـ بل بدينامية باطنة تتفجر من الينبوع الثر الذاتي ، ينبوع الحياة الدافق ، ينبوعها الجياش الخصب الأصيل .

لقد جاء الإسلام وطرح مُثلاً جديدة وقيماً جديدة وايديولوجيات جديدة ، نشأ عنها تركيب جديد وكيان اجتماعي جديد . هذا الكيان انما هو حقيقة جديدة شاملة عليا تسمو على حقائق الأفراد أو العناصر التي يتألف منها . فقد تولَّد عن هذه العناصر ـ وقد شُحنت بالدين الجديد ـ تفاعل جديد ونمط جديد من التفكير والسلوك والحياة ، لا هو بالفارسي ولا بالهندي ولا بالتركي ولا بالرومي . . . لذ ذاب الفرس والهنود والأتراك والروم في حقيقة شاملة أكبر احتوتهم جميعاً واغتنت بهم جميعاً ، كما اغتنوا هم بها وأخصبوا بلقاحها . هذه الحقيقة هي نسيج جديد سُداه الإسلام ولُحمته العروبة ، وغذاؤه مواريث هذه الشعوب وذخائرها . إنها المجتمع العربي الإسلامي وكفى ، المجتمع الذي انصهر فيه العرب حتى لقد

كادوا أن يكونوا هم أولئك الأعاجم الذين دخلوا فيه أفواجاً ، وانصهر فيه الأعاجم حتى لقد كادوا أن يكونوا هم أولئك العرب الذين خرجوا من البادية واطلعوا على العالم برسالة جديدة ، وحضارة جديدة ، واشعاع جديد .

ولهذا المجتمع الجديد الذي وفد على حضارات مختلفة ، وتفاعلت فيه تيارات مختلفة ، واصطرعت على أرضه مذاهب ومدارس مختلفة - أقول لهذا المجتمع وحده إنما تدين شتى العبقريات والمواهب والطاقات التي تفجرت فيه ، دونما نظر الى اللون أو الجنس أو العرق . فلئن كان يشبه سائر المجتمعات من حيث الكثافة العددية ، والأشكال المورفولوجية والتكوين الجسمي والإستعدادات البيولوجية . . . فانه يختلف عنها من حيث نظام العلاقات والرموز والمعاني . بهذا الفهم الجديد للمجتمع العربي الإسلامي تنكشف لنا حقائق كثيرة كان يجللها الضباب ، وتتبدد شبهات وأوهام وقرت في النفوس ورسخت في العقول واستبدت بالأذهان حتى لَبدا من الصعب اقتلاعها منها .

الإسلام نتاج العبقرية العربية ومعجزة من معجزاتها . كما أن العرب هم رسله وحواريوه ، بل شموعه ومشاعله . إنهم قوته الدافعة ورأسه المفكر ، وأداته الفاعلة في مجال تغيير الأفكار وتعديل المفاهيم والنظم . إذا عزّوا عزَّ وإذا ذلّوا ذل . كما أن عِزَّه عزٌّ لهم وذلهُ ذل لهم . فهو شحنة عربية وطاقة دينية وانتفاضة ثورية وقيمة حضارية وكثافة بشرية وتطلعات إنسانية . وهذا المزاج - ولا أقول الخليط - الفريد يكمن وراء جميع التغيرات العميقة التي طرأت على المنطقة الممتدة من الخليج الى المحيط، وعلى شبه جزيرة ايبيريا بين القرن السابع والقرن الرابع عشر للميلاد . فإذا لم نُوفِّ هذه الحقيقة التاريخية العظيمة قسطها من الدراسة، وإذا لم ندرك قدرتها الهائلة على التأثير والفاعلية وتفجير الظروف والأوضاع ، لم نفهم شيئاً من المنجزات والأعمال والمآثر التي صدرت عنها ، وكانت النتائج التي سنصل اليها هزيلة شاحبة .

وما قَدَروا العرب والإسلام حق قدرهما . لقد نظروا اليهما دائماً من خارج فكان ما كان من تزييف وتشويه وتحامل في بعض دراسات بعض المستشرقين وتلاميذهم العرب أتباع كل ناعق ، وجُلها - إن لم يكن كُلها - دراسات مبتورة مقطوعة الصلة بالحدث الكبير الذي كان ينبغي على كل دراسة جادة رصينة أن تتوجه إليه لتفسير الظواهر والوقائع المذهلة التي نتجت عنه تفسيراً علمياً صحيحاً

لا تفسده الأغراض والأهواء والمصالح .

نعم ، لقد كان رائد الكثير من المستشرقين التزام المنهج العلمي في دراساتهم العربية الإسلامية . وهذا حق وواجب . ولكن التزام المنهج العلمي شيء ، وتطبيق منهج علمي واحد على جميع الظواهر ـ فيزيائية كانت أم عضوية ، بيولوجية كان أم عقلية ، بلورية كانت أم حضارية ـ شيء آخر . فان ما يصلح في مستوى معين من الظواهر قد لا يصلح في مستوى آخر ، وإلا إختلطت الأوراق وانكرنا ما بين الظواهر من فروق في التنظيم والتعقيد . فبترقي المستويات ترقى درجة التنظيم والتعقيد ، وبالتالي تدخل في المنهج طرائق جديدة ومعادلات جديدة يجب أن تأخذ كل ذلك بالحسبان . إن النظر إلى الظاهرة الفكرية على أنها ظاهر فيزيائية ، وتطبيق مناهج الفيزياء عليها ، فيه مسخ لهذه الظاهرة وتفتيت لها ، وتجريد لها من طبيعتها ونبضات الحياة فيها .

وعلى كل حال ، أن التفوق العقلي لا شأن له أبداً بخطوط الطول والعرض ، كما لا مدخل له في قضايا الجنس والشكل واللون . فها هنا مقولتان لا علاقة بينهما . أحداهما حضارية والأخرى بيولوجية . إنهما مستقلتان إحداهما عن الأخرى غاية الإستقلال ، وبينهما برزخ لا يبغيان . وكل محاولة للربط بينهما جهد ضائع وعبث لا يأتي بخير .

لذلك فإن مفكري الإسلام من الأعاجم لا يدينون بعبقرياتهم ومواهبهم وتفتح قرائحهم لعوامل سلالية عنصرية ، وإنما هم يدينون لعوامل ثقافية حضارية اتاحها لهم الإسلام ، وجو الحياة في بلاد الإسلام فإذا لم يكونوا عرباً في أصولهم البعيدة فقد أصبحوا عرباً بالتعرب والإنتماء العربي الجديد . فقد استخدموا العربية أداة للتعبير اليومي ولغة للكتابة والتأليف ، كما خدموا اللغة العربية والفكرة العربية والأدب العربي وكانوا رواداً من رواد العربية في ظل الإسلام ومناخه الفذ الفريد .

إن الفرص التي قد اتاحها الإسلام لابنائه وغير أبنائه ممن جاءوا يطلبون رفده ويعيشون في حماه في عصوره الذهبية ـ بل حتى في بعض عصور الإنحطاط ـ كانت فرصاً نادرة رائعة حقاً لا نكاد نجد لها نظيراً إلا في بعض الشعوب المتقدمة في العصر الحديث ، حتى إن كل من عاش في هذا الجو ، وتنفس في رحابه ، واستظل بظله ، وصار قمة من قممه ، فإنما يدين له ـ وله وحده ، لا لأصوله

البشرية وشجرة أنسابه ـ بما نفجر عنده من طاقات وما تفتق فيه من مواهب كان لا بد أن تهدر لولا انتماؤه الجديد وتنفسه في المناخ الجديد. وهذا لا ينطبق على المسلمين الملتزمين وحدهم ، أي الذين آمنوا بالقرآن ورسالة محمد ، وقاموا بجميع التكاليف الشرعية أو بعضها ، بل أنه لينطبق أيضاً وبالمقدار نفسه على المسلمين غير الملتزمين ، أي أولئك الذين آمنوا بحضارة الإسلام ونشأوا فيها وتفيأوا بفيئها وتغذّوا بلبانها ، دون أن يدخلوا في الإسلام الرسمي ، بل حتى أولئك الذين خاصموا الإسلام وناصبوه العداء . وهكذا فالفلاسفة والعلماء والمفكرون النصارى واليهود والوثنيون والزنادقة والملاحدة الخ ـ ممن يعزو اليهم السطحيون وجميع أولئك الذين يبتعدون عن مواقع النظرة الموضوعية أو يروغون عن الحقيقة ، ويندفعون نحو رؤية مريضة للاحداث العربية الإسلامية ـ جميع هؤلاء الذين تُعزى الى كثير منهم عظمة الفكر العربي لأن بهم نفحة آريّة مزعومة أو بركة رسولية مفتعلة أو رطانة أعجمية ظاهرة ، إن جميع هؤلاء مهما تكن أصولهم وانتماءاتهم ، ليسوا سبباً من أسباب الحضارة العربية الإسلامية ، وإنما هم نتاج لها . إنهم براعم غضة من براعمها وثمرات يانعة من ثمراتها . فهم بجملة ثقافاتهم ومؤلفاتهم ولغتهم يدينون للحضارة الجديدة الناشئة التي يرجع الفضل اليها في تفوُّق من تفوّق منهم وبروز من برز . لقد اطلقت لهم حرية الفكر والعمل ، ودفعت بهم في أتون الأحداث ، وقالت لهم حققوا وجودكم ، وافتحوا صفحة جديدة من الإيمان بالذات والتعبير عن الذات . ها قد وضعنا حداً للمعاناة والحجْر والإذلال العقلي والسياسي الذي كان الحكم السابق قبلنا يمارسه في حقكم . ألا فتولوا بأنفسكم قيادة أنفسكم ، ولننظرْ ما أنتم فاعلون . فحقكم علينا أن نقدم لكم العيش الكريم والفرص المتكافئة ، وحرية القول والفكر ، بلا تمييز ولا تفرقة بين الملل والنّحل والمذاهب والأديان . فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لمسلم على غير المسلم إلا بالعلم والفكر والإسهام المنتج الفعال . وحقنا عليكم أن تكونوا مواطنين صالحين واعضاء منتجين ، وأن تكونوا لنا خير عون على اشرف مهمة . فحيَّ على خير العمل . سدد الله خطانا وخطاكم وهدانا واياكم إلى سواء السبيل . . .

ومعنى ذلك ان أصحاب العبقريات في الإسلام ، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، إنما يدينون بعبقرياتهم لا إلى تكوينهم النصراني أو اليهودي أو الوثني . . . الخ . بل الى الجذوة التي اتقدت مع الإسلام والتي في وهجها إنما

نشأوا وترعرعوا . لقد نضجوا ونبغوا وأنتجوا في رعاية الحكم العربي وفي ظل الإمبراطورية الإسلامية ، وفي سماحة الدين الجديد ، والمناخ الذي اتاح لهم التنفس في أنسامه . هذا فضلاً عن انهم كتبوا ثمرات قرائحهم بلغة العرب ونشروها وأذاعوها بلسان العرب . وبذلك فهم ليسوا سوى عطاء البيئة الإسلامية ، ووجه ناضر متألق من وجوه الحضارة العربية والفكر الإسلامي . وإلا فليت شعري ! كيف عسانا نُعلل عدم ظهور هذا الحشد الهائل ، وهذه الجيوش الجرارة ، من الفلاسفة والعلماء والمفكرين الفرس والروم والترك والهنود والإسبان و . . قبل ان تطأ أقدام العرب بلادهم ويتم التفاعل بينهم وبين أفكار المسلمين الفاتحين ومثلهم وآمالهم وأمانيهم ؟ ما بال هذه الأزهار لم تتفتح براعمها إلا مع انسام ربيع الإسلام ؟ ما بال هذه القرائح لم تتفتق ، وهذه الطاقات لم تتفجر إلا بعد ان جاءتها شرارة الإسلام وهبّت عليها رياح الإسلام ووصلتها بمركز الإشعاع ـ الأُم الذي تتولد فيه الطاقات وتُشحن فيه القوى ؟

أجل ، اني أعدّ جميع هؤلاء نتاجاً عربياً إسلامياً ولو لم يعتنق بعضهم الإسلام ، بل حتى لو ندد هذا البعضُ بالإسلام وخاصمه وكاد له واعلن الحرب عليه . إذ ليست العبرة باعتناق الإسلام بقدر ما هي باعتناق لغته والتنفس في جوه ، والتنقل في أرضه ، والتفاعل بينهم وبين أهله وعشيرته ، وتبادل الفكر والرأي معهم في وهجه وتحت سقفه وسمائه ، ومشاركتهم في المسؤوليات والأعباء والمغانم والمغارم في ظله ورحابه . فعظمتهم إنما ترجع إذن لا إلى دياناتهم وأنسابهم القديمة ـ وإن كانت هذه قد لا تخلو من الفعل والتأثير ـ وإنما ترجع إلى انتمائهم الجديد ، إلى المجتمع الذين أنجبهم ، والجو الذي غذاهم بأنسامه ، والبيئة التي فيها وبها ومن أجلها إنما عاشوا وازدهروا .

فأبو عمران موسى بن ميمون الأندلسي مثلاً . الذي ظن اليهود إنهم يضاهئون به أبا محمد علي بن حزم المفكر الإندلسي العظيم ، فسعوا حتى أقاموا له تمثالاً في قرطبة كما لابن حزم تمثال ـ إن موسى بن ميمون هذا عالِم عربي إسلامي قبل ان يكون يهودياً ، وبالعربية لا بالعبرية إنما كتب أكثر كتبه ، وفي بلاد العروبة والإسلام لا في غيتوات اليهود إنما نبغ وظهرت مواهبه . وعندما هاجر من الأندلس لم يذهب إلى فرنسا وإيطاليا ، بل ذهب إلى فلسطين ومصر ، وهناك أصبح من أطباء صلاح الدين . لقد كان علماً من أعلام اليهود الذين نشأوا في دار

الإسلام ، فأغنوا واغتنوا ، وأخذوا وأعطوا ، وكان من القلائل الذين نشروا الفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية في أوروبا ، وإن كان وهو يفعل ذلك إنما يخدم دينه ويكتب لأبناء ملته ، ويخلّف لهم أعظم آثاره . وهكذا الحال في غيره من المفكرين غير المسلمين الذين عاشوا في بلاد الإسلام . بل هكذا أيضاً حال الذين هاجموا الإسلام وأنكروا القرآن وسخروا من عقائد المسلمين ، كأبي بكر الرازي وابن الراوندي وغيرهما . لقد اتسع صدر العروبة والإسلام لهؤلاء جميعاً ، وأتاح لهم الجو والمناخ ليفكروا كما يشاؤون بحرية وسماحة ، كما أهاب بغيرهم أن يردوا عليهم ويناقشوهم ويقارعوهم الحجة بالحجة . لقد كان هؤلاء جميعاً عرباً باللغة والتعبير والفكر والإحساس واسلوب الحياة ، كما كانوا مسلمين ـ شاؤوا أم أبوا ـ بالثقافة والحضارة ، فكانوا يعيشون جنباً إلى جنب مع أخوانهم المسلمين ويأخذون بنصيب وافر في شؤون الحكم والسلطان . ولا غرو في ذلك ، فقد كان الإسلام طوال عصور الإزدهار والمَنَعة هو القيمة الإنسانية الحضارية الوحيدة التي كانت نموذجاً حياً للتعايشِ والتكافل بين الديانات ، ومثالاً رائعاً للتسامح بين الطوائف والمذاهب والملل والنحل ، والمرتع الخصب للعقل والروح والخيال .

أوَ تعجبون بعد كل هذا أن تفتّحت الأزهار، وانتشر العبير ، وسطعت النجوم ، وانطلقت مسيرة التاريخ على أيدي من كانوا في يوم من الأيام حفاةً عراة غُرْلاً ، فشبَّت فيهم الأفكار لتنقلهم من رعي الإبل وتأبير النَّخل إلى سدانة الحضارة ، ولتستخلفهم في الأرض وتجعلهم الوارثين ؟؟!

لكن ما كان لجزيرة العرب التي برز منها أفذاذ الفاتحين والمشرعين ـ رغم قلة عدد سكانها ـ ان تنصرف الى العلم والفتح في وقت واحد . لذلك انصرف العرب ـ وهم أهل الدولة ـ الى سياسة المُلك ، وتولّى المتعربون سياسة العلم . فحسبهم أنهم أعطوا الجذوة وقوة الدفع لاخوانهم الجدد وأتاحوا لهم الفُرص والظروف والإمكانيات ، سواء دخلوا في دين الفاتحين أم تمسكوا بأديانهم القديمة . وإنه لَعمل لو تعلمون عظيم ، فقد اهتبل الأعاجم هذه الفرصة السانحة التي لم تتوفر لهم قبل الفتح ، وسخّروها لأغراض العلم والحضارة . وبذلك أعطوا لانتفاضة الفكر العربي الإسلامي غذاءً جديداً وزخماً في إثر زخم .

غير ان الأمور أخذت بعد ذلك تتجه وجهة جديدة . فان العرب وقد انكمشوا عن مراكز القيادة والحكم والسلطان ، وعندما جرت الرياح بما لا

يشتهون ، أي عندما أفلتت من أيديهم مقاليد السيادة السياسية ؛ تولوا مقاليد السيادة الفكرية ، فبرزت مواهبهم في ميادين الفلسفة والعلوم والفنون والمعارف والعقائد ، حتى لقد بلغوا في ذلك غاية المدى . ويتجلى ذلك في مئات الأطباء والفلكيين والرياضيين والفلاسفة والعلماء والفقهاء والمتكلمين والأصوليين ، وجميع فروع المعرفة الدينية والدنيوية الأخرى المتاحة لهم آنذاك ، حتى لأصبحوا فيها بعد نواة الحركة العقلية والثقافية في العالم ومركزاً هاماً كبيراً من مراكز الإشعاع التي عرفها التاريخ في مسيرته الطويلة ، وأحقابه المتوهجة الخلاقة .

وأخيراً إن الحضارة متاع مشاع يكسبه من قدر على الإحتفاظ به ، ثم يأتي عليه زمان لا يطيق حمله لبروز قوى جديدة تنازعه إياه ، فيتخلى عنه لمن هو أشد منه قوة وأحق بالبقاء ، حتى إذا خارت قوى هذا الأخير وعدت عليه عوادي الزمن تخلّى عنه لمن هو أصلح منه . وهكذا دواليك . فالأيام دول بين الناس ، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك . انه لا يشهد أبداً لقوم دون قوم أو جنس دون جنس بالإمتياز الذاتي والإختصاص بالقدرة على البقاء والإضطلاع دون سائر العالَمين برسالة الحضارة لميزة طبيعية موروثة ، أو فضيلة عنصرية راسخة في صلب التكوين البيولوجي والفطرة الجبليّة .

لقد كان اليونان مجداً من أمجاد التاريخ ومركزاً لاشعاع كبير ، لا لمزية عنصرية أو بيولوجية موروثة اختصهم بها القدر ، بل لمكاسب عقلية وروحية حققوها لانفسهم بالعرق والدم والجهد المتواصل . وكذلك كان العرب ، فقد نشروا من حولهم أجواء فكرية كثيفة تولدت عنها أجواء أخرى وطاقات أخرى . وانبثق عن هذه الطاقات طاقات أخرى وأجواء أخرى عززت قدرة الفريقين اليونان والعرب على البقاء . ثم دار الزمن بهؤلاء وأولئك وجعلهم أحاديث بعد ان كانوا أحداثاً ، وألقى بهم في زوايا التاريخ بعد ان كانوا في القمم . فإنما التاريخ لمن قدر على صنعه . فهو ليس حكراً على أحد بلى هو للكل وبالكل ولا منطق عنده إلا منطق الكل . . .

الفصل الرابع

أولوية العوامل الداخلية على العوامل الخارجية في نهضات الشعوب

وهناك تعسفاً آخر هو بلا شك وليد التعصب العنصري السابق ولا يقل عنه ظلماً وتحكماً يُراد به بطبيعة الحال الإساءة إلى الفكر العربي الإسلامي والزراية به وإضعاف الثقة بما صدر ويصدر عنه من منجزات وأعمال .

فإن كثيراً من الدارسين للفكر العربي الإسلامي - ولا سيما في القرن الماضي ، بل في صميم هذا القرن أيضاً - ينعون عليه تعدد موارده وكثرة الأصول والمصادر التي استقى منها والتيارات التي نفذت إليه وتفاعلت فيه ، وبالتالي إنهم لا يرون فيه إلّا صورة للتأثيرات الأجنبية ، وانعكاساً للنفحات التي هبّت عليه من الأديرة والصوامع والبِيَع والمدارس الدينية والعقلية التي فاجأت العرب والمسلمين في غزواتهم وفتوحاتهم . فهؤلاء الدارسون ليسوا بقادرين على أن يتصوروا أن تظهر عبقرية عالِمٍ عربي أو فيلسوف إسلامي دون أن تمت بسبب أو بآخر إلى أصول أجنبية . فأن لم يجدوا هذه الأصول تبرعوا بها ، فحمّلوا الأحداث فوق ما تحتمل واختلقوا الذرائع والمبررات يلوون بها أعناق الحجج والوقائع لتواطىء استنتاجاتهم وتدعم أقاويلهم . وما يزالون ينقلون إلى البؤرة ما كان في الحاشية ، ويسلطون الأضواء على الخرائب والأطلال ، حتى يستقيم لهم ما أرادوا ، أو هكذا يخيّل إليهم على الأقل . فإذا بالدمى تدب فيها الحياة ، وإذا بالعظام تُنشز وتُكسى لحماً ، وإذا بالأشباح والهياكل لها أذرع وسيقان تمشي على الأرض كسائر عباد الله . ولقد حدث ذلك كله بعصا ساحر وقدرة قادر ، وهو فنّ لا يحسنه إلا ذووه . لقد انتقل ما في الحواشي والزوايا إلى مركز الدائرة ، وتحوّل التافه من

الحوادث إلى مستودع يزخر بالطاقات الهائلة ، وإذا بالقزم عملاق . لقد سُلبت المواهب من أصحابها الشرعيين وأعطيت لمن لا يستحق ، فاستقام المعوجّ وانتصب الكسيح شاكي السلاح ، لقد وقعت المعجزة ، فسبحان محيي الموتى ومخرج من في القبور ! وما أسهل هذا الفن على حذاقه والمتمهرين فيه . لقد قزّموا كل ما يمتّ إلينا بصلة القربى والنّسب ليَعملقوا جميع ما يصدر عنهم أو ينتمي إليهم . والمهم في حساباتهم ومعادلاتهم أن يخنقوا فكراً قد انتفض واتخذ طريقه إلى المجد هو الفكر العربي الإسلامي، ليبعثوا إلى الحياة عظاماً نخِرة في الغيران والكهوف أو القفار والبطائح التي تمّت إلى جغرافية أوربا أو تتصل بتاريخ أوربا . فأوربا هي أم العلم والحضارة ، وهي المبدأ والمطمح والغاية .

إن هذه الدعوات المرجفة التي دأبها التشكيك بالفكر العربي،تنطلق دائماً من موقع الإستعلاء والصلف الذي تمليه القوة الغاشمة ، تقف وراءها حضارة متوحشة تدعمها جيوش جرارة لا تُبقي ولا تذر . إنها حضارة عتيدة تعوزها مجموعة من القيم والمبادىء والمثل الإنسانية لتردها إلى صوابها وتوقظ فيها الحس الخلقي النبيل . فإن النزعة العنصرية التي أسلفنا القول فيها في الفصل السابق هي التي جنحت بالأوربيين إلى إعلان اختصاص الحضارة العربية الإسلامية بالنقل والإقتباس دون الإبداع الذي هو حكر على حضارات الأمم الآريّة وحدها . فالحضارة العربية الإسلامية إنما هي حضارة منقولة مستوردة ، ولم تكن في يوم من الأيام حضارة خلاقة معطاء . كيف لا والعرب الذين أعطوها اسمهم غير مهيأين للإبداع . إنهم قوم خداج عقام خُلقوا للسخرة وخدمة الرجل الأبيض . أما ما قد نرى في الحضارة العربية والفكر الإسلامي من طرافة وابتكار فإنما مرجعه إلى العناصر الآريّة التي دانت بالإسلام وانتقلت إليها مقاليده . تلك هي الحجة الأبدية التي يسوقها العنصريون الأوربيون دائماً لتجريد الأمم التي لا تتوشج بينها وبينهم واشجة قرابة أو رابطة نسب،من كل مزية تعطيها حق التفوق يوماً والقدرة على توجيه التاريخ وصنع الأحداث .

وسنحاول في هذا الفصل أن نبدد هذا الوهم الذي استحوذ على أذهان الكثيرين ، وسنشير إلى الحجة الراجحة والحجة المرجوحة من أقوال دعاته . ولن نألو جهداً في إدحاض كل افتيات على الفكر العربي وكشف تخرصات المتخرصين وافتراءاتهم . وإذا كان الفصل السابق لم يشف صدور قوم رانت عليهم الشكوك

فنرجو أن يضع هذا الفصل حداً لشكوكهم ، وإلاّ فالفصل التالي في انتظارهم . ومن لم يكن له ذلك مَقْنَعاًفحريّ بالفصل السادس والأخير أن يكون له هذا المَقْنع . لكن هناك نفوساً لا يجدي معها كل نقاش تقليدي من هذا القبيل ، فلقد رسخت فيها آراء ورانت عليها غواش يجد المرء صعوبة كبيرة في تبديدها واقتلاع جذورها . لهذه الفئة ندخر السَيْكوسوسيوديناميكا التي نعلق عليها آمالاً كباراً في هذا السبيل ، لأن جمهور المشاهدين سيرون بأم العين ، وعلى المسرح الذي يقع على بضع خطوات منهم ، معركة كبيرة تنشب بين الأفكار ، فتعلو فيها أفكار وتهوي فيها أفكار ، وتتولد أفكار وتُزهق أفكار . وسنرى شروط عمل الأفكار وكيف تنبثق الأفكار من الأفكار وكيف تضمحل وتتلاشى . إن هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء يخوض في عالم المجرد والمعقول إذا صح التعبير ، بمعنى أنه مبني على استنتاجات ومناقشات ومحاكمات عقلية مجردة تقوم على تجارب وملاحظات علمية . إنه دراسة أكاديمية هادئة ـ أو قد لا تخلو أحياناً من بعض النزق والإنفعال لأن التحامل على العرب والفكر العربي قد يصل أحياناً إلى حد الوقاحة ـ وكل هذا قد لا يُلزم الخصم إذا كان صعب المراس . إن إفحامه بهذه الوسائل مطلب عسير . فإذا كان هذا الكتاب يظل مشدوداً إلى عالم المجردات والمعقولات بالمعنى الذي ذكرنا فإن (الفكر العربي في مخاضه الكبير) بقسميه النظري والتطبيقي سيكون مجاله عالم المحسوس العياني إذا صح التعبير أيضاً . وحده حق وواضح ؛ ما ليس بحاجة إلى برهان ، ما هو مباشر وأكيد بذاته ، ما ينطق بذاته ويُقنع بذاته ، ما يجر معه تأكيد وجوده ، ما هو واضح كالنهار ، فقط الحسي والعياني واضح كالنهار ، فقط حيث يبدأ المحسوس تنتهي كل الشكوك والمنازعات . المجرد غير حق . الحقيقة دوماً عيانية . هذا ما تنادي به الماركسية ، فليكن ، ان سر العلم المباشر هو الصفة الحسية . إلى هذا المستوى نأمل أن ترقى الدراسة السيكوسوسيودينامية للفكر العربي الإسلامي ، قطعاً المكابرة من ينكره ، وسداً لباب اللجاج على كل متشكك ظالم . ففي الكتاب الأخير الذي أومأنا إليه منذ قليل سنشهد معارك وملاحم أبطالها الأفكار . وسنسمع قعقعة السلاح ، وسنشم رائحة البارود ، وقد تصل ألسنة اللهب إلى أجسامنا فتلسعها لسعات تضطرنا إلى الإبتعاد عن الساحة وتجنب وطيس القتال ، أَوَليس كل أولئك من قبيل المحسوس ؟ هذه هي الدراسة الساخنة التي ندعو إليها ، في مقابلة الدراسة الأكاديمية الهادئة والباردة . هنالك سنشهد فصلاً من أعظم فصول التاريخ

وأكثرها إثارة وتحدياً ، وهو كيف تولّد الفكر العربي والإسلامي ؟ كيف تحققت المعجزة الكبرى في أرض قفر وواد غير ذي زرع ؟ كيف خشع الجبل وتصدّع ؟ كيف أُشقّق وخرج منه الماء ؟ لقد مر محمد عليه السلام على هذه الأرض مرور الغمامات على الفيافي والقفار ، فهطلت ومضت تاركة وراءها الخُضرة والنُضرة والسُقيا لقوم غرات جياع عطاش بائسين . إن الظلال الوارفة التي تفيأت بها المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط في عصور الإسلام الكلاسيكية ما هي إلا أكفّ أولئك الأفذاذ الذين تخرجوا في مدرسة محمد وطلعوا على العالم بأفكار محمد ومثلِ محمد وحضارة محمد . وكأني بالكثيرين يسخرون من هذه الأقوال ويتخذونها هزواً . لقد بدأت بزعمهم أدعو بدعاية الإسلام وخرجت على مبدأ الإلتزام بالموضوعية الكاملة الذي تعهدت به منذ البداية . على رسلكم يا هؤلاء ! فإنني لا أهذر ولا أهذي ، ولا أهرف بما لا أعرف ، ولا أتكلم على سبيل الدعاية أو الوعظ ، ولا أهيب بالخوارق ، لا سيما وأن محمداً نفسه كان أبعد الناس عن الخوارق . وكل ما يُنسب إليه في هذا السبيل فهو من وضع الوضّاعين وتلفيقهم ، ثم جاء الخيال الشعبي فأضاف إليه أطباقاً شهية !

أنا من المؤمنين بالفكر العربي الإسلامي في عصوره الكلاسيكية ، بعد أن لم أكن أؤمن . وأُريدكم لتؤمنوا . فالفكر العربي الإسلامي حقيقة تاريخية ثابتة . فإن كنتم في شكٍ من هذا، فدونكم الدراسة السّيْكوسوسيودينامية لهذا الفكر . وستذكرون ما أقول لكم . إنْ أقول إلا الحق ، والدراسة الساخنة لهذا الفكر على ما أقول شهيد . فإن لم تؤمنوا فموعدنا هذه الدراسة . فلو لم يكن في مجاري هذه الدراسة إلا مايحملك أيها القارىء الكريم على إعادة النظر في أقوال الكثير من المستشرقين الغربيين ، فناهيك بها نفعاً . وأنا به زعيم .

●

إن أي فرد في أي جماعة بشرية ، قادر على ان يمتص حضارة أي جماعة بشرية أخرى ، مهما سمت هذه الحضارة ومهما كان انتماؤه العرقي . كما أن أفراداً مختلفين من كافة المجموعات البشرية الكبرى قد أسهموا في إدخال إضافات هامة إلى الحضارة الإنسانية في عصور مختلفة من عصور التاريخ . فجميع شعوب العالم قادرة على إبداع قيم ثقافية ومثل عقلية جديدة دونما اعتبار للجنس أو اللون أو الشكل . إنها تقف جميعاً على قدم المساواة من حيث القدرة على الإبداع ، لا

فضل لبعضها على البعض الآخر كما رأينا في الفصل السابق . فما يميز بين الشعوب إنما هي أحكام البيئة والفرصة والظروف العارضة ، وكلها عوامل خارجية صرف لا شأن لها بالعوامل البيولوجية والمورفولوجية .

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن كل الجماعات قد أسهمت بنصيب متساو متكافىء في نمو الحضارة الإنسانية . كلا . فلا شك أن بعضها قد أسهم أكثر من بعض ، لكن هذا التفاوت لا يعود إلى مزايا عرقية ، وإنما هو نتيجة للحوادث والمصادفات التاريخية والظروف الإجتماعية وعوامل الطقس والإقليم ، وليس هو أبداً وليد العوامل الداخلية للجماعات البشرية كما أسلفنا . فالفرد في أي نقطة من حياته ، وإلى أي جنس انتمى ، ليس إلا نتاجاً لتفاعل معقد جداً بين البيئة من جهة ، وبين إمكانياته الجسمية والسيكولوجية التي حددتها جراثيم وراثية من الجهة الأخرى انتقلت إليه من أبويه ، وكلاهما لا صلة له أبداً بالأصول العرقية والسلالات العنصرية . وبذلك يتمكن من مواجهة كل موقف حضاري والتفاعل وإياه وهو محتفظ بشخصيته وجميع مقومات وجوده . وإذا تتبعنا أي عنصر حضاري جديد وصلنا إلى حقيقة لا مجال للشك فيها وهي أننا مدينون دائماً لتفكير فرد واحد من أفراد القطيع . فكل ترقٍّ في الأفكار واستبحار في العلم والحضارة إنما يتحقق على يد مفكرين موهوبين نادرين كشذرات الذهب بين أطنان من التراب . وهؤلاء وإن كانوا نتاج عصرهم وبيئتهم ومجتمعهم إلا أن مزيتهم الكبرى أنهم يضيفون إلى رصيد عصرهم وبيئتهم - باستمرار - عناصر جديدة مطبوعة بطابع شخصياتهم الفذة الخارقة تحمل ملامحها وتشف عما يجيش فيها من نوازع وآمال ومطامح لا تخفي على عين المحلل البصير .

هناك في الإنسان ضربان من الإنتقال : وراثي بيولوجي وتقني ثقافي . الأول ملك للنوع فهو يحدث في الأصلاب والذراري بطريق التناسل بين أفراد النوع الواحد . وأما الضرب الثاني فهو مُلك لا للنوع بما هو نوع بل لجماعة بشرية معينة تخضع لظروف معينة . فهو يحدث بحركة تقدم تراكمي عبر أجيال من البشر ليضيف إلى كل جماعة خبرات جديدة ومكتسبات تاريخية جديدة . والخاصية الأساسية لهذه المكتسبات هي الإنتقال بطريق التعليم والقدوة والمثال والتجارة والهجرة والفتح . . . أي بطريق الإحتكاك المباشر . وهكذا فمكتسبات أي مجموعة لا تنتقل فقط إلى الأجيال التالية من هذه المجموعة وحدها كما يحدث في

الإنتقال الوراثي ، بل هي تنتقل أيضاً إلى مجموعات أخرى اتصلت بالمجموعة الأصلية ، ودخلت في تماس معها . إن ظاهرة الإنتشار هذه التي تضفي نمطية نوعية على التطور التقني والثقافي ، عامل أساسي هام في تطور الإنسان والفكر والحضارة ، بحيث إن التاريخ لا يعرف أي جماعة بشرية لا يشتمل كنزها الثقافي على استعارة من جماعة أخرى . لذلك كان من الخطأ الفادح أن نتخيل أن تنوع الثقافات يعبر عن عزلة مطلقة لكل جماعةٍ : فكل التنقيبات الحديثة تميل إلى توكيد اتساع شبكات الإحتكاك الثقافي وتعقدها منذ أبعد العصور ، وتبين ما هنالك من وهم في فكرة جماعة تعيش دون أي رابط مع الخارج . فمهما اتصفت المراحل البدائية من التطور التاريخي بالتبعثر والتشتت والإنفصال بحواجز العزلة البدائية لمختلف الجماعات ، فان كل ذلك يجب فهمه بمعنى نسبي مرن جداً ، يتسع ويضيق ويزيد وينقص تبعاً لدرجة تطور الجماعة وبعدها أو قربها من مراكز الإشعاع الحضاري . فهناك بين الجماعات البشرية عناصر متفاوتة القوة والسيولة تنطلق باستمرار خارج بيئاتها الأصلية لتنضم إلى الميراث القومي لكلٍ جماعة من هذه الجماعات وتشجع عملية التبادل بينها وتنفث فيها دماً جديداً . فنظرية الحضارات المعزولة التي تتطور كل منها بذاتها دون مدد خارجي نظرية لا تصمد للنقد ، لان من شأنها تنحية كل إمكانية للتطور في التاريخ وتحطيم وحدة السيرورة التاريخية العالمية . ومن هنا الدور التاريخي للاحتكاك الثقافي ونقل الميراث التقني والهجرات والفتوحات لتسهيل عملية الخروج البطيء لنواة التاريخي من حضن الطبيعي وجعله مركزاً لسيرورة محيطية واسعة . فالمنظور الغالب عند مؤرخي الحضارات المحدثين اليوم هو ما يسمى بلقاء الحضارات وكونية التاريخ . وبهذا اللقاء فقط يمكنها الإستجابة لضرورات تطورها ، وإلا سقطت في « مقبرة الحضارات المنقرضة » . فضرورات التطور هي التي تجعل التاريخ الإنساني يفيض ويجتاز باستمرار حدوده الطبيعية ذاتها . وهذا التطور يتحقق عبر سلسلة من محطات الإتصال تسمى نقاط التواصل التاريخي الذي يخلقه نقل الميراث التقني والثقافي من جيل إلى جيل، وبذلك تتيح كل جماعة لغيرها اختصار بداياتها هي وتجنب الوقوع في أخطائها مرة أخرى . وبذلك يتخطى التطور ذاته ويسرع الخطى إلى الأمام . وإلّا كان من الضروري الإنطلاق من الصفر في كل مرة يراد فيها تحقيق بعض المنجزات . وحتى لو كانت العزلة بين الجماعات صحيحة في عصور موغلة في بطون ما قبل التاريخ ـ وهذا ما يقول به بعض

مؤرخي الحضارات ـ فان تزايد المكتسبات الجديدة وشيوعها ودوامها ، كل أولئك لم يتأمن إلا منذ اليوم الذي بدأت فيه الحواجز تتحطم بالهجرات والحروب وانتقال السلع والبضائع بمقايضتها والإتجّار بها .

ومعنى ذلك أن الفروق النوعيَة بين الجماعات البشرية هي نتيجة ظروف البيئة الطبيعية للأرض (المناخ ، الموقع الجغرافي . . .) والحركة التاريخية (علاقات مع الجماعات المجاورة أو المعادية ، الهجرات والحوادث التاريخية . . .) فالبيئة الجغرافية تعضدها باستمرار البيئة التاريخية . الأولى تقدم القاعدة الطبيعية لامكانية التحرك ، والثانية تتخطى ظروف هذه البيئة بما يتهيأ لها من تجارب ومكتسبات تاريخية من شأنها التعجيل أو الإبطاء بعملية التطور في دائرة قومية معينة . فالتربة الأكثر خصوبة ليست دائماً هي الأكثر صلاحاً والأكثر سرعة للتطور الذي يفترض تدخل الإنسان وسيطرته على الطبيعة . ان طبيعة سخية معطاء (زراعياً أو نفطياً) قد تكون وبالاً على صاحبها ، مانعة له من النمو والتطور إذا لم يعمد إلى إستغلالها ويجعل نموه وتطوره ضرورة تاريخية خلاقة . إنها سلاح ذو حدين قد يقتل صاحبه وقد يقتل عدوه تبعاً لليد التي تمسك به . إن العالم الثالث عامة ، والعالم العربي خاصة يملك مساحات هائلة من التربة الخصبة وللثروة السمكية، وتقع في أراضيه كنوز العالم البترولية . لكن هذا السلاح بدلاً من أن يقتل الإستعمار والصهيونية العالمية فقد ارتد علينا ليظل مصلتاً فوق أعناقنا ، حتى لقد أصبح مصدراً من مصادر بلائنا ! ليست الخصوبة صفة للأرض بقدر ما هي صفة للفكر الذي يستغل هذه الأرض ويُسخرها لأغراضه وغاياته . بل إن الصخور والجزر والبراكين قد تكون حافزاً على التطور والإبداع والإنتشار إذا وُجد الفكر الذي يعرف كيف يشق طريقه فيها . وما مَثَل الجزر اليابانية عنا ببعيد . ليس البترول ثروة للبلاد العربية ، انه ثروة أوروبية وأميركية ، تستثمر اليد العاملة العربية الرخيصة لاستخراجه من الأرض العربية . إنه قيد في أعناقنا بدلاً من أن يكون عاملاً على انعتاقنا وتحررنا . إنه عقبة في طريق تقدمنا بقدر ما هو أداة طيعة لتطور أعدائنا . أرأيتَ مأساة أكبر من مأساة صاحبِ الأرض يؤجر نفسه وأهله وعشيرته وبلده لمن ينكّل به ويسومه العذاب والحرمان ؟ ففي التاريخ مهازل تجعل الشبان شيباً ! هذا هو الفرق بين البيئة الجغرافية والبيئة التاريخية .

●

وهكذا ، فكل أمة هي ـ في إيديولوجيتها أو في تركيبها أو في تفكيرها ـ حصيلة تفاعل بين عدة ثقافات وعدة أعراق وعدة وحدات حضارية في بيئة جغرافية معينة . إنها نقطة تقاطع بين التاريخ والجغرافيا وجبهة صراع الأفكار مع الأحجار . والويل لمن يركن إلى الأحجار دون الأفكار . هنا يُصنع التاريخ وهنا يُقبر التاريخ وتبور صناعة التاريخ . هنا يعمل الإنسان على مكاثرة حاجاته وتنمية قدراته وتطوير أنماط حياته ، وهنا يستسلم للرقاد العميق ، والأمر موكول إليه أهو يريد البقاء أم يريد الفناء .

فكل تطور نوعي يحققه الإنسان لا بد له من إرادة البقاء يرافقها تحويل واعٍ للطبيعة بالعمل المنتج . وهذا التحويل خاضع للامكانيات التي تقدمها الطبيعة بنفسها ، وهو إنما يبدأ بانحراف متدرج بطيء عن الأشكال القديمة وعن العلاقات الطبيعية والشروط الطبيعية القائمة فيها . ومما يعجل في سيرورته ويجعل له أثراً في التطور التقني والثقافي أنه يعمل في « وسط تاريخي » معين وفي درجة معينة من التطور . هنالك تجترح المعجزات . فهذه السيرورة لا تنفصل عن ظاهرات الجريان الإثني والثقافي المعقدة والكثيفة التي تساعد على إثرائها وتعميقها وتُمدها بالنُسغ والسقيا،وتشيع فيها الخضرة والنضرة والرواء . بذلك فقط تخرج الأمة من رقادها التاريخي وبذلك تدخل حقاً أبواب التاريخ .

ولننتقل الآن من التعميم إلى التفصيل ، فنقول :

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية لا يستغني عنها أي تراث مهما سما وارتفع . إنها تمتزج بالعناصر الذاتية لتكوّن وإياها صيغة جوهرية واحدة تختلف من تراث إلى آخر .وهذه العناصر الخارجية قد تتسرب من غير وعي الشعوب فلا سلطان لأحد عليها ، وقد تأتي بطريق الإقتباس الإرادي المباشر المقصود . فالإقتباس والنقل عملة متداولة بين الشعوب قاطبة لا يسع أياً منها أن يمنع تسربها إليه وإختلاطها باللحم والعظم . فكل حضارة أبدعت ونقلت ، وأخذت وأعطت ، ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو وُسمت بالنقل أو خلت من كليهما . أنا لا أعرف حضارة أبدعت ولم تنقل ، أنا لا أعرف أيضاً حضارة نقلت ولم تبدع ، أنا لا أعرف أمة يوصف علماؤها ومفكروها وأرباب الرأي فيها بأنهم قُدّوا جميعاً على منوال واحد من معدن الإبداع الخالص . فالنقل ـ كما سنرى ـ ليس وباء وإنما هو غذاء ، والإستعارة ليست عاراً وإنما هي فخار ، على أن يؤخذ!

بمقدار ،ويتركا بمقدار ، لا على نحو ببغائي ، وبغير تلبّث في قراءة أو تفهّم ، حيث يمضي المقلد في اتخاذ آراء وعادات ومواقف من هنا وهناك وهو يحسب أنه بذلك قد بلغ الغاية والمراد .

ومعنى ذلك أن التأثيرات الحضارية والإستعارات الثقافية ، والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة ، لا خطر فيها ولا خوف منها . وهي موضوع مألوف عالجته كتب الإجتماع ولا تزال تعالجه ، وبخاصة في كتب الأنثروبولوجيا ، وهي لا تقتصر على عصر دون آخر وقوم دون آخرين ، غير أنها تكون كالقطر أحياناً ، ولكنها تكون كالغيث في عصور التغيرات الإجتماعية الكبيرة والثورات الشاملة .

هذا والنقل لا بد منه قبل كل إبداع ، فلا إبداع بلا نقل ، ان الإغريق نقلوا قبل أن يبدعوا ، وعلماؤهم إنما نبغوا في بلاد ذات حضارات مختلفة ، وتقلبوا في مهاد ثقافية متباينة . لقد تفتقت قرائحهم في آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل وصقلية والإسكندرية وسوريا وتخوم العراق ، ولم تنحصر هذه القرائح في مكان واحد يصح أن يُقال أنه موطن العنصر اليوناني الأصيل .

ولا يقتصر ذلك على اليونان ، بل انه لينطبق أيضاً وبنفس المقدار على مصر وفارس والهند والصين وغيرها من البلاد ذات الحضارات العريقة .

والحضارة الغربية ، وما أدراك ما الحضارة الغربية ، إنها هي أيضاً لم تولد من العدم ، ولكنها كسائر الحضارات الأخرى لها أصل ولها جذور . فإذا نظرنا نظرة فاحصة إلى كل ما لدى الغرب الذي أصبح معيار التقويم والتقدير ، وحلّلنا ما يشعّه على العالم من أفكار ومبادىء ونظم وعلوم وفنون وآداب، وجدنا له جذوراً عميقة راسخة في حضارات كثيرة أخرى .

فالغرب قد صنعته ثلاثة عناصر :

دينياً وأخلاقياً ـ المسيحية والكاثوليكية على وجه الخصوص .

سياسياً وتشريعياً ـ روما وقوانينها .

عقلياً وفنياً ـ الإغريق .

فأما المسيحية فقد وُلدت في آسيا . إنها ميراث شرقي . وأما حضارة

الإغريق والرومان فقد نشأت في حوض البحر الأبيض المتوسط وتأثرت كثيراً بشواطىء افريقيا وآسيا . فكل أولئك عناصر شرقية دخلت الغرب بمعناه الحديث من خارج .

وهكذا فالتاريخ الأوروبي تاريخ متشابك ، فيه الكثير من نقاط التداخل والتماس ، وليس معزولاً قائماً برأسه مستقلاً بذاته . وكلما تتبعنا هذا التشابك فإن استمرارية التاريخ تقودنا دوماً إلى الوراء متنقلة من أمة الى أمة ومن عصر إلى عصر . فالرومان يُحيلوننا على اليونان ، واليونان على الفرس والمصريين . والمسيحية تُحيلنا على فلسطين وسائر أنحاء آسيا . ومن الواضح أنه لا نهاية لمثل هذه الإحالات ،والعبرة التي نستخلصها من كل ذلك هي أن الإنسانية بأسرها أسرة واحدة وحياة واحدة تشمل مختلف الناس والشعوب ، وتشترك في كثير من الملامح والمعالم . إنها أشبه بالبحر تبدو الأمم والشعوب فيه كأنما هي موجات مختلفة تعلو وتهبط وتتداخل وتتشابك وتتكسر هنا وهناك على سواحله وشطآنه .

وهكذا تكون حضارة الغرب ذات جذور عميقة تضرب في آسيا وافريقيا ، فضلاً عن جذورها في أوروبا التي لا تعدو ان تكون رافداً من روافدها ومهداً من مهادها .

تلك هي الأصول البعيدة للحضارة الأوروبية . فإذا أضفنا إليها الأصول القريبة رأينا الإسلام وحضارة العرب وثقافة العرب وآداب العرب في طليعتها .

فالغرْب إنما يدين للشرق بدَيْن كبير . وبهذه المثابة فهو ربيبه ووليده وحفيده وسبطه ، ولا ضَيْر عليه في ذلك ما دام قد دمج العناصر المستوردة من الشرق في النواة الأصلية لنهضته حتى لقد صارت هذه العناصر جزءاً أساسياً منه ، وخرج. من ذلك كله بتركيبة جديدة مليئة بالعناصر الذاتية وفنون الإبداع التي ليس لها نظير سابق في التاريخ . ومهما فاق الإبن أباه أو التلميذ أستاذه فإنه يظلّ مديناً له ، لأنه بفضله إنما نما وأشتدّ ساعده . ولولا أنه ابنه الشرعي لما حمل ميراثه وتابع مسيرته . ويلٌ للابن العاق من غضبة الدهر ! ويلٌ للجاحِد اللئيم من لعنة الأجيال !

وليس الغرب وحيداً في الإعتماد على غيره ، بل الغرب والشرق في ذلك سواء ، وإلاّ ما كان شرق ولا غرب . فالعزلة الحضارية والجهل صنوان ، كلاهما

تخلّف وكلاهما عدم . كلاهما حجاب يمنع وصول الضوء وكلاهما عقبة كأداء في طريق التطور والتقدم . ظلمات في ظلمات ، طبقات بعضها فوق بعض . لا وجود لحضارة قامت بذاتها واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها ، وإنما هي نتيجة تطور حضاري دائم وتفاعل بين حضارات أخرى تفاعلت هي بدورها وغيرها من الحضارات في الزمان والمكان . كما أن الجماعات المعزولة ـ إذا وجدت ـ محرومة من أي عمق تاريخي أو أي كثافة حضارية . فهذا العمق ، وهذه الكثافة لا يكونان إلّا للأمم الراقية المنفتحة على غيرها ، الآخذة بأسباب التقدم ، الأمم ذات الحضارات العريقة .

ذلك أن الحضارات تشبه الكائنات الحية من وجوه كثيرة ، وإن كان هذا التشبيه لا يخلو من بعض المزالق . فهي كالكائنات الحية لا تبقى على حالة واحدة ، وإنما هي تتغذّى وتنمو وتتطوّر وتتوالد في نظام دقيق محكم لا يتخلف . إنها بعيدة عن الإستقرار والتماسك ، لأنها في تحوّل دائم بتأثير عوامل داخلية كامنة فيها وأخرى تأتيها من خارج . وهذا التحوّل أمر طبيعي لا بد من حدوثه ولا سبيل إلى منعه ، كما لا سبيل إلى منع تطوّر الكائن الحي إلّا بأن يُخنق فيموت . وكذلك تُخنق الحضارات عندما تُمنع عنها أسباب الحياة . والعزلة هي من أهم أسباب موت الحضارة . فالنمو الحضاري إنما يعتمد على الإنفتاح على التجارب الحضارية الجديدة ، وكلما قلت هذه التجارب كان التقدم بطيئاً ، كما يشهد بذلك مؤرخو الحضارات الراكدة . فكلما ازدادت فرصة الحضارات للاستنشاق والتنفس والتعلم من الحضارات الأجنبية أصبحت هذه الحضارات دينامية متطوّرة ، وكلما ازدادت فرص الإلتقاء بين الحضارات وتنفس بعضها في أجواء بعض ازدادت معها فرص الحياة والنمو والإكتساب والتعلّم . وهكذا تصبح الشعوب المنعزلة بدائية متخلفة لانعدام الشعوب المجاورة التي تستطيع أن تتعلم منها طرقاً جديدة وانماطاً في الحياة والسلوك جديدة . وهذا ما يفسر تأخر افريقيا وتخلفها عن حركة التاريخ التي كانت تدور فعلاً في بداية أطوارها حول البحر الأبيض المتوسط . فالصحراء الإفريقية أقامت حاجزاً طبيعياً هائلاً بين افريقيا وبين هذه الدائرة الحضارية ، فمُنع الإحتكاك الذي يؤدي إلى الخلق والإبداع ، فالمجتمع المعزول هو مجتمع ثبوتي سكوني راكد ، والمجتمع المتصل بمجتمعات أخرى المحتك بها هو مجتمع متحرّك ، وبالتالي هو مجتمع التحوّل الإجتماعي التاريخي .

أجل ، لم يحدث قط أن ظل أي تقدم عمراني أو ازدهار في الحياة الإجتماعية أو الفكر الأخلاقي والسياسي في عزلة . وإذا توخينا الدقة قلنا إن بعد الشقة وجغرافية المكان لم يستطيعا يوماً الحؤول دون تقدم الإنسان . فحتى الحواجز السياسية والطبيعية قد فشلت في منع امتزاج الأفكار والأعمال الفنية . لذلك لم يكن عجيباً في شيء أن يُعلم الناس بعضهم بعضاً وأن يتلقى بعضهم من بعض عند أول اتصال يحدث بينهم .

فالأجواء الثقافية كالأجواء الطبيعية يؤثر بعضها في بعض ويتأثر بعضها ببعض شئنا أم أبينا ، ويشعر أهل كل مناخ بعوامل المناخات المحيطة بهم، فينجذبون إليها ويبذلون غاية الوسع للاقتداء بها وتذليل جميع العقبات للوصول إليها . إنها مراكز إشعاع يكاد سنا برقه يأخذ بالأبصار فلا تملك النفوس لها دفعاً ، كالفراش يتهافت على الضوء وهو يحمل إليه الموت ، فكيف إذا كان يحمل إليه الحياة !

وبحكم تأثر الحضارات بعضها ببعض وأخذ بعضها من بعض ، فإننا نرى الأمم جميعاً دائنة ومدينة في آنٍ واحد . فليست تنشأ الحضارات فجأة ومن العدم ، وإنما هي تنمو وتتسع بما يضاف إلى تراث الفكر الإنساني من خبرات وتجارب ومكتسبات تزيد في رقيه وتقدمه .

●

لقد كان يُظن من قبل أن الشعوب الكبيرة في العالم القديم كمصر وبابل وآشور وفارس واليونان وروما وحدات حضارية مستقلة كاملة كما هي وحدات سياسية ، لم تأخذ إلّا قدراً يسيراً من الحضارات الأخرى التي سبقتها أو عاصرتها ، أو لم تأخذ منها شيئاً على الإطلاق . وقد تبين الآن خطل هذا الرأي . فقد ثبت أن تلك الحضارات إنما كانت في الواقع امتزاجاً وتطوراً لخليط معقد من السمات أسهمت هذه الحضارات في تكوينها ، وان كل حضارة منها ترجع في أصولها إلى حضارة أقدم منها ، كما استعارت كل منها نصيباً وافراً من جارتها فأضافته إلى رصيدها وأغنت به وجودها . فمهما تناءت الأقطار والأمصار ـ حتى في الماضي السحيق حيث كانت في شبه عزلة تامة بعضها عن بعض وعن العالم لقلة المعمور من الأرض ولضعف وسائل الإتصال فيما بينها ـ فقد كانت تميل إلى الإندماج فيما يشبه الوحدة ، وهي ظاهرة يزداد دارسو تاريخ الحضارات إدراكاً لها

يوماً بعد يوم . فالرشح الحضاري ، أو ما يمكن تسميته بالإختراق الحضاري ، أقوى من الحواجز الطبيعية والفوارق السياسية والإقتصادية وأطماع القادة والحكام . فضلاً عن أنه عامل ضروري له أهمية كبيرة في حركة التاريخ وتطور الحضارة ، وإلّا كان لا بُدّ من إعادة خلق جميع المفاهيم والمقولات والتصورات والمكتسبات واستئنافها من جديد عند قيام كل حضارة أو بروز كل جيل ، وعندئذ لا يمكن الإفادة من الرصيد الذي تجمّع لدى الحضارات السابقة والأجيال المتعاقبة ، وهذا من شأنه أن يهدر جميع المكتسبات والتجارب الجديدة ويلقي بها في البحر ، وبالتالي يجعل المجتمع الإنساني شبيهاً بالمجتمع الحيواني ويحرم الإنسان من أعظم ميزة تفصله عن الحيوان ، وهي القدرة على التعلم والإكتساب . فالإنسان لا بُدّ له وهو في عملية النشوء والتطور أن يحمي مكتسبات تاريخه القديم والتخلص من ثقله في وقتٍ واحد ، لا بد أن يرث أشياء ويطرح أشياء ويضيف أشياء ، وترشح إليه من المجتمعات الخارجية أشياء ، ويستخدم المادة الفكرية التي بين يديه لتطوير حياته ومجتمعه وترقية وعيه وتفكيره . وكل ذلك يتحدّد بالظروف الموضوعية والتاريخية والحركات الداخلية المنبثقة من صميم حياة الجماعة وما يرافقها من تطلعات ومواقف . وفي عملية التطوير هذه يتكدس إحتياطي كبير من المفاهيم والتصورات والمكتسبات والعلاقات ينمو ويتسع بقدر نمو المجتمع واستبحاره في الحضارة .

ومعنى ذلك ان كل مادة ثقافية أو إصلاح حضاري هو ثمرة لخطوات طويلة من المحاولة والخطأ بعضها داخلي وبعضها خارجي ، ونتيجة لجدل مستمر بين المجددين والمصلحين من جهة ، والمحافظين والجامدين من جهة أخرى . وطبيعي أن تكون الطائفة الثانية أوفر عدداً وأعزّ نفراً ، بينما الطائفة الأولى أكثر حماسة وأصدق عزيمة وأقوى دفعاً . إنها الفكر المحرك والمخطط ، وما على القطيع الا أن يتبعها ويسير وراءها . إنها القلم ، وهو (أي القطيع) المداد ، ولا يُكتب التاريخ إلا بقلم ومداد . إنها الأنامل وهو المادةَ الخام ، ولا يصنع التاريخ إلا بأنامل تتصرف بحرية في المادة الخام . . .

وبمضي الزمن تدول دولة الجديد ويصبح قديماً ، ولا تكاد الزوبعة تهدأ حتى تثور من جديد . وهكذا دواليك . فكل حضارة في مسيرتها الطويلة وحركة الإمتداد والتوسع التي تنطلق بها قدماً ، تضيف إلى مضمونها الذي حققه ماضيها عناصر جديدة صنعتها بنفسها أو استعارتها من جيرانها ، ثم تُسْلم ذلك برمته إلى

الأحفاد والأسباط الذين لا يبخلون عليه هم أيضاً بجهودهم وثمرات عقولهم . ولقد نجم عن ذلك تقدم هائل كانت طليعته دائماً قلة مختارة واجهتها كثرة عددية لا حصر لها . وكثيراً ما سقط هؤلاء الأفراد القلائل شهداء أفكارهم ومشاريعهم التي اغتالتها جماعات عمياء استمرأت حياة الظلام فلم تتهيأ أبصارها لرؤية فيالق النور .

وكانت المدن دائماً هي المراكز التي ينطلق منها الإشعاع الحضاري . فكما كانت المدن مكاناً لتبادل السلع والبضائع ، كانت كذلك مكاناً لتبادل الآراء والأفكار وخبرات الحياة وتجاربها . وكان المسافرون والتجار يفدون إلى المدن من مسافات بعيدة يحملون معهم عاداتهم وأفكارهم وخلاصة تجاربهم . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال الى إختلاط الأفكار والآراء وتبادل الخبرات والتجارب . لكن هذا النوع من الإنتشار كان محدوداً جداً وبطيئاً جداً في عصور ما قبل التاريخ ، ثم اشتد قليلاً في فجر العصور التاريخية ، وهو اليوم يسير حثيثاً . غير أنه كان هناك أيضاً نوع آخر من الإنتشار أقوى من هذا وأكثر فاعلية ، وهو ذلك الذي كان يحدث بين منطقتين متجاورتين أو متصلتين بأي نوع من الإتصال ، وكانت إحداهما خطراً على الأخرى ، فتضطر حينئذ إلى إيجاد نوع من التوازن الحضاري معها حفاظاً على كيانها واستمراراً لوجودها .

وغني عن البيان أن العنصر الجديد (أو المادة الحضارية الجديدة) لا يقوم في فراغ . إنما هو ينضم إلى الموروثات القديمة وإلى الإحتياطي الكبير من المفاهيم والتصورات والأفكار والمواقف التي تراكمت على مر العصور وكر الدهور لتُستخدم في حل المشاكل المتجددة ومعركة تنازع البقاء .

وعندما تعمد إحدى الحضارات إلى استعارة بعض المواد والعناصر من حضارة أخرى فهي إنما تستعير تلك العناصر المتصلة بحاجاتها الداخلية والمتفقة مع تطلعاتها ورمالها وبحيث تكون ملائمة لنموذجها الأمثل . فكل عنصر من عناصر الحضارة له وظائف ترتبط بحالة الفرد والجماعة وتتصل بمطامح وتطلعات داخلية مختلفة . والعنصر الناجح هو ذلك الذي يعمل ويفي بالأغراض التي استُعير لتلبيتها، فتقبّله المجتمع واندمج في نسيج حضارته وشبكة العلاقات الثقافية والروحية التي تلمّ شعثه، وتجمع شمله وتتغلغل في وجوده كله . فإذا أخفق في أداء مهمته لفظهُ المجتمع واستعاض عنه بعنصر جديد آخر أكثر كفاءة وأحسن اداء .

وهكذا فكل عنصر ثقافي أو مادة حضارية تنتقل من حضارة إلى أخرى لا بد أن تتجرد من معظم معانيها وارتباطاتها وعلاقاتها التي كانت لها في موطنها الأصلي ليتقبلها الموطن الجديد ويضمها إلى موروثاته ، وهناك تتخذ معاني وارتباطات جديدة ، وتكتسب دلالات وعلاقات جديدة ، وتندمج في سياق جديد من الآمال والمطامح والغايات . وهذه العملية من أهم عمليات التمثيل الحضاري ، لأنه بهذا الطريق وحده يمكن جعل العناصر الجديدة مفهومة لدى أفراد المجتمع الذي سيتداولها منذ الآن كما يتداول أشياءه هو ومقتنياته . لقد انتظمت مع قيم المجتمع ومفاهيمه وأصبحت جزءاً منه وأداة من أدوات الفعل والتأثير فيه يستخدمها في حل مشاكله وتحقيق أهدافه . وهذه نتيجة حتمية لما يسمى في المنطق الحضاري بمرونة الحضارات وقدرتها على تحمل ما يحدث فيها من تبدلات وتغيرات وما تتعرض له من ضغوط دون أن تتمزق أو تنحل . إلا أن هذه المرونة لا تبقى حتى آخر الدهر بل لها أجل تقف عنده . فلا تزال الضغوط تتزايد عليها ولا تزال مقاومتها تضعف حتى تُستهلك وينضب معينها . انها لا تصلح للبقاء بعد اليوم ، فتسقط وتتهاوى لترثها حضارة أخرى أصلب عوداً وأكثر شباباً وأقدر على البقاء . ثم يأتيها الأجل ، فتتقصّف وتتفتت كأن لم تغْنَ بالأمس . وكل ذلك معروف مألوف عند دارسي الحضارات ومؤرخيها ، فلا داعي لتحقيقه بالأمثلة والشواهد وإلا طال بنا اللجاج(١) .

وعلى ذلك فالحضارات وحدات متكاملة لكلٍ منها شخصيتها الخاصة وكيانها المتميز : فهي لا تتلاقح فيما بينها إلا بمقدار وتبعاً لمنطق داخلي معين ، لا حسب مشيئات الأفراد ، وبلا نواميس قارّة ثابتة . ففي كل منها جانبان جانب مشترك بين جميع الحضارات وجانب قومي يخص حضارة بعينها وشعباً بذاته . ففي حالات التبادل الثقافي والتفاعل الروحي بين الأمم والشعوب إنما ينحصر التأثير والتأثر في الجانب المشترك فقط ، وأما الخصائص القومية فلا تنتقل إلا بشيء من الإفتعال والقسر دون أن تؤتي ثمرها . وهكذا ، فالفلسفة اليونانية ، والعلم اليوناني والهندي و . . . تراث عقلي إنساني سريع السريان والإنتقال . وأما أدب الملاحم والدراما اليونانيان مثلاً فهو أدب قومي بطيء السريان ، بل هو غير قابل

---

(١) ومن أراد المزيد فلينظر مثلاً رالف لنتون : شجرة الحضارة ١/ ٧٣ ـ ٩٠ .

للإنتقال إلى الحضارات الأخرى ، ولا سيما الحضارات الشرقية البعيدة جهد البعد عن هواجس اليونان وهمومهم وآمالهم وآلامهم . انه أدب ينتمي فقط إلى الجوهر الباطن للحضارة اليونانية الغربية ، فلا ثمار له إلا في أرضه ، وبين أهله وعشيرته . الجانب الأول يؤتى أكله في بيئته وخارجها ، وأما الجانب الثاني ـ الجانب القومي ـ فينحصر الإبداع فيه في الحدود الضيقة لبيئته وحدها ، دون سائر البيئات الأخرى[1] .

ولننتقل الآن إلى موضوع آخر يهمنا كثيراً هنا ، وهو موضوع النقل (أو الإقتباس) .

فالنقل على نوعين : سلبي وإيجابي .

الأول هو ذلك النوع الشائع من النقل الذي إنما يُتخذ طلاءً لا غذاء ، وجلباباً لا لُباباً ، وتجملاً لا تكملاً . فهو لا يكاد يلامس الوعي حتى يرتد عنه دون أن يمتزج به ، كالكرة من المطاط يُقذف بها على الأرض الصلبة فترتد عنها كالبرق الخاطف . فهو إنما يُعنى بالمظهَر دون المخبَر، وتصرفه القشور عن الزهور . وبدلاً من أن يمدّ البلاد بالقادة والمفكرين وأصحاب الرأي والقريحة إذا به يقدم لها جيوشاً وفيالق من الكتبة والموظفين والمتحذلقين وحملة الشهادات وادعياء العلم والفكر ، وكثيرٌ ما هم ! وكما أن الزيت لا يتحد بالماء وإن كان يختلط به ويتجاور معه ، فكذلك هذا النوع من النقل لا يتحد بكيان صاحبه بل يظل جسماً غريباً في النفوس ، فيقع على الرؤوس كأنه أحجار كريمة تفتن العيون دون العقول . إنه شيء قبل أن يكون معنى ، ورواية للآثار أكثر منه دراية بالأفكار . وبذلك فهو يشل قدرة صاحبه على التطور الذاتي ويحطم ثقته بنفسه ، ويورثه الشعور بالتبعية والإكتفاء بمحاكاة القوي وتلقف أزيائه وانتحال شعاراته وقيمه ، مما يفقده الإيمان بالذات والقوم والتاريخ . وينعكس ذلك كله في واقع الحياة إنفصاماً في الشخصية ، وازدواجية في المجتمع ، وانفصالاً يكاد يكون تاماً بين الضمير والإداء ، بين القول والعمل ، بين الإيمان والسلوك ، بين القيم والأخلاق والتصرفات . . . إن هذا النوع من النقل الذي يكتفي بالمظهر

---

(١) انظر كتابنا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، صفحة ٣١٢ منشورات عويدات . ١٦٠ .

وحده ولا يلقي بالاً للمحتوى ، مدرسة للنفاق والكذب والسلب والإستغلال ، وبؤرة للفساد والإنحراف ، وسبيل إلى التسلط والطغيان ، وثغرة كبيرة ينفذ منها الإحتلال العسكري والإحتواء الإقتصادي والحضاري .

لكن هناك نوعاً آخر من النقل هو النقل الإيجابي ، وهو نقل منتج فاعل ، بقدر ما كان النوع الأول عقيماً خاملاً . إنه يمتاز بتأثيراته الإبداعية التي تنطبع على المشاعر الجمالية الأساسية وعلى القيم الثقافية . إنه دليل عافية ونمو وصحو بقدر ما كان النوع السابق عرَضاً من أعراض المرض والجمود والغيبوبة . إنه الغذاء الذي يصحب عمليات التطور ويُمدّها بالوقود والنشاط والقوة لتتمكن من مواصلة الكفاح والصمود في وجه العواصف والأعاصير وعوامل الفناء . إنها معركة البقاء يتخاذل أمامها فريق ، وفريق يقبل التحدي والمواجهة . وبقدر ما كان النوع الأول محطماً للذات وباباً للنفاق والفساد ، يسرق الأزياء والشعارات والقيم ، فإن النوع الثاني يبني الذات ويؤكد الصدق والرجولة ويبتكر الأزياء والشعارات والقيم . إنه حرب على الطغيان والإحتلال وسبيل إلى المجد والخلود . وإذا كان النوع الأول طفيلياً خاملاً مكسالاً جاء من الخارج فلم تقابله دوافع من معين الذات وينبوعها الصافي الأصيل ، فان النوع الثاني إنما تنبثق دوافعه من صميم هذه الذات لينمي فيها الوعي وحس الحق والخير والجمال . فشتان ثم شتان بين ما يتفجر من صميم الذات وما يُقحم عليها من خارج .

والمدخل الوحيد إلى النوع الإيجابي الفعال من النقل هو البدء أولاً من بعض أصول الماضي وقيمه الراسخة ونبذ ما فيه من رواسب ضارة وأوشاب خبيثة . لا بد للبلاد جميعاً ان تخوض معركة بناء الذات وتجديدها مسوقةً بقيم وأفكار ومواريث لها في وعيها فاعليتها القوية وهالتها المقدسة . ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التمثيل والإستعارة . فمن المستحيل على المجتمع النامي المتطور الذي حسم أمره وقرر تحقيق ذاته أن ينطلق من الصفر ، بل لا بد له لكي يبدأ الحركة من وراثة المنتجات الفكرية السابقة وتقبل منتجات الشعوب المتقدمة وهضمها ليبني منها عناصر جديدة تدفع عمليات الحياة فيه ، وتبقي على دفقها واستمرارها ، وتلبي حاجاتها التي تمكّن المجتمع في النمو والتطور والصمود في معركة البقاء ، وإلا سقط في مراحل الطريق صريع تقصيره وقصوره ، وتداعى عليه الأعداء والخصوم من كل حدب وصوب .

وهكذا ، فلكي يكون النقل منتجاً يجب أن يخضع لعملية انصهار وتفاعلٍ تجري ضمن حركة الصراع الداخلي في المجتمع ، أي يجب أن يكون متفاعلاً وإياها . أجل ، يجب أن يكون تعبيراً عن حركة التطور في هذا المجتمع وعن حاجات هذا التطور وأهدافه ومراميه ، وإلا كان مصطنعاً زائفاً ، أو موقوتاً عابراً شأنه شأن النوع الزئبقي الأول من النقل ، أي النقل السلبي العقيم .

هذا النوع من النقل ، أي النقل المنتج ، هو وحده النقل المبدع الخلاق ، انه وحده الذي يولّد أعمالاً عظيمة ويترك آثاراً خالدة . فجميع أعمال المبدعين والنابغين هي من هذا الطراز . انها ليست أبداً نتيجة تراكم كمي لنُقول واقتباسات فسيفسائية انضم بعضها إلى بعض ، وإنما هي حصيلة تحول كيفي وتبدل نوعي طرأ على هذه النقُول والإقتباسات وبث فيها روحاً جديداً ومعاني جديدة . هناك تبرق البوارق وتلمع اللوامع ، وهناك تدرّ اللذات العلى .

إن هذا النقل لا تكمن أهميته في قيمته الذاتية بقدر ما تكمن في كونه المنبه ـ المفتاح الذي إنما يثير حركة الفكر ويحدث فيه على ما يبدو نوعاً من الوعي والإشراق يقلب أوضاعه ويعيد تنظيمه من جديد ، تمهيداً لقلب أوضاع العالم وإعادة تنظيمه . فالفكر مفتاح تفسير العالم وأداة تغييره . إن تفجر الأفكار يكون في بعض الموهوبين مرهوناً بلمحة كأنها برق يومض إليه من خارج . إن هذه اللمحة تكون كالشرارة سبباً في حريق عظيم ! إن ملايين من السنين مضت والتفاح يسقط على الأرض ، بل ان نيوتن نفسه رأى التفاح مئات المرات يسقط على الأرض كما رآه الناس من قبله ، ومع ذلك فإن سقوط التفاحة لم يحدث في نفسه أثره الخلاق إلاّ مرة واحدة في حياته « أُوحِيَ » إليه في أعقابها أن يربط بين سقوط التفاحة ودوران القمر حول الأرض ودوران الأرض حول الشمس ، وأن ينظر إلى هذه الظواهر التي هي بحسب بادي الرأي ظواهر متفرقة لا علاقة بينها ـ أن ينظر إليها على أنها إنما ترتد إلى ظاهرة واحدة وتعبر عن ظاهرة واحدة هي ظاهرة الجاذبية . فليست العبرة بالأثر الخارجي ، وإنما العبرة بأن يصادف هذا الأثر تهيؤاً خاصاً في وعي الشخص فيقتنص هذا الأثر وتحدث المعجزة . تلك هي صعقة العبقرية وهذا هو مخاضها الذي لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان . فهو لا يعرفه إلا ذووه ، لأنه من طور غير طور الإدراك العادي . فمن ذاق عرف .

●

إن العرب هم وارثو الحضارات القديمة ، إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة . فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم القديم . ففي الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين وحضارات الإغريق والكنعانيين والآراميين وجزر بحر إيجه ، وفي الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء ، وفي الشرق كانت الحضارة الفارسية ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى ؛ وفي الجنوب كانت حضارة اليمن .

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء ، تنقل البضائع والسلع إليها ، وكان لا بد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع ، وأن تختلط هذه الثقافات وتتزاوج في حركة بطيئة ولكنها ثابتة مستمرة ، وأن يؤدي كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقدمها تبعاً لهذا الإختلاط والتزاوج .

في هذا الجو جاء الإسلام . إنه لم ينتشر في فراغ . فالأمم التي صادفها أو اتصل بها في حركة المد الكبير ، أو تلك التي اعتنقته ودانت به ، أمم عريقة عرفت حضارات شتى وثقافات متنوعة ، ومرت بتجارب روحية وخبرات مادية متعددة . وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعارك أولاً ، ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك . ومن هنا كان التأثير والتأثر ، ومن هنا كان التفاعل والإخصاب ، وكان الأخذ والعطاء .

وبذلك فقد عرف العرب حضارة الهند ، وحكمة فارس ، وفلسفة اليونان ، وشريعة الرومان ، ورهبنة النصارى ، وعقائد اليهود ، ومذاهب الصوفية . واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم ، وتباينت مذاهبهم ، وتعددت أجناسهم ، وتشعبت آراؤهم . ورأوا ذلك العالم الزاخر بالصور والألوان والحضارات والأفكار ، وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين ، واتصلوا بأصناف من الأفراد والجماعات لا تدخل تحت حصر . وشاع التزاوج والإصهار بين الغالبين والمغلوبين ، وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعلاقات ، وجاءت وحدة الدين والمعتقد لتعطي هذا التفاعل صيغة فريدة . ونتج عن ذلك كله مزاج فكري واجتماعي وروحي جديد أعطى الحضارة العربية الإسلامية معناها ومبناها .

إن هذا المجتمع الناشىء المتطور الذي بدأ يتكون منذ منتصف القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد) من بيئات شتى ، وثقافات مختلفة ، وألسنة متباينة ، أصبح مقراً لاتصال أصحاب المدارس العديدة وتلاقح الأفكار بينها ، بعد أن كانت قبله شبه مفصولة بعضها عن بعض ، لا يكاد بعضها يتأثر ببعض . نحن لا ننكر أن مراكز الإشعاع التي كانت فيها العلوم الموروثة عن القدماء قد أدركت نوعاً من التطور قبيل الإسلام ، ولكنه تطور بطيء جداً تنقصه حرارة التأثير والتأثر والأخذ والعطاء ، فوجد في المجتمع الجديد عنصر التركيز والتنشيط . فهذا المجتمع هو الذي ولّد الصلة ، وألهب المشاعر ، وأمدها بالزيت والوَقود .

وغني عن البيان أن التقاء الحضارات وخلفياتها الثقافية في هذه البقعة من الأرض سيكون له أثر فعّال في تنقية الأفكار وبروز الفلسفات والمذاهب ، وفتح آفاق جديدة للمعرفة . وساعد على ذلك أن الإسلام لم يكن مغلقاً أمام الأفكار الجديدة التي نفذت إليه من الخارج ، وإن قامت محاولات يائسة متعصبة حمقاء لسد جميع منافذه والحؤول بينه وبين قوى التطور والحضارة لم يكتب لها النجاح . وكذلك لم يكن المجتمع العربي الإسلامي مجتمعاً تحيط به القلاع والأسوار والسدود ، وإنما كان هو أيضاً مجتمعاً منفتحاً مُشْرع الأبواب ، واثقاً بنفسه وبالقوى الباطنة التي تحمي كيانه . فدخل كلّ شيء إلى ساحته عارياً ، واختار المسلمون ما اختاروا ولفظوا ما لفظوا ، ثم شادوا الصرح العظيم . وانطلق الفكر كسيل العرِم يحطم الحدود والسدود ليبني ذاته ويؤكد وجوده .

لقد كان مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات ، بلا عائق من جنس أو لون أو لغة أو طبقة أو دين أو مصلحة أرضية أو نظرة اقليمية ضيقة . وهكذا صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائصُ الأجناسِ البشرية وكفاياتُها ، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت ، وأنشأت مركَّباً عضوياً فائقاً في فترة تعدّ قصيرة نسبياً . وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعةً ، على بعد الشقة فيما بين أقطارها وقلة وسائل الإتصال والتفاعل .

لقد انصهر في بوتقة المجتمع المسلم المتفوق هذا ، العربيُّ والفارسيُّ ، والشاميُّ والمصريُّ ، والإفريقيُّ والمغربيُّ والإسبانيُّ والبرتغاليُّ والأندونيسيُّ والتركيُّ والصينيُّ والهنديُّ ، والرومانيُّ والإغريقي . . . إلى آخر ألفباء الأقوام

والأجناس . ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة وبآصرة الحب وشعور الوحدة ، أو يكادون . فبذلوا جميعاً أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا عمق خصائص أجناسهم ، وصبّوا خلاصة تجاربهم وخبراتهم الشخصية والقومية التاريخية في بناء هذا المجتمع الفريد الذي ينتسبون إليه ويربط فيه بينهم لغة واحدة وعقيدة واحدة وتطلعات واحدة ، وخبرات وتجارب واحدة ، وآمال وأحزان واحدة . تحقق إنشانيتهم وتفجر طاقاتهم وتهديهم إلى سواء السبيل . فأخذوا وأعطوا ، وأغنوا واغتنوا ، واسترفدوا وأرفدوا ، وانشأوا لأنفسهم رصيداً ضخماً من العلم والأدب والفلسفة والفن وجميع طرائق الحياة .

ولقد حدث ذلك في وقت مبكر جداً . فمنذ القرن الأول للهجرة بدأ لقاء العرب بالحضارات القديمة ، فاصطدموا بها اصطداماً فكرياً عنيفاً كاد يطيح بهم لولا قوة الشخصية الثابتة التي أورثهم إياها القرآن واستمدت كيانها من الدين الجديد والإنتفاضة الجديدة،وبما انصبّ في بوتقتها من نفائس الشعوب وذخائرها ، وبالتالي لولا أنهم ينتمون إلى مجتمع صحي سليم . بل لقد أثمر هذا الإصطدام ثمراً طيباً كان من آثاره المباشرة حدوث انقلاب فكري وثقافي واجتماعي منقطع النظير يضاهي ـ ان لم يكن يفوق ـ الإنقلاب الذي أحدثته النهضة في أوربا في الغصر الحديث .

وهكذا ، فما كادت الفتوح الإسلامية تستقر في البلاد التي كانت تسود فيها الهلينية على أثر فتوح الإسكندر ، حتى أخذ الفكر العربي والإسلامي ينفتح على الفكر الإنساني ، ويسيغ منه ما يزيده قوة وحياة،وحتى بدأ التزاوج والتفاعل بين الأمم المغلوبة وبين الفاتحين الغالبين ، تزاوج الذوق العربي والفكر العربي وتفاعله بأذواق وأفكار بلغت شأواً بعيداً من التقدم والحضارة ، فنتج عن ذلك بواكير حضارة راقية أخذت شكلها النهائي المتكامل في العصر العباسي أولاً وفيه آتت أكلها وأعطت ثمارها ، ثمّ في العصر الأندلسي بعد ذلك .

وكان لقاء فكان إخصاب !

لقاء بين فكر مبتدىء ناشىء أخذ يعي وجوده ويتلمس الطريق إلى الشمس والنجوم ، وبين فكر اكتمل نموه وبلغ غاية تطوره .

بين عقلية طالعة اجتذبها البريق وأخذ منها كل مأخذ ، وبين عقلية ناضجة

انتهت من تحقيق ذاتها ووجودها أعظم تحقيق .

وكان الإخصاب الذي أسفر عنه هذا اللقاء فذاً رائعاً لا يُسبر غوره ولا ينضب معينه ولا ينقطع مدده ولا تُدرك أبعاده ، بل تراه يغدق ويزداد تدفقاً كلما تقاذفته العصور واستطال به الزمن . فهو يتجدد باستمرار وينمو ثم ينمو ويتعاظم ، ولا يزيده ذلك إلا قوة وعطاءً . وحسبنا للدلالة على ما فيه من قوة وحيوية وطاقة أن حضارتنا اليوم بكل شمولها وأبعادها وآثارها الخارقة حتى لقد بلغت حد الإعجاز ، إنما هي من نتاج هذا الإخصاب وثمرة من ثماره .

إن الدولة الجديدة لم تأخذ إلا لكي تعطي ، إنها لم تقبل الموروث الفكري اليوناني وغير اليوناني ، إلاّ لكي تهضمه بعقليتها الجديدة وتتمثله بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها وبكل أصالة تاريخها وخصبه ، وترده بعد ذلك أضعافاً مضاعفة . فقد أقبل العرب والمسلمون على علوم اليونان والهنود وأصحاب الديانات القديمة يغترفون منها ما كان في وسعهم أن يغترفوا ، لكن تلك العناصر التي التهموها قد تحولت على أيديهم لتكون غذاء جديداً ، حتى ليتعذر على المرء في كثير من الأحيان أن يقف على أصولها إلا بنصيب كبير من التمحّل والتحذلق والإفتعال ، وبإجراء ما يشبه (التحليل الكيماوي) عليها كما يفعل المشككون دائماً إمعاناً في الإسترابة فيها وعدم الثقة بأصحابها . لقد أعياهم أمرها فمزقوها كل ممزَّق لعلهم يعثرون بين هذه المِزَق على حطام يشبه أن يكون يونانياً أو هندياً أو فارسياً ، وعلى رواسب وبقايا مسيحية أو يهودية أو أي شيء آخر . أما أن تكون عربية إسلامية فهذا مما لا يطاق ولا يمكن تصوره أبداً . أجل لقد طرأت تحولات كبيرة على هذه العناصر الأجنبية حتى ضاعت معالمها وتبددت خصائصها القديمة ، واندمجت في الفكر الإسلامي فأصبحت جزءاً منه ، إنها تنتمي إلى النوع الثاني من النقل (أو الإقتباس) ، وهو النقل المنتج ، لكن (المحللين الكيماويين) للأفكار يريدون ليطفئوا جذوة الفكر الإسلامي ويقتلوا تلقائيته ، فعمدوا إلى هذه العمليات ليجعلوا من النقل المنتج نقلاً سلبياً عقيماً لا خير فيه ولا في أصحابه .

إن المفكرين المسلمين والعرب وهم يستوعبون المذاهب القديمة ويستعينون بها في عملية البناء ، لم يسيروا على مبدأ عبادة القديم لقدمه ـ وان شذ منهم من شذّ بطبيعة الحال ـ وإنما كان رائدهم في ذلك ، البحثَ عن الحقيقة لذاتها دون اعتبار للجنس أو المذهب أو الدين . وهم يرددون في ذلك ، القولَ المأثور :

« الحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها التقطها » . و « لا تَعْرِف الحق بالرجال ، أعرِفْ الحق تعرف أهله » . لقد أخذوا ما أخذوا دون الشعور بأي ارتباط بهذا الشعب أو ذاك . إنهم طلاب حقيقة ، وهذا حسبهم ، بل هو شرف كبير لهم . انهم لم يَقْدِموا على النقل والإقتباس للتجمل والزينة ، وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة والأساور والعقود والخلاخيل ، بل لبناء الذات واستدراك ما فات واستكمال أسباب الحياة . وقد تحقق لهم ما أرادوا ، وإلا للبثوا في القيعان يتسكعون ، يقدّمون رجلاً ويؤخرون أخرى إلى يوم يُبعثون . لقد شادوا صرحاً عظيماً سنرى في كل فصل من هذا الكتاب والكتب التي ستتوالى بعده، جناحاً جديداً فيه ومشاهد جديدة ووجوهاً جديدة متناثرة هنا وهناك لم نرها من قبل،بالدم والعرق رفعوا قواعده ، وبالإرادة والإيمان بالذات وضعوا لبناته ، وبالدأب والثبات أكملوا بناءه وطاولوا به العصور والدهور !

وهكذا شارك الجميع في دعم هذه الحياة العقلية والروحية للعرب والمسلمين في مختلف صورها وشتى أشكالها التي إنما وجدت بذورها الأولى ونواتها الأصلية في أرض الجزيرة العربية والتطورات العميقة التي طرأت عليها والتي ستكشفها لنا التفاعلات السّيْكوسوسيودينامية الساخنة ، وترينا براعم الفكر العربي تتفتح الواحد منها بعد الآخر ، بحيث نرى بأم أعيننا حركة هذا الفكر ونسمع هديره بملء آذاننا ، ويستولي جيشانه على حسّنا ووعينا وجميع المشاعر المتفتحة فينا ، فلا ينكره بعد ذلك منكر ولا يجحده مكابر ، إلا أن يكون سوفسطائياً أو لا أدرياً يعبث بالألفاظ والمعاني وينكر المحسوس والمعقول . فكفى هذا الفكر ما عانى من عقوق الأبناء وجحود الأباعد والأغراب .

●

وكان التحاكّ والتفاعل بين هذه الأقوام والأجناس والأمم التي ربطت بينها وحدة التاريخ والأرض واللغة والعقيدة والأمل والألم ـ رغم ما كان بينها من خلاف وشقاق وتباين ـ مما يفسح المجال لكثير من التفكير النظري وتبادل الرأي واقتراح الحلول والمواقف . وكان التنازع الدائم على السلطة والسيادة السياسية بين الجماعات المختلفة عنصراً عملياً هاماً زاد في التشجيع على التفاعل الفكري واليقظة العقلية والإنفتاح على العلم والعالم . لقد أدرك العرب في وقت متقدم جداً أن انغلاق الشعوب والحضارات عامل انحطاط وتقهقر ومدعاة للنكوص

والردّة ، وأما الإنفتاح فهو عامل تقدم وحيوية ومظهر صحة وعافية . لذلك لم يعتزلوا العالم ولم يتقوقعوا يجترّون وحدتهم ووحشتهم ، بل لقد اقبلوا على الشعوب يستزيدون منها العلم والعرفان ، وبخاصة إذا تذكرنا أنهم لم يكونوا أخلاء من أي تفتح عقلي ، عزلاً من أي ميراث حضاري ، إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت ـ وقد فصلنا القول في ذلك في غير هذا المكان[1] ـ كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أمدّهم بها القرآن ، فكانت بمثابة العمود الفقري لكل تفكير عقلي واجتهاد ديني . لقد فتحت الحضارة العربية نوافذها للنور يأتيها رغداً من كل مكان ، ولا عليها بعد ذلك ان يتهمها في تفكيرها المتهمون ، ويقدح فيها القادحون .

إن تفتح الشعوب الإسلامية بعضها على بعض كان من شأنه تقوية حس المشاركة فيها بينها وتعزيز أسباب التفاعل والإخصاب فيها . وأما تفتحها على العالم الخارجي الذي لا يشاركها الأرض والدين واللغة والتاريخ فكان من شأنه إثراءها وتنويع خبراتها وتوسيع آفاقها وتعزيز إيمانها بالجد في طلب المعرفة في جميع مظانها وتعقبها أنّى كانت وحيثما وُجدت ، ففي ذلك عزها ومجدها وسر خلودها .

●

إن هذا الإنفتاح الذي كان عنوان مجد العرب اتُخذ ذريعة للتشكيك والإتهام . لقد كان مطعناً ينفذ منه بعض النقاد إلى صميم الفكر العربي وقدس اقداسه ، لتجريحه وتجريمه واتهامه بالسطو على آثار الآخرين وسرقة مجهوداتهم . انه بزعمهم فكر لا هوية له ولا معالم : انه يخلو من كل مبادرة شخصية وإبداع خلاق ، فيقلد كل كاتب ، ويدور في كل فلك ، ويقتاس بكل مؤلف ، وينسج على كل منوال ، ويتسكع على كل مائدة . . . وهكذا نسمع يوماً بعد يوم أحكاماً سطحية مبتسرة من هذا القبيل يتبرع بها بعض الباحثين ممن شُغله الشاغل تلمس الإشباه والنظائر الخارجية والسطحية بين الدوائر الفكرية المختلفة ، والإفضاء من ذلك كله إلى الحكم بأن كل قضية فكرية صدرت عن المسلمين فيها وقدة ذكاء أو لمعة عبقرية ، فإنما هي أثر من آثار الفكر الأجنبي (يوناني أو مسيحي أو يهودي أو فارسي أو هندي . . .) ونعمة سابغة من نعمائه . وبذلك لم يكن الفكر العربي

(١) انظر الباب الثاني من كتابنا (الفكر العربي في مخاضه الكبير) القسم التطبيقي . . . دراسة ساخنة .

الإسلامي سوى استعارة خارجية صرف ، وفسيفساء منقولة من هنا وهناك ، بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن هؤلاء الباحثين الذين يقودون حملات التشهير والتخرص والإفتراء لا يروق لهم أن تظهر عبقرية عربية إسلامية دون أن تمتّ بوشيجة من الوشائج إلى أصول أجنبية ، ومن ثَمَّ راحوا ينقّبون في غياهب التاريخ وبين الأطلال المظلمة عن لقاء عارض أو نسب عنكبوتي وهمي لفلاسفة ومفكرين وعلماء عرب مسلمين لا يعرف التاريخ لهم منبتاً غير بيئتهم العربية الإسلامية . فهذا جده الأكبر (أو جدته الكبرى) فارسي أو رومي ، وذاك تشرّف بلقاء راهب نصراني . . . وعندئذ فقط سرى إليه لهيب العبقرية ! وما أهونها من عبقرية تثيرها جماعة من البله العاطلين . وكم كان حقيقاً بهم أن يبثوا هذه العبقرية بين أبناء جلدتهم بدلاً من أن ينثروها على الأغراب ، إذا كانوا بعصاهم السحرية هذه قادرين على إحياء الموتى ! وكذلك لو كان الأصل الفارسي أو الرومي كافياً لانجاب العبقريات والمواهب فما باله لم ينجبها إلا بعد اللقاء العربي الإسلامي ؟

والذين يوجهون للعرب المسلمين مثل هذه المطاعن تغلب عليهم ـ هذا إذا أحسنّا الظن بهم ولم ننظر إلى خلفياتهم السياسية والعنصرية ـ روح التحليل الشديد ، وليس لهم إلمام كاف بالعلوم الإنسانية على اختلافها ، وهم اما أن يكونوا متخصصين جداً أو سطحيين جداً ، ولمبدأ العليّة (السببية) من أذهانهم قوة طاغية وسلطان لا يُقهر ، حتى في الشؤون الإنسانية والعقلية التي لا تخضع للتفسير العلّي إلا في حدود ضيقة جداً . فالفكر العربي الإسلامي في أذهانهم إنما هو مجموع التأثيرات اليونانية والهندية والفارسية والنصرانية واليهودية . . . الخ بلا زيادة ولا نقصان . فهؤلاء الحاسبون جميعاً يسلكون في تفكيرهم سلوكاً يوحي بأنه من العار على الأمة أن ينهل مفكروها من ينابيع الأمم الأخرى أو أن يفيدوا من خبراتها وتجاربها .

●

ان مثل هذا الخطل في الرأي لا بد أن يقع عندما يراد دراسة فرع ما من فروع المعرفة بهذا الفرع ذاته دون الإستعان بالفروع الأخرى التي قد تلقي عليه بعض الضوء . فتاريخ الفلسفة لا يُدرس عادة إلّا في إطار تاريخ الفلسفة ، مع أنه كان من الواجب في نظرنا إشراك كثير من العلوم الإنسانية والإفادة منها

وسماع صوتها عند التصدي لدراسة هذا الفرع دراسة علمية ممحصة ، وتسليط أضوائها عليه ، وإلا فالعقم مكتوب له ولكل دراسة يتيمة تظل منحصرة في قوقعة ذاتها لا تتعداها . فكلما اتسعت دائرة العلوم التي نشركها في دراسته كانت النتيجة أتم وأشمل وأدعى للثقة والإرتياح . وأكثر ما يصدق هذا المبدأ في ميدان العلوم الإنسانية ، وذلك لكثرة مآخذها وشدة تعقيدها وتشابك خيوطها وقلة الثوابت وكثرة المتغيرات فيها .

ولما كان أكثر الدارسين للفكر العربي والثقافة الإسلامية هم من المستشرقين المتخصصين الذين لا يحسن أحدهم إلا نوعاً واحداً من الدراسة ، فإنهم لم يستطيعوا أن يفسروا تلك الإنتفاضة الجبارة للفكر العربي إلا بأن يردوها إلى مصادر ومؤثرات أجنبية ، وذلك جرياً على عادة رينان ومدرسته التي تفرق بين الشعوب على أساس الجنس والسلالة . ورغم الخطأ الذي وقع فيه رينان عندما وضع حدوداً تكوينية بين الشعوب ، فان هذا الرجل الفذ كان أول من شعر بضرورة إشراك علم غريب على الفلسفة وتاريخها ، في دراسة الفلسفة وتاريخها وهو علم اللغات الساميّة الذي طبقه على دراسة الفكر العربي والفلسفة العربية ، ووصل الى نتائج إذا كنا لا نُقرّه عليها فانه على كل حال قد فتح أبواباً جديدة في المعرفة كانت موصدة من قبل . وجاء بعده رعيل من العلماء الأعلام الذين صححوا مسيرته ولا يزالون يأتون كل يوم بجديد .

وما أكثر الحاسبين الذين تصدوا لدراسة الفكر العربي ، وما أكثر الأخطاء التي قد وقعوا فيها . فكانوا كلما صادفوا مشابهة عارضة بين الفكر العربي والأفكار الأخرى فسروها بأن الثقافة الإسلامية لا بد أنها متأثرة بالثقافة ـ الأم ، الثقافة الآريّة بطبيعة الحال ، وبالتالي بالأفكار اليونانية والفلسفة اليونانية ، أو على الأقل الفلسفة الهندية والفارسية ، بحيث أفضت بهم هذه الطريقة إلى النظر إلى العقليات والثقافات والحضارات غير الآريّة نظرتهم إلى عصابات من اللصوص !

إن هذه الطريقة العجيبة التي لا همّ لها إلا اقتناص الأشباه والنظائر والتنقيب عن الآثار الأجنبية في تضاعيف البناء الفكري وإحصاؤها واحداً واحداً مثنى وثلاث ورباع دفعاً للخطأ في الحساب ، وتفسير الظواهر الإجتماعية والثقافية بإجراء التحليل « الكيماوي » عليها ـ أقول ان هذه الطريقة شديدة الإغراء حقاً ، ولكنها في الوقت ذاته كثيرة المزالق محفوفة بالأشواك . لقد كان هناك مسوّغ للأخذ

بها في القرن الماضي وبدايات هذا القرن ، أما أن تظل متسلطة على بعض الأذهان ويظل لها دعاتها في عصر الفضاء ، فهذا تخلف عن الركب فادح ، وإخلال بتوازن المعرفة العلمية كبير ، تلك المعرفة التي كان ينبغي أن تسير بخطى واحدة ثابتة في جميع الإتجاهات ، لا أن تتعثر إلى الوراء من جانب ، وتنطلق مسرعة تشق الريح من جانبها الآخر ، دون أن تهتم بالتنسيق بين الخطو وتوحيد المسار .

والحق ، أن التزام التفسير العلّي في التاريخ ، ومحاولة رد جميع الحوادث والظواهر إلى علل ومعلولات ، وأسباب ومسببات ، وتقطيع المسببات مِزَقاً على قَدّ الأسباب بلا زيادة ولا نقصان ، والنظر إلى العقل على أنه شيء سلبي رديف لسائر الأشياء الموجودة في الطبيعة الجامدة ، على أنه ظاهرة ملحقة ، لا فاعلية لها بذاتها ـ إن إلتزام هذا التفسير والتقيد بحذافيره فيه إهدار لكرامة العقل فضلاً عن أنه يعود بأوخم العواقب على الفكر اليوناني أو أي فكر آخر يراد تفسيره . إن مبدأ العليّة قد أخذ العلماء يعيدون النظر فيه منذ وقتٍ غير قصير في ميدان العلوم الطبيعية التي تعدّ نموذجاً للتفسير العليّ ، فما ظنك بالعلوم الإنسانية وشؤون الفكر التي تعنو على كل عليّة ولا تخضع لقانون الأسباب والمسببات إلا بشق النفس وبكثير من القسر والإفتعال والصناعة .

وفي رأينا ، إنه لتفسير التاريخ تفسيراً علمياً صحيحاً يستوعب الظاهرة الإنسانية بكل ما فيها من نبض وتلقائية واستقلال وحرية وتفرد ، لا بد من إدخال مقولة جديدة نعتقد أنها تراعي العوامل الذاتية والموضوعية لهذه الظاهرة ولا تفرّط في أيّ منها ، ألا وهي مقولة (الإنتفاضة) . إن هذه المقولة هي الأصل والمعاد . إنها المبدأ والغاية والواسطة بينهما : بها إنما يبدأ التاريخ ، وبها إنما يمضي ويسير ، وبها إنما ينجز أعماله ويحقق أهدافه وغاياته ، وبانطفائها يقف ويتلاشى . لا شيء قبلها إلا العماء والفوضى ، أما بعدها فإشعاع ونور . إن هذه الإنتفاضة تعبر عن المعنى العميق للذات ، كما تفسّر نقاط التحول الكبرى في حياة الأمم والشعوب ، دون أن تهمل في الوقت ذاته ضغط الظروف الموضوعية التي تحيط بها والعوامل الخارجية التي تهيء لها . إنها عصا التاريخ وأداته الفعّالة وسره المكنون ، كما هي الشحنة التي تفجر طاقات الأفراد والجماعات وتسمو بالإنسان إلى قمة تحقيق الذات . وبكلمة موجزة : إنها التفسير الحقيقي للانسان والتاريخ والحضارة . وقد أوضحنا ذلك كله في حديثنا عن الإنفجار السّيكوسوسيوديناميكي في شبه

جزيرة العرب على يد نبي العرب وقائدهم الذي قذف بهم في الآفاق وطاول بهم الزمن ، وغزا بهم العقول والقلوب ، واستولى على المشاعر والأذهان وذلك في القسم التطبيقي من كتابنا (الفكر العربي في مخاضه الكبير) .

إن تفسير التاريخ بقانون الإسباب والمسببات وحده ، والإكتفاء بطريقة التحليل (الكيماوي) للأفكار بغير ادخال مقولة (الإنتفاضة) ، فيه جناية كبيرة على التاريخ والفكر والحضارة ، وتشويه لحقيقة الإنسان وبتر لذاته وتقطيع لأوصاله . فأنا أؤمن بالإنسان ، ولا أؤمن بغير الإنسان ، وكل ما عداه فإنما هو من صنعه وجبروته .

●

ولقد كان من النتائج الضارة لتعليل التاريخ تعليلاً سببياً بحتاً ، وتحليل الأفكار بما يشبه التحليل الكيماوي ، جحود الفكر اليوناني وانكار العبقرية اليونانية . فلعلنا نذكر جميعاً كيف ان النقد الحديث المتشدد الذي يُشقق الشعر hypercritique قد عمد منذ وقت ليس بالقصير إلى رفض ما يسمى (بالمعجزة اليونانية) لا لشيء إلا لأنه ـ بالتشدد في البحث والتنقيب واقتناص الأشباه والنظائر ـ قد أمكن الوصول إلى بعض أوجه التلاقي بين الفلسفة اليونانية والفكر اليوناني وبين بعض انماط التفكير القديمة الأخرى من مصرية وهندية وبابلية والخ . إن أصحاب هذه الطريقة ينكرون ـ أو يكادون ـ ما للفكر المبدع ، ما للفيلسوف العظيم ، ما للقائد البطل ، ما للفنان المطبوع الملهم ـ ما لهؤلاء العمالقة من طرافة وجدَّة وشخصية وقدرة فذة على الخلق والإبتكار ، وبالتالي على اجتراح المعجزات ، وبذلك يجردون الفكر اليوناني في عصوره الذهبية من كل مزية خاصة ، ولا يحسبون حساباً للانتفاضات التي تحصل للشعوب وتتفجر في بعض المراحل المشرقة من تاريخها . فلو كان الأمر كذلك ، أي لو كان الفكر مجرد رديف للأشياء ، مجرد آلة عاكسة لها منفعلة عنها محكومة بها ، لو كان يعمل لا بدافع من ذاته وبحكم تلقائيته الواعية الحرة المستقلة ، بل بالعوامل الخارجية الصرف ، لو كان العقل مجرد استجابة سلبية للأشياء ولو لم تكن له فاعليته الخاصة والقدرة على الإختيار والحسم وترجيح أحد الإمكانات على ما لا حصر له من الإمكانات الأخرى التي يقدمها الواقع الأصمّ ، ترجيحاً قد يؤذي مصالحه (أي مصالح الفكر وصاحبه الإنسان) الآنية العاجلة للوصول إلى أغراض

وغايات آجلة بعيدة لا تتضح نتائجها ، بل قد يكون من شأنها الإطاحة به وتهديد وجوده كله ، لو لم يكن التاريخ قصة تفوق الإنسان على ذاته وعلى واقعه وعلى العوامل والقوى الخارجية جميعاً ، لو لم يقع في التاريخ انتفاضات وثورات تقلب موازين القوى وتعصف بالأوضاع القائمة وتُخل بالمعادلات الثابتة ، لو كان التاريخ مجرد استمرار للحياة والموت ، والحب والبغض ، والنكاح والطلاق ، والأمن والخوف ، والكر والفر ، والإنتصار والهزيمة ، لو كان التاريخ مجرد حركات وأنفاس كما هو الحال عند الحيوان[1] ـ لو كان الأمر كذلك اذن لما كان هناك تاريخ ، بل لكان هناك فقط مجرد تعاقب وسيرورة لأشتات من الأحداث التي لا معنى لها ولا طائل تحتها . وبعبارةٍ أخرى ، لو كان كل ما يحدث مجرد إضافة كمية إلى ما كان موجوداً من قبل ، إذن لكان القرن العشرون قبل الميلاد والقرن العشرون بعد الميلاد قريباً من قريب !!!

إن (المعجزة اليونانية) صحيحة لا غبار عليها في نظرنا ، مهما قال كيماويو الأفكار ، ومهما قال المنقّبون والمنقِّرون . . . فكيما تتحقق انتفاضة رائعة ، وكيما تقوم حضارة زاهرة ، كيما يبرز عبقري فذ تواكبه ثُـلة من العباقرة الأفذاذ وجيل من العمالقة والعظماء يتابعون مسيرته ، لا بد من معجزة . . . وهي معجزة لا تكتنفها هالة من اللامعقول ، ولا تزركشها أطياف من عالم الغيب والملأ الأعلى . ولا تتدخل فيها الآلهة والأرواح والخوارق ، إنها ظاهرة طبيعية تنتمي الى هذا العالم وإن كانت تتجاوزه وتعلو عليه ، وهي تخضع لقوانينه كأي ظاهرة طبيعية أخرى وان كانت تستطيع السيطرة عليه بالتسلح بهذه القوانين ، سيراً على قاعدة : إذا أردت أن تقهر الطبيعة فاخضع لها أولاً . إنها (أي المعجزة) ظاهرة طبيعية تحدث كل يوم في بؤر حضارية تنتقل من مكان إلى آخر ، وتتقلب في الأمصار والأقطار في عصور التاريخ المختلفة .

---

(١) المعلوم أنه ليس في حياة الحيوان من جديد منذ نشأته على هذه الأرض ، ولذلك فان الحيوانات لا تعيش في التاريخ . لكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعيش في التاريخ دون سائر الخلائق . ان حياة الحيوان هي مجرد استجابات وردود أفعال ، وأما حياة الإنسان فهي كفاح في سبيل حياة أفضل ونضال من أجل التغيير . انه ينشد حريته واستقلاله في طبيعة عمياء فرض ذاته عليها . وإذا كان لا يزال يقف عاجزاً أمامها رغم ما حقق من انتصارات فحسبه أنه هو ذلك التوازن العجيب بين قوى الطبيعة الغاشمة وحرية الذات المستقلة الواعية .

ليست العبرة بالتأثيرات الأجنبية ، إنما العبرة كل العبرة بالعقل الذي يستخدم هذه التأثيرات ويصوغ منها مادة جديدة ، إن التأثيرات الخارجية لا تُغْني شيئاً إذا لم يتوفر العقل الذي يعرف كيف يتناول هذه التأثيرات وكيف يفيد منها وينميها ويضيف اليها ما يزيدها تألقاً وإشعاعاً وعمقاً ، بينما تقرع هذه التأثيرات عقول الناس جميعاً وتزدحم في أذهانهم دون أن يستخلصوا منها شيئاً أو تثير فيهم أي معنى . أجل إن التأثيرات الأجنبية لا خير فيها ما لم تصادف عقلاً خصباً يبث فيها الحياة ويسخرها لأغراضه ومصالحه ، ويعطيها من الصيغ والأشكال ما لم يخطر لأحد قبله على بال . إنها لا تكفي أبداً وحدها لتفسير ما يومض في النفس من بدوات وسوانح ، وما يعنّ لها من خلسات ولُمع ، وما ينبثق فيها من نفثات الإبداع ونفحات الإلهام ، إنها لا تصلح أبداً لتعليل اطلالة العظم وإن كانت عنصراً من عناصر وجوده . إن هذه الإطلالة ظاهرة فريدة فذة تنبثق من أعماق الذات ، من ينبوعها الدافق السلسبيل ، وهي لا تتصل بالإسباب والعوامل الخارجية إلاّ بخيوط أوهن من خيط العنكبوت . وإلاّ فما بال هذه الأسباب والعوامل تقرع جميع الأبواب فلا يستجيب لها إلاّ قلة نادرة منها ؟

ما قيمة التأثيرات الأجنبية إذا لم تجد العقل الذي تحركه ، والخيال الذي تثيره ، والوجدان الذي توقظه ، والوعي الذي يقبل عليها ويعانقها بحصافة العلماء ، ونشوة الصوفية ، وإخلاص العاشقين ، وبراءة الأطفال وفرحتهم وسذاجتهم . وكأيِّنْ من عنصر ثقافي أو أثر فكري أو معنى حضاري يمر عليه الناس وهم عنه غافلون !

ومن هنا فإن المبدع الذي كثيراً ما يُتهم بالسطو على آثار غيره ، لا مصادر له بالمعنى الوجداني الدقيق ، إنما هي تجارب وخبرات تجيش في نفسه ، وبروق تومض اليه ثم تخمد عنه ، وخطرات وسوانح تهجم بين الحين والحين فيسارع إلى تدوينها قبل أن تفلت منه ، وقد يتخلل ذلك كله آثارٌ وأفكارٌ ترد إليه من خارج وتقفز الى وجدانه الحي على علم منه أو على غير علم ، فتتفاعل في عالمها الغض الجديد هذا وقد رسبت منها أشياء وتناثرت أشياء . فهو بحكم عكوفه على القراءة والكتابة والبحث ومطالعة آثار أولئك الذين يشبهونه في المزاج والإتجاه الفكري والفني ويشعر بنوع من الإرتباط الداخلي الوثيق بينه وبينهم ، يسري إلى نفسه منهم بعض الإيحاءات والمعاني ، فتغور فيها وتغور ، وهناك يُعاد تنظيمها مرة

أخرى . وبعد أن تخضع لعمليات كثيرة من المعالجة والإنضاج ويضاف اليها ما يضاف من عناصر عالمها الجديد ، تخرج إلى بؤرة الشعور في صيغٍ وأوضاعٍ غير مسبوقة . لقد صهرتها عبقريته الفذة وأضافت اليها نظراته العميقة وخبراته الواسعة وتجاربه ومعاناته . لقد نضجت بما استقر في نفسه من الآخرين وبما أضافت إليها عبقريته وتفجرت به ينابيعه ، فاتُّهم بالإغارة عليهم والسطو على آثارهم ، والمسكين غافل عن كل هذا . كلا يا هؤلاء ، ليس في الأمر سطو ولا إغارة ، إنما هناك هضم وتمثيل . هناك خلق والخلق لا يكون من عدم بل من مواد خام سابقة : الخلق من عدم مستحيل ، سواء على نطاق الأشياء أو على نطاق الأفكار . أفكار تثير أفكاراً ، وتتولد عنها أفكار . وإذا كان قد « سرق » حقاً ، فقد ألقى على ما « سرق » ظل شخصيته وطبعه بطابعه ، وأضفى عليه قبساً من روحه وبيانه ، فجاء (كيماويو) الأفكار وقبضوا عليه متلبساً بجريمته . يا لَلْعار ويا لَلشنار !! لقد نسوا فكره المنظم ، وعقله المرتب ، وتحليله الدقيق ، وغاياته المنشودة ! لقد نسوا ـ وهذا هو الأهم ـ التركيبة الجديدة التي صنعها والصيغة الجديدة التي طلع بها علينا . إن الفلسفة التي انتهجها هي فلسفته هو ، وهو وحده ، رغم مشاركة الكثيرين فيها . إنها فلسفة شخصية خاصة به ، وإن نحا بها نحو هذا الفيلسوف أو ذاك . إنها ليست مجرد إقتباس ، وإنما هي خلاصة تفكيرٍ عميق ، وتعبير شخصي أنيق . وإذا كان قد « سرق » حقاً فكما « يسرق » النحلُ رحيق الأزهار ! أجل ، الفيلسوف هو بالنحل أشبه : فالنحل يمتص الرحيق من هذه الزهرة وتلك ، ولكنه بذلك إنما ينتج الشهد الذي هو صنعه الخاص : فلا صعتر ولا ليمون ولا زيتون ولا نرجس . إنه شهد والسلام . هكذا يقتبس الفيلسوف من سواه ، ولكنه يصنع مما يقتبس نتاجاً شخصياً فريداً ، فيه الكثير من نفثات صاحبه التي امتزجت برحيق الزهور . إنه من قوة الإستيعاب والخلق بحيث يتحلل هذا الرحيق وينحلّ في حسه الفياض وقريحته المبدعة ، فيخرج عسلاً مصفّى فيه شفاء للناس ولذة للشاربين . فهو يُركّب مواد من مواد ويضيف إليها مواد من ذوب عقله ومهجة نفسه، ويستولدها وعليها سيماؤه وطابعه وكأنها تتفجر من اعماق ذاته ، لكن شرطة (كيماويي) الأفكار له بالمرصاد . إنها في شغل شاغل عن جميع هذه العمليات الباطنة التي لا تعبأ بها في قليل ولا كثير ، إنها شرطة فظة جافة غليظة لا تُهادن ولا تُساوم ولا تُسالم ، رائدها هتك الأستار ، وفضح الأسرار ، وإختراق الأسوار . إنها شرطة جاهلة تتمسك بالقشور التي

تطفو على السطح ، وليس لها القدرة على سبر الأغوار والوغول في الأعماق . إن المسروقات عليها بصمات اللص ، وحسب الشرطة هذا الدليل لاثبات الجريمة ، فَلِمَ العبث وإضاعة الوقت ؟ « النصوص قبل النفوس » . هذا هو الشعار الذي تدين به ، وعلى منطوقه إنما تسير .

●

إن الإنسان ما إن يخرج من بطن أمه حتى تبدأ التأثيرات الخارجية تلفحه وتنصبّ عليه . ولا يتوقف ذلك إلا عند الموت . فليت شعري ! ماذا عساه يتبقّى لنا بعد ذلك إلا القليل من الجهد والإرادة والتفكير ؟ ولو طُلب من أحد أن يقدم بياناً بكل ما هو مدين به للسابقين والمعاصرين لم يكد يبقى له شيء . فالنفس الإنسانية غارقة في مؤثرات تنصبّ عليها من البيئة الخارجية ، ولا يستطيع أحد أن يتخلص من هذه المؤثرات إلا في حدود ضيقة جداً . والفرد الذي يكون من الحرية والقدرة بحيث يدفع جميع التأثيرات الخارجية لا مكان له إلا في عالم الخيال .

وهذه التأثيرات تتكرر وتجترّ ذاتها في معظم الكائنات ، لكن هناك كائنات أخرى لا تخلو من بعض الأفراد النادرين الذين يستطيعون التحكم في هذه التأثيرات وضبطها وتوجيهها وصنع أشياء جديدة هامة منها . الكائنات الإولى تعيش على هامش التاريخ وهي تشمل الحيوانات والنباتات . وأما النوع الآخر من الكائنات فهي ذات قدرات متفاوتة بين صناعة الأدوات العادية البسيطة ، والأدوات الخارقة ذات التعقيد العالي ، بين توليد الأفكار البسيطة والأفكار العظيمة . فهذه تعيش في بؤرة التاريخ ، وتلك على الحافة ، وبينهما درجات ودرجات . فالمخترعون والفنانون الفلاسفة والقادة العظام و . . . هؤلاء جميعاً يعيشون في بؤرة التاريخ . انهم لا يستغنون عن التأثيرات الخارجية من بيئية وغيرها ولكنهم يقفزون منها إلى ما وراءها ليتعاملوا مع عالم من المعاني والرموز وشبكة من العلاقات المعقدة والصيغ المجردة .

ان الفنان الصادق المطبوع يستعير ويقتبس ويمعن في الملاحظة والبحث والتقصي ليظفر بالذخائر والنفائس . ويستغل كل قواه الفكرية والعاطفية في تنظيمها وتنسيقها واعطائها صيغاً وأشكالاً مختلفة . وهو يستعين على ذلك بما يستخلصه من التقاليد المرعية والأحكام والنظريات السالفة ، وما يعرفه عن

الطبيعة البشرية وما يُلمّ به من العقائد السائدة والآداب الغالبة . . . فالإنسان لم يصنع دينه وعقائده ومألوف نظراته الأخلاقية ، وإنما يستمد ذلك كله من إتجاهات عصره . وهو يضيف الى هذه المادة المتجمعة عناصر ذاتية ليلقي منها الضوء على المستقبل . وهذا لا يضيره في شيء ما دامت المادة التي استعارها لم تخرج من بين يديه كما كانت عندما دخلت عالمه ، وما دام لم يُقصر في التسامي بها والإضافة اليها وتجميلها،وتصحيح ما قد يكون فيها من اخطاء وإنحرافات ، واستكمال ما قد ينقصهامن المزايا والمحاسن،فهوميروس الذي كان يُظن حتى القرن الثامن عشر الميلادي أنه قد بلغ قمة الشعر دون إمعان في الدراسةٌ أو استفادة من إدب غيره ممن سبقوه ، قد اثبت المتخصصون في الأدب اليوناني أنه كان مطلعاً على القصص والأساطير التي تناولت حصار طروادة ، وأنه كان يعرف جميع الأحداث المتصلة بالتاريخ البطولي لبلاده . فقصصه الشعرية عن الأبطال مأخوذة عن الأشعار التي تقدمت عصره. ومع ذلكفإن أحداً لا يشك في أصالة هوميروس وقدرته الفذة على الخلق والبناء وتوليد الصور الجديدة الرائعة. وما ينطبق على هوميروس ينطبق على غيره من كبار الشعراء . فشكسبير لم يبتكر موضوعات رواياته وإنما استمدها من الكُتّاب والشعراء الذين سبقوه ثم أضفى عليها خياله الرائع . وكذلك موليير الشاعر والمؤلف المسرحي الفرنسي ، فإنه لم يكُفّ عن الإستعارة طوال حياته . وهو لا ينكر ذلك بل يؤكده حتى لقد قال : « اني لا أعفُّ عن أخذ ما أفيد منه حيثما وجدته » . فقد أخذ ملهياته من مؤلفين سبقوه ، كما أن الشخصيات الواردة في رواياته والمواقف والأحداث منقولة عنهم ، لكن نقد المجتمع الذي يتخلل كلمات أبطال الروايات في مختلف المواقف مستمد من تفكيره هو وينم عن قدرة عظيمة على النقد . وهكذا فإن عبقريته ـ كعبقرية شكسبير ـ إنما تكمن في قدرته على معرفة ذوق أهل عصره ومعرفته بما يخالج صدورهم ويجول في نفوسهم .

ولا ينحصر ذلك في ميدان الفن ، بل يسري أيضاً على الفلسفة وعلى كل عمل عظيم خلاق ! إذ تلتقي فيه عناصر خارجية مع أخرى تفرزها الذات ليخرج من ذلك كله مزاج جديد تستطيع العوامل الشخصية فيه اخفاء الكثير مما تسترب اليه من خارج . هنا مناط العبقرية وهنا يكمن سرها .

إن كل فيلسوف هو الذي يصنع فلسفته بنفسه ، وكذلك كل صاحب نظرية خلاّقة وكل صاحب مذهب مبدع . لا تصدقوا العكس أبداً . فهو لا يجلس

على أريكته هادئاً صامتاً ليتلقى توجيه سلفه ووحيه ويُحمل على تياره مستسلماً خاضعاً ليس له من الأمر شيء ، وإنما هو يُعمل عقله في فهم أغراض سلفه وسبر أغواره ، في محاولة لتجاوزه ولسان حاله يقول :

إني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

لكن مؤرخي الفلسفة التقليديين لا يشاطرونه هذه المشاعر الفياضة وهذه الدعاوى العريضة . فهم إذ يكتفون ـ كعادتهم ـ بالنظر إلى المظهر الخارجي للبناء الذي أفنى عمره وأكل أعصابه واستنزف دمه ، يرقصون طرباً وقد عثروا على الأسباب الموجبة لتوجيه تهمة الإنتحال إليه، بعد أن اطلعوا على التقارير وأدلة الإثبات التي رفعتها شرطة «كيماويي» الأفكار وخبراؤها الى المراجع المختصة . وبكل ثقة بالنفس واعتداد بالذات يجردون صاحبنا من جميع حقوقه وامتيازاته ويعلنون على رؤوس الأشهاد : نحن على علم بمصدر فلسفته وبالموادّ الأولية التي أنشأ منها مذهبه . وإننا نعرف أيضاً كيف تم البناء . يا للجريمة النكراء ! يا للجريمة الشنعاء ! خذوه فغلّوه ، ثم الجحيم صلّوه ، ثم في سلسلة ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلكوه : إنه كان لا يؤتمن على آثار غيره بل لقد كان ينتحلها لنفسه ، فيأخذ كلمة من هنا وعبارة من هنا ، ويقول إنما مؤلفها أنا . . .

وهكذا لا يهنأ لمؤرخنا المحترم بال حتىّ يُجرّد هذا الفيلسوف المسكين من جميع حقوقه في مذهبه نزولاً عند رغبة الزبانية . ويتنافس المؤرخون الآخرون في طعن الضحية بحرابهم والتمثيل بها وسلب كل درّ ثمين من جيوبها ، عبرةً لكل من تسوّل له نفسه الأمارة بالسوء ان يحذو حذوها أو ينهج نهجها ، ونَكالاً من زبانية لا تأخذهم في « الحق » لومة لائم ! والمؤرخ المؤرخ هو ذلك الذي يطعن أكثر من أخيه ويمضي في المُثلة الى شوط أبعد مما ذهب فيه . وكلما كانت قوة الرؤية في مجهره أكبر ، والدقائق التي يطل عليها منه أضخم ، كان ذلك أدعى الى تصفيق الزملاء وإعجابهم بمنهجه « العلمي » الدقيق . وهنا تدخل الأطماع والحزازات وحب الظهور ، وهنا يظهر التشفي والتعصب وتتغلب الضّغائن والأحقاد . وويل للضحية إذا كانت من ملة غير ملة أخينا النقادة المحترم ، ومن مجتمع غير مجتمعه ، وكانت تنتمي الى عصر غير عصره . هنا الطامّة الكبرى ، والداهية العظمى ! فالحكم مبرم ، والأحكام المبرمة لا رجعة فيها .

ولله درُّ الفيلسوف الفرنسي الكبير هنري برغسون اذ يتصدى لهذه المسألة

التي يتورط فيها كثير من مؤرخي الفلسفة « الرسميين » ، فيعالجها باقتناصته الباطنة ومنطقة الساحر الأخاذ ، وبروح التعاطف والمشاركة التي اتسم بها مذهبه . فلا يفهم العظيمَ إلاّ عظيمٌ مثله يحياه ويعانيه ويستنطقه ويعقد الحوار معه . وهيهات لغيره ان يفعل . فأنّى للضفدع أن يطاول الأسد !

فبرغسون يرى أن في كل فلسفة رؤية أصيلة يمضي القاريء نحوها مباشرة بعيداً عن منطق التأثير والتأثر ، وبذلك يتمكن من رؤية الشعاع المركزي الذي يضيء جوانب المذهب كله . ومن ثم فإن المؤرخ التقليدي يخطيء عندما يركّب المذهب الفلسفي ـ أياً كان ـ من تصورات أشلاء مستهلكة مصنوعة من قبل.إنها تصورات قديمة مضى عهدها لا تصلح لتفسير ما في المذهب الجديد من نبرات وظلال وألوان ومعانٍ ودلالات تتشابه على العين غير المدربة ، لقد دارت في الأذهان كثيراً ولاكتها جميع الأفواه ففقدت خصوصيتها وتوقف نبضها . إن هذه التصورات المتحجرة من شأنها أن تفسد على المؤرخ الكفء الإتجاه نحو الرؤية المولدة لهذه التصورات ، نحو الشعاع المركزي الذي منه يمكن معاينتها في دفقها الغض الأصيل . وهو يخطيء أيضاً عندما يرد مذهباً فلسفياً ما إلى مذهب أو أكثر ، مدعياً أن هذا المذهب أو ذاك معروف فيما سبق من المذاهب ، وسيراً على قاعدة لا جديد تحت الشمس ، بينما المذهب كلٌّ عضويٌّ واحدٌ تتداخل أجزاؤه فيما بينها كما تتداخل اجزاء الكائن الحي . فكما أن في كل جرثومة حية فكرة موجهة وخالقة ـ والتعبير لكلود برنار ـ يخضع لها الكائن الحي في تطوره ، كذلك لكل مذهب فلسفي فكرة موجِّهة تدفع الفيلسوف من طور إلى طور ، حتى تهيىء له الصورة الفلسفية الأخيرة التي استقر عليها في نهاية المطاف . وهذه الصورة فريدة في نوعها ، ولا سبيل إلى ردّها إلى صور أخرى .

وبعبارةٍ أخرى ، لكل مذهب ـ فلسفي أو غير فلسفي ـ مظهر خارجي قد يشترك فيه قليلاً أو كثيراً مع بعض المذاهب الأخرى ، وله أيضاً نقطة داخلية مركزية هي جوهر المذهب وهي أساسه وهي روحه ، وهي هي التي انما يجب البحث عنها بعد قراءة المذهب واعادة قراءته من جديد ، كيما نستقر نحن معاشر الذين ننظر اليه من خارج ، في فكر الفيلسوف وننفذ الى أعماقه ، بدلاً من الدوران على مظهره الخارجي الذي لا يُغني عن مذهبه الحقيقي شيئاً . وهذه النقطة هي التي ما فتيء الفيلسوف طوال حياته يرغب في أن يكشفها لنا ويميط

اللثام عنها . فهو يكتب ويكتب ، ثم يعاود الكتابة من جديد عساه يصل إلى التعبير الدقيق عنها ، وكثيراً ما يخفق في هذا السبيل ، فكلما نزع عنها حجاباً وجد تحته حجاباً . لقد تكاثرت الحجب والأغشية حتى ليكاد يقضي عمره كله ولا همَّ له ولا هاجس إلا كشف ما يرين على هذه الفكرة الموجِّهة البسيطة من غواشٍ ، وايجاد الإنسجام والتناسق بينها وبين الوسائل التي في متناوله للتعبير عنها .

وهكذا ، فليس أمعن في الخطأ من فهم المذهب بطائفة من المفاهيم المصوغة والتصورات المصنوعة من قبل ، بينما كان من الضروري تمزيق الحجب التي تحيط بالتصورَات والمضي قُدماً إلى باطن المذهب للوصول إلى البؤرة أو النقطة المركزية التي جهد الفيلسوف في إظهارها والتي بها إنما ننفذ إلى عالمه ونقتحم أجواءه ، وإلاّ رجعنا بخفّيْ حنين . ومعنى ذلك أن برغسون يدعونا إلى أن نُقبل على دراسة الفيلسوف بروح من التعاطف والمشاركة الوجدانية ، إلى أن نقتنصه من باطن ، بأن نعانيه ونحياه ، وبهذا الطريق وحده نستطيع أن ننفذ إلى الرؤية البسيطة الواعية التي تكمن وراء التصورات ، فنقف من ثم على الإتجاه الأصلي الذي إنما انبثقت منه فلسفته ومذهبه في الكون والحياة والمصير . وما جميع كتابات الفيلسوف وتصانيفه ومؤلفاته إلا محاولات دائبة لصياغة هذه الرؤية وعرضها في حلة قشيبة . وهو قد ينجح في التعبير عنها ، لكنه قد يخفق أيضاً ، فيكون بذلك قد زاد مذهبه تعقيداً[1] .

●

فالفيلسوف ـ وهو كائن يتميز عن غيره بالإرادة ونُضج الوعي والحساسية المرهفة ـ ليس صخرة صماء تجري عليها أحكام الضرورة العمياء . إنه إنسان ، بل إنه إنسان أكثر من كل إنسان . إن له شخصية متمردة تتميز بإرادة واعية وتفكير مستقل ، وهي تصبو إلى التعبير عن ذاتها بمختلف أشكال التعبير ، وإلى فرض وجودها بشتى الصور والأوضاع لتثير الأذهان من حولها وتحرك العقول والمدارك ، وتُمدّها بالطاقة اللازمة لاحداث التغيير المطلوب والتفجير الفكري

---

(١) انظر د . مراد وهبة : المذهب في فلسفة برغسون ، خاصة الفصل الثاني والثالث والرابع ، فهذه الفصول الثلاثة كانت عمدتنا هنا وان كنا قد تصرّفنا قليلاً تصرفاً يقتضيه المقام .

الثوري المنتظر .

في كل وقت توجد حركة فلسفية ، فلا يخلو منها زمان أبداً . لكن الفيلسوف الحق لا ينقاد لهذه الحركة بسهولة ، بل يعقد حواراً معها . ولئن حاولت فرض شروطها عليه ، فإن إرادته تظل قادرة هي أيضاً على مناقشة تلك الشروط أو نقضها . إن الجو العقلي المحيط بالفيلسوف لا بد أن يترك آثاره في هذا الفيلسوف ويساعد على تشكيله وصياغته بما يتلاءم وطبيعة هذا الجو وصبّه في القوالب المناسبة . لكن ذلك كله لا يمنع أن يظل الفيلسوف عاملاً هاماً في الحركة الفلسفية التي يحمله تيارها . فهو في كل كلمة يكتبها ، وفي كل فكرة تسنح له ، إنما يضيف إلى هذه الحركة عنصراً جديداً مليئاً بالعوامل الشخصية . لكنها ليست مجرد إضافة كمية ، وإنما هي تحول كيفي ، إنما هي إعادة تنظيم القديم في ضوء الجديد ، وإطلالة متجددة عليه . إنها إثراءً له واغناء لمضمونه وتوسيع لآفاقه . إنها قفزة في المطلق تتلوها قفزات وقفزات .

إن المشاكل التي يعالجها الفيلسوف ويهتم بإيجاد حل لها إنما هي دائماً تلك المشاكل التي تُثار في عصره ، أو على الأقل تلك التي يستشفها هو بقوة بصيرته مما يلوح وراء الأفق أو تموج به أحداث متوقّعة · كما أن العلم الذي يستخدمه الفيلسوف لحل هذه المشاكل هو علم زمانه . لذلك كان لا بد أن نعثر في آثاره على كثير من الآراء والأفكار التي ترجع إلى معاصريه وأسلافه . وقد يكون هو شاعراً بهذه الآراء والأفكار متنبهاً لها ، وقد تصبح جزءاً من تراثه من غير أن يدري بها ويعي أمرها . لقد انزلقت إلى الأعماق على حين غرّة منه فاختلطت بالنسيج والأمشاج حتى ضاعت معالمها . المهم أن آثاره ليست بنات أفكاره هو - وحده - وإنما هي نتاج جيل كامل من الأفكار تفاعلت في ذهن هذا الفيلسوف الذي كان ثمرة يانعة من ثمراتها . إن القضايا التي يعرضها تشف دائماً عن الأسئلة السابقة له أو المعاصرة . وكيف يكون الأمر غير ذلك والإنسان لا يتأتى له أن يعالج الجديد ويشرحه ويعبر عما فيه ، ويضع له حلولاً واقتراحات إلّا معتمداً على القديم ، وإلّا مستخدماً لمشاكل قد أثيرت من قبل وحلول عولجت بها في عصره أو في العصور السابقة ، وبالتالي لا بد أن يستخدم العلم والأدب والفلسفة والرصيد العقلي كله بحسب منطق العصر ومفاهيمه . هذه هي المادة الخام التي يجد نفسه مضطراً إلى استخدامها ليخلع على فكره صورة مفهومة ، كما يستخدمها كبار

المفكرين الآخرين لاعادة تنظيم القديم على ضوء الجديد واستيلاده معاني جديدة لم تكن لتظهر لولا سلفها القديم الراحل . إنها الجنين الذي عاش في أحشاء القديم وتغذى بما ينتقل إليه منه ، ولما اكتمل نموه انشق عنه وخرج بشبه المخاض بشراً سوياً . فكل نتاج سابق إنما هو أداة بين أيدي صناع النتاج اللاحق للتعبير عما يجيش في نفوسهم ووسيلة لاعطائه صورة حديثة معقولة ومقبولة في الأذهان .

وعلى كل حال لا يخلو مذهب من المذاهب من عدد لا يحصى من أوجه الشبه الجزئية بغيره من المذاهب ، بل لقد تكون وجوه الشبه هذه قوية إلى حد يفقأ العين ، ومع ذلك لا يعدو هذا ان يكون مظهراً خارجياً بحتاً . أما أساس المذهب وجوهره ولبّ لبابه فشيء آخر لا ينفذ إليه أسلوب النقد « الكيماوي » ، أسلوب تمزيق المذهب خِرقاً وقصاصات تفقد كل قيمتها عندما تُنزع من عالمها . ولكي نفهم أساس المذهب وننفذ إلى روحه ونغوص في أعماقه ، لا بد أن نعيش مع صاحبه طويلاً ، ونحاوره ونشاطره ـ بنوع من الحدس الباطن والمعاناة الحية ـ الأفكار والمشاعر التي إنما تثيره وتجذب اهتمامه . وبعبارةٍ أخرى ، يجب أن نحياه لنقترب ما أمكن من النقطة المركزية التي توجه أفكاره والتي قد نذر نفسه لايضاحها والتعبير عنها وفضّ مكنوناتها ، والإفصاح عما تبشر به من كل جديد وطريف . فكل أجزاء المذهب تتلاقى في هذه النقطة المركزية ، موجَّهة بها ، منعطفة إليها ؛ فتراها يتداخل بعضها في بعض ، ويلتف بعضها حول بعض ، ويأخذ بعضها بأعناق بعض ، وينصهر بعضها في بعض ، بحسب أوضاع هذه النقطة ومقتضياتها الآنيّة والمستقبلية ، وحاجاتها العاجلة والآجلة .

دعوا الفيلسوف في همومه وهواجسه ، فما يشغله لا يشغلنا ، وما يثيره لا يثيرنا . والأشياء التي يكون لها معنى عنده قد لا يكون لها أي معنى عندنا . إنه أسير عالمه الخاص الذي لا ينفك ينسجه في كل لحظة ونحن عنه لاهون . إنه يسعى بيننا بجسمه وحسه ، لكن مسافات شاسعة تفصله عنا . إن نقطة واحدة تؤرقه وتنغّص عليه حياته ، وتستغرق كيانه ووجوده . فكل اسم يذكره فإنما هو عنها يُكنّي ، وكل دار يندبها فإنما دارها يعني . إذا كتب فإنما عنها يكتب ، وإذا دوّن شيئاً فإنما فيها يدوّن . ثم هو يكتب ويكتب ، ويعيد الكتابة والتدوين لعله يكون أحسن تعبيراً وأفصح بياناً . وهكذا تنصرم حياته بين التعبير وإجادة التعبير ، ولا همّ له إلا توضيح هذه النقطة والتزام الفكرة فيها ، والعكوف عليها

بِكُنْه الهمة،والتماس الوسائل الكفيلة بنقلها إلى الآخرين وإقناعهم بها واجتذابهم إليها ، بأفصح لسان وأوفى بيان .

تلك هي خلاصة رأي برغسون في الرؤية الباطنة للفيلسوف ، وهو رأي صائب حبذا لو رجع إليه مؤرخو الفلسفة وساروا على منهاجه ، إذن لأنصفوا الفلاسفة الذين أوقفوهم في قفص الإتهام ، ولوصلوا إلى نتائج جديدة هامة في دراساتهم وأبحاثهم ، وبالتالي لما ألقوا الأحكام جزافاً ذات اليمين وذات الشمال . فالنظر إلى الفيلسوف من خارج وبطريقة « التحليل الكيماوي » للأفكار كما لو كان شيئاً من الأشياء ، فيه افتيات عليه وفيه تضليل ، فضلاً عن أن الدارس له على هذا المنوال لن يظفر إلا بالفتات وسقط المتاع .

●

إن الفلسفة والعلم والحضارة لا تقوم إلّا على تراث الأقدمين ، ولا يمكن تصورها بغير تراث الأقدمين . ولا غرو من ذلك ، فهي بناء رفعت لبناته تجارب الأجيال جيلاً بعد جيل . ولذلك فإن جميع الحضارات تدين بالكثير مما فيها للاقتباس والنقل والإستعارة ، ولم يتطاول بناء الفكر والتراث إلا بالأخذ والعطاء .

لقد أخذ الإغريق من كل حضارة سبقتهم ، حتى ليرى البعض ـ كما ذكرنا من قبل ـ أنه لا يكاد يوجد شيء في الحضارة الإغريقية الكلاسيكية لا يمكن إرجاعه إلى أصول خارجية . إن المنقب في أصل هذه الحضارة يجد ـ إذا أراد ـ أن جذورها تمتد بعيداً جداً في أعماق الماضي وتتشعب في أغوار التاريخ وما قبل التاريخ لتأخذ من مصادر شتى لا تقع تحت حصر . ولكن كل هذا لا أهمية له على الإطلاق في نظرنا . فالعبرة ليست بما استفادوه من غيرهم من الأمم والشعوب والحضارات ، إنما العبرة فيما لم يستفيدوه من غيرهم ، وبتعبير أدق بما لا سبيل إلى استفادته من الغير ، وأعني به حب الإستطلاع الشديد ، وسعة الخيال ،والقدرة الهائلة على استخراج العلاقات ، وملكة الإستنتاج والإستدلال ، والتحليل والتركيب . . . فالعنصر المميز للإغريق هو مرونتهم العقلية الشديدة وقوة خيالهم ومقدرتهم الخارقة على الجمع والتأليف . ولهذا فإن الأفكار التي كانت تتجمع بعضها إلى بعض في أذهانهم سرعان ما تتفاعل ، فكانوا يخرجون منها بنتائج وحلول ليست بالحسبان ، بينما قد تظل لدى غيرهم من الشعوب متراكمة

طبقاتٍ بعضها فوق بعض يعلوها الغبار إلى يوم يُبعثون . ما قيمة الأفكار المستعارة إذا لم تقترن بالقدرة على التنظيم والتحليل والتركيب والجمع والتأليف واكتشاف العلاقات ؟ فليس من العار على الإغريق أبداً أن يفيدوا من الفُرص التي قد خلقوا بعضها بأنفسهم وأتاح لهم كل من الزمان والمكان بعضها الآخر ، ولكن العار كل العار أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام سيل المعرفة الذي فاض عليهم من كل مكان . ليست العبرة بالمعارف التي قد نهلوها من الآخرين ، وإنما العبرة كل العبرة بما فعلوا بهذه المعارف ، وأي النتائج استخلصوها منها . وهكذا فلئن استعارت حضارة الأغارقة شتى العناصر من الحضارات الأجنبية ، فإنها في الوقت ذاته قد أعادت ما استعارته أضعافاً مضاعفة ، وبلغت في ذلك حد الإعجاز . فقد ارتفع الاغريق ببناء الحضارة إلى علو شاهق وأضفوا عليه جمالاً رائعاً وصفات خلاقة .

أجل ، ان النظر إلى الحضارة اليونانية من الخارج لن يجدي شيئاً . إنه لن يقدم لنا سوى مجموع حسابي مبرقش من الصور الباهتة والأوضاع المقلوبة ، فضلاً عن أن ذلك من شأنه أن يبخس اليونان حقوقاً كثيرة ويجردهم من أخص خصائصهم التي اكتسبوها في مراحل التاريخ المختلفة ؛ وأما إذا نظرنا إليهم بحسب الرؤية الباطنة التي يبشر بها برغسون ومدرسته فسنقع على أشياء في غاية الأهمية عند هذا الشعب العظيم . غير أن ذلك ليس غرضنا في هذا الكتاب وفي كتبنا الأخرى ، لا سيما وقد تبارى الكثيرون في الإشادة بالفكر اليوناني والمعجزة اليونانية ، وجنّدوا جميع طاقاتهم لاظهار مآثر الحضارة اليونانية وفضلها على الفكر العالمي ، وكان كل غواص يخرج بدُرٍّ جديد حتى لم يتركوا زيادة لمستزيد أو كادوا . كيف لا وتاريخ أثينا يعني تاريخ أوروبا وإضافة أمجاد جديدة إلى أمجاد أوروبا ، وفي ذلك ما فيه من تسويغ للهيمنة الأوروبية وتوكيد لحقها التاريخي في السيادة على العالم . إن غرضنا أن ننفذ إلى أعماق الفكر العربي الذي قلّ منصفوه وكثر جاحدوه ، وقد آن له أن ينتصف لنفسه وعلى أيدي أبنائه . وسنسهم بنصيبنا المتواضع في هذا السبيل ما وسعنا الأمر ، إيماناً بتاريخنا وآثارنا . ولن نكتفي بمنهج برغسون بل سنضيف إليه منهجاً آخر يمكن الإنتفاع به أيضاً في دراسات أخرى لا تنحصر في الفكر العربي . ومن يدري ؟ فلعلّ في هذه الإضافة ما يفتح الأبواب مشرعة لاضافات أخرى ستشهدها هذه المنطقة غداً ، وان غداً لناظره قريب . . .

ولنعد إلى السؤال الذي طرحناه سابقاً دون أن نجيب عنه إجابة شافية : هل (المعجزة اليونانية) وليدة التأثيرات الأجنبية التي هبت رياحها على بلاد اليونان من مصر والهند وبلاد ما بين النهرين ؟ إن كثيراً من مؤرخي الفلسفة يظنون ذلك ، لكن هذا الظن سطحي جداً لا يغوص إلى الأعماق . فمهما بلغت هذه التأثيرات من القوة فإنها لا تستطيع أن تفسر لنا الظاهرة اليونانية الفذة . لذلك كان لزاماً علينا ونحن نتصدى للحديث عن الخصوبة والثراء في العقلية اليونانية ألا نهتم فقط بما تعرضت له من مؤثرات خارجية لا سبيل إلى نكرانها ، بل أن نُبدي أيضاً مزيداً من الإهتمام بالقوى الداخلية العارمة التي استقبلت هذه المؤثرات والتقحت بها ، والإ كان مثلها (أي المؤثرات) كمثل البذور تُلقى في أرض سبخة لا ينبت فيها حرث ولا زرع .

إن هذه المؤثرات تذرع الأرض ذهاباً وإياباً كل يوم تطلع فيه الشمس ، فلِمَ اختصت بالفعل والإنتاج في بلد بعينه في وقت بعينه دون سائر البلاد الأخرى رغم ما يُعاني هذا البلد المختار من فقر وحرمان ؟ ثم ما هي الحاجات التي حققتها والمتطلبات التي عبّرت عنها ؟ ماذا صنع أهل هذا البلد بها وأي النتائج استخلصوا منها ؟

فإذا أجبنا عن هذه الأسئلة ونحوها قطعنا شوطاً طويلاً في فهم (المعجزة اليونانية) وعرفنا الشيء الكثير عن القوى التي لا يتم اللقاح إلاّ بها، وإلاّ ارتدّ عنها وأصيب بالعقم. وعلى كل حال ، لن نقف عند هذه المعجزة ، وإنما سنقف وقفة طويلة عند معجزة أخرى هي (المعجزة العربية الإسلامية) . نعم (المعجزة العربية الإسلامية)، رغم ما تحدثه هذه الكلمة من صدمة لأصحاب المشاعر « الرقيقة » الذين لا يتصورون وقوع المعجزات في أي بلد لا يمتّ بصلة النسب والقربى إلى الجنس الأبيض المختار . فَذَرْهم ومايظنون، ذرهم يخوضوا أو يلعبوا حتى يطأطئوا الرؤوس لهذه المعجزة ويحنوا لها الهامات ، وسيجثون على ركبهم صاغرين ! فما (المعجزة اليونانية) سوى واحدة من (معجزات) كثيرة سبقتها وأعقبتها . فالتاريخ حافل بالمعجزات ، وإلا لم يكن تاريخ ، فلا تاريخ بلا معجزات . فإنما التاريخ تاريخ للمعجزات ، وإلا كان مجموعة قصص وحكايات ، وكتل من الأنفاس والحركات ، وأجسام تدب على الأرض

كالحيوانات .

إن وجود المعجزة لا يمنع ان تكون البيئة التى حدثت فيها هذه المعجزة مشبعة بالعناصر الأجنبية ، بل إن هذه العناصر ضرورية لاكتمال دورة حياة المعجزة ، ولكن هذه العناصر تظل مادة خام لا تضر ولا تنفع . إنها إنما تنتظر العقل الذي يستخدمها ويسخرها لأغراضه وحاجاته ، العقل الذي تحدث فيه الصدمة المطلوبة . ويبدو أن هذه الصدمة لا تحدث كيفما أتفق . فليست جميع العقول تنفتح للأفكار ذلك الإنفتاح الذي يؤدي إلى حدوث الصدمة ، وليست جميعها مهيأة لهذا الإنفتاح في كل زمان ومكان . إلا أنه يبدو أن عصور الإنتفاضات والثورات والمعجزات الكبرى في التاريخ هي أكثر من غيرها مؤاتاة لشحن العقول والإذهان وتفجير الطاقات فيها . إنها أقدر من غيرها على كشف المواهب والعبقريات واستفراغ ما فيها من جهود وإمكانيات ، واستجاشة ما تنطوي عليه من قوى كامنة مضغوطة تنتظر الشرارة الأولى لتنفجر وتثور كالبركان . إن هذه المواهب والعبقريات تكون راكدة في ظروف الحياة العادية يعلوها الغبار والصدأ ، لكن ما إن تسمع المنادي حتى تهبّ من رقادها ، ما إن يجلجل البطل بصوته وتتردد أصداؤه في الآفاق ، ما إن يؤذّن للناس بالثورة والإصلاح ، حتى يأتوه رجالاً وركباناً ويهرعوا إليه من كل فج عميق . لقد بُعثوا قوماً آخرين بعد أن كانوا غُثاء كغثاء السيل . لقد استدبروا عصراً واستقبلوا عصراً . لقد دان لهم التاريخ وأسلس لهم قياده .

ان جميع علوم الأرض لا تكفي لاحداث الإنتفاضة ، بل لقد تحدث الإنتفاضة مع انعدام المؤثرات الخارجية أو تكاد ، كما وقع للعرب في صدر الإسلام . فإذا حدثت عرفت كيف تجذب المؤثرات الخارجية إليها لتستدرك ما فاتها بسرعة خارقة . وأجدادنا العرب من أوضح الأمثلة على ذلك أيضاً . أجل ، إن العوامل الخارجية لا تجدي وحدها شيئاً ، وآية ذلك ان العلم الإوربي منتشر اليوم في كل مكان لا تكاد تخلو منه لغة من لغات العالم ، ولا تكاد توجد عاصمة من العواصم في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية تخلو من جامعة من الجامعات ، ومع ذلك فإن هذه الجامعات لا تزال تعيش على هامش الحياة اليومية لهذه البلاد . إنها في برزخ تجد نفسها عاجزة عن الخروج منه إلى الفضاء الواسع العظيم . فعلى الرغم من وجود الجامعات في العالم الثالث فإننا لا نستطيع أن نقول أن هناك

مناخاً علمياً بالمعنى الحقيقي للكلمة . هناك معامل ومختبرات وتكنولوجيا مستوردة ولكن العلم لا يُستورَد ، وإذا استورد بالوسائل الصناعية الى بلد فإنه يقحَم فيه إقحاماً لا ينتج عنه أي ثمر . إن كثرة خريجي الجامعات لا تعني بالضرورة وجود علم يساوي عدد المتخرجين . ولا أدل على ذلك من أن الجامعات في أكثر دول العالم الثالث لا تنتج أرباب عقول ، وإنما هي تطرح في الأسواق أعداداً متزايدة من حملة الشهادات والموظفين في دواوين الحكومة . إنها مطابع لطبع الشهادات لا أكاديميات للبحث وصنع العقول . فالطلاب فيها إنما يعيشون بالغرائز لا بالمشاعر ، بالنقل لا بالعقل ، بالرواية لا بالدراية . وأما الأساتذة فلا هم لهم إلا الشكوى والمطالبة بتحسين أوضاعهم وظروف حياتهم وانتظار نهاية الشهر لقبض رواتبهم ! فالفقر والمرض والطغيان وبلادة البيروقراطية في هذه البلاد ـ كل أولئك كرامة الإنسان ويقتل مواهبه . ولا يغرنّك أن يقبل الكثيرون من خريجي هذه الجامعات على الكتابة والتأليف والمطالبة بتحسين أحوالهم ، فأغرقوا الأسواق بمؤلفاتهم التافهة الرخيصة التي تتملق ولا تخلق ، وتُدافع ولا تُعارض ، وتبرر ولا تعلل ، وتُصانع ولا تُمانع ، وتستخذي ولا تُتخذ المواقف الحرة الجريئة . وربما كان أحد أوبئة الحضارة الحديثة أن جعلت النشر سهلا ميسراً واسعاً ، بعد أن كان في الماضي باباً ضيقاً لا يلجه إلا الجديرون الأكفاء الذين ينصَبونَ ويتعبون ويرهقون الناس معهم عملاً بالقول المأثور : « اجهدوا للوصول من الباب الضيق » !

قد أكون مسرفاً في التشاؤم وقد أكون مخطئاً في رسم هذه الصورة القاتمة المظلمة ، هذا ما أدت إليه حساباتي ، وأرجو أن أكون مخطئاً . ومع ذلك فلا يكفي أن يظهر في بلد ما عملاق كغاندي أو نهرو مثلاً لنقول ان الهند قد انتقلت من العصور الوسطى الى العصر الحديث . إن المسألة أعقد من ذلك بكثير . فقد أنجبتَ الهند حتى الآن رجلاً أو رجلين لكنها لم تنجب رجالاً . لقد وقفت حيث تركها غاندي ونهرو أو تكاد ، ونامت على أمجادهما ثم انصرفت الى المشاحنات الداخلية ظناً منها أن نجماً أو نجمين يكفيانها في السُرى الطويل ، بينما جارتها الصين تسطع فيها الآن نجوم ونجوم . انها تقذف بالرجال تلو الرجال ولا تزال تطلب المزيد . لقد تخرجا في مدرسة استعمارية واحدة وعانيا من حرمان واحد ، فما إن جلا المستعمر عنهما حتى سلك هذا فجاً وسلك الآخر فجاً غيره . فليت شعري ! علامَ يدل جميع ذلك ؟ ليست العبرة بعدد السكان ولا بالمساحة واتساع

أكناف البلاد ، ولا بالثروة القومية والموارد الطبيعية . . . لكنما العبرة بشيء لا يقاس ولا يُكال ولا يُدرك بالأعداد والأرقام . العبرة بإرادة الحياة ، والسلام ! مهما تكن هذه العبارة عامة وتحتاج الى شرح طويل !

إن العصور التي تقع فيها المعجزات وتحدث الإنتفاضات والثورات هي عصور التحولات الكبرى ، ولكل تحول ظروفه وضروراته . إنه ينجم عن مجموع العلاقات الإجتماعية والثقافية ، والإقتصادية والتاريخية السائدة ، وهي علاقات معقدة متشابكة لا يمكن تعقبها في تشعباتها الدقيقة ومساراتها المتعرجة التي تضرب في كل اتجاه وتذهب كل مذهب . هنا يأتي دور القائد البطل الذي يستوعب هذه العلاقات جميعاً في نظرة كلية شاملة ، ويستخلص منها ما لا يستطيع غيره استخلاصه . بئس القائد يستبد بالعمل وحده . فالقائد الحق هو ذلك الذي ينشيء مدرسة من القادة من حوله تشاركه الحكم والمسؤولية فلا يترك رحيله فراغاً بعده .

ان التحولات الكبرى نادرة جداً في التاريخ . فلئن كانت هناك قوى كثيرة في المجتمع تتطلبها فهناك قوى أكثر تعارضها وتمنع تحقيقها ، ولا سيما اذا لم تنضج ظروفها بل كانت سابقة لأوانها . إنها معركة تنازع البقاء . ولذلك ليس من الممكن التنبؤ بالتحولات الكبرى وتوقيتها بالسنين والأيام والساعات ، وإن كان من الممكن الشعور ـ بنوع من الحدس الدافىء ـ بأن شيئاً ما سيحدث . لكن ما هو هذا الشيء الذي سيحدث ؟ وعلى يد من سيحدث ؟ وكيف سيحدث ؟ ومتى سيحدث ؟ . . . فكل أولئك منوط بظروف وأحوال وأوضاع ومواقف لا يمكن حصرها . وكل ما يمكن أن يُقال في هذا الصدد : هناك مفاجأة ستحدث ، هناك قفزة ترتسم في الأفق ، هناك حدث عظيم ينتظر الرجل العظيم ، ومع ذلك فقد لا يحدث أي شيء من هذا القبيل لاسباب متعددة . فقد يُجهض الحدث لخطأ في التوقيت أو التخطيط ،أو لأن قوى المعارضة تقف له بالمرصاد ، أو قد لا يكون في الأفق أي حدث وإنما هنالك آمال وأمانٍ وعواطف استبدت بالناس من غير أن تتوفر ظروفها الموضوعية ، فالتبست بالأحداث العظام . . . وعلى كل حال ، إذا سارت الأمور على ما يرام ، ووقع الحدث العظيم وجاء معه الرجل العظيم ، جاء أيضاً موكب من الرجال وجاء الرجال تلو الرجال . وتوالى الرجال بعد الرجال حتى تخبو الجذوة وتنطفىء الشعلة ، فتدول الدولة وينتقل الأمر إلى غيرها .

وهكذا تتوالى الدول والأمم ، وتنطفىء شعلة وتوقد شعلة ، وتنشط عقول وتجف عقول ، وتعلو أقطار وتهوي أقطار، حتى ينقضي الزمن وتنصرم الأيام . وفي ذلك عبرة لكل معتبر .

وهكذا فقد تصدق الإنتفاضة وتصح عزيمتها وقد لا تصدق . فما أقل الإنتفاضات وما أكثر الحركات التي تلتبس بها ! إذ إن الأمر لا يعدو في كثير من الأحيان ان يكون زَبَداً راغياً . لقد تمخض الجبل فولد فأراً . فكما يتشابه الأمر على الطبيب النطاسي فيخلط بين الحمل الصحيح وانتفاخ البطن بالمرض والغازات ، كذلك كثيراً ما تحدث انقلابات وفتن وحركات تمرد يحسبها المتشوف الملتاع ثورة حقيقية عارمة ، حتى إذا جاءها وجد الإطماع وتجار السياسة وسماسرة الحكم وجماعات المرتزقة . كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . فللثورة أمارات قد تلتبس حتى على المختصين . وقد يبرز عدة رجال فتكتمل الخديعة ويصعب التشخيص . فما تُغني الرجال في واد بلقع وأرض موات؟ « الأمور مرهونة بأوقاتها » كما يقول أشياخنا . فاذا أضفنا إلى هذه الثورات الكاذبة ما ذكرناه من إمكانية خنق الثورات الحقيقية واجهاضها قبل أن تولد أدركنا صعوبة الثورات وندرتها واستحالة ـ أو شبه استحالة ـ التنبؤ بها ، وعرفنا مدى التضحيات التي تبذل في طريقها والأرواح الزكية التي تزهق في سبيلها . فما أسرع ما تُسرق الثورات وتُغتال !

●

الإنتفاضة اذن هي الحدث الكبير في حياة الأمم والشعوب . إنها حدث الأحداث وقُدس الأقداس ، وجميع الأحداث بعدها إنما هي أحداث صغار . فكل جامعات العالم لا تكفي لانثيال الفلاسفة والعلماء وقادة الفكر والرأي إذا لم تكن انتفاضة . فهؤلاء محصورون في بؤر ضيقة جداً من العالم ليست شيئاً مذكوراً في حساب المعمور من الأرض . هنالك الوَلاية للعلم والفكر وهنالك فقط تؤتي الحضارة أُكُلها وييـنع ثمرها ، هنالك فقط تتفاعل العقول وتتلاقح ، وهنالك يُصنع التاريخ ، ولا يعود ذلك إلى أسباب عرقية عنصرية ، وانما هو يرجع إلى ظروف موضوعية ، استجاشت الإنتفاضة وتكونت بفعل الإنتفاضة في آن واحد ، وبالإنتفاضة انما تستقظ العقول وتتفتق المواهب وتتفجر الطاقات .

هنالك تحدث المعجزة ويخرج المارد الجبار من قمقمه . هنالك ينبسط الطريق ، وتتفتح الأبواب ، وتزول الغواشي والحجب ، وتتضح الرؤية ، وتتوالى قوافل العظماء . فالرجل العظيم ـ وما أكثر العظماء في عصور الإنتفاضات ـ لا يحتاج إلا إلى الشرارة ، وهو بعد ذلك يتولى الباقي . إنه يتلقى اشارات وتنبيهات ، ثم ينطلق في الدرب وحده ليقتحم المعاقل بنفسه ويفتح المغاليق . فالنبضة ان لم تكن نبضته هو فمن أين عساها ان تأتيه ؟ إنه منذ الآن ـ وهذا أخص خصائصه ـ عقل لمّاح يكفيه القليل ليستخلص منه الوافر الكثير . . .

فليس من القسط إذن إرجاع كل ظاهرة حضارية جديدة في بيئة من البيئات ـ ونقولها للمرة المئة ـ إلى عوامل خارجية صرف واهمال العوامل الداخلية التي هي كل شيء في هذه الظاهرة . إذ لا فكرة من الأفكار ترد من الخارج وتسعى ليكون لها سلطان على الناس من الداخل ، من غير أن يكون لها أصدقاء في الداخل يتلقونها بالحب والود وعلى الرحب والسعة ، من غير أن يكون لها مبرراتها ومقتضياتها الداخلية الموضوعية وما لم يكن لها فيهم وجودٌ ما بالقوة . فالعامل الخارجي إنما يوقظ العوامل الداخلية ـ إن وُجدت ـ ويستحثها ويستجيشها ، ولكنه لا يخلقها . بل ـ ماذا أقول ؟ ـ إن الأفكار التي تُستعار من الخارج من غير أن تؤخذ البنية الثقافية والتاريخية بالحسبان ، إثمُها أكبر من نفعها ، لأن من شأنها أن تؤدي الى القضاء على روح الإبتكار والنبوغ وإلى خنق الذوق الفطري لدى كثير من الناشئة ، وإن أرضَتْهم ـ وهذا من افدح أخطارها ـ بالحصول على بعض الشهادات والألقاب ، فقتلت طموحهم بتزلي بعض المناصب الكبيرة والتمتع بمكتبٍ في الديوان مجهز بأثاث فاخر وثير . لقد كانت وبالاً عليهم كما يكون الماء البارد العذب وبالاً على العطشان إذا شرِق به فمات ، أو اجترعه وجسمه يتصبب عرقاً . لكن هذه الأفكار ذاتها تكون غذاءً دسماً لبلد يعيش انتفاضته ويحقق أحلامه ويرقص ويهزج . ها هنا وادي عبقر ، الوادي المعشوشب الممراع ، وادي الآمال والأحلام ! وهنا فقط تتمخض الأحداث عن مولود جديد . . .

وهكذا فبانعدام الإنتفاضة الداخلية لا يُغني المدد الخارجي شيئاً . إنه لا ينتج إلا الشوك والعلقم. هذه هي سُنَّة التاريخ وذلك هو حكمه ، ولا معقِّب لحكمه . فهو لا يستقر في بلد فريد مختار يبقى فيه الدهر كله ، وانما هو حُوَّلٌ قُلَّبٌ جوال ، لا يكاد يستقر به مقام ، بل يتبع انتفاضات الشعوب وتفجر الأحداث

فيها . فلا يكاد يحل ببلد حتى يغادره إلى آخر على خطوات منه أو يقـع في أقصى الأرض . فإنما الأيام دُوْلٌ بين الناس .

ولا يشذ تاريخ العرب عن ذلك . فلقد أتى عليهم حين من الدهر كان التاريخ فيه طوع بنانهم ، وكانت لهم وحدهم زعامة الفكر ورياسة العلم واستبحار الحضارة والعمران ، بحيث لا يمر علينا يوم دون ان تكشف لنا فيـه اعمال البحث والتنقيب بين المخطوطات إنجازاً هاماً للعرب ومأثرة من مآثرهم في العلم والفلسفة ومناهج الفكر والرأي ما سمعنا بها من قبل نحن ولا آباؤنا . ولا ينكر ذلك إلا مكابر جاحد للمعقول والمحسوس . فللعرب مواقف فكرية رائعة لن يسع المتعصبين العنصريين التشكيك فيها إلا بالمكر والمراوغة كعهدنا بهم دائماً .

لقد كانت الذريعة الدائمة المتكررة أن نظام التصورات اليوناني كان هو الأساس لجميع الأعمال الفكرية العالية الكبيرة التي قام بها العرب ، وأن المبادىء الفلسفية والآراء التي جاء بها هؤلاء إنما هي ترجمة مشوشة لفلسفة اليونان ومنطق اليونان والمنهج اليوناني . فليس للعرب قدرة على التفكير الأصيل ، وليست لهم أي إضافة هامة مستقلة عن اساتذتهم اليونان . هذا ما يردده الباحثون الغربيون باستمرار ، وبهذا تأمرهم أحلامهم ، حتى ملَّت الأسماع منه وصدئت الآذان لتكراره .

ليسوا سواءً . منهم أمة أخطأت الإجتهاد وتعجلت الحكم فلم يحالفها التوفيق ، وكان ما وصلت اليه جُهد المقلّ . فلا جناح عليها في هذه الحال ما دامت سليمة القصد والغاية رائدها البحث عن الحقيقة الخالصة . فينبغي علينا ألا نجحد فضل هؤلاء الباحثين الطيبين رغم إختلافنا معهم في الرأي . فلئن كان منهجهم العلمي لا يعجب البعض لأنه موضوعي جداً ولأنه يعتمد كثيراً على التحليل والتدقيق والمقارنات المتعجلة والأحكام غير المتعمقة ، أو لأنه يستند كثيراً الى اللمحات البعيدة واللوامع الرائعة أكثر من اهتمامه بالوثائق والقواعد المنهجية الدقيقة ، ويحفل بالفـروض أكثر مما يُعنى بالوسائل الكفيلة بتحقيقها على أصول راسخة ، فإن بعض تعميماتهم السريعة ونظراتهم اللماحة التي بدت لأول وهلة مسرفة في الخيال انما يشفع لها صـدق عزيمة اصحابها واستعدادهم للرجوع عنها عندما يظهر لهم بطلانها . فليست عندهم أفكار عنصرية مبيتة مدمرة . هذا

فضلاً عن أن دراساتهم قد وجهت البحث وجهات جديدة ودفعته في آفاق جديدة ما كان يمكن الإنتباه اليها لولا منهجهم العلمي وأقباسهم الوضاءة التي جاء الكثير منها موحياً أكثر منه مقنعاً . وان تقدم البحث العلمي في حاجة إلى كلا النوعين من الباحثين : أصحاب المنهج الدقيق واصحاب النظرات اللماحة والأقباس الوضاءة والفروض الخصبة . فإن هؤلاء وأولئك سيظلون أعلاماً خفاقة في طريق البحث الدقيق العميق والفهم الناقد والإدراك الموحي والوجدان المشبوب . إنهم ذخرنا ورصيدنا وحملة مشاعلنا في أوروبا ـ التعصب والإضطغان على العرب ، أوروبا المصابة بعقدة العرب .

نحن لا ننكر أن الإنتاج الحقيقي للعرب في ميادين المعرفة المختلفة ـ لم يبدأ بالفعل إلا بعد مرحلة النقل . وهذا أمر طبيعي له سوابق ولواحق متعددة . فإن عصر النهضة الحقيقي في أور با لم يبدأ هو أيضاً إلا بعد اطلاع علمائها وقادة الرأي فيها على آثار الحضارات السابقة ، وفي مقدمتها الحضارة اليونانية والرومانية والعربية ، ونقلها إلى لغاتهم المختلفة . ولا تثريب عليهم في ذلك . فقيمة الحضارة اللاحقة وجوهرها وغائيتها ليست فيما ورثت من الحضارات السابقة بقدر ما هي في طريقة إغناء ما ورثت وتغييره وتكييفه بحسب أغراضها وانماط الحياة فيها . أجل إنها ليست فيما أخذت بقدر ما هي فيما أعطت وأضافت إلى تراث الإنسانية من عناصر وآثار وثمرات ومنجزات عمَّ نفعها وانتشرت في كل أفق خيراتها ، وكانت بذوراً جديدة لحصاد وافر وجَنْيٍ جديد .

ولم يُقصِّر العرب في ذلك أبداً بل لقد أضافوا إلى ما ورثوه كل خصب وجديد وأغنوا به الحضارة الإنسانية وأعطوها دفعاً جديداً . فالنَّقَلة الذين يعزو إليهم السطحيون يقظة الفكر العربي إنما كانوا مجرد أدوات مسخّرة لأغراض سادتهم الذين استقدموهم من أقصى الأرض ، وأغروهم بالمال والجاه والسلطان ، وتسابقوا في اقتنائهم والتجمل بهم ، وأنفذوا البعوث والسفارات للبحث عن الكتب في الأقبية والزوايا في المكتبات العامة والخاصة ، وعقدوا المعاهدات لحيازتها ، وجعلوا الحصول عليها شرطاً لوقف القتال وجزءاً من غنائم الحرب . إنها العوامل الذاتية هي التي كانت وراء حركة النقل القوية الجبارة والجادة في الإسلام ، وهي التي جعلت من النَّقَلة مجرد أدوات مسخرة للعمل

ووسائل للتعبير عن الذات العربية الطالعة ، الذات الواعية الحرة المستقلة التي تتدفق بالقوة والنشاط وتجيش بالإمكانيات الفياضة والطاقات المتجددة ، والتي تريد أن تتحقق وتفرض نفسها وتصنع تاريخها بالعرق والدم والأعصاب ، فتركب كل صعب ، وتدرك كل متن ، وتذلل كل نشز ، وتقضي على كل عائق ، وتنطلق كالسيل لا يقف في وجهه شيء . ولا غرو من ذلك ، فهي ذات متوقدة متوهجة تتفجر بالطاقة والإشعاع . إنها حياة متجدّدة وقوة جياشة متوثبة تتدفق من بحر مزبد ، وأبدٍ لا يُحدّ ، وموج لا يكاد يُقبل حتى يرتد . ولولا أنها كذلك لما حققت ما نطلق عليه اسم (المعجزة العربية) .

لقد وجدت هذه الذات غذاءها الدسم المتنوّع في آثار الأمم الأخرى العريقة في العلم والحضارة ، فأقبلت عليها تلتهمها التهاماً . وبعد مرور نحو قرنين أو يزيد من المواجهة الحضارية والإختلاط الثقافي ، تغير كل شيء في هذا المجتمع الجديد دون أن يتشرذم فكرياً أو يتشتت حضارياً . لقد تمالك على نفسه وظل محافظاً على وحدته ، ولم يتوقف يوماً عن العطاء والمزيد من العطاء . بل إنه حتى في المرحلة التي يطلَق عليها عادة اسم (مرحلة الأخذ والتمثيل) والتي تنتهي حتى أواسط القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) تقريباً ، تمكن المسلمون والعرب من تأسيس علوم كثيرة كالعروض والنحو وعلم أصول الفقه وعلم الكلام وعلم الجبر والكيمياء والطب والموسيقى والفلك . كما اهتموا في هذه المرحلة أيضاً بإجراء قياس دقيق لمحيط الأرض على غير طريقة إيراتوستانس التي كانت مأخوذة عن البابليين غالباً والتي كانت درجة صوابها مرهونة بالصدفة ، وكتبوا في جغرافية الأرض ، ودرسوا النتائج التي انتقلت إليهم من الإغريق ، كما توسعوا في قياساتهم للكرة الأرضية ، فأدخلوا مناطق جديدة لم يشملها القياس من قبل . وفي هذه المرحلة أيضاً استيقن العرب أن حسابات بطلميوس وأرصاده مغلوطة وأن من الواجب المبادرة إلى تصحيحها وإعادة النظر فيها واستدراك ما فيها من نقص . كذلك تمكنوا في هذه المرحلة من قياس اختلاف أوجه القمر وإرساء قواعد علم الجبر واستعمال مناهج حسابية غير معروفة عند الإغريق . . . وأمسك عند هذا الحد قبل أن يجرفني اغراء الإستطراد إلى أبعد من ذلك والحديث عن أشياء لها مكان آخر غير هذا الكتاب .

وهكذا فلا صحة على الإطلاق لزعم البعض (ريتر Riter مثلًا) أن جهود

علماء العرب المسلمين قد اقتصرت على نقل ما تعلموه من أساتذتهم اليونان إلى الأجيال التالية بوفاء وأمانة . إن هذا الزعم يتجاهل قبل كل شيء ذلك الفارق الكبير بين ما وصل إليه الأخلاف المسلمون في العصور المتأخرة وما كان شائعاً عند الأسلاف قبلهم بعصور طويلة . فقد أدى بهم طول البحث والتنقيب في مصادر القدماء إلى نتائج هامة لا يجوز أبداً المساواة بينها وبين ما وجدوه في تلك المصادر الأصلية . فالموروث الثقافي الذي خلّفه العرب شيء ، والموروث الذي انتقل إليهم شيء آخر . إنهما شيئان مختلفان كمّاً وكيفاً ، ولا يُسوّي بينهما إلاّ جاهل بهما معاً أو متعصب على أحدهما .

كذلك لا أساس للقول بهامشيّة الظاهرة العلمية في الحضارة العربية الإسلامية . وهذا زعم خاطىء أوحى به وقوف أهل السنة ـ أو جمهور كبير منهم ـ موقف المعارضة ـ بل الرفض أحياناً ـ من علوم الأوائل . يا لله ! إنْ قِبَلَ المسلمون علوم الأوائل رماهم الناعقون والمرجفون بتهمة التقليد ، وان عارضوها ونقدوها وصححوها وعدّلوها وكان لهم رأي مخالف لليونان فيها ، أو وصلوا إلى نتائج لم تخطَر لليونان على بال ، قالوا إن العرب لم يفهموا اليونان أو إن العلم العربي يعيش على هامش الحضارة الإسلامية . نحن في حيرة من أمركم يا هؤلاء ! هل تريدون أن يكون العرب أسرى آلهتكم اليونان أم أن ينخلعوا عنهم ويتحرّروا من ربقتهم ويفكروا كما يشاؤون ؟ عجيب أمركم يا هؤلاء ! هذا كلام له خبيء ، معناه كراهية العرب ، والحقد على العرب . فلو جاؤوكم بكل آية فلن تؤمنوا . قد بدت البغضاء من أفواهكم ، وما تخفي صدوركم أكبر .

ثم من قال لكم ان أهل السنة هم المسلمون وحدهم واللسان الناطق باسمهم ؟ أو تظنون حقاً أنهم قد صُبوا في قالب واحد هو قالب أهل السنة فقط كأن الله لم يخلق سواهم ، وكأن الإسلام مقصـور عليهم وحدهم ؟ حتى الكاثوليكية فإنها ـ رغم ما عرف عنها من تعصّب وإرهاب ديني وكهنوتي على رأسه البابا الذي ينطق وحده باسم المسيحية الرسمية ـ قد قامت فيها معارضة وقامت فيها تيارات وانشقاقات وانقسامات جعلت من الكنيسة الواحدة كنائس متعددة لم يستطع الجهاز الكهنوتي كله احتواءها أو القضاء عليها رغم ما كان يتمتع به من جبروت وسلطان . فإذا كان أمر الكاثوليكية كذلك فما يمنع الإسلام الذي لا

يعرف نظام الكهنوت ولا سلطة لرجال الدين فيه ـ بمن فيهم الخليفة نفسه ـ إلاّ سلطة التوجيه والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا إرهاب ولا إكراه ـ أقول فما يمنع الإسلام أن تقوم فيه معارضة وأن تقوم فيه حركات وتيارات وانشقاقات وانقسامات لا حصر لها ؟ فالساحة هنا خالية من سلطة الكهنوت ، والظروف مهيأة لذلك أكثر جداً مما في المسيحية ؟ إن هذه الخلافات في نظري فيها إثراء كبير للفكر الإسلامى . إنها دليل غنى وتنوع . إنها أمارة من أمارات الصحة والعافية وليست أبداً عرضاً من أعراض المرض . نعم كان هناك في عصور الإنحطاط تمزق وتفسخ ،ولكن التمزق والتفسخ شيء ، واختلاف الرأي وتعدّد وجهات النظر شيء آخر . وقد فحصنا أهمية هذه الخلافات من الوجهة السَّيْكوسوسيودينامية ، وكيف انبثق منها الفكر العربي الإسلامي والخدمة الكبيرة التي أسدتها إلى تطور الفكر الإسلامي العربي العظيم ! وذلك في القسم التطبيقي من كتابنا (الفكر العربي في مخاضه الكبير) .

إن معارضة أهل السنة لعلوم الأوائل ، وهي معارضة لهم كل الحق في إبدائها ـ كانت مقصورة عليهم وحدهم ولم تكن تعبر عن رأي جميع المسلمين . ثم إنها كانت معارضة لفظية ، بمعنى أنها لم تكن مصحوبة بمواقف إرهابية من قِبَل السلطات الحاكمة . فالحكام لم يضطهدوا المشتغلين بالعلوم الوثنية ولم يسعوا للقضاء عليهم أو على علومهم ، بل لقد شجعوهم عليها ووصلوهم بالهبات والعطايا . فقد تبنى هؤلاء قضية العلوم القديمة ، ولم يدخروا جهداً ولا مالاً للبحث عنها في جميع مظانها ونقلها إلى لغتهم ، وفتحوا أبوابهم وصدورهم وخزائنهم لا للمشتغلين بها من أبناء ملتهم المسلمين وحدهم ، بل لجميع الملل والنحل والعقائد والديانات ، سواء آمنوا بالله الواحد أو بآلهة متعددين ، أو لم يؤمنوا بإله البتة .

يا للسماحة ! تُرى هل عرفت ذلك شعوب أخرى غير الشعوب التي قد دانت بالإسلام أو عاشت في ظله أو تفيأت بفيئه ؟ ومتى ؟ في صميم القرون الوسطى . لقد كانت عقوبة الإحراق بالنار في أوروبا تنتظر كل من تسول له نفسه الإشتغال بأي علم غير العلوم التي تسمح بها الكنيسة وكتبها الصفراء . حتى الكتاب المقدس لم يكن يباح لأحد أن يتصدى لشرحه أو الإجتهاد في فهمه بل يجب على كل أحد الإلتزام الحرفي بما ورد على لسان آباء الكنيسة المعصومين عن

الخطأ . ان أوروبا حديثة العهد بالتعايش بين الأديان والمذاهب ، كما أن التعصب لم يتسرب إلى المسلمين إلاّ في عصور التمزّق والتفسخ الأخيرة .

●

إن الموروث العلمي القديم كان قبل الإسلام موزعاً في مراكز متعددة ، فلم يكن من القوة بحيث يتم الإتصال بين هذه المراكز اتصالاً إيجابياً فعالاً ينتج عنه تقدم الحركة العلمية تقدماً سريعاً مطرداً . فإذا بالإسلام بين عشية وضحاها يربط بين هذه المراكز ويعزز إمكانيات الإتصال والتفاعل فيما بينها . ولو لم يكن للمسؤولين ـ وعلى رأسهم الخليفة نفسه ـ اهتمام صادق بالعلم والعلماء لتعرقلت كثيراً مسيرة الثقافة العلمية في بلاد الإسلام . لقد كان بإمكانهم أن يقفلوا هذه المراكز كما أغلق لأمبراطور زينون مدرسة الرها سنة ٤٨٩ م والأمبراطور جوستينيان أكاديمية افلاطون في أثينا سنة ٥٢٩ م بحجة مخالفتها لتعاليم الكنيسة المقدسة ، ولكنهم لم يفعلوا .

ولئن دل هذا على شيء فإنما يدل على بطلان القول بأن العلوم العقلية ظلّت على هامش الحياة الأسلامية وان نشاط القلّة المشتغلين بهذه العلوم لم يتعدَّ في الغالب قصور الخلفاء والأمراء والحكام . فانتقال العلوم القديمة إلى العرب لم يكن مجرد انتقال سلبي خامل ، وإنما كان نتيجة سعي إيجابي ومحاولات دائبة مستمرة للحصول على نفائس اليونان وغيرهم من الشعوب الأخرى ذات التقاليد العلمية والعقلية العريقة ، والإستحواذ عليها بأي ثمن كما تقدم معنا في فقرة سابقة . وقد أسفر ذلك عن نتائج في غاية اوهمية ، لا بالنسبة إلى الحضارة العربية الإسلامية وحدها ، بل أيضاً بالنسبة إلى الحضارة الإنسانية قاطبة . ذلك بأن العلوم التي دُوّنت قبل الإسلام بلغاتها الأصلية قد صُبّت كلها الآن في بوتقة لغة واحدة هي اللغة العربية . ففضلاً عن الكسب الكبير الذي حققته اللغة التي خرجت لتوها من الصحراء فانتقلت من لغة السيف والبعير والنخيل إلى لغة العلم والفلسفة والحضارة ـ أقوال فضلاً عن هذا الكسب العظيم فقد تحقق كسب آخر قد لا يقل أهمية عن الأول وهو حدوث تركيز ثقافي إنساني هائل لم يسبق له مثيل سواء في دار الإسلام أو في أي بلد آخر من بلاد العالم الواسع الكبير .

إن الحركات الفردية الهامشية لا يُكتب لها النجاح بل تظل جسماً غريباً ناشزاً يضر أكثر مما ينفع . إن أي حركة من هذا القبيل لا تؤتي ثمارها حقاً إلاّ بقدر ما تندمج في حياة الجماعة وتعبر عن تطلعاتها وآمالها وتكون جزءاً لا ينفصل عن أفراحها وأتراحها ، وهمومها وهواجسها . وإذا صح ان نشاط القلّة المشتغلين بالعلم من العرب لم يتعدَّ قصور الخلفاء والأمراء والحكام كما يدعي القائلون بهامشية العلم العربي فمعنى ذلك ان هذه القصور كانت على الأقل وحدها مسرحاً للعلم وحارسة له ، وبالتالي إنها ستكون عاملاً هاماً من عوامل انتشاره وتشجيعه وليست عقبة في طريقه . فنِعْمَ العلم ينطلق من القصور ! وهذا لعمري شرف كبير لحكام العرب يدل على مدى نضجهم واستنارتهم وعدم وقوفهم حجر عثرة في طريق تقدم العلم والعلماء . فسلامة الرأس تدل على سلامة الأعضاء ، بئس الحاكم يقيم دولة الجهل ، ويخنق أنفاس الفكر ، ويحارب حرية الرأي والعقيدة ، كما كان حكام أوربا القرون الوسطى !

فلا هامشية ولا سطحية ، وإنما هي تيارات واتجاهات ومواقف تخترق الحياة العربية والحضارة الإسلامية والواقع الإجتماعي والعقلي الجديد من أقصاه إلى أقصاه ، وتعصف به طولاً وعرضاً وعمقاً حتى لا يبقى فيه جناح بعوضة لم يهزه الحدث الجديد ولم ينتفض بالواقع الفكري الجديد . فمن العجيب أن نحكم بالهامشية على حركة بارزة قوية كهذه الحركة التي لم تكن يوماً من الأيام حركة آنية عابرة ، بل لقد استمرت مئات السنين ، وظهر المشتغلون بها ـ وما كان أكثرهم آنذاك ـ في أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي ، وكانت لهم أصداء قوية تجاوبت في جميع جوانب الحضارة الإسلامية وما تضمنته هذه الحضارة من مثل الحرية وقيم الحق والخير والجمال .

إن اتصال هذه الحركة الفذة واستمرارها قروناً عديدة داخل جدران المدارس أو خارجها ، بل واحتفاظها المدهش بالمستوى العلمي الرفيع أجيالاً طويلة ، خارج مدارس الدولة ومؤسساتها ، ووصول العلوم فيها إلى درجة عالية نسبياً من التجريد والتعقيد والنضج بعد حركة الترجمة بوقت قصير ـ إن كل أولئك فيه تكذيب للقول بهامشية الحركة العلمية في بلاد الاسلام . وقد ظلّت هذه المسيرة مستمرّة حتى القرن الخامس عشر . وبينما كان علماء الرعيل الأول أكثرهم من المترجمين النساطرة واليعاقبة والصابئة السريان ، إذا بهم بعد مضي وقت قصير

على المسيرة الطويلة ، من العلماء العرب المسلمين الأقحاح . فالمسيرة مسيرتهم هم ، ولم يكن السريان سوى مجرد أدوات عابرة فيها .

أرأيتَ إلى هذا التدرج الطبيعي في كل شيء في هذه المسيرة : الانتقال من البساطة إلى التعقيد ، من السطحية إلى العمق ، من أيدي السريان إلى أيدي «العربان» . ؟ أفلا يدل كل أولئك على فشل التفسير الهامشي ؟ فإذا أضفنا إلى هذه العوامل عوامل أخرى سنصادفها كثيراً في تضاعيف هذا الكتاب والكتب التي تليه أدركنا مدى التهافت والإسفاف الذي ينطوّي عليه قول القائلين بهامشية الظاهرة العلمية في بلاد الاسلام . ولكن ما العمل ؟ فلو جئناهم بكل آية فلن يؤمنوا بها . فليس هناك من يقبل منهم بتعديل صورة وضع الاغريق التي اعتادوا عليها ، كما ليس هناك من يرضى منهم بتعديل صورة وضع العرب التي التصقت بأذهانهم وترسخت في عاداتهم وتقاليدهم . اللهم إلّا إذا استثنينا قلة ضئيلة منهم تطهرت من الأدناس والأرجاس ، وتخلصت من الأوشاب والأوضار والرواسب ، حتى لم يكن لهم دون الحق مطلب ، ولم يبقَ لهم سواه مطمع . وهيهات ان يقدر على ذلك إلّا الآحاد . إن ألفين وخمسمائة من السنين على الأقل ، قد سبقت عصر اليونان ، وهي حافلة بالأعمال والمآثر التي إنما تضع اليونان في منتصف تاريخ العلوم لا في أوله ، كما ان سبعمئة سنة أو تزيد قد سبقت عصر النهضة في أوربا ، فيها من الانجازات والمآثر ما يضع العرب في منتصف الطريق بين اليونان والأوروبيين . ولكن أولئك الذين في قلوبهم مرض لا يصدعون بالحق . إنهم لا يريدون أن يتنازلوا عن حقوق السيادة العقلية لليونان على العالم بأسره . فلا فضل لأحد على اليونان ، كما لا فضل لأحد على أوربا إلّا اليونان ، وما أوروبا سوى امتداد لليونان ، وثمار يانعة من دوحة اليونان . . . ! بهذا تأمرهم أحلامهم . لقد مَرَدُوا على التعصّب والاستعلاء والأنانية واحتقار الشعوب . هكذا كان دأبهم في القرون الوسطى ، وهو دأبهم اليوم أكثر من أي وقت مضى . وسيظلون كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها . فما في الصدور لا تغيره السطور ، وما في النفوس لا تؤثر فيه النصوص ، إلّا قليلاً منهم ،فاعفُ واصفح ولا تأسَ على القوم الظالمين .

●

لقد مضى الهنود ومضى الفرس ومضى الاغريق في أعقابهم ، ولكنهم تركوا

شيئاً لا يمضي ولا يزول ، بل يظل باقياً لا يبلى . لقد تركوا ذَوْبَ عقولهم وأعصابهم لمن جاء بعدهم ، تركوا علمهم وفلسفتهم وأدبهم . تركوا خوالد لا يمحوها كرُّ الدهور ولا مرّ العصور . . . والمطلوب الآن ايجاد المناخ الصالح لاستنبات هذه الخوالد وإخصابها وتفجيرها . المطلوب إنتقال هذه البذور ، لأن إنتقال البذور ـ إذا صادف تربة خصبة ـ فإنما يعني تحقيق نصف أسباب الحضارة ومقوماتها ، فرفقاً بالنصف الآخر !

وكان العرب على مستوى الحدث الكبير . لقد كانوا معه على موعد ، وأعظِمْ به من موعد ! لقد لبوا النداء ، وترددت تباشير هذه التلبية وأهازيجها في الآفاق . لقد وجدوا ضالتهم المنشودة وأعدّوا أنفسهم لِلقاء العظيم . لقد أقبلوا على علوم الأوائل وعبوها عبّاً ، ووقفوا منها موقف الوارث الشرعي . فنِعْم الوارث ونِعْم الموروث !

أجل لقد أقبل العرب على هذه العلوم لإنتاج حياتهم العقلية وإنجاب المفكرين والفلاسفة والعلماء وأرباب الرأي والمشورة . فالفلسفة الإسلامية ، والعلم العربي لم يخرجا إلى الوجود إلّا من الاتصال المباشر بين الإسلام والنزعات الفكرية الإسلامية وبين ثمرات الفكر الأجنبي ومناهج العقل الفلسفي الأجنبي ، ولا سيما اليوناني . إن كثيراً من المفكرين الإسلاميين قد نبغوا في عصر ترجمة الثقافات الأجنبية أو بعده بقليل . إن من الطبيعي أن تتغذى عقولهم وتتكوّن متأثرة بهذه الثقافات بحيث لا يكون تفكرهم مبتكراً من كل وجه . ولكن أي عيب في هذا ؟ فاللاحقون هم على الدوام عيال على السابقين ، وهذا لا ينتقص منهم شيئاً البتة ، فلا تثريب عليهم فيه . إن النقل لا يقل أهمية عن الإبداع ، وذلك لأن الإبداع لا يستتم بغير لقاح، مهما كان هذا اللقاح ضئيلاً . وبهذا المعنى ، فالثقافات جميعاً تلفيقية ضرورةً في حداثة عهدها ، إبتكارية فيما بعد ، لأن التعليم إنما يبدأ دائماً من التقليد ، ثم يستقل بنفسه بعد ذلك إذا كان على ذلك من القادرين . ومن العبث أن يحاول المرء إبداعاً قبل أن يتلقى تعليماً جدياً . فإذا ما بلغت الأمة أشدها وكانت في مستوى ما هو متوقع منها ، طبعت بطابعها جميع أعمالها وآثارها ، وصاغت شخصيتها المستقلة الواعية . وكما أنه لا توجد سلالة صافية ، كذلك لا توجد ثقافة (أو حضارة) خالصة لم تتأثر بغيرها ،

صديقاً كان أو عدواً . فلا شأن للصداقة أو للعداوة في منطق التفاعل الحضاري . فكما ذكرنا من قبل ، ليس ثمة مَثَل على حضارة استقلت بذاتها أو نشأت على حيالها . فلا بُدّ لها من دم جديد يسري فيها باستمرار ، وإلاّ دبّ فيها الإنحلال والوهن . إن الحدود الثقافية غير الحدود الجغرافية . فـإذا كانت هذه الأخيرة تنحصر في رقعة ضيقة من المكان ، فإن الحدود الثقافية لا يحصرها زمان ولا مكان . ولا غرو في ذلك ، فالثقافة إنما هي انفتاح وامتداد وتوسع وانتشار وراء الحدود والسدود بحكم قوتها الذاتية وفاعليتها الخاصة . انها تنتشر وتنتشر تبعاً لقواها الباطنة من جهة ، ولاستعداد غيرها لتقبلها من جهة أخرى . وقد اهتم علماء الاجتماع والحضارة بهذه الظاهرة التي يمكن تسميتها(الإختراق العناصر الحضارية) وجعلوها منطلقاً لتفسير جميع التغيرات الحضارية التي حدثت في التاريخ . وأسرف بعضهم في هذا المذهب الإنتشاري diffusionisme فردّوا جميع الحضارات إلى موطن واحد (وادي النيل ، أو بلاد ما بين النهرين ، أو شواطيء بحر قزوين) انطلقت منه بمحض الفعل الإنتشاري وحده .

●

حذارِ الأحكـام الغالية المسـرفة في التعميم . فإنه ليس من اليسير في مجال العلوم الانسانية أن يُقال على وجه التحديد إن فلاناً كان أول من نادى بكذا، أو إن فلاناً قد تأثر به وأخذ عنه . إذ ينبغي علينا في مثل هذه الأحوال أن نحسب حساباً لوحدة قوانين الفكر وتوارد الخواطر وبالتالي إمكان وجوه الشبه بين باحثٍ وآخر دون أن يأخذ أحدهما عن الآخر . فكما أنه ليس بين العلوم علم واحد يصح أن يقال أنه نشأ وتكوَّن دفعة واحدة ، وإنما تضافرت عليه جهود كثيرة متلاحقة ، كذلك ليس من الضروري أن يكون لكل فكرة أصل واحد صدرت عنه . ففي ذلك إنكار لإمكان توارد الخواطر والأفكار ، ورفض لفاعلية العقل وسَوْرته وتلقائيته الواعية المستقلة ، ومحو للخصائص الفردية للأشخاص .

فهناك عند كثير من الباحثين في الفكر العربي غلو وشطط في تلمس الأشباه والنظائر مع افتقار إلى الأسانيد المكتوبة أو الشفوية للدلالة على حصول تأثير وتأثر . إن فكرة التأثير والتأثر هي كما نعلم أساس كل بحث علمي دقيق جدير بهذا الاسم ، ولكنها من أخطر المزالق في يد الباحث الذي يتصدى لدراسة التيارات الفكرية والنظريات العلمية والفلسفية . فإن الفكر الانساني في محاولته

الوصول إلى الحقيقة لا يخضع لقانون العلة والمعلول خضوع المادة الجامدة . فلا يكفي ظهور فكرة من الأفكار في فلسفة ما ، ثم ظهور هذه الفكرة نفسها أو ما يشابهها في فلسفة أخرى أو نظام فكري آخر ، للحكم بأن الثانية متأثرة بالأولى ، إلّا إذا وُجدت دلائل وقرائن مستمدة من الصلة التاريخية بين الفلسفتين ، وهذا أمر لا تسمح به المناهج الموضوعية بطبيعتها من التثبت منه ، فضلاً عن أنه كثيراً ما تظل هناك فروق جوهرية بين الرأيين اللذين يقال بتأثر أحدهما بالآخر . وفي رأيي ان قضية إنتقال أفكار فلسفية من نظام فكري إلى نظام آخر ، هي أعقد من أن تكون مجرد عملية مقارنة نصوص . فإن وجود قرابة بين طائفتين من الأفكار لا تدل دائماً على وجود تأثير وتأثر ، ولذلك ينبغي على الباحث هنا أن يشير إلى الظروف التي يجري فيها اللقاء الفكري ، وأن يبرهن على احتمال إنتقال فكرة ما من فلسفة ما إلى فلسفة أخرى . وهكذا فلا بد أن تؤخذ أقوال هؤلاء الذين يتلمسون الأشباه والنظائر بأشد الحذر ، لأنهم إنما تلمسوها تلمساً قد لا يخلو من الإفتعال والإقتسار ولإعتمادهم على مجرد التشابه العام دون أن يتثبتوا بالوثائق الكتابية أو النقول الشفوية الصحيحة أن المتأثر قد اطلع ضرورةً على من يُقال إنه أثر فيه وعرفه ونقل عنه . أما أن يقفز الباحث ـ الذي يحمل في ذهنه أفكاراً معينة يريد إثباتها كيفما اتفق ـ من مجرد التشابه إلى توكيد عملية التأثير والتأثر ، فأمر يجافي التحقيق الدقيق والمنهج العلمي السليم .

إن حكمة الحياة قد انتقلت عبر العصور من فمٍ إلى فم ، وفي أحيان كثيرة قد أتت الحكمة نفوساً متعدّدة كلاً على حدة ، فأومضت لهم بما يشبه النَفْث في الرَّوع وانثالت عليهم بالمعاني والأفكار التي تتشابه وتتقارب قليلاً أو كثيراً . هذا هو الالهام الذي يهبط[1] على عدد من المفكرين يعيشون في بلاد وأجواء تتشابه فيها المؤثرات والعوامل الاجتماعية والظروف النفسية ، ناهيك بوحدة قوانين الفكر للناس جميعاً في كل زمان ومكان . لذلك فإن مؤرخي الحضارات قد بدأوا منذ وقتٍ قريب يقرُّون بإمكان قيام أفكار متشابهة في دوائر فكرية متباعدة مستقل بعضها عن بعض ، وذلك تبعاً لنظريتهم المعروفة بنظرية التطور المتلاقي The

(١) اعتذر عن هذه الألفاظ الصوفية التي إنما اضطررت إليها اضطراراً لما فيها من قوة تعبيرية كبيرة لا توجد في غيرها من الألفاظ الأخرى غير الموحية .

theory of convergent Evolution . ذلك بأن كشوفاً علمية كثيرة ـ متطابقة أو متشابهة ـ قد وصل إليها باحثون مختلفون في أماكن متفرقة في وقت واحد تقريباً ، . والتفسير الذي يؤخذ به اليوم يتلخص في أن انتهاء مذهبين أو أكثر إلى نتيجة واحدة أو نتيجتين متشابهتين أو متقاربتين لا يعني دائماً أن أحدهما متأثر بالآخر ، بل قد يعني أيضاً ان صاحبي هذين المذهبين قد خضعا لظروف وأحكام نفسية واجتماعية و . . . واحدة ومتشابهة ، لذلك لا بد أن يفضيا إلى نتيجة واحدة أو إلى نتيجتين متشابهتين أو متقاربتين . وقد حدث ذلك في الماضي . فقد كان هناك ماضٍ مشترك من المعضلات والمشاكل ، فعمد الرواد الأوائل إلى إيجاد حلول واحدة أو متقاربة لها ، كيف لا والفكر الانساني واحد ، والمصادر التي استقوا منها المعلومات واحدة أو متقاربة ، والضرورات الحياتية التي واجهوها واستمدوا منها إلهامهم واحدة أو متقاربة[1] . ويحدث ذلك اليوم باستمرار . فنظرية التطور يعود أمر اكتشافها إلى اثنين من الانكليز كان أحدهما ـ وهو دارون ـ أسبق من أخيه إلى إعلانها فنُسبت إليه لا إلى وولاسٍ . كما أن الأوكسجين الذي يُنسب إلى لافوازييه الفرنسي اكتشفه أيضاً بريستلي الانكليزي وشيل Scheel الألماني . وفي المجال الطبي . يُصر الألمان على تسمية المرض الناجم عن فرط نشاط الغدة الدرقية باسم (داء بازدو Basedow) أما المصادر الانكليزية فإنها تسميه (مرض غريفز Graves) لإعتقادها أن غريفز كان أول من وصفه . وهكذا فعملية توارد الخواطر والأفكار ليست مقصورة على زمن دون آخر . فإذا كانت تحصل اليوم فقد حصلت في الماضي ضرورة . فالماضي أشبه بالحاضر من الماء بالماء كما يقول ابن خلدون .

فمن العبث إذن أن نرهق أنفسنا في تعقب أصول فلسفة فلان أو تصوفه أو كلامه ، ونحلّلها إلى عناصرها الأولى كما يفعل علماء الكيمياء ، أو أن نقتنص النظائر والأشباه كيفما اتفق ، لنقفز من ذلك كله إلى مصادر خارجية صرف ، غافلين عن الدور الذي تقوم به عقلية فلان أو روحه في التفكير والهضم والتمثيل . فليس من الجائز أبداً في هذه الحالة إهمال شخصية الفرد . فهو ـ لا النظائر والأشباه ـ مناط الحكم والتقويم . إنه كما قلنا مراراً يأتي أولاً ، والمصادر الخارجية تأتي بعد ذلك . وهذه المصادر ينبغي ألّا تؤخذ إلّا في خطوطها العامة لا

---

(١) انظر سارطون : تاريخ العلم ١/ ٦٥ .

في تفاصيلها وجزئياتها ، وذلك بقدر ما يتعلق الأمر بالعمالقة الذين يفتتون الصخر ويصهرون الحجر الجلمد ويستخرجون منه لبناً سائغاً للشاربين. أما الأقزام فلا شأن لنا بهم في هذه الدراسة . فما ينقلونه يشف بوضوح عن مصادره وأصوله . إنهم مقلدون تافهون لا يخلو منهم زمان ولا مكان .

●

فإذا كان المفكرون الاسلاميون قد استقوا مذاهبهم ونظرياتهم أو بعضها من ينابيع اليونان والفرس والهنود وغيرهم ، إلّا ان تفاصيل هذه المذاهب والنظريات هي من عمل المفكرين المسلمين أنفسهم . كما أن النتائج التي استخلصوها منها والأهداف التي كانوا يرمون إليها من ورائها ما جالت أبداً في أذهان أصحاب تلك المذاهب الأولين ، كلا ولا خطرت لهم على بال . فإن من يمعن النظر في المبادىء العامة يجد هناك اتفاقاً بين أرسطو وابن رشد ، أو بين أفلاطون والفارابي . لكن من يتغلغل إلى الأعماق وينظر في الغايات ، يجد اختلافاً كبيراً بين الفيلسوف اليوناني وتلميذه العربي . إن معرفة الغايات في تاريخ المذاهب الفلسفية وفهم معانيها عند أصحابها وتتبع النتائج التي وصلوا إليها ، كل أولئك لا يقل أهمية وخطراً عن معرفة الوسائل المؤدية إليها . وحسبنا أن نقول في هذا الصدد إن فلاسفة الاسلام بالرغم من تأثرهم بالأقدمين واعتمادهم عليهم فقد استطاعوا أن يبنوا صروحاً فلسفية لا تخلو من بعض النقص ، ولكنها على كل حال صروح هندسية منسقة البناء تدل على الدأب الطويل ، والجهد الجبار ، والمعاناة المستمرة ، والنفس التواقة إلى الخلود ، والإدراك الشامل لمعاني الأشياء .

وبعد ، فإذا كان من غير الممكن وقف تطلعات الفكر والقلب والوجدان إلى النضج والتكامل لدى العرب في إبان إنتفاضتهم العارمة ، وكان من المستحيل أيضاً الحؤول دون أن تنفذ إلى الحضارة الإسلامية تيارات مختلفة تلتقي فيها وتتفاعل وإياها ، فقد أنبت هذا اللقاء ثباتاً طيباً جديداً لا هو باليوناني ولا بالفارسي أو الهندي . . . إنه نبات عربي إسلامي له طابعه الخاص الذي لا يقل من شأنه أبداً إنه يساير بعض هذه التيارات أكثر من بعض ، وذلك لأن الفلاسفة الإسلاميين يخالفون اليونان وغير اليونان في المفاهيم والأدلة والغايات ، فضلاً عن تفاصيل المذاهب وجزئياتها . ولم يكن هذا الخلاف محصوراً في نطاق الدين وحده ، بل هو في بعض المسائل الكبرى خلاف عقلي منهجي من الطراز الأول كما

سنرى في حينه .

وكيفما كانت الأفكار الأجنبية التي تسربت إلى عقول المسلمين ، فإن هذه الأفكار لا تعدو أن تكون مادة سخية صاغوا منها عالمهم العقلي الخاص الجديد . وما كانوا ليستطيعوا أن يصوغوا هذا العالم بمعزل عما رسخ في عقيدتهم ووجدانهم وثقافتهم القرآنية والعربية . لقد صاغوه صياغة فريدة وأخرجوه على النمط الذي أملته ظروفهم الخاصة متأثرين بعالمهم النفسي الخاص . فلا يمكن لأي مسلم ـ صادق في دينه أو مفرّط فيه ـ أن يصور لنفسه عالمه العقلي دون أن تكون فيه ملامح من تصوره الديني .

وهكذا استطاع المسلمون أن يخلقوا لأنفسهم بيئة عقلية خاصة بهم ، وأن ينشئوا حياة فكرية مستقلة ليست هي حياة اليونان أو الفرس أو الهنود . . . إنها شيء من ذلك ولكنها أيضاً شيء فوق ذلك وأهم لهم من ذلك ، فيها من تلك الحيوانات بمقدار ما في الشجرة من البذرة ، ثم فيها بعد ذلك مجموعة من الطاقات والقيم والمواهب الذاتية التي تغذوها وتمدها بالنسغ ، حتى غدت دوحة وارفة الظلال طيبة الثمر ، تؤتي أُكُلَهَا كل حين .

ولا يسع المرء حقاً إلا أن يشيد بقدرة العرب على اختيار العناصر الصالحة من الأفكار الأجنبية التي صادفوها ، وتنسيقها وترويضها وإصلاح فاسدها ، وإكمال نواحي النقص فيها ، حتى انتهوا من ذلك كله إلى إقامة بناء جديد شامخ لا يمكن أن يوصف إلا بأنه عربي إسلامي . ولا بد للباحث الحصيف إذا تحرى الدقة والتمحيص أن يشهد بقيام تلك الوحدة والانسجام في التكوين الروحي ، وبقوة التكيف المدهشة التي تعرض العارية الأجنبية في ثوب إسلامي جديد وحلة عربية قشيبة .

وإذا أردنا أن نقف على مبلغ ما فعله العرب بتراث الأوائل ، وكيف سلكوا بإزائه ، وأي النتائج استخلصوا منه ، بل كيف تجاوزوه وأقاموا على دعائمه بناءهم الشامخ العتيد ، فما علينا إلا أن نقارنهم بالسريان الذين كانوا أسبق من العرب إلى تلقف هذا التراث ، وأقرب إليه منهم لحمة . ومع هذا فقد عجزوا أن ينجبوا ـ قبل إختلاطهم بالعرب المسلمين ـ مفكراً واحداً تصح مقارنته بالكندي والفارابي والرازي وابن سينا وابن الهيثم والغزالي والبيروني وابن رشد وابن خلدون وغيرهم . . . ويجب مقارنتهم أيضاً بالبيزنطيين الذين ورثوا حكمة

الأوائل لكنهم لم يقدروها حق قدرها ، فدفنوها في الأقبية والكهوف والسراديب ، حتى جاء العرب فانتشلوها وأخرجوها من جحورها في عملية إنقاذ نادرة في التاريخ . فالدولة البيزنطية لم تنجب طوال تاريخها مفكرين عظاماً من معدن مفكري الاسلام ، ولم تشهد قيام نهضة كتلك التي قامت في بلاد الاسلام . وإذا كان قد نبغ من هؤلاء وأولئك (السريان والبيزنطيين) من نبغ كحنين بن اسحاق والبتاني مثلاً ، فإنما يعود الفضل في ذلك إلى الظروف الموضوعية الجديدة التي جاء بها الاسلام وأتاح لهم فرص الحياة الخصبة فيها . وسنرى تفاصيل ذلك كله في كتاباتنا القادمة . فنحن هنا إنما نقدم المقدمات ونومض بالإشارات ، على أن نتولى التوسيع والتفصيل فيما بعد .

ولا غرو من ذلك ، فإن الفلسفة الإسلامية مثلاً رغم اعتمادها على الفلسفة اليونانية والفكر اليوناني ، ومع أنها إنما تسير في تيار التراث اليوناني ، إلا أن هذا التيار لم يجرفها عن مواقعها بحيث تنسى رسالتها ومهماتها . فقد جاءت أولاً وقبل كل شيء لتحلّ مجموعة من المشكلات التي واجهتها لأول مرة دون أن يسبق لليونان مواجهتها من قبل ، فعالجتها هي بعناصر عرف اليونان بعضها وأخرى لم يسمعوا بها . كما أن الفلسفة الاسلامية أيضاً قد شغلت بتفسير عدد من المسائل نبتت في جو الإسلام وفي زمن اختلفت فيه المُثل والقيم والمسؤوليات والآمال والآلام عينها أيام اليونان . كل أولئك كان من شأنه أن يغذو الشجرة الجديدة ويرتفع بها كالطود شامخة ندية .

إنها شجرة طيبة تتخير غذاءها بدقة . إنها دوحة وارفة الظلال ، أصلها ثابت وفرعها من السماء ، ولكنه فرع ليس له شكل هندسي منتظم . فنرى بعض الأغصان باسقاً متطاولاً في الفضاء له ظل ظليل وثمر مبارك ، وبعضها قميئاً قليل الجَنْي هو كل ما تسمح به حياة الدوحة ولا تسمح بسواه ، وبعضها بين ذلك . غير أن جميع الأغصان على تفاوتها تُسقى بماء واحد وتنظمها حياة واحدة ، وتخدم غرضاً واحداً مشتركاً ، هو تغذية الحياة العقلية والروحية في الاسلام وإرساؤها على قواعد ثابتة تكفل لها النمو والاستمرار والصمود في معركة تنازع البقاء .

وكذلك الحياة العقلية في الاسلام : ففيها أروع الذخائر وأجمل المفاخر وأثمن التحف ، كما فيها أيضاً ما دون ذلك . فيها العمالقة وفيها الأقزام ، وفيها من هم في منزلة بين المنزلتين . . . وذلك ينطبق على كل فرع من فروع المعرفة في

الاسلام ، بل على كل علم من علوم الدين والدنيا . أجل ، لقد بلغ التنوع أقصاه في تفكير المسلمين ووجداناتهم وأحاسيسهم . . . فإذا رأيتَ ثَم رأيتَ مراكز تشع بالعلم والفكر تتناثر في كل مكان ، فيها العلم وفيها الفلسفة ، وفيها الأدب والفن والتصوف ، وفيها التشريع والفقه ، بل فيها الزندقة والإلحاد ، وفيها الكفر والإيمان . . . . فقد كان العراق مثلاً مضطرَباً فسيحاً للفكر المختلف الأُكُل والألوان . كان فيه الفقه ، وكانت فيه الفلسفة ، وكانت فيه الفرق المتعددة . وكان الخوارج في باديته والشيعة في سواده . وكان فيه العلم بكافة ضروبه وأشكاله : ففيه علم النحو ينشأ وليداً ، ورواية الشعر تنتقل على ألسنة الرواة ، وإليه انتقل العلم اليوناني والحكمة الفارسية والتصوف الهندي والرهبانية النصرانية إلخ . . . وهكذا كان العراق مقصداً لكل طالب ، مستراداً لكل مذهب ، وبيئة خصبة نبتت فيها كل نِحلة . . . وما يسري على العراق يسري على الشام ومصر والأندلس ، على تفاوت في ذلك . وهكذا أنجبت الحضارة الإسلامية عدداً لا يُحصى من المذاهب والعلوم والرجال ، وحلّقت في جميع الميادين والحقول ، وسخّرت كل شيء لمصالح أهلها وخدمة الأغراض والمُثل والقيم التي يؤمنون بها .

وهذا الإنتاج الضخم لم يكن ليجري على هامش الحضارة ، بل لقد كان ينبع من جميع عروقها ، حتى لكأن كل خلية فيها تتداعى للعمل المشترك الكبير . هناك الفلاسفة ، وهناك العلماء ، وهناك الفقهاء ، وهناك الفنانون . . . هنالك الأفذاذ والعمالقة وهناك الصعاليك والأقزام . وما منهم إلاّ له مقام معلوم . كلٌّ عرف وجهته وطريقه .

ولا يسبقنَّ إلى حدسك أن الحضارة الإسلامية العربية ـ وهي على هذه الخطورة ـ ينبغي أن تكون كالحضارة اليونانية سماتٍ وأوصافاً وخصائص . كلا . فإذا كانت الفلسفة هي أعظم أمجاد هذه الحضارة الأخيرة ، فليس معنى ذلك أن الفلسفة يجب أن تكون عنواناً لجميع الحضارات ومعياراً لتقدمها في كل زمان ومكان . فلكل حضارة مذاقها ونكهتها ، ولكل جضارة أمجادها وآفاتها . والمجد لا بدّ له من عمالقة أوتوا حظاً غير قليل من عمق التفكير وأصالة الرأي وقوة القريحة يستطيعون به مواجهة عالم الأذهان وعالم الأعيان . ان أعظم مجد تحققه الحضارة هو المجد العقلي ، لكن المسلمين بدلاً من أن يحققوا هذا المجد في

الإستغراق في عالم الأذهان الذي كان أكبرَ همّ اليونان وشغلهم الشاغل ، فإن الحضارة العربية التي لا تقل عن الحضارة اليونانية تعلّقاً بالمجد العقلي - بل يمكننا القول أن المجد العقلي كان عنواناً واحداً فقط من عناوينها المتعددة - لم تستنفد هذا المجد في متاهات العقول ومسارح الأحلام كما فعل أفلاطون وأرسطو مثلاً ، بل لقد تفتحت على آفاق كثيرة من آفاق الحياة العقلية ولم تقتصر على أفق واحد بعينه هو أفق الفلسفة الميتافيزيقية . وآية ذلك نهضة العلوم الطبيعية المختلفة وازدهارها في بلاد الإسلام في صميم العصور الوسطى[1] . لقد استغرق التأمل الفلسفي مفكري اليونان حتى أغفلوا النواحي الأخرى أو كادوا ، لكن عالم الأعيان يتطلب حلولاً لمشاكل أشد شكيمة من مشاكل عالم الأذهان ، لأن معالجة الأفكار - ولا سيما في تلك العصور - تظل أسهل مراساً وأسلس قياداً من معالجة الواقع العاتي المتمرد . ومع ذلك فإن العرب لم يقصّروا في إنجاب نصيبهم الكامل من الفلاسفة الخلص الذين استمرأوا الحياة في عالم الأذهان فقبعوا فيه وغلّقوا من دونهم الأبواب . فالحياة العقلية ليست حِكْراً على الفلاسفة وقفاً عليهم وحدهم ، ولا تُقاس الحضارة بعدد الفلاسفة فيها . ففنون الحضارة كثيرة ، والتنوع أمر ضروري في الحضارات الراقية ، وجزء لا ينفصل عن حياة الأمم والشعوب التي اكتمل تنظيمها وبلغت درجة عالية من النضج . وإنما يرجع إلى ظروف الزمان والمكان والوضع الحضاري والمستوى العقلي والمرحلة التاريخية والحاجات الروحية الإقتصادية ، أن تغلّب ظلالاً على أخرى ، وأن تعطي للحياة مزاجاً تنفرد به حقبة معينة من الزمن ، فإذا ما تغيرت هذه المعادلات تغيرت الظلال وتغير المزاج ، وبالتالي اختلف النتاج . وعلى كل حال ، إن ما قدمه المسلمون في عصورهم الذهبية كان أقصى ما يمكن للعقل الانساني آنذاك - بإمكانياته المتواضعة المعروفة - أن يقدمه . وكذلك فعل اليونان في الزمن القديم ، والاوروبيون في الوقت الحاضر .

●

لقد صحت عزيمة القدر وانتصب المارد الجبار !

هذا المارد هو الابن الشرعي لتلك الانتفاضة التي حققت المعجزة . لقد

---

(١) انظر مواضع مختلفة من كتابنا : المرجع في تاريخ العلوم عند العرب .

كانت انتفاضة رائعة حقاً ، أعقبتها سلسلة من الهزات والتصدعات في بنية الجزيرة العربية وهيكلها القبَلي المتفسخ . لقد تغيرت المعادلة واختل الميزان ، وظل ذلك يتلاحق ويتفاعل على صعيد سياسة الحرب والسلم ، وعلى امتداد تجربة صراع القوى والمثل والمفاهيم ، حتى عمّ المنطقة كلها وشمل العالم المتمدن القديم من أدناه إلى أقصاه .

ومن خلال عمليات الانتشار هذه وجد العرب مجالاً فسيحاً للتقابل والاختمار والتفاعل في بيئات متسعة الأكناف ، وأجواء مختلفة الأوضاع والغذاء ، وأقاليم مليئة ببؤر الاشعاع الحضاري ومراكز الاستقطاب الفكري وجبهات الصدام التاريخية . وإذن فانتفاضة الإسلام ، والتغيرات الجذرية العميقة التي طرأت على شبه الجزيرة العربية والأحداث التاريخية التي أعقبتها ، هي التي تفسّر التطلعات الجديدة للعرب ، وهي وحدها التي خلقت لهم حاجات عقلية جديدة ودفعت بهم من آفاق رحبة جديدة . ثم جاء التوسع الخارجي والمد الحضاري لينضما إلى التجربة الداخلية والمعاناة الباطنية . فاشتد الزخم وقوي الإندفاع إلى سوق الأفكار والعقليات ينهبونها نهباً ، وإلى ينابيع العلم والمعرفة يرتشفونها ارتشافاً .

أجل لا يجوز لنا أبداً أن ننسى أو نتناسى - ونقولها للمرة المئة أو المئتين - العوامل الداخلية التي إنما صنعت تاريخ الجزيرة العربية ، وبالتالي تاريخ الفكر العربي الإسلامي كله . فإذا كان البعض - ليبلغ حاجة في صدره - لا يرى هذه الجزيرة إلا من خارج ، ولا يقيم وزناً للعرب إلا بعد دخول الاعاجم في الاسلام واختلاطهم بأهله ، بحيث يجعل من العرب كمية مهملة خاضعة لمؤثرات سطحية صرف لا رأي لها فيها ولا قصد ، تُصرّفها الأحداث كيف تشاء وتعبث بها كما تريد ، دونما اعتبار لما كانت تمر به من تجارب ويطرأ عليها من تطورات - أقول إذا كان البعض ينظر إلى العرب شزراً على هذا النحو ويعالج قضيتهم هذه المعالجة التافهة ، فهو كمن يبدأ قراءة الكتاب من آخره ، أو كمن يحتزّ الرأس أو يقطع الشريان ليدرس وظائف الحياة والجسد جثة هامدة . وإذا كان المؤرخون التقليديون الذين يشققون الشعر بحذلقتهم يوسعون مفكري الاسلام تقريعاً ، ويُنحون عليهم باللائمة لعدم انطباق المعايير اليونانية عليهم أو لعدم انصبابهم في قوالب الفكر الغربي - ناسين أو متناسين بُعد الشقة الزمانية والمكانية بين الفريقين

واختلاف تجارب كل منهما ـ فاننا في هذا الكتاب وفي غيره إن أُنسيء لنا في الأجَل ، لن نملّ ولن نكلّ عن دراسة تاريخ الفكر العربي الإسلامي من الداخل ، والنظر إليه بحسب معاييره هو ، لا بحسب معايير وقوالب مصنوعة لغيره . إن التشديد على هذه القوالب والمعايير في كل مناسبة ـ فضلاً عن أنه يشغلنا بقضايا جانبية فارغة ويبتعد بنا عن الدراسة المحورية التي تدخل في صميم الموضوع وتأخذ بتلابيبه ـ فيه حَجْر على الفكر وتضييق لخناقه . إنه يشل حركته ويسلبه حرية العمل ويقتل فيه كل روح للمبادرة والايمان بالذات . فلكل فكر قوالبه ومعاييره ، ولكل فكر أنماطه وطرائقه . هذا هو لبّ الدراسة المحورية المبنية على اقتناص الحياة العقلية من الداخل ، دون أن تعبأ كثيراً بالمعايير المصطنعة والقوالب التي قُدّت لغير أصحابها .

فالعوامل والمؤثرات الخارجية التي دخلت في شرايين الفكر العربي واخترقت اللحم والعظم تظل ـ بحسب هذه الدراسة ، وهي على كل حال دراسة « ساخنة » ـ عوامل مساعدة واحداثاً طارئة صادفته شيئاً قائماً بذاته فاهتم بها وأقبل عليها ليزداد بها ثراء وتألقاً ، وليُمعن بها وجوداً وانتشاراً . . . وكان بينهما حوار وصراع ، وكان بينهما صدام وعناق ، ولعنات وقبلات . . . وكان بينهما حوار وصراع ، ولكنها لم تخنقه ولم تخلقه . فقد كان موجوداً قبل أن تغزوه ، وظل محتفظاً بذاته بعد أن ارتدت عنه وفقدت كل صدى فيه في عصور الانحطاط ، وكان بين الحالين قدوة تُرتجى ومثالاً يُحتذى ، في تلك الفترة الغنية بالكرامة الإنسانية وشرف النفس والمجد الروحي والعقلي .

إن تقويم الفكر الإسلامي يونانياً فيه تشويه له عربياً ، إنه يحول بيننا وبين النفاذ إليه والوغول إلى أعماقه . فنحن في هذه الحالة نبحث عبثاً عن أشباح لا وجود لها ، كما نعمى عن حقائق كان من الواجب الإهتمام بها وبذل أقصى الجهد للوقوف عليها . وإلّا حصل اللّيّ والتضييق من هنا ، والمط والتوسيع من هناك ، ولا ينتج عن ذلك سوى التزييف والتشويه والإستهتار بقيم الأشياء ، إن الباحث الجيد كالخياط الجيد ، يُفصّل الأثواب على قدود الأبدان .

وعلى ذلك ، فإذا أردنا أن نبحث في القيمة الذاتية والمكانة التاريخية للفلسفة الإسلامية مثلاً ، فلا بد أن نقرر أولاً وقبل كل شيء أنها ليست فلسفة أبدية خالدة ، كما أنها أيضاً ليست فلسفة تافهة مبتذلة . وكذلك الفلسفة

اليونانية ، وكذلك أيضاً الفلسفة الحديثة . وبذلك فلن نحكم على الفلسفة الإسلامية خارج إطار عصرها وظروفها . إنها فلسفة كسائر الفلسفات ، لها محاسنها ومزاياها ، كما لها عيوبها ومثالبها . فلا يجوز أن نسرف في عيوب هذه لابراز محاسن تلك لحاجة في نفس يعقوب . ان الفلسفة ـ أيّ فلسفة ـ يجب أن يراعى في تقديرها النظرة التاريخية ، والإطار الثقافي والمنطق الحضاري ، وسائر الظروف الموضوعية التي انبثقت عنها تلك الفلسفة ، وإلّا اختلطت علينا الأشياء كحاطب ليل . إن خصائص التفكير في القرون الوسطى غيرها في العصور القديمة وفي العصر الحديث . فكل عصر إنما يصبو إلى مزاج ما من العبقرية يحتاج إليه أكثر من غيره ، قد نفهم منه بعض الأشياء وتغيب عنا سائر الأشياء . إن الكتب التي وصلت إلينا من القدماء إذا كانت قد كشفت لنا بعض الحقائق فقد حجبت أكثرها . وكلما بعدت الشقة بيننا وبينهم أوغلوا في الغموض حتى يصبحوا ظلالاً باهتة أو أشباحاً لا حراك بها . وكل ما هو مطلوب منا في هذه الحال أن نعترف للقدماء بقدمهم ، وأنا زعيم بعد ذلك بأن أحكامنا عليهم ستكون أقل قسوة وأدنى إلى القسط والإنصاف . فلا يصح والحالة هذه أن نطلب من القرون الوسطى أكثر مما تطيق ، أو أن نسومها فوق ما تحتمل . ولنعلم أن لليونان تجارب في الفكر والتاريخ والحضارة لم تتوفر لرجال القرون الوسطى ، أولئك الذين عاشوا في أجواء عقلية وروحية غير تلك التي عاش فيها القدماء ، وفُرضت عليهم ظروف وأوضاع لا عهد لمن قبلهم بها ، وهبّت عليهم نفحات وانسام لم تهبّ على غيرهم من أهل الأرض قاطبة ، وكانت لهم قيم ومثل وآمال ومسؤوليات لم تكن لاسلافهم اليونان ، فكيف يُطلب منهم بعد ذلك أن يكونوا كاليونان ؟ ما هذا إلّا غاية الإحالة . إن الاختلاف بين عقليتين لا يجعل إحداهما أفضل من الأخرى أو أقل منها ، بل إن هذا الإختلاف ضروري جداً وطبيعي جداً ، ويجب النظر إليه دائماً على أنه إنما يعبر عن واقع حي محسوس . فكل من العقليتين صحيحة في نطاقها ، فريدة في ذاتها ، وحيدة في بابها ، صادقة في أدائها ، ولكل منهما مزاياها ونقائصها وعوراتها . وبكلمة موجزة : كل منهما إنما هي صيغة جيلها ورسالة عصرها وحضارتها .

●

وزبدة القول ، يجب أن تتوقع في كل عقلية من العقليات ، أو ثقافة من الثقافات ، أو فلسفة من الفلسفات ، عناصر دخيلة وأخرى جديدة . لذلك إذا

أردنا الحكم عليها لا يجوز الإكتفاء بما انتقل إليها من مؤثرات خارجية ، بل يجب البحث أيضاً عما عسى أن يوجد فيها من عناصر ذاتية غير دخيلة ، قد تنبهم وتغمض حيناً ، وقد تلتبس بغيرها أحياناً ، لكن الإستمرار في البحث ، والدأب على العمل ، وتقصّي الموضوع من جميع أطرافه ـ كل أولئك قمين بالكشف عن الحقيقة في يوم من الأيام وتبديد الضباب الذي يحيط بها . فلئن نفذت إلى الفكر الإسلامي تيارات متعددة اجتمعت فيه وتفاعلت ، إلا أنه يجب ألا يصرفنا ذلك عن البحث عن نتائج هذا التفاعل وثمرات هذا اللقاء .

هذه النتائج والثمرات تتحلى فيما يلي :

١ ـ علم الكلام الذي يقول فيه رينان إنه الفلسفة الحقيقية في الاسلام . فهذا العلم رغم إعتماده على النقل انتهى به المطاف إلى أن اختلطت مباحثه بمباحث الفلسفة حتى لقد ظُنا علماً واحداً .

٢ ـ علم أصول الفقه الذي يخوض في مبحث الدليل والعلم والعلة والحكم وعلل الأحكام وغير ذلك من الأمور التي يلمح المرء فيها نشأة التفكير الفلسفي الأصيل المستقل عن اليونان . في بلاد الاسلام . فإن هذا العلم غني بالمباحث التي تكاد تهجم على علم الآلهيات وتلتبس به حتى ليشك المرء وهو يتصفح كتاباً في علم أصول الفقه أن يكون هذا الكتاب كتاباً نقلياً لا كتاباً عقلياً . . وقد توصل علماء أصول الفقه وعلماء الكلام الأصولي إلى وضع منطق جديد يختلف عن منطق أرسطو اختلاف الهندسات اللاإقليدية عن هندسة اقليدس . فنحن نجد في هذا المنطق المبادىء العامة للمنهج العلمي الحديث ، بل نجد فيه أشياء لم يصل إليها رواد المنهج العلمي حتى الآن .

٣ ـ العلوم الدخيلة من طب وفلك ورياضة وطبيعة وجغرافيا وتاريخ وإجتماع . . . ومعالجتها على أساس المنهج العلمي التجريبي الذي إنما اشترك في وضعه علماء الطبيعة العرب وعلماء أصول الفقه وبعض الفلاسفة الإسلاميين .

٤ ـ التصوف ورياضة النفس ومجاهدتها وتحليلها والبحث في أذواقها ومواجيدها ، والوصول من ذلك الى تأملات وأنظار في الانسان والكون والحياة ووحدة

الوجود ليس لها من التصوف إلا الاسم . كما للصوفية أيضاً منطقهم الجديد المخالف لمنطق أرسطو .

٥ ـ وأخيراً الفلسفة التي تتفق مع الفلسفة اليونانية في أشياء وتختلف عنها في أشياء . ورغم اعتماد هذه الفلسفة على فلسفة الأوائل فقد استخلصت منها نتائج لم تخطر للأائل على بال ، بل من شأنها ـ لو اطلع عليها هؤلاء ـ أن تثير سخطهم على تلاميذهم العرب ، لا سيما وإن الفلسفة اليونانية قد كانت سلاحاً ماضياً استخدمه كثير من المفكرين الإسلاميين للرد على اليونان وإبطال أقاويلهم وإثبات تهافت حججهم .

على أن هناك علوماً أخرى كثيرة غير ما ذكرنا تجلت فيها عبقرية العرب لن نخوض فيها لبعدها كثيراً عن موضوع هذا الكتاب ، وإن كانت قد لا تقل أهمية عن العلوم التي ذكرناها من حيث دلالتها على عظمة الفكر العربي الاسلامي ، والخدمات الجُلى التي أسداها للفكر الانساني(١) .

ولئن كان بعض هذه العلوم شرعياً من حيث الموضوع ، إلا أنه من حيث المنهج سليم لا غبار عليه البتة . فالأصوليون مثلاً يُعنون عناية كبيرة بالمنهج ويدققون النظر فيما يعرض عليهم في مجال الأحكام الشرعية من وقائع جديدة تحتاج إلى إعمال العقل استنباطاً ، وإلى التروي في الحكم اجتهاداً ، وإلى التدقيق في الألفاظ وتحليلها من حيث المفهوم ولما صدق منهجاً وطريقة . وبهذا الإعتبار يمكن القول انهم أكثر تعبيراً عن الفكر الفلسفي من حيث ارتباطه بالإسلام من الفلاسفة التقليديين .

ومن هنا لا يمكن أن نعطي صورة كاملة ـ أو قريبة من الكمال ـ عن التفكير العقلي في الإسلام إذا نحن اقتصرنا على ما كتبه الفلاسفة الخُلَّص وحدهم . حتى ليذهب البعض إلى أن أكثر هؤلاء الفلاسفة لا يمثلون الفكر الإسلامي في

---

(١) من أهم هذه العلوم علم الصوتيات Phonetics بقسميه العام General والوظيفي Phonology وقد درسه العرب بإسهاب وعمق وكتبوا فيه أبحاثاً مستفيضة لا تختلف كثيراً عن الأبحاث التي يتناولها أي كتاب حديث في الصوتيات . انظر الكلمة القيمة التي ألقاها في هذا الصدد الدكتور يوسف الهليس في الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، المنعقدة بجامعة حلب من ٥ ـ ١٢ نيسان (أبريل) سنة ١٩٧٦ . (الأبحاث صفحة ٤٦١ ـ ٤٨٦) .

شيء[1] . إلا أننا لا نذهب هذا المذهب من الغلو والشطط . بل نرى أنهم يمثلونه كما يمثله الأصوليون والفقهاء وعلماء الكلام ، على تفاوت في ذلك . فالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والتصوف ، مضافاً إليها الفلسفة ، إنما هي تعبيرات مختلفة للفكر الاسلامي ، والإختلاف في التعبير بينها إنما هو اختلاف في الدرجة لا في النوع . فمن فلاسفة الإسلام من اقترب من أرسطو وأفلاطون دون أن يفرّط في إسلامه ، ومنهم من أخذ بمبادىء فلسفة ما قبل سقراط ، ومنهم من جمع بين تراث الهند وفارس وتراث اليونان بروح إسلامي ، ومنهم من اتجه اتجاهاً إسلامياً خالصاً لا أثر فيه لمباحث اليونان أو غير اليونان وكان في تفكيره مع ذلك نصيب كبير من الأصالة والعمق والإبداع ، بل منهم من ابتعد عن الإسلام وخاصمه وأعلن الحرب عليه . لكن جميع الذين احتفظوا باتجاههم الإسلامي قاموا بمحاولة جادة للتوفيق بين العقل والنقل ، بين حقائق الفلسفة وحقائق الإسلام . فقد اتسع الإسلام لكل هذا دون أن يضيق به ذرعاً ، اتسع لأبنائه كما اتسع لخصومه ومناوئيه .

فالفكر الإسلامي لم يكتف إذن بتعبير واحد فقط ، بل لقد اتخذ لنفسه تعبيرات شتى وصوراً متنوعة وأنماطاً متباينة ، تختلط فيها موارد الفيلسوف بمياه الإسلام ، وأنظار العقل بتجارب الإيمان ، على تفاوت في القوة والأصالة . لكنها جميعاً تظل أفكار المسلمين ، ويظل الإسلام ـ حتى ولو خاصمته أو رفضته ـ مبعث نشاطها وقوة الدفع فيها . فما من بحث عقلي عرفه المسلمون إلا كان منطلقه إسلامياً ؛ بدأ أولا بتفهم تعاليم الإسلام ونصوص القرآن وشب في أحضانها وتغذى بلبانها . ثم تطور هذا الفهم بحكم نموه الذاتي وبما تسرب إليه من عناصر أجنبية اتسعت بها آفاقه واتصل بتفاصيل العقائد والنحل وامتزج بها ، وأثر فيها وتأثر بها ، وخضع للعديد من التغيرات والتبدلات خلال رحلة حياته الطويلة . وما زال أمره كذلك حتى شب على الطوق وبدا أنه بعيد الصلة بأصله الأول ، وما هو ببعيد ، بل هو لا يزال مع كل ذلك مرتبطاً بالأصل الأول الذي تفرع عليه ، والبيئة التي نشأ فيها والظروف العربية الإسلامية التي أحاطت به .

وهكذا فالفكر العربي الإسلامي شديد التنوع ، كثير التشعب ، متعدد

---

(١) د . علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ٢ / ٢١ .

الجهات ، مختلف الألوان والظلال . لكن مهما تعدد الموضوعات ، واختلفت الإتجاهات أو تشعبت الطرق والمسالك ، وتباينت وجوه التعبير ، فإنه في علم الكلام هو نفسه في علم أصول الفقه ، هو نفسه في علم الهيئة والطب والكيمياء والرياضة والتاريخ والإجتماع . . . فهو إنما يصدر عن حوض واحد ويُسقى بماء واحد ، وينهل من معين واحد ، إنه التعدد في الوحدة ، والوحدة في التعدد . فإذا لمح الدارسون في هذه الوحدة عناصر افتراق فإنها ليست من التشتت والتباين بحيث تغيب وراءها آيات الوحدة أو تذهب معالم الإنسجام . انها لوحة فنان انتظمت فيها الألوان والخطوط والأشكال والظلال ، رسمتها ريشة من عبقر ! إنها الشمس تشع بالنور والدفء والحرارة ، وتهب الحياة والقوة والنشاط ، وتكتظ بجميع الألوان ، وهي هي واحدة معطاء . فسياسة صب الناس في بوتقة واحدة وقالب واحد من حيث الكم والكيف ، سياسة ساذجة جاهلة لا تدرك خصوبة الفكر الإنساني وتنوع المظاهر والصور والأشكال التي يتخذها كلما أمعن في الوجود وازداد في الإشعاع والعطاء .

لقد أنجب الإسلام عدداً لا يحصى من الرجال الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، وذلك في مدة قصيرة نسبياً لا تتجاوز الأربعمئة سنة . إن عصور التاريخ الذهبية وحدها ، عصور الثورات الكبرى والإشعاع العظيم ، هي التي ينجب فيها المجتمع في مثل هذا الزمن القصير ذلك العدد الجم من الرجال الأفذاذ الذين ذاع صيتهم في القيادة والحكم والإدارة والتاريخ والجغرافيا والإجتماع ، واللغة والرياضة والفلك ، والكيمياء والطبيعة والطب ، في القرون الأربعة الفاصلة بين هارون الرشيد وابن رشد . لقد كان هناك رجال عظام قبل هذه الفترة ولكنهم إنما كانوا أول الغيث . وكذلك كان هناك رجال عظام أيضاً بعد انقضاء هذه الفترة ، لكنهم القطر يَسَّاقط في أواخر فصل الشتاء عندما تكون الأرض قد ارتوت بالماء حتى ملأ فجاجها وشعابها . ولكن الحشد العظيم من الرجال إنما تجمّع بكثافة هائلة وتركيز شديد في القرون الأربعة المذكورة . وهذا النشاط المتلالىء الجبار قد استمد بعض مادته من تراث الأوائل ، ولكن أكثره كان نشاطاً مبتكراً . بل يمكننا أن نقرر هنا واثقين أن هذه الذروة من نهضة الإسلام كانت في بعض نواحيها تحريراً للشرق الأدنى والأوسط من سيطرة اليونان العلمية كما يقول ول ديورانت[1] .

(١) قصة الحضارة ١٣ / ٣٨٧ .

إن كل أولئك يدل دلالة واضحة على أنه مهما كانت طبيعة الأفكار الأجنبية التي قد تسربت إلى عقول العرب المسلمين وغزت أذهانهم وافئدتهم ، فإنها لم تبق على حالها ، بل لقد طرأ عليها ما يطرأ على عناصر الأرض عندما تدخل من جسم الكائن الحي . فلقد تمثلوها على نحوهم الخاص ، واستخدموها في إنشاء وجهة نظرهم في الإنسان والكون والحياة والمصير ، وأفرغوها في صياغة مفاهيمهم بحسب معايير مجتمعهم ، وسلكوا بإزائها سلوكاً ينسجم وأصول حياتهم العقلية والروحية ، وينبثق من أحكام البيئة العربية الإسلامية ، وما يثيرها من اهتمامات ويعتمل فيها من مشاكل وتطمح إليه من مقاصد وآمال . وبذلك فقد أمكنهم أن يخلقوا بيئة عقلية خاصة بهم ، منبثقة عن حاجاتهم وظروف مجتمعهم ، وأن ينشئوا لأنفسهم حياة فكرية مستقلة لا معنى لها إلا بالنسبة إليهم ، وبالنسبة إليهم وحدهم . فمصنفاتهم ليست أبداً تلخيصاً لمذاهب اليونان والهنود والفرس وغيرهم ، كلا ولا هي ترجمة لكتبهم ، مهما تقوّل المتقوّلون وتخرّص المتخرصون ، وإنما هي مصنفات عربية ومؤلفات إسلامية لها جوّها الخاص وظلالها الفريدة ، ومقاصدها المتميزة التي لا يقدح فيها أبداً أنها ـ من وقت إلى آخر ـ تسير في تيار هذا المفكر أو ذاك . إنها التعبير الشخصي عن أفكار أهلها وأبناء عشيرتها ، وعرض لمفاهيمهم ومعانيهم ، وحلّ لأزماتهم ومعضلات حياتهم . فلا غرو بعد ذلك أن نقول جازمين إنها تخالف كتب القدماء في الظروف والملابسات والمقتضيات ، وتفترق عنها في المفاهيم والأدلة والغايات ، فضلاً عن استقلالها عنها في التفاصيل وبعض الكليات .

هذه نتيجة طبيعية لعملية الأخذ والعطاء أو (عملية الإختراق الحضاري) . فالتأثير والتأثر ، والأخذ والعطاء ، وتبادل الأفكار والآراء والمعتقدات ، ليست عمليات بسيطة ، إنها ليست مجرد إضافات كمية ، إنها عمليات معقدة ينتج عنها تحولات نوعية هامة . وتزداد هذه التحولات نوعية كلما ازدادت عمقاً وتعقيدا ، ولا سيما في المجتمع الصحي السليم ، وهو مجتمع فتيً ناشىء بلغ جهاز الهضم والتمثيل فيه مبلغاً عظيماً من النضج . هذا ما يؤكده منطق الحضارات وتاريخ الحركات الثورية ، وقوانين السيكوسوسيوديناميكا مجتمعةً . فإن حضارة ما إذا تأثرت بأخرى وأخذت عنها بعض عناصرها ، فهذه العناصر لا تبقى على حالتها الأولى ، بل تتكيف بحسب متطلبات الحضارة الآخذة وأوضاعها وتاريخها . وقصة الحضارات في اتصالها بعضها ببعض ، وتفاعلها وتبادل العناصر والمؤثرات

فيما بينها مليئة بالشواهد على ما نقول :

« فالعرب مثلاً أخذوا عن اليونان الكثير من العلم والفلسفة ، ورفعوا أفلاطون وأرسطو إلى أعلا مراتب الإعتبار والتقدير ، ولكن العلم اليوناني والفلسفة اليونانية لم يظلا في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة على ما كانا عليه في إيونيا وأثينا والإسكندرية وإنطاكية ، بل تكيفا بحسب اتجاهات الحضارة العربية وروحها الشاملة . . . » ويضيف الدكتور قسطنطين زريق الذي نقلنا عنه هذا النص في كلامه على الحضارات وهي تتلاقى وتتسرب آثار بعضها إلى البعض الآخر قائلاً : « فإن هذه الآثار تحمل مفاهيم تختلف عن المفاهيم الأصلية ، وإذا هذه المفاهيم المختلفة تتفاعل في داخل الحضارة الواحدة ، وإذا نتاج هذا التفاعل يتنوع بتنوع حالة الحضارة وقدرة أبنائها على الخلق والإبداع . فمتى كانت الحضارة حية ناشطة ، كما كانت الحضارة العربية في إبان نهضتها ، جاء هذا التفاعل مدعاةً للنمو والإثمار ، فنجد المفاهيم اليونانية مثلاً تلتقي المفاهيم الإسلامية الأصلية ، وتتطعم الواحدة منها بالأخرى ، فتنشأ عن هذا التطعم المتبادل غراس قوية زاهية مثمرةً فلسفةً وكلاماً وتصوفاً وفناً ، وما إلى ذلك »[1] .

إن المجتمع المريض ـ كالجسم المريض ـ يلفظ ما يلتهمه كما هو ، دون أن يمتزج بدمه وعروقه . انه لا يسيغه أبداً . وأما المجتمع الصحي السليم فإنه يحيل ما يتناوله من غذاء خلايا جديدة لا تختلف أي اختلاف عن خلاياه الأصلية ، بحيث يكاد يكون من المستحيل تعرف أصل الغذاء ومصدره . فإذا كان اطلاع المسلمين إبان الحضارة العربية على الفلسفة اليونانية مثلاً لم يؤثر في سلامة عقيدتهم وقوتها ، بل لقد زادها قوة ومناعة ، فلا يرجع ذلك فقط إلى أنهم قد أحسنوا الإختيار بين ما ينقلون وما لا ينقلون ، بل هو الموقف النفسي الصلب الذي واجهوا به قيم الحضارة الجديدة التي بدأت تغزوهم .

لقد تقبلوا عناصر هذه الحضارة بفكر منفتح ، وصدر رحب ، وبُعد نظر ، دون حساسية أو تعقيدات ، أو خوف على أنفسهم منها . إذ « ينبغي ألا نستحيي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى ، وإن أتى من الأجناس القاصية والأمم المباينة لنا . فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق ، وليس ينبغي بخس

(١) قسطنطين زريق : في معركة الحضارة صفحة ١٢١ ـ ١٢٢ . ١٤٠ .

الحق ولا تصغير بقائله ولا بالآتي به . ولا أحد بخسه الحق ، بل كل يشرفه الحق » . هذه الكلمات وردت في مقدمة أقدم كتاب وضع في (الفلسفة الأولى) ألفه الكندي وأهداه إلى الخليفة المعتصم .

لقد استوعب المسلمون الحضارة الجديدة بهذه الروح استيعاباً مثمراً ، حتى أصبحت جزءاً حياً من الفكر العربي والثقافة الإسلامية والتراث الناشىء الجديد . لقد امتصّت العقلية الإسلامية الغذاء الذي قدمه ميراث العالم القديم الضخم بعد أن أصبح متوفراً بالعربية . فأدى ذلك إلى قيام مدارس الفلسفة والعلوم والفنون المختلفة التي سيطرت على أفق الحضارة الإسلامية ، نتيجةً لتطبيق مبادىء الإسلام على أشكال المعرفة المختلفة التي ورثها المسلمون عن الشعوب ذات الحضارات العريقة ، ولدمج هذه الأشكال المختلفة من المعارف في النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة وما بعد الممات . وأضيف ذلك كله إلى عالم النظر الإسلامي وأصبح ملكاً له لا ينازعه فيه منازع . فجميع المذاهب الفكرية التي نشأت عن ذلك العالم إنما هي مذاهب عربية إسلامية ، ما دامت المفاهيم والأشكال التي كانت تستعملها قد انصهرت في النظرة العربية الإسلامية ، وفكرت بعقليتها ، وأنتجت بوحي من مُثلها وأهدافها وفي ظل قيمها ومعاييرها .

إن الحضارة التي أنتجت كل هذا وغير هذا هي حضارة عريقة أصيلة دامت قروناً طويلة ، واتسعت حتى شملت جميع أرجاء العالم المتمدن القديم ، لما فيها من طاقة حيوية ، وقدرة إنشائية ، وسلطة قانونية ، وقابلية عمرانية ، وحكمة أخلاقية ، وقوة نفسية ، ومواهب عقلية ، وآفاق روحية . لقد أخذت من الحضارات التي سبقتها عناصرها الفعالة ، ثم أعطت الحضارات اللاحقة أضعاف ما أخذت .

هناك حاجة ماسّة إلى الإحساس بالتاريخ والإحساس بتفاعلاته . وعلى الدارسين أن ينظروا إلى هذه العبرة بمنظار واحد لا بمناظير متعددة تختلف باختلاف اللون والشكل ، وبحسب موازين القوة والضعف ، والغنى والفقر . . . وعندئذ تُقوَّم الشعوب ومنتجات الفكر تقويماً سليماً لا تحيّف فيه ولا محاباة ، ولا يتأثر بميل أو هوى .

أجل نحن في حاجة إلى طاقة هائلة لتفهم واقعنا السلبي تفهماً راسخاً مبنياً على التاريخ . فليس كالتاريخ ما يساعد على وضع الأمور في نصابها والحكم لها أو

عليها ، وبذلك نتلافى النظرة القصيرة العجلى والرأي الفطير . ان القدرة على تفهم الواقع تفهماً يقوم على حقائق التاريخ تتطلب ثقافة واسعة وآفاقاً فكرية عامة ، فضلاً عن النظرة العلمية الموضوعية السليمة تحل محل الإزدواجية البسيطة المغلوطة التي يتسم بها كثير من التفكير التقليدي المعاصر . وتتضح هذه الإزدواجية في تقسيم الإنسانية إلى ساميّ وآريّ ، وأبيض وملوّن ، ومتمدن ومتخلف ، وغني وفقير ، وشرقي وغربي ، ونحن وهم . . . الخ .

إن الرجل الأوروبي مُطالَب أكثر من غيره بالتخلي عن هذه الإزدواجية التي هي من صنع يده . ولكن هل يفعل ؟ هيهات ! إن جميع مصائب الدنيا مرجعها إلى غرور هذا الرجل واعتقاده أنه صاحب الحضارة العظمى ، وأن له حق السيادة على العالم والوصاية عليه ، لا لشيء إلا لأنه اليوم هو العنصر الأقوى . إنه إنما يقيس درجة التقدم في كل بلد بلون بشرته ومقدار اقترابه من نمط الحياة الغربية وانتهاج النظم الغربية وبتبني القيم الغربية . أما قيم الحق والخير والجمال فهي شعارات يتبجح بها لسانه ويكتفي بتدوينها في وثائقه الورقية . حتى صوته يضنّ به في المحافل الدولية ـ وهي منابر للخطب الكلامية لا للأفعال الجادة ـ إذا كان هذا الصوت سيتخذ ـ ولو على المدى البعيد ـ ذريعة لاحقاق حق وإزهاق باطل ، مما يتعارض مع مفاهيم القوة والهيمنة التي لا يؤمن إلّا بها . انه يجهل ان كل حضارة إنما هي في الواقع عالم قائم بذاته مليء بالألغاز والمفاجآت التي لا تخطر للأوربي على بال . لذلك فإنه كثيراً ما يقع في الخطأ تلو الخطأ وهو يواجه الحضارات البعيدة عنه ، لكنه لا يكتشف أخطاءه إلا بعد فوات الأوان . ويبدو أنه آخر من يعلم بما تتمخض به حركات الشعوب من انتفاضات وما تجيش به من مطامح وآمال وتطلعات ، رغم إمكانياته الضخمة وأجهزة مخابراته الهائلة التي تنتشر كالأخطبوط في جميع أنحاء العالم .

إن الحضارة العربية الإسلامية هي إحدى الحضارات التي لا يزال الغرب يجهل الكثير عنها ، رغم حضوره الثقيل كالكابوس في البلاد العربية والإسلامية ورغم استعماره الطويل لها ، وإلّا لما أصدر ـ وما زال ـ عليها تلك الأحكام الجائرة التي رأينا طرفاً منها والتي يختلط فيها الجهل بشعور الصلف والتعالي . ولولا نفر قليل من المفكرين الغربيين الذين تفهموا هذه الحضارة لطمّ الماء على الوادي . ومع أنه لم يكن لهم تأثير يُذكر في تصحيح الأحكام والمفاهيم المغلوطة ، ولا يزالون

عاجزين عن التصدي للأكاذيب والتخرصات والإفتراءات التي تمتلىء بها كتب الغرب وترددها وسائل إعلامه ، فإنهم يظلون نواة صالحة لا بد أن تنمو يوماً وتقوى ويشتد ساعدها وتكون في مستوى ما يُعلّق عليها من آمال .

إن كتب التعلم في أوربا تلقن الطلاب منذ نعومة أظفارهم ـ استمراراً لحملة الأكاذيب والإفتراءات والتخرصات على الفكر العربي الإسلامي ـ أن معركة بواتييه كانت نقطة تحول في تاريخ الحضارة الأوروبية لأنها تمكنت من طرد العرب الأهماج من أوربا المتحضّرة . يا للتزوير ! يا لها من أكذوبة تجلل بالعار تاريخاً مشحوناً بالإفتراءات على الشعوب ، يدعي رجاله أنهم سدنة العلم والفكر ، والقيّمون على رسالة الحضارة ، ومع ذلك يصورون الفتوحات العربية منذ القرن الثامن للميلاد على أنها فتوحات من البربرية الآسيوية جاءت تهدد الغرب !

ولعله يكفي للرد على هذا التزوير ان نستشهد بعبارة مشهورة لاناتول فرانس وردت في كتابه (الحياة بين الزهور La vie en fleur) على لسان السيد دي بوا Dubois. ففي الحوار الذي عقده بين هذا السيد والسيدة نوزيير Nouziere يسأل دي بوا هذه الأخيرة عن أشأم يوم في تاريخ فرنسا . ولما لم تستطع الإجابة قال لها : « إنه يوم معركة بواتييه عندما تراجع العلم العربي والفن العربي والحضارة العربية سنة ٧٣٢ أمام همجية الفرنجة » .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحوار كان سبباً في طرد المفكر الفرنسي الكبير روجيه غارودي من تونس سنة ١٩٤٥ بتهمة الدعاية المناهضة لفرنسا ، كما يعترف هو ذاته . فعلى عهد الحماية الفرنسية لتونس كان محظوراً على الناس الإشادة بتاريخ العرب في أوروبا والقول بأن الحضارة العربية كانت لها السيادة على الحضارة الإوربية والفكر الإوربي حتى القرن الرابع عشر ، وكان محرّماً أيضاً تداول كلمة أناتول فرانس هذه ونشرها بين الناس . يا للغباء ! لقد أرادت فرنسا بذلك أن تحجب الشمس باصبع طفل صغير ! لقد ضيّعت فرنسا ـ بواتييه فرصتها التاريخية للاسهام في الحضارة العربية الطالعة كما أسهمت الأندلس ، وفي اختصار أمد الفوضى الإقطاعية التي كانت مستشرية فيها آنذاك ، فتأخر بناء وحدتها القومية قروناً عدة ، ولم تستطع أن تفيد من المغانم والإنجازات التي حققتها جارتها إسبانيا على يد العرب .

ويؤكد بلاسكو ايباريز Blasco Ibarrez في كتابه (في ظل الكاتدرائية) « ان انتعاش إسبانيا لم يأت من الشمال حيث القبائل البربرية ، بل لقد جاء من الجنوب مع العرب الغزاة »[1] . ويقول أيضاً في معرض حديثه عن الحضارة العربية : « ما كادت أن تنشأ حتى استطاعت أن تمثل أفضل ما في اليهودية وما في العالم البيزنطي . وقد جلبت معها التقليد الهندي العريق ، وآثار الفرس ، وكثيراً من الأمور المستمدة من الصين الغامضة . لقد كان الشرق هو الذي ينفُذ الى أوروبا على منوال امثال (دارا) و (كسرى) ، لا بطريق اليونان الذين رفضتهم أوروبا لانقاذ حريتها ، بل من الطرف الآخر ، بطريق إسبانيا التي كانت تستقبل بذراعين مبسوطتين غزاتها وهي تئن من عبودية الملوك اللاهوتيين والأساقفة المشاكسين »[2] .

ويقول غارودي معلقاً على ما حققه العرب في اسبانيا : « فقد جلبوا معهم نظاماً إجتماعياً أعلى جداً من النظام الراهن ، وسرعان ما ظهروا بمظهر المحررين : أولا بإنقاذهم الأقنان من وصاية ملوك (الفيزغوط) في عصر انحطاطهم ، ثم بعدم الإستيلاء على الأراضي ـ فالقرآن يحرم ذلك ـ مكتفين بالخراج »[1] .

إن العمى الغربي ، ووهم التفوق الغربي ، والتعصب الغربي ـ نسي أو تناسى أن الغزاة الفرنسيين والإنكليز والإيطاليين والبرتغاليين هم الذين دخلوا أرض الإسلام ، فجاسوا خلال الديار وعاثوا فيها فساداً ، مدمرين الحضارة العربية تدميراً لا يقل ـ اذا لم يكن يفوق ـ تدمير المغول .

إن فتح العرب للأندلس كان فتحاً حضارياً ، وهذا ما لا يفهمه الأوروبيون ولا يتطابق أبداً مع مقاييس الإستعمار وموازينه التي يحكمون بها الشعوب . اجل هو شيء جديد لا عهد لهم به قط . انه لم يكن غزواً عسكرياً كغزو المغول في القرون الوسطى والغزو الأوروبي في العصر الحديث . كلا . فالفرسان العرب عندما دخلوا الأندلس لم يزد عددهم على خمسين الف فارس ، بينما كان فيها من السكان عشرة ملايين . ولو كان الأمر مجرد حرب لما نجحوا .

---

(١) نقلاً عن روجيه غارودي : حوار الحضارات صفحة ١٠٢ زدني علماً رقم ١ ـ عويدات .

(٢) نقلاً عن المصدر السابق .

ولكن تفوق حضارة على أخرى كان أهم عوامل النصر . ومما له دلالته في هذا الباب أيضاً أن العبقرية الإسبانية لم تتفجر وتزدهر إلا في المناخ العربي وفي ظل الحكم العربي وأجواء الحضارة العربية . أما قبل ذلك فلم تكن إسبانيا شيئاً مذكوراً ، وأما بعد ذلك فقد أصبحت دولة كبرى وكانت هي وجارتها البرتغال طليعة الإستعمار الأوروبي في العالم .

ومنذ انتصار شارل مارتل على العرب في معركة بواتييه ، تكونت لدى أوربا عقدة العرب والإسلام . هنالك ظهر شعار (حماية الحضارة الغربية من البرابرة العرب) . أما البربرية الغربية في ڤييتنام والهند والصين وأفريقيا والبلاد العربية فهي رسالة حضارية ، رسالة ابتزاز الشعوب واستنزاف دمائها ونهب خيراتها وتركها قاعاً صفصفاً . وكانت حصة البلاد العربي منه أكبر من غيرها . اذ لم تكد موجة الإستعمار تنحسر عن الوطن العربي - في الظاهر على الأقل - حتى ابتُلي باسرائيل ، وما أدراك ما إسرائيل ! إنها استعمار من نوع جديد هو الإستعمار الإستيطاني . إنها حضور دائم للغرب في المنطقة ، وعين ساهرة على مصالحه لا تغفو ولا تنام . هذه هي رسالة أوربا الحضارية !

ولكن ما العمل إذا كانت المُثُل الأخلاقية لا قيمة لها ولا وزن في العلاقات السياسية والدولية ؟ هذه هي حقيقة المأساة في الحضارة الغربية . إنها حضارة شرهة لا همَّ لها إلا جني الأرباح والمكاسب . إنها حضارة رأس المال والقوة ودكتاتورية البروليتاريا ، ولكنها ليست أبداً حضارة الإنسان . فرغم التقدم الكبير الذي أحرزته هذه الحضارة في جناحيها الشرقي والغربي - فإن إنسانها لم يتقدم . هناك تقدم علمي وتكنولوجي هائل، ولكن ليس هناك أي تقدم في جوهر الإنسان . فبينما نحن نشهد الفصول الأخيرة من عصر استعباد الإنسان للإنسان - أو هذا ما يبدو في الظاهر على الأقل - إذا بنا نشهد عصر استعباد الآلة للإنسان ! وهكذا ينتقل الإنسان من استعباد إلى آخر . فبدلاً من ان تحرره هذه الآلة من شقاء العصور زادت في سحقه وتحطيمه كأنما قد كُتب عليه ان يظل في شقاء دائم . لذلك كان غارودي على حق عندما قال إن هذه الحضارة التي لا يزيد عمرها على قرنين من الزمان توشك أن تجرُّ العالم إلى الهلاك والدمار وتجعله كأن لم يكن . ويبدو أنها لن تعمَّر طويلاً . إنها لم تُثبت قدرتها على البقاء . وكل شيء يشير إلى أنها لن تفعل . إن حضارة المصريين القدماء عاشت زاهرة ثلاثة آلاف

سنة ، وحضارة الصين عاشت الفين من السنين . القيم هي حامية الحضارات ، وهيهات أن تعيش حضارة بلا قيم .

حقاً ، لقد اثبتت الحضارة الغربية أنها عاجزة عن قيادة العالم . هذا ما يؤكده روجيه غارودي وتثبته الأحداث يوماً بعد يوم . فإذا ما أرادت ان يُنسأ لها في الأجل ويُكتب لها البقاء ، فيجب ان تدرك حجمها الحقيقي بين حضارات العالم ، وأن يقوم حوار بين الحضارات تتبادل فيه مفاهيمها ومُثلها وقيمها وتجاربها ، وأن تتعاون جميع الحضارات على توفير الحرية لجميع المواطنين في بلاد الله الواسعة ، وتقديم الفرص المتكافئة لهم ، والبحث عن الأفراد الموهوبين أينما وُجدوا ، وإلى أيّ جنس انتموا ، دون التفات الى العِرق أو اللون أو المذهب ، ومساعدتهم في عملية تحقيق الذات ، وتقريبهم بعضهم من بعض ، وتشجيعهم على تغذية الحوافز الخلاقة بدلاً من خنق مواهبهم لاعتبارات عنصرية أو مذهبية أو طائفية ضيقة . وبذلك يمكن لهذه الحضارة (الغرْبية) أن تعيش ، ويتسنى للآخرين ان يعيشوا العيش الكريم والحياة الوادعة المطمئنة ، ويستطيع العالم أن يهدأ بسلام وأمان . وإلاّ فعلى العالم العفاء !

ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود ؟

خاتمة - إن عيب الكثير من الدارسين للفكر العربي من المستشرقين الغربيين إنما هو تضخيم بعض الجوانب على حساب البعض الآخر ، تضخيم جانب الأخذ والإستعارة ، والتعتيم على جانب العطاء والإنتاج ، تضخيم جانب النقل والإقتباس ، وتسليط الأضواء عليه دون غيره من الجوانب الأخرى . وهذا لعمري تحيُّفٌ لا نرضى به وتجنٍ سافر لا نرى له مساغاً ، فضلاً عن إنه عمل غير علمي كان ينبغي على سدنة العِلم والفكر أن يربأوا بأنفسهم عنه .

إن الحضارة العربية الإسلامية فيها الكثير من العناصر الأجنبية ، هذا ما لا ننكره ولا نزال نكرر إيماننا به . ولكن أيُّ عيب في هذا ؟ ومن ذا الذي لم يتتلمذ على من سبقه ويقتفِ أثر من تقدمه ؟ فإن الآراء والأفكار لا تعيش ولا ينتظم أمرها إلا بهذا الطريق ، أو قُل هذا الطريق هو أحد العوامل الهامة لاستمرار حياة الأفكار وشحنها بالزاد والمؤونة ، واستيلادها أجيالاً جديدة من الأفكار وذراري جديدة . فالإقتباس والإستعارة والنقل إذا كانت تخلق جيوشاً من الموظفين وتغرق الأسواق بحملة الشهادات (نقل سلبي) فإنها أيضاً تخلق ثُـلة

من أصحاب الأفكار المبدعة والمعاني الخلاقة ، دون أن يستلزم ذلك عبودية واسترقاقاً ، أو يكون دليلاً على الاستخذاء والتخاذل . هذا هو النقل الإيجابي الذي يدل على النشاط والفعالية والإعتداد بالذات . أنه إنما يعني التفتح والإنطلاق وإرادة الحياة . إنه إنما يعني أن الشخص الناقل إيجابياً قد بدأ يعي ذاته ووجوده ، في محاولة لتجاوزهما والتفوق عليهما بقوى الإبداع الكامنة فيه . إنه إنما يعني أن هذا الشخص لا يُقرّ بالحدود التي رسمتها له الطبيعة والقيود التي كبلته بها ، بل يريد تحطيمها والثورة عليها ليطور ذاته ومجتمعه ويعيش في عالمٍ أفضل . هذا هو المعنى العميق للإقتباس المنفتح الإيجابي الذي يُثري صاحبه ومجتمعه ويكفل له الصمود في معركة تنازع البقاء .

ليس ثمه مَثَلٌ على أمة استقلت بذاتها أو سارت بمفردها في هذا العالم المليء بالأشواك والعقبات والطلاسم والأسرار ، اللهم إلا أن تكون متخلفة في سلم التطور . فالتطور لا يسير بخطى واحدة في المجتمعات الإنسانية المختلفة ، بل يسير بسرعات متفاوتة ، وهو أشد ما يكون سرعة في المواضع التي تقع على طرق التجارة والمواصلات ، والأماكن التي يكثر فيها الإختلاط أو ـ على حد تعبير برغسون ـ في الأماكن التي تلتقي فيها تيارات مختلفة . هناك يُصنع التاريخ وهناك يقفز ويقفز .

إن جميع الأمم دائنة ومدينة في وقت واحد معاً ، فكل أمة لا بد أن تنتفع بآثار الأمم التي تقدمتها قبل أن تصبح صاحبة آثار ذاتية ، وكل جيل يُفيد في البدء مما أدخرته الأجيال السابقة ، ثم يضيف إليه إذا كان على ذلك من القادرين . إذ لا يُطلب من الأمة ـ أيّ أمة ـ أن تبدأ من الصفر أو أن تخلق ثقافتها من العدم دون أن تعتمد على غيرها . ولا يعاب عليها أبداً أن تحجّ الى المعرفة أنّى وجدتها ، وتطلبها في جميع مظانها ، وإنما يعاب عليها أن تجمد في مكانها وتُغَلّق من دونها الأبواب والقلاع والحصون ، وتجترّ هناك ما تعلمته من الآخرين دون أن تضيف إليه عصارة تفكيرها .

ان شجرة المعرفة تغذيها عصارة العقول البشرية بالأفكار ، وبها انما تنمو . ثم هي تتفرع هنا وهناك لتصبح وارفة الظلال دانية الثمار . فما من ورق ولا ثمر ولا فرع يمتد في هذه الشجرة إلا كان وراءه عقول تزيده تماسكاً ونضارة وانتشاراً . وما زال جهد الأيام وعرق العصور وكدح العقول يتطاول بهذه الشجرة ويزيدها

سموقاً وارتفاعاً . هذه حكمة الأجيال وعبرة التاريخ .

فقد اقتبس اليونان بادىء ذي بدء ما عند قدماء المصريين والهنود وبلاد ما بين النهرين كما مرّ معنا ، لكنهم حولوا هذه المعارف التي ظفروا بها إلى ما يلائم حاجاتهم هم وأوضاعهم ومقتضيات حياتهم . فلم يزدردوا ازدراداً ، بل لقد تريثوا واختاروا ، واستخلصوا مما اختاروا مزيجاً له خواص جديدة غير خواص أجزائه متفرقةً ، فكان هو علم اليونان ، وفلسفة اليونان ، وتراث اليونان . لقد هضموا كل ما أخذوا وتمثلوه حتى دخل في كيانهم العقلي كله وصار جزءاً أساسياً في تكوينهم وصيغة حياتهم .

وكذلك فعل أجدادنا العرب . فلئن كانوا تلاميذ لليونان وغير اليونان ، إلا أنهم كانوا تلاميذ نوابغ بررة يفخر بهم أساتذتهم ، كما يعترفون بفضل أساتذتهم عليهم . فقد اجتمع لهم عاملان اثنان لا بد منهما ليصنعوا حضارتهم بأيديهم ويدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه : أ ـ الإنتفاضة الجبارة التي انطلقت كالصاعقة من بطن مكة تطيح بالعروش والطواغيت ؛ ب ـ والمدد الخارجي الذي لم يدخر العرب وسعاً في سبيل الحصول عليه لتغذية هذه الإنتفاضة بروافد شتى من مراكز الفكر القديم والإبقاء عليها طرية ندية . فنشطت العقول ، وتفتقت القرائح ، وتمخضت الأذهان عما لم يكن بالحسبان .

وإذا كان هناك من يشك في القيمة الحقيقية لثمرات الفكر العربي ، ويقول ان حظ العرب من العلم والفلسفة لم يكن إلا النقل والتعليق على الكتب اليونانية أو غير اليونانية فما علينا ـ لادحاض هذا الرأي ـ إلا مقارنة ما كتبه النقلة بما كتبه العلماء والفلاسفة والمفكرون العرب . فالمؤلفات الأولى تنتمي إلى مرحلة الترجمة والنقل ، وأما المؤلفات الثانية ، المؤلفات العربية الإسلامية ، فتنتمي إلى مرحلة التأليف الخالص . فلو كانت حجة النقل صحيحة ، اذن لجاءت المؤلفات الأولى أهم من المؤلفات الأخيرة وأعظم شأناً . وهذا ما لا يقول به عاقل .

وهكذا ، فإنه باندماج الفكر المستورَد في نواة الفكر المنتفض ظهرتْ في العالم الإسلامي ثلّة متألقة من الفلاسفة والعلماء والمفكرين كانت منارة للعالم كله ، كالكندي والفارابي وابن سينا وابن الهيثم وابن رشد وابن خلدون والبيروني والبتاني والخازن . . . وكانت هذه الإسماء اللامعة هي التي قدمت فيما بعد ، إشعاعها العلمي والفلسفي لأوروبا ، واسهمت كثيراً في وثبة العلم والفكر

الأوروبيين ، ونقلها الى عصر جديد .

ولا غرو من ذلك ، فقد كان العرب نموذجاً للانفتاح على العالم واقتباس الصالح فيه ، دون حساسية ولا عُقد ولا رواسب . فأخذوا عمن سبقهم ولم يتهيبوا ، وأغنوا تراث الإنسانية ولم يبخلوا ، وكانت لهم جولات وجولات في ميادين الخلق والإبداع . ثم إن استيعاب المسلمين لتراث الأوائل لا يقتصر أمره على إغناء الثقافة الإسلامية وحدها ، بل لقد أغنى أيضاً - وبالمقدار ذاته - الثقافة اليونانية والفارسية والهندية معاً : إذ بُعثت هذه الثقافات جميعاً من مرقدها بعد أن كانت على شفا الموت تلفظ أنفاسها الأخيرة دون أن يُبالي بها أحد أو يسرع إلى نجدتها انسان . فلولا عناية العرب بها وحفاظهم عليها ، وانقاذها من التلف والضياع والحشرات والديدان و . . . ولولا تنقيحهم لها وترميمها وإصلاح فاسدها وتحقيق نصوصها ، وشرحها والتعليق عليها . . . لغابت في ظلمات الماضي وانقطعت وشائج التاريخ . فاذا كانت قد وهبتهم ثروتها الفكرية الضخمة وتراثها العظيم ، فقد زودوها بلغتهم وأقلامهم ومهجهم ، واستولدوها أجيالاً جديدة بمناقشاتهم ومطارحاتهم وتأملاتهم وثمرات عقولهم ، وهيأوا لها فرصاً جديدة للإنتشار والتوسع . وهكذا لم يقتصر النفع والإنتفاع على فريق دون فريق ، بل لكلٍ فضلُهُ ومزيتُه . فالحياة انما هي تبادل في المصالح والمنافع ، ولا يستقيم أمرها إلا بذلك .

لقد كان بين أيدي المسلمين والعرب مادة دينية غزيرة مصدرُها القرآن والإسلام ، وتراث عقلي ضخم سعوا اليه رجالاً وعلى كل ضامر ، وأتوا للظفر به من كل فج عميق ، وتحملوا في سبيله كل عنت وإرهاق . فتمثلوه على وجه خاص ينبع من قيمهم الدينية والروحية ومُثلهم العربية ، واستخدموه في انشاء وجهة نظرهم في الله والكون والحياة والمصير ، حتى لقد دخل في نسيج تفكيرهم ، واكتمل بحسب اصول عاداتهم ونظم معيشتهم وحاجات بيئتهم الإجتماعية والعقلية ، وأصبح غذاءً نافعاً يجد فيه كل طالب بغيته ، وكل باحث ضالته .

وليس في هذا أي استرقاق أو عبودية . فالإسترقاق والعبودية لا يكونان بنقل الأفكار ، بل بالعجز عن الإنتفاع بها وبالإنجراف في تيارها كيفما اتفق . فلا ضيرْ على الإنسان ان يأخذ ما يشاء عمن يشاء ، فما يضيره حقاً إنما هو أن يظل عاجزاً مُقصّراً عن معلمه الذي كان نبعاً له ومستقى لأفكاره ، وأن تنطفىء

الشعلة بين يديه ، وأن تنقطع عنده السلسلة التي اتصلت منذ بداية التاريخ إلى أن وصلت إليه . فالعرب لم ينجرفوا أب راء المدارس والثقافات المستوردة كيفما اتفق ، ولم تنطفىء الشعلة بين أيديهم . لقد كانوا يفتشون عن أجوائهم وأخيلتهم ، وينقّبون في الثقافات التي اتصلوا بها لعلّهم يجدون فيها تفريجاً لهمومهم وقلقهم ، وحلاً لمشاكلهم وبلسماً لأوجاعهم وآلامهم وشفاءً لنفوسهم ، ووسيلة للفوز بالسعادة في الحياة وبعد المات . لقد وجدوا فيها أداة فعالة لتحقيق الذات والإمعان في الوجود ، وكم من فكرة وصلت إليهم واخترقت عالمهم فأصبحت أخطر شأناً في مثواها الجديد منها في منبتها الأصلي القديم !

إن الفكرة الواحدة عندما تنتقل من بيئة إلى أخرى أو يُقذف بها في جوٍ عقلي جديد له مُثله وقيمه ومفاهيمه الخاصة به ، فإنما تدخل في نظام فكري جديد وعلاقات جديدة ، لذلك لا بد أن تطرأ عليها تغيرات شتى وتبدلات مختلفة . فتفقد عندئذ شخصيتها ولا تعود ملكاً لأصحابها الأولين ، بل تصبح ملكاً لأصحابها الجدد ، وحقاً مشاعاً يمكن لكل أحد أن يستمتع به ويتخذ منه منطلقاً لأفكار ونزعات جديدة تناسب روحه وتلبي حاجاته ، وتخفف من الضغط والتوتر في نفسه . . . وكذلك إذا طُرحت فكرة واحدة ما على بساط البحث عمد كل باحث إلى فحصها وتمحيصها على نحوه الخاص هو ، واستخراج ما يمكنه استخراجه منها ، وبذلك تتشتت وتتفرق وتتخذ مظاهر متعددة وأشكالاً متباينة ، وسمات لا حصر لها تختلف باختلاف الباحثين ، وتتنوع بتنوع الدارسين . . . لذلك فإن طريقة فرز الأفكار بعضها عن بعض وبيان ما هو منها مأخوذ مقتبَس وما هو غير ذلك لم تعد طريقة عصرية ، وذلك لأنها لا تبين لنا خصائص الشخصية الناقلة ومميزاتها والأسباب التي حدت بها إلى النقل . . . انها لا تأخذ بالحسبان إلّا اشباه الأفكار ، الأفكار مجردة من جميع إرتباطاتها وأجوائها ، الأفكار الهشة المسحوقة التي انتُزعت منها جميع الخصائص التي تمنحها قوامها وشخصيتها . وما هذه بالأفكار ، أنها أشباح أفكار . فالمعوَّل عليه اليوم إنما هو معرفة طريقة فهم الأفكار في إرتباطاتها وأجوائها ووظائفها ودلالاتها ، طريقة فهم الشخصية المميزة لهذه الأفكار وما فعله الشخص المبدع بها ، وأي النتائج استخلصها منها .

فالأفكار يتسلسل بعضها من بعض ، ويتولد بعضها من بعض ، ويتفاعل بعضها وبعض ، ويُشحن بعضها بعض ، ويتخذ ذلك مذاهب شتى وطرائق قِدداً . ثم تنتقل الى الناس على وجوه نعرف بعضها ونجهل أكثرها ، فيتقبَّلونها بلا

وعي ولا احتساب أو يرفضونها ، أو يسعون اليها بالجهد والعرق ، وبمختلف الوسائل والأسباب . وهناك يطرأ عليها ما طرأ على أسلافها من قبل . فالانسان يرزح في الواقع تحت أعباء ثقال من مواريث العقائد والمذاهب والأفكار التي تفاعلت وتصادمت وتوالدت في الزمان والمكان ، ولكل خطوة يخطوها ينابيع يستقي منها وأصول يبني عليها . إن الانسان الذي يكاد يعرف كل شيء عن القمر لا يكاد يعرف شيئاً عن عالم خصب بكر هو أقرب إلينا من أنفسنا ويحيط بنا من كل جانب . إنه عالم الأفكار ، وهو عالم معقد كبير ، يصطرع بعضه ببعض ويموج بعضه في بعض ، ويجب أن يكون موضوعاً لعلم مستقل قائم بذاته له مصطلحاته وتعابيره ، وله مناهجه وطرائقه ، وله سننه وقوانينه . إنه عالم عتيد قاهر ، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه . فهو الذي يحكم عالم الانسان ، ويعمّق وجوده ويسمو به على جميع العوالم ويضفي عليه معنى وغاية .

وزبدة القول ، إن الأعمال الفكرية ليست وليدة يوم أو شهر أو سنة ، ولا هي مقتصرة على شعب دون آخر . فهي تتوالى ببطء وتنمو في مخيلة الشعوب على أجيال متطاولة . ثم يتغذى بعضها ببعض ويؤثر بعضها في بعض ، وتنتقل من صورة إلى أخرى وإن لم يتنبّه لها الآحاد أو يفطن لها التاريخ .

واقتباس الأفكار يسبق كل عمل ابداعي عظيم . فلا إبداع بلا اقتباس . إن ما اقتبسه العرب لم يكن في أيديهم سوى أداة للعمل . فهم لم يُقْدِموا على ما أقدموا عليه من اكتساب وتعلم من الأمم التي سبقتهم في العلم والمعرفة إلاَّ مدفوعين بتلقائية غنية خصبة ، تُسيرها إرادة واعية تصارع طبيعة جافية متمردة . وهذا لعمري دليل صحة وحيوية ، وليس عرضاً من أعراض المرض والتخلف . وبعبارة أخرى ، ليس تراث العالم القديم هو الذي رحل إلى بلاد الاسلام ليجد له سوقاً فيها أو ليفرض نفسه عليها ، وإلاّ ظل سلبياً كسيحاً لا حول له ولا قوة ، ولا قدرة له على التأثير والفاعلية والتجاوب ومشاعر الناس وآمالهم وآلامهم . . . كلا لم يرحل هذا التراث إلى بلاد الاسلام ، بل إن فريقاً من العرب المسلمين تتدفق فيهم قوى ومواهب وطاقات خاصة ، هم الذين تركوا الأهل والعشيرة والوطن ورحلوا إلى مظّان هذا التراث ـ أو انفذوا بعثاتهم في طلبه ، والمعنى واحد ـ واختاروا جزءاً بعينه منه ، ثم صبغوا هذا الجزء بصبغتهم وحوَّروه لكي يلائم طبيعتهم ، فحذفوا منه ما حذفوا مما لا يساعد على عملية تحقيق الذات ، وأضافوا اليه كل ما من شأنه توكيد هذه العملية ، حتى جعلوا منه نوعاً جديداً من

التعبير العقلي له معنى خاص بالنسبة اليهم ، وبالنسبة اليهم وحدهم . إنهم لم يقبلوا هذا الجزء إلا ليستخدموه ، لقد اكتشفوا فيه امكانية الخلق والإبتكار ، اكتشفوا أنهم به إنما يستطيعون التعبير عن روحهم وأمانيهم ، وتحقيق آمالهم وما تصبو إليه نفوسهم ، وتصوير همومهم ومشاعرهم تصويراً صادقاً دقيقاً ، والتصرف تصرفاً سليماً حكيماً في شتى المواقف والحالات . إنه ـ بكلمة واحدة ـ لم يكن سوى الأداة التي استخدموها في عملية بناء الذات وتفجير الطاقات الكامنة في هذه الذات .

لقد انتقل هذا الجزء من عالم إلى عالم ، ففقد بعض الخصائص واكتسب خصائص أخرى تساعده على التفاعل وعناصر عالمه الجديد . فهو منذ الآن سيكون له طابعه الخاص ، وسيكون له مكانه المناسب ، وسيكون له معناه ووظائفه في نظام عضوي واسع لا تتفاعل الأجزاء فيه إلا بقدر ما تنتمي اليه وتكون عضواً من أعضائه . لذلك لا يجوز بعد الآن النظر الى هذا الجزء المستورَد منعزلاً عن الكل الذي هو فيه ، وانما يجب النظر اليه دائماً من حيث تعبيره الخاص ، وعلاقته مع غيره ، ومعناه بالنسبة الى مجتمعه الجديد ، ووظيفته في الإطار الفكري العام عند أصحابه الجدد . والخلاصة ، إن انتماءه الجديد قد أحدث تغييراً شاملاً في جميع خصائصه القديمة ..انه لم يكن ليفعل فعله الساحر العجيب إلا لارتباطه الشديد بمواقف حية واتجاهاتٍ معاناة في البيئة العربية الإسلامية . وبتعبير أوضح ، انه لم يكن ليؤثر فيهم تأثيره الخصب الفعال إلا لأنه خضع لعمليات باطنة كثيرة من التغيير والتبديل أصبح بعدها أهلاً للدخول إلى عالمه الجديد والمشاركة في حل مشاكله وفضّ منازعاته . فهناك اذن اتجاه حي ، هناك جانب مُعانَى يجب على تاريخ الفكر والفلسفة أن يأخذه بالحسبان ، ويتناوله بالبحث والتمحيص إذا كان لا يريد أن ينحلَّ عمله الى مجرد تدوين سطحي بارد للمذاهب ، وترجمة آلية لسيرة أصحابها ، تهتم بالنصوص دون النفوس ، وتغريها القشور دون الزهور .

لقد ارتحل اليهم ليجد أرضاً خصبة مهيأة للخلق والابداع ، وبيئة صالحة اكتملت لها وسائل البحث والنظر ، وعقلية منهجية متسقة اصبحت تعالج الأمور والأحداث معالجة كلية شاملة ، لكثرة معاناة اصحابها للأعمال الذهنية التي إنما أورثهم إياها النظر في العلوم الطبيعية والتفكير في المسائل الشرعية ، خاصة مسائل الفقه واقضيته وقياساته . فمن السذاجة حقاً أن يقال إن الدراسات

الفقهية والأصولية المعقدة ومباحث الطبيعة والطب والفلك والرياضة هي وليدة عقلية مشتتة لا تتبع في مسارها الطويل نظاماً ولا منهجاً . فكأنهم لم يطلبوا هذا الجزء الذي اختاروه من تراث الأوائل إلا في فترة كانوا قد وصلوا فيها من الناحية العقلية والحضارية الى مستوى هذا التراث . بمعنى إنه لو لم تُتح لهم فرصة نقل هذا التراث إلى لسانهم ـ لعمدوا ـ ومن يدري ؟ ـ إلى مناهل نفوسهم يفجرونها طاقات غزيرة ، وعبقريات سامقة ، ومواهب فذّة ، ولكان من الممكن أن ينطلق الفكر العربي آنذاك إلى غاية مداه مكتفياً بالقليل من العون الخارجي ، فيبدع فلسفة جديدة خاصة به ، وعلوماً جديدة قد تشبه ما عند الأوائل وقد لا تشبهه . فلولا أنهم أنداد لهؤلاء الأوائل ، أكفاء لهم ، ما كان في مقدورهم أن يسموا الى ما سما إليه هؤلاء الأوائل ويتطلعوا إلى ما تطلعوا إليه . ولا غرو أن يفعلوا . كيف لا وهم حين أخذوا ما أخذوا لم يكونوا عزلاً من أي ميراث حضاري أو محرومين من أي نواة للتفكير . بل لقد كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة قد أمدَّهم بها القرآن ، كما أن نواة الفكر كانت قد تكونت لديهم منذ وقت مبكر جداً ، وذلك عند قيام الفرق والمذاهب الاسلامية الأولى إبتداء من القرن الأول للهجرة ، في أعقاب النزاع الكبير في مسألة الخلافة وشروط الخليفة والصدام بين علي ومعاوية ، مما عرضنا بالتفصيل والتحليل في أحد كتبنا ، في حديثنا عن الإنفجار السَّيْكوسوسيوديناميكي الذي زلزل شبه الجزيرة العربية والمنطقة المحيطة بها ودك أركانها ، وقَلَب موازينها وأوضاع الحياة فيها ليستخلف أصحابها في الأرض ويجعلهم الوارثين .

وبذلك لم تكن الفلسفة اليونانية ، والعلم الهندي ، والحكمة الفارسية ، و . . . سوى روافد اندفعت جميعاً لتصب في المجرى الكبير ، وتلتقي بتيار صاخب يجيش بالعقول المتفتحة ، والنفوس المشرقة والأذهان المتوقدة ، والبصائر النافذة ، والآمال العريضة ، والقيم السامية ، والمثل الرفيعة ، والمسؤوليات الجسام . . . وهكذا ، فإنما العبرة كل العبرة بهذا التيار الصاخب وبما يزخر فيه من قوى وطاقات هي التي تصنع التاريخ ، وليست العبرة أبداً بنفحات تجود بها جماعة من المترجمين المحترفين والمرتزقة التافهين الذين يعملون لا استزادةً من العلم أو توسيعاً للمدارك ، بل طلباً للرفد واستكثاراً من النشَب . هذا مع تقديرنا البالغ للخدمات العظيمة التي أسداها النَقَلة إلى الفكر العربي الإسلامي ، على ألا نسرف في أهمية هذه الخدمات فنُحمِلُها فوق ما تحتمل ، وننسى الفكر الذي استقدم

أصحابها ، فأحلَّهم مكاناً كريماً يليق به وبهم ، وجعل لهم سوقاً نافقة كانت من قبل كاسدة . فمن أوجب الواجب أن نقرَّ بفضلهم ، لكن من اقبح القبيح أن نسلب العرب كل فضل ونُغدق على النَّقَلة كل فضل . وبذلك اغتنى اللاحق بالسابق ، والخالف بالسالف ، فارتفع الصرح وعظم البناء .

وهكذا اجتمع تراث المسلمين بتراث الأوائل وبه اكتمل . والتقى الفكر بالفكر على أمر قد قُدِر . فالتقاء الأفكار ليس مجرد عملية عددية ، وإنما هو تحول نوعي في النظم والمفاهيم والأهداف والآمال والعلاقات العامة والخاصة . إنه بداية لعملية طويلة معقدة ، من النمو والتطور تتناول هذه الأفكار بالتنقيح والتصحيح ، والحذف والإضافة ، وفي أثناء هذه العملية تنبثق افكار وتموت أفكار ، وتصطرع الأفكار بالأفكار .

فلا تحسبن ما حدث في بادية العرب أعجوبة يصعب تصديقها . إنما هي الأفكار ترفع ما انخفض وتُوري ما انطفأ . من اعتد بها عز ، ومن استهان بها ذل . فما الحياة إلا شحنة من الأفكار ، وتبادل الأفكار ، وتفاعل بين الأفكار ، لكن درجة تكامل المجتمع ونضجه وتماسكه مما يُسهِّل أو يعرقل عمل الأفكار واحتمالات النجاح أو الفشل التي تتعرض لها .

حسبنا الآن هذا القدر الذي ذكرنا ، آملين أن نكون قد استطعنا في هذه الصفحات اظهار عدم كفاية التاريخ الخارجي الذي لا يتغلغل في الأحداث وينفذ إلى شغافها ، بل ينظر اليها من خارج ومن جانب واحد فقط ، وبعلم واحد فقط ، لا بطائفة من العلوم المتعددة ، ويعالج ظواهر الفكر كما يعالج ظواهر المادة وبنفس المناهج والطرق ، ويُخضعه لحتمية صارمة لا تخضع لها حتى الظواهر الطبيعية . فإذا ما تجنبنا هذا النمط من التاريخ ، وعرفنا أن اجتماع الأفكار ليس مجرد اجتماع كمي بقدر ما هو عملية تحول كيفي ، وأن نقلها من مكان إلى آخر ومن أفق إلى أفق ليس مجرد نقل جغرافي بقدر ما هو نُقلة ثقافية وقفزة حضارية ، وإذا طبقنا ذلك على ظواهر الفكر العربي والمجتمع الإسلامي والحضارة التي انبثقت عنها ، وتناولنا هذه الظواهر بعلوم مختلفة ومعارف متباينة ومآخذ متعددة ، استطعنا أن ننفذ الى صميم هذه الظواهر ونتغلغل في شعابها وادق دقائقها ، ولا يقتصر أمرنا في هذه الحال على أننا قد اقتنصنا من الباطن تلقائية الفكر العربي الاسلامي وأدركنا معناه ومغزاه ، وعرفنا قيمته ومداه ، بل نكون

أيضاً قد استطعنا أن نعيش حقبة مضى عهدها ، وأن نغوص بحق في أعماق الماضي ، وبالتالي أن نعود القهقرى ونَصّاعد في مجرى التاريخ !!!

الفصل الخامس

الترجمة ومدى تأثيرها في تحول الجدل الديني إلى اهتمام بالبحث العلمي والفلسفي

لا يجوز في رأيي أن نعطي للترجمة عن اليونانية في عصور الإزدهار الإسلامي كل تلك الأهمية التي تُضفي عليها . فنحن لا ننكر أن الترجمة كانت لها نتائج هامة بل هامة جداً في الفكر العربي . ولكن الترجمة وما أعقبها من نتائج وأبعاد لا تعدو أن تكون هي ايضاً نتيجة لعامل يفوقها أهمية هو العامل العربي الإسلامي والمخاض العربي الإسلامي والثورة العربية الإسلامية .

أجل ، ينبغي لنا ألا نغلو في تقدير أثر النقلة السريان كما يفعل بعض الباحثين لحاجة في نفس يعقوب ، فلا يجحد الأهمية الكبيرة التي يتمتعون بها في تاريخ الفكر العربي إلا جاهل أو مكابر ، ولكن هذه الأهمية لها حدودها المقررة التي لا يجوز أبداً تخطيها ، سواء في الحضارة الاسلامية أو في أي حضارة أخرى .

إن الترجمة كانت محطة من المحطات الكثيرة التي توالت في مسيرة الفكر العربي الإسلامي تزود فيها ببعض الزاد ثم انطلق بنفسه وحيداً يشق طريقه لا يلوي على شيء . لقد كانت الثقافة اليونانية في طور احتضار عند انطلاق المارد العربي فبعث فيها الحياة ورد اليها الروح التي سلبها منها تقادم القرون وتعاقب العصور والدهور . لقد كانت ثقافة متهرئة تعاني من أمراض كثيرة تداركها العرب وأقالوا عثرتها وصححوا اتجاهها . فمنهجها قياسي تجريدي كان دائماً عقبة في طريق تقدم العلم والحضارة . وحسب العرب فخراً أنهم طلعوا على العالم بالمنهج

العلمي الذي ينسب في العادة الى بيكون ، حتى أصبحت الكلمتان (المنهج العلمي) و (المنهج البيكوني) كلمتين مترادفتين .

لقد نتج عن المنهج القياسي التجريدي عند اليونان أن جميع علومهم كانت فلسفية إن لم تكن أسطورية . فالكيمياء كانت أسطورية والفيزياء فلسفية، وكذلك الطب والفلك . فالعرب هم الذين أنشأوا العلم الطبيعي بالمعنى الحديث ، وهم الذين نقلوا الكيمياء من الطور الأسطوري إلى صورتها العلمية الرائدة ، وتجارب الرازي في هذا الباب لا تحتاج الى فضل بيان . كما أن الطوسي والبتاني والبيروني والصوفي . . إلخ جعلوا علم الفلك علماً رصدياً يقوم على الملاحظة وأوجدوا له الآلات والأدوات المناسبة .

وبقدر ما كان اليونان عمالقة في الهندسة فقد كانوا أقزاما في الحساب وتقنية العدد ، وهنا أيضاً اقتحم العرب الساحة وعمدوا إلى الفراغ القاتل في أعظم حضارة سبقتهم فملأوه بذوب عقولهم وعصارة أذهانهم، ووهبوا الحضارة علم الحساب وصناعة الأرقام . فانطلقت من عُقالها وقفزت إلى مستويات رفيعة بعد أن طال تعثرها واشتدت معاناتها . ولا غرو من ذلك، فالعدد عصب الحضارة كل حضارة .

أجل لقد كان العرب الورثة التاريخيين للعلم اليوناني والفلسفة اليونانية . ولكنهم لم يرتضوا هذا العلم ولا تلك الفلسفة، وإن كان تحفظهم بالنسبة الى كل منهما متفاوتاً في القوة والدرجة لأسباب مرحلية تاريخية ولظروف موضوعية متعددة سنذكر بعضها ونمسك عن ذكر البعض الآخر. فالعلم اليوناني كما هو معروف علم غائي قوامه الانتقال من العام إلى الخاص أو من الكلي إلى الجزئي ، في حركة منطقية مطردة تتصاغر فيها الأشياء وتضمحل لتتعاظم الماهيات والجواهر ، حتى ينتهي بها الامر إلى عالم من العقول والمجردات لا أثر فيه لشوائب المادة ومعاطبها ، عالم جميل ساحر لا أثر فيه إلا للمنطق ، ولا مطلب له إلا اتفاق الفكر مع ذاته . فالعقل أساس المادة ، والشيء إنما يُعرف بتجاوز المحسوس إلى المعقول والبحث عن العلل الأولى والمبادىء الأساسية التي تكمن وراء الأشياء .

ولكن العلم في الوقت الحاضر يختلف عن العلم القديم في المنهج والموضوع والغاية . فمنهج العلم القديم كان منهجاً منطقياً ، ومنهج العلم الحديث تجريبي ، وموضوع العلم القديم الجسم وما يلحقه من عوارض الحركة والتغير

والنقلة ، وموضوع العلم الحديث دراسة ظواهر الأشياء واكتشاف القوانين وشبكة العلاقات التي تربط بينها ؛ وغاية العلم القديم تطهير النفس بالمعرفة والسمو بها إلى عالم العقول المفارقة والمبادىء العالية ، أما غاية العلم الحديث فهي تسخير المعرفة لأغراض الحياة ولزيادة رفاهية الإنسان .

فإذا كان العلم اليوناني على ما رأينا ، وإذا كان العلم الحديث هذه سماته ، فما هي ملامح العلم العربي ؟ وما هي وما مقوماته ؟ وأين يقف بين العلمين ؟

إن العلم العربي تلتقي فيه خصائص العلم القديم والعلم الحديث، فهو في طور وسط بينهما . لقد كان يجتاز مرحلة إنتقال من المرحلة القديمة في البحث إلى الطريقة الحديثة التي استقر عليها منذ بداية عصر النهضة في أوروبا . ولم يكن ممكناً أن يحدث هذا الإنتقال طفرة وعلى غير انتظار . وهذا ما يفسر لنا وجود التأمل الفلسفي في تراث العرب العلمي إضافة الى المنهج التجريبي ، واعتماد البحث على النظر العقلي المجرد إلى جانب أخذه بالواقع العيني المحسوس . فاليونان أورثوا العرب طريقتهم التجريدية ونظرهم العقلي وتأملاتهم الرائعة، فأخذ العرب ذلك كله واستوعبوه ، بل لقد أضافوا إليه ما يختلف به العرب عن اليونان، وهو اختبار معارفهم وإخضاعها للتجربة . فالعرب هم الذين اكتشفوا ميزات المنهج العلمي ، وهم أول من أوجد طريقة التجربة والملاحظة ووضعوا لها القواعد والأصول ، فخلقوا بذلك علم الطبيعة التجريبي ووصلوا به إلى مستوى لائق لم يخطر لليونان على بال، بل إلى مستوى لو أدركه اليونان لأدانوه فوراً ، ولنددوا بأصحابه ولحكموا عليهم بالخزي والعار ، لأنه يُفسد المبادىء الشريفة التي يجب أن تظل بمنأى عن المادة الخسيسة وأدرانها وحقارتها . . وأن تبقى في عالمها السامي موضوعاً للتأمل والنظر ومتعة للعقول والأذهان . لقد كفر اليونان بالمادة وأشادوا بالعقل، الا قليلاً منهم لم ينجحوا في تغيير ما هو عميق وأصيل في الفكر اليوناني . وبرغم أن أرسطو كان أكثر واقعية من أفلاطون فإنهما يتساويان في توكيد التنافر بين المادة والعقل ولم يفلحا قط في التوفيق بينهما برباط من الألفة والإنسجام .

أما العرب فقد آمنوا بالمادة من غير ان يكفروا بالعقل ، بل لم يزدهم الإيمان بالمادة إلا إيماناً بالعقل . لقد جمعوا بينهما في إطار من الوحدة والتناسق لم يُعرف من قبل ، وكان ذلك واضحاً في نهضة علوم المادة بينهم ، كالكيمياء

والفلك والعلم الطبيعي والحيل والطب . . . إلخ . نعم ، لقد كانت هناك تيارات أفلاطونية صوفية ولكنها لم تستطيع القضاء على التيارات المادية . بل لقد ظل التعايش والتفاعل والحوار قائماً بينهما ، خلافا لما كانت عليه الحال عند اليونان ، حيث لم تنجح التيارات المناوئة لأفلاطون وأرسطو أن تعلن عن ذاتها إلا بشق النفس . وقد ظلت غريبة في عقر دارها ، فلم تؤثر ، ولم تخلق الظروف الموضوعية المؤاتية لها ، كأنها نشاز مزعج في سمفونية رائعة .

لقد انكب العرب على علوم الأوائل دراسة وتمحيصاً ، وأقبلوا عليها بكل جوارحهم . فلم يغادروا علماً إلا نقلوه الى لغتهم ولا فناً إلا رضخ للسانهم . وفي نهاية عصر الترجمة كان العلماء العرب يقفون على قاعدة صلبة من علوم اليونان التي أضيف اليها جزء كبير لا يستهان به من علوم الهند وفارس . . منذ ذلك الوقت بدأوا يعتمدون على مصادرهم الخاصة ، أي على العوامل الداخلية ، على زخم الطاقات التي انطلقوا بها من بطن الجزيرة . لقد قام العلم عند العرب أولاً على شروح أرسطو وغيره ، ثم انصرفوا بعد ذلك إلى دراسة العلم في الطبيعة ، وفضلوا ذلك على دراسته في بطون الكتب . وهذا تطور خطير في مفهوم العلم عندهم . فقد أدركوا في وقت مبكر جداً أن التجربة والملاحظة لا يعدلها مئات الكتب . وهذا تطور خطير في مفهوم العلم عندهم . هذه الحقيقة التي اصبحت معروفة اليوم لم تكن كذلك في الدهر السالف . فقد ظل علماء القرون الوسطى يدورون في الحلقات المفرغة ألف سنة قبل أن يدركوها .

يعزو الناس في العادة إلى بيكون قاعدة التجربة والملاحظة ، وهما الأصل والأساس في كل بحث علمي حديث . بيد أن الواجب يقضي علينا أن نعترف بأن هذه القاعدة من مبتدعات العرب . وقد أورثت هذه الطريقة أعمالهم العلمية الوضوح والإبداع الذي تميزت به منجزاتهم الطبية والطبيعية وقادتهم إلى الكشف عن أمور وُفِّقوا إليها في ثلاثة قرون أو أربعة توفيقاً لم يُكتب مثله لليونان ولا لغيرهم في زمن أطول من زمنهم . فهذه الذخيرة من العلم التي انتقلت إلى اليونان قبلهم لم يستخرجوا منها شيئاً ذا طائل وإن أغنوها بالتأملات الفلسفية العميقة ، لكن العرب نقلوها إلى أخلافهم من بعدهم وقد أضافوا إليها ثمرات عقولهم وتجارب أيديهم . لقد كانو علماء وجعلوا غيرهم علماء . وهذا حسبهم .

إن اكثر الذين عالجوا الفكر العربي لم يعيروا العلم الطبيعي فيه حقه من

الإهتمام ، ولو فعلوا لوجدوا أشياء وأشياء ، ولتيقنوا أن العرب لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بفضل منهجهم الجديد الذي طلعوا به على العالم وكان سمة بارزة من سمات تفكيرهم .

نحن لا ننكر وجود فريق آخر من المفكرين العرب ظلوا يعولون على المنطق والجدل الفلسفي لإثبات ما يريدون إثباته أو نفيه . ولكن ذلك لا أهمية له أبداً ، بل هو دليل صحة وعافية . ولئن دل على شيء فإنما يدل على تنوع الفكر العربي وخصبه . فهو لم يجمد على طراز واحد ونمط واحد من التفكير والنظر إلى الأشياء . إنه كالفكر الأوروبي اليوم ، فيه الدعوات المثالية التي ترفض الدعوات المادية ، والمذهب الحدسي الذي يعارض المذهب التجريبي ، والمذهب الحسي الذي يناويء المذهب العقلي ، وتجد المذاهب الدينية المتزمتة وهي تندد بالتحرر الديني والانجراف في تيار الإلحاد ، بل تجد فيه ايضاً مذاهب الاخلاق والفضيلة في مواجهة الإباحية والجنس . وهكذا دواليك .

إنه تصادم الأفكار وتلاطم الأفكار واصطراع الأفكار بالأفكار ، وهذا لا يعيب الفكر الأوروبي في شيء ، بل هو أحد أمجاده ، إنه فكر فعال نشيط منفتح على جميع الآفاق ، ومستعد لكل التحديات . ولولا هذه الفاعلية ، وهذا الصراع ، وهذا التضاد لما كان فكراً عملاقاً .

وهذا التنوع نفسه نجد شبيهاً له في الفكر العربي الاسلامي الذي ازدحمت فيه - في عصوره الكلاسيكية - جميع الإتجاهات والمدارس والنزعات ووجدت فيه تعبيراً لها . فهو لم يضق بمذهب واحد منها لانه لم يخش واحداً منها بل اتسع لها جميعاً وقدم لها المتنفس والمناخ . ففي خضمه اصطرعت جميع الملل وتضاربت ، وفي أفيائه تعايشت وتجاورت وتحاورت . . ومع كل هذا ، فقد ظل على إيمانه بالتجربة والمادة والواقع المادي . بل إننا لنجد الفلاسفة التقليديين كالرازي وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وسواهم ، من غير أن يتخلوا يوماً عن هذا الإيمان . فهم رغم ذهابهم في متاهات العقل كل مذهب فقد ظلوا يحتفظون برشدهم مشدودين إلى واقعهم ، وظلت التجربة عندهم أفضل من ألف كتاب . لقد أخذوا بالمعيارين معاً - معيار التجربة ومعيار المنطق - وكانوا يستعملونهما استعمالاً بارعاً ومقتصداً وبمعادلة دقيقة ، فما وقع في نطاق التجربة أخضعوه للتجربة ، وما خرج عن نطاقها أخضعوه للمنطق . بينما كان الأمر واحداً - أو كاد - عند أساتذتهم

اليونان الذين كان العقل رائدهم في كل شيء . بل كثيراً ما كذبوا الحس والواقع - ومن ثم التجربة - حفاظاً على انسجام العقل واتفاقه مع ذاته .

وبهذا المعنى نجد أن الفكر العربي الاسلامي لا يدين بعبقرياته ومواهب أبنائه لنفحات بعض النقلة المحترفين الذين إنما قاموا بترجماتهم تكسباً للمال لا حباً للعلم . فمع تقديرنا العظيم لهؤلاء النقلة والمترجمين وللخدمات الجلى التي أسدوها للعرب ، إلا أنه يجب ألا نذهب في هذا التقدير مذهباً شططا فنجعل من العرب والمسلمين كمية مهملة ومن المترجمين عمالقة أفذاذا ، كأن الفكر الإسلامي بين أيديهم مادة طيعة يشكلونها كما يشاؤون ويهوون . وكم كان أحرى بأولئك السريان أن يشكلوا أنفسهم ويصلوا إلى القمة التي وصل إليهم سادتهم ، بدلاً من أن يظلوا في السفح لا عمل لهم إلا رجع الصدى . فالسريان لم يبتكروا شيئاً من عند أنفسهم لأن كل ما ذكروه مأخوذ من الكتب اليونانية التي اختصروها أو شرحوها أو نقلوها .وكان أحدهم يندر أن يقبل من تلقاءنفسه، وإنما كان في أكثر الأحيان يعمل بأمر من خليفة أو وزير أو أمير أو أحد اصحاب المال والنفوذ . فهم مترجمون محترفون ونَقَلة مأجورون لا هم لهم إلا التكسب والنشب .

لقد كان بعضهم فـذاً في النقـل كحنين بن إسحاق مثلاً . ولكن حنينا لم يخلق شيئاً خارج إطار النقل ، وجميع كتبه الخاصة هزيلة لا قيمة لها . إلا إذا إستثنينا ثابت بن قرة الذي يدين بنبوغه للجو العلمي الذي أتاحه له العرب لا إلى سريانيته الضيقة الهزيلة .

فهو صاحب مواهب كانت ستظل كافئة مقبورة لولا أن اكتشفها المناخ العقلي العربي الاسلامي غير المتعصب وهو يكتشف مواهب بنيه ويفجر طاقاتها .

كلا لم يكن العرب كمية مهملة بين أيدي السريان ، وإلا فكيف نفسر استقدام العرب لهؤلاء السريان وتشجيعهم إياهم وتسابقهم على اقتنائهم وإغراءهم لهم بالأجور العالية وإيفاد البعوث والسفارات للبحث عن الكتب في الأقبية والزوايا والسراديب وغياهب الكهوف ، وإنقاذها من الرطوبة والحشرات والديدان التي تتهددها يوماً بعد آخر ، وعقد المعاهدات لحيازتها ، وجعل الحصول عليها شرطاً لوقف القتال وجزءاً من غنائم الحرب ؟

فليت شعري ! علام يدل كل هذا ؟ . أفلا يدل على أنه لا بد من أن ندخل في حسابنا ـ إلى جانب السريان ـ أولئك الذين استقدموا هؤلاء السريان وأغروهم بالمال والجاه والمجد للعمل معهم ونقل ما يمكن نقله من الكتب إلى لغتهم ؟ . أفلا يدل هذا على أن النَّقَلة إنما كانوا أدوات مسخرة فقط لأغراض سادتهم ،وعلى أن الكتب التي نقلوها لا تعبر تمثل نزعاتهم هم وإنما عن نزعات هؤلاء السادة ونهمهم إلى العلم والمعرفة، وسعيهم إلى تحقيق الذات وإجتراع المعجزات في تلك المرحلة التاريخية المشرقة والغنية بالمواهب والعبقريات ؟ فالسريان ـ لا العرب ـ هم الذين كانوا آلات طيعة ووسائل للتعبير عن الذات ، الذات الحية الأصيلة ، التي تتدفق بالقوة والنشاط وتجيش بالإمكانيات والطاقات التي توشك أن تتفجر ، فتركَب كل صعب ، وتذلل كل عقبة ، وتقضي على كل عائق ، وتنطلق كسيل العرم لا يقف في طريقه شيء .

ولنا شاهد على ذلك مما يجري أمامنا اليوم ويتكرر كل يوم ليثبت لنا أن المعرفة وحدها لا تكفي إذا لم تجد المناخ الملائم والتربة الصالحة ، وإذا لم تجد الطاقات المشحونة والوعي الجياش وإرادة تحقيق الذات والرد على التحديات .

هنالك ـ وهنالك فقط ـ يتم التفاعل وهنالك يحدث التلاقح والإخصاب . فها هو ذا العلم الأوروبي اليوم مترجم في كل مكان ولا تكاد تخلو منه لغة من لغات الأرض . وهناك الاذاعات والصحف ووسائل الإعلام المختلفة التي تخترق الحدود والسدود فضلاً عن المدارس والجامعات المنتشرة في العالم الثالث كله . لكن ذلك لم يكن كافياً لتحقيق التفاعل المطلوب وإنجاب الفلاسفة والعلماء والقادة ورجال الفكر . فهؤلاء محصورون الآن في مناطق ضيقة جداً ليست شيئاً مذكوراً في حساب المعمور من الأرض . هناك يعمل العلم ، وهناك فقط يؤتي أُكُلَه وينع ثمره ، هناك فقط تتفاعل العقول وتتلاقح الأذهان ، وهناك فقط يُصنع التاريخ . وليس هناك فقط ، بل الآن فقط . بمعنى أن عقولاً قليلة جداً تختمر في هذه المرحلة ذاتها وهي مرحلة قصيرة جداً ليست شيئاً مذكوراً في عمر الزمن . تلك سنة التاريخ ، وذلك دأبه . فهو لا يستقر في مكانٍ فريد يبقى فيه الدهر كله ، كما لا يشتعل في آنٍ واحد في كل مكان . وإنما هو كثير التقلب والتجوال . لا يكاد يحل ببلد مدة من الزمن حتى يغادره إلى غيره . فالأيام دول بين الناس .

ولم يشذ العرب عن ذلك . فقد أتى عليهم حين من الدهر كان التاريخ فيه طوع بنانهم وكان صوتهم هو الصوت الوحيد الذي يجلجل في الآفاق ، وقد بلغوا في ذلك مبلغاً عظيما حتى إنه لا يكاد يأتي يوم إلا تكشف لنا فيه أعمال البحث والتنقيب بين المخطوطات القديمة مأثرة جديدة من مآثرهم المطوية . ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو مكابر . فلا يجوز أن نتحامل على هؤلاء القوم لأغراض غير علمية وغير موضوعية أملاها الحقد والتشفي والتعصب الذميم .

وهكذا فإن الفكر العربي كان فكراً فذاً أضاف إضافة عظيمة الى الإرث الكبير الذي تلقاه من أساتذته اليونان خاصة والحضارات القديمة عامة . وهذه الإضافة مختلفة نوعاً لا كماً فقط . فنحن هنا لسنا بإزاء إضافة حسابية بل بإزاء بُعد جديد حملته تجربة العرب وهم يُطلون على العالم بالفتوح والحضارة . فليس النتاج الانساني قبل العرب نفسه بعدهم . وإن الفرق بين النتاجين لم يكن فرقاً عددياً فقط بل كان شيئاً أبعد من ذلك بكثير . فالتغير الذي طرأ على النتاج الإنساني كان - حقاً - شيئاً منقطع النظير في سرعته وعمقه وشموله وأبعاده في موازين تلك العصور . فقبل العرب كانت الأسطورة والمنطق يتنازعان تفسير العالم والحكم على نظام الأشياء . فكما أن اليونان جاءوا بالمنطق للحد من سلطة الأسطورة ، كذلك جاء العرب بالتجربة للحد من سلطة المنطق والتخفيف من وطأته . وكما كان اليونان تلامذة المصريين والبابليين والهنود فأخذوا عنهم ثم تجاوزوهم إلى آفاق لم تكن بالحسبان ، كذلك كان العرب أيضاً تلامذة اليونان والهنود والفرس وقد اغتذوا بأفكارهم ورضعوا من لبانهم ثم لم يلبثوا أن تجاوزوهم وحلقوا في عوالم جديدة . لقد انتقلوا من طور النقل إلى طور الخلق بسرعة مذهلة فهم ما كادوا يتدارسون الكتب المنقولة إلى لغتهم ، حتى سعوا الى تحقيق مسائلها ومناقشتها والزيادة عليها .

فألفوا وابتكروا حتى فاقوا اساتذتهم وصححوا لهم عدداً كبيراً من الأخطاء وأكملوا لهم كثيراً من الأبحاث المبتورة ، ثم جاءت التجربة تتويجاً لهذه الجهود وشاهداً على أصالة إنتاجهم كماً ونوعاً وعلى عظمة المنجزات التاريخية التي حققوها للفكر والحضارة . وبهذه الصفات الضخمة غدت الأمة العربية وريثة الفكر الشرقي واليوناني ، والقيِّمة - وحدها - على ذخائر الثقافة والفن ، والقوة الوحيدة الفاعلة في سير التاريخ ، والممثلة الحقيقية للحضارة الانسانية الرفيعة في العصور الوسطى كلها . فعظمت الحركة العقلية بين المسلمين واتسع نطاقها حتى شملت

كل شيء من مظاهر الحياة تقريباً . ولم يأتِ بعد هذه الحركة من مثيل لها في التاريخ إلا حركة النهضة العلمية في إيطاليا وأوروبا بعد سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح مؤسس دولة بني عثمان .

والآن نتساءل كيف حصلت هذه النقلة ؟ ، وما الأسباب والعوامل التي أدت اليها ؟ .

إن اللقاح الخارجي وحده لا يكفي إذا لم تنضم إليه العوامل الداخلية العتيدة ، فكما أن الزراعة على الصخر أمر غير ممكن ، وكما أن البناء فوق الرمال لا سبيل الى تحقيقه ، فكذلك الترجمة إذا لم تجد الطاقات المشحونة والتلقائيات المتوثبة والقوى الفاعلة في التاريخ والحضارة ، وبعبارة أخرى ، إذا لم تجد العوامل الداخلية التي تشق لها الطريق وتفتح لها الأبواب ، فإنها (أي الترجمة) تظل عقيمة وتظل شيئاً دخيلاً مقحماً من خارج لا فعل له ولا تأثير . إنها في هذه الحالة عنصر غريب سرعان ما يلفظه الجسم بل قد يتأذى به وينمو نمواً غير سوي ، كالدسم يؤذي المعمود ويلقي به الى التهلكة . فإذا رأينا إخصاباً بعد تلاقح ، وتفاعلاً بين العوامل الداخلية والخارجية في أمة من الأمم ، عرفنا أنها بدأت تقرع أبواب التاريخ وأنها على موعد مع الأحداث .

فما هي العوامل الداخلية التي مكنت الترجمة من الفعل والتأثير في عصور الإشراق العربي الإسلامي وقذفت هنا عرضاً مختصراً لأهم فصولها .

لذلك قصة طويلة سنعرض هنا عرضاً مختصراً لأهم فصولها .

العوامل الداخلية لنشأة الفكر الاسلامي

قبل أن نتطرق الى كيفية تحول الجدل الديني إلى اهتمام بالبحث العلمي والفلسفي في نطاق الفكر الإسلامي ، يجدر بنا أن نتطرق أولاً إلى نشأة هذا الفكر والعوامل التي أدت إلى ظهوره. فبالإضافة إلى العامل الخارجي الذي ساعد على تكوين هذا الفكر ، هناك مجموعة أخرى من العوامل كانت تفعل فعلها في داخل الجزيرة العربية كان من شأنها بروز فكر جديد له هويته الخاصة ويتمتع بمجموعة من الخصائص والمقومات لولاها لم يكن للترجمة أن تؤتي ثمارها . وهذه العوامل جميعاً ترجع إلى طبيعة الإسلام والقرآن، وإلى التحديات والعوائق والإنتصارات والإنتكاسات التي صادفها الدين الجديد في مراحل الطريق، والى التفسيرات

والإجتهادات التي أدلى بها بنوه لفهم أصوله وتعاليمه. وهكذا فالفكر العربي الإسلامي يدين عموماً لحركة محمد عليه السلام وإلى القرآن الكريم،فلولا هذه الحركة ، لما وُجد الفكر العربي الإسلامي على النحو الذي وُجد عليه ولأتخذ التاريخ العالمي مساراً آخر من مئات الآلاف من المسارات الممكنة التي هي أيضاً وليدة الظروف التاريخية والموضوعية التي كانت تتفاعل في داخل الجزيرة العربية وخارجها. لم تكن حركة دينية فقط ، وإلا لكان لنا مندوحة من ذكرها هنا وإنما هي ثورة اجتماعية وسياسية واقتصادية وروحية ايضاً .

إنها حركة حضارية طبعت كل ما ظهر في العالم الإسلامي من آراء ونظريات ومذاهب بطابعها . وكما أن المحراث الذي يشق الأرض يثير الغبار من حوله ويجعل عاليها سافلها ، كذلك أثار الإسلام عقول العرب وأفئدتهم وقلب أوضاع المنطقة رأساً على عقب . فاعتناق العرب للإسلام لا يدل فقط على القضاء على بعض العادات والأعراف التي كانت شائعة بينهم وإنما يدل أيضاً على أنه كان انقلاباً شاملاً لمُثل الحياة التي كانت سائدة من قبل ، وتبدلا عميقاً في المفاهيم والغايات وقيم الأشياء . فقد كان ظهور الإسلام حدثاً عالمياً ضخماً ترتبت عليه نتائج عظيمة لم تقف عند الحدود الجغرافية للبلاد التي شهدت بوادره الاولى ، بل لقد تجاوزت هذه الحدود الى ما وراءها زماناً ومكاناً ، واستمرت تفاعلاتها الفكرية والروحية تنتقل من بلد الى آخر ، ومن أفق الى غيره ، ومن عصر الى سواه حتى فرضت نفسها على تطور الحضارة العالمية وأصبحت من أهم الظواهر الاساسية لتطور الحياة والمجتمع .

ومع أن النبي عليه السلام أمي لا يدري ما الكتاب ، فقد خلّف كتاباً لا يزال قسم كبير وعظيم من أهل الارض ينظرون إليه على أنه نبراس كل علم وحكمة وفلسفة .

فالقرآن كتاب ديني مذهبي ، وأثر أدبي رائع ، بلغ الذروة في الفصاحة والبيان . فالكلمات مرصوفة فيه رصفا كأنه السحر الذي يجعلها تتجاوب في النفس تجاوب الأصداء في الوادي الفسيح ، فتكشف عن آفاق بعيدة كبرى ، وتخلق في الفكر حماسة تسمو به فوق هذا العالم . فما في أسلوبه من قوة ومتانة ، وما في تعبيره من القدرة على إيصال المعاني من أقرب طريق ، وما في تشبيهاته والصور التي يرسمها من وضوح ، وما في القصص التي يرويها من دروسٍ وعِبَر ،

وما في سوَره من إيقاع موسيقي آسر ، كل أولئك قد هز أمراء الفصاحة وأرباب البيان وغزا مشاعرهم ووصل إلى المكامن العميقة في نفوسهم .

إن كل آية من القرآن موضوعة لغرض وتؤدي إلى غاية .فهي إما أن تقرر عقيدة ، وإما أن تسن قانوناً، وإما أن تبشر بنصر، وإما أن تحذر من عدو، وإما أن تتفجر بحكمة،وإما أن تمنع عادة ، وإما أن تدعو الى موعظة . وفيه صور شتى من المعاني المتجسدة والأمثال المضروبة ، والرموز المحيرة . فهو يصور البخل والنشح والتهرب من زكاة الأموال ومؤامرة الأغنياء لأكل حقوق الفقراء ، صوراً جميلة معبرة أجمل ما يكون التعبير وأروع ما يكون المَثَل ، ويضعها في إطار من الترهيب والترغيب أوفى على الغاية في الوصف والتمثيل . وكذلك يصور المعاني تصويراً متجسداً متحركاً تنخلع له القلوب وترتاح له الأفئدة في «فيلم» سريع خاطف معبر يفيض بالجبروت والعظمة .

وحسب القرآن فخراً أن اللغة العربية أصبحت به لغة حضارة، وبه أيضاً استقبلت الأمة العربية عهداً جديداً في تاريخها الطويل . فقد تغلغلت لغة القرآن في أفكار الناس وعقائدهم ، وظل العالم المتمدن بعد الفتوحات الإسلامية يفكر بعقلية القرآن ويكتب بعلمه ويؤلف بلسانه ،وكانت لغته أداة لكل ما نُقل من علوم الفرس والهند واليونان .

هذا والقرآن ليس كتاباً علمياً أو فلسفياً . فلم يكن العلم بمعناه المألوف من أهدافه ولم تكن الفلسفة من قضاياه ، وإنما قضيته الأساسية أن يحرر عقل الانسان وتفكيره،ويحطم الأغلال المتراكمة الموروثة عن الأجيال الماضية التي عزلت العقل عن تفكيره والقلب عن إحساسه والوجدان عن معاناته . فهو يخاطب العقل ويدعوه إلى التأمل والتفكير ، كما يخاطب القلب والضمير والوجدان، مهيباً به أن يظل محتفظاً بدفقه وثرائه .لقد جاء القرآن ينبه العقل من سباته ويدعوه الى التفكير في خلق السموات والأرض والإيمان بإلهٍ واحد فاعل خالق مختار .

أجل إن القرآن يقدس العقل الحرَ والتفكير الجريء ، وينعى على التقاليد الجامدة والمعتقدات الموروثة والعفنة . فقد أنكر على القوم محاكاتهم آباءهم بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير ،ودعاهم الى مُثُله وقيمه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن وجعل ذلك لهم طريقاً ومنهجاً . وكم أشاد القرآن بالحكمة ولفت أنظارهم إلى أحداث العالم وحثهم على التفكير فيها . فلقد أكد

القرآن وحدة الله وكرامة الإنسان وقوة عقله وسلطانه على جميع الموجودات ، كما أبطل سلطان الأحبار والكهان والرهبان والوسطاء بين العبد وربه . فلا ترجمان بين الله وعباده ، ولا أحد من دون الله يملك التحريم والتحليل والغفران ، ويقضي بالحرمان أو بالنجاة . فالخطاب في القرآن إنما يتجه إلى عقل الإنسان حراً طليقاً من سلطان الهياكل والمحاريب وسلطان كهانها وسدنتها . وكل أولئك ، من شأنه أن ينمي في الفرد الإحساس بالمسؤولية ، ويفتح لضميره منفذاً واسعاً إلى الألوهة يربطه بها ربطاً محكماً ومباشراً يرفع كل حَجْر على وجدانه وتفكيره ، ويقيم له صومعة في أعماق نفسه لا حدود لها غير حدود الكون بما وسع من سموات وأرضين .

وإذا لم يكن القرآن كتاباً علمياً أو مؤلفاً فلسفياً فليس معنى ذلك أنه لم يكن ذا أثر فعال في التفكير العلمي والفلسفي عند أتباعه . فالقرآن ليس فيه نظرية علمية محددة واضحة في المادة والفلك والحياة كالتي نجدها في أبحاث العلماء اليوم ، كما أننا لا نجد فيه نظريات فلسفية في طبيعة الله وأصل الكون وغاية الحياة . . على نحو ما نجد في كتب الفلسفة ، لكنه يحتوي في الوقت نفسه على طائفة من الأفكار والآراء في الله والمادة والفلك والكون والحياة إن لم تكن علمية فلسفية بالمعنى الإصطلاحي ، فمن الممكن جداً أن توجه الفكر العلمي والفلسفي وجهة معينة خاصة، إذا توافر له بعض العوامل والظروف المساعدة . ومنذئذ فإن كل مفكر، وكل عالم وكل فيلسوف، سيعكف على استنطاق آي القرآن الكريم ونصوصه وسيحسب حساباً للقرآن في كل ما يقول ويكتب ويفكر ، وكان كل غواص يخرج بدُرٍ جديد . ومن هنا فإن القرآن سيكون محوراً لحركات شتى ، فهو بمثابة المولد الكهربائي الذي يضخ الحركة والنشاط . لقد كان العمود الفقري للأمة الإسلامية كلها ، فكل عناية المسلمين إنما كانت متجهة إليه استقراء وعلماً وتطبيقاً .

فقد درسوه آية آية ، وكلمة كلمة ، وفي بعض الأحيان حرفاً حرفا ، بغَيْرةٍ وتقوى وورع لا نظير له بين المنقبين في النصوص الدينية . فأعدَّ هذا العمل عقولهم لتحليلات المناطقة وبراهين الفلاسفة ومنهجية رجال البحث العلمي . وفي ظله نشأت العلوم العربية والاسلامية والبحوث الكونية، ومن أجله قامت وانتصبت . فقد شغلت البحوث والدراسات القرآنية العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وكانت علوم القرآن أول تأليفٍ في الإسلام . فعنه ـ لا عن

المذاهب الفلسفية والعقلية ـ صدرت كل فرقة ، وفي سبيل فهمه قام كل مذهب . إنه كالدوحة تفرعت عليها الفروع وامتدت الأغصان ، أو كالشمس دارت من حولها الأفلاك .

والقرآن لم يُفهم فهماً جيداً من قِبَل العرب جميعاً برغم أنه قد جاء بلغتهم . إذ يُشترط فيمن يتصدى لتفسيره أشياء كثيرة لا تتوافر لكل إنسان . فأولاً يجب التمكن في اللغة وآدابها ومعرفة عادات العرب في أقوالهم وأشعارهم معرفة واسعة . كذلك يجب معرفة ما يسمى بأسباب النزول أي المناسبات التي وردت فيها الآيات والأسباب التي دعت إليها ، إذ إن القرآن نزل مُنجَّماً على حد التعبير الإسلامي ، أي على دفعات استمرت ثلاثاً وعشرين سنة هي عمر الدعوة الاسلامية . ويُشترط أيضاً فيمن يريد تفسير القرآن معرفة الناسخ والمنسوخ ، ففي القرآن آيات تُقرأ ولا يجوز العمل بها لانها منسوخة بـآياتٍ أخرى أبطلتها .

ومما يزيد من صعوبة فهم القرآن أخيراً ان فيه نوعين من الآيات : آيات بينات هي القسم الأكبر منه، وأُخر متشابهات وهي قليلة العدد نسبياً . ففيه مثلاً آيات يفيد ظاهرها الجبر وأخرى تفيد الإختيار . كذلك نجد فيه آيات تؤكد التنزيه المطلق لله ، وفي مقابلتها آيات أخرى ربما تشعر بالتشبيه والتجسيم .

وليس لنا أن نأسف لوجود هذه الصعوبات وأمثالها في القرآن . بل يجب علينا في نظري أن نغتبط بها أشد الاغتباط . لقد كانت في الحقيقة نعمة على التفكير الاسلامي ، لأنها بتحديها العقول والأفهام ستكون منطلَقاً لتيارات ومذاهب في الفكر والرأي والإجتهاد لا حصر لها . إنها تربة خصبة مؤاتية جداً للخلق والابتكار ، لأن العقل أشد ما ينشط في الصعوبات والمعضلات والغوامض ، ولا سيما إذا كان ذلك في مجتمع صحي سليم ، فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بنصوص لها صفة القداسة في نظر أصحابها . وهكذا سيكون للقرآن تأثير أي تأثير في توجيه التفكير في بلاد الاسلام ، وسيكون منطلقاً لحركات عقلية جديدة هي وليدة القرآن والتفكير في القرآن وازالة ما عسى ان يكون فيه من غموض وإبهام ، ولا سيما وهو بحكم العقيدة الاسلامية كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذه الحركات العقلية الجديدة ستكون مدينة أولاً وقبل كل شيء لا لليونان ولا للسريان ولا لمترجمين محترفين ـ بل لانتفاضة محمد عليه السلام ، ولهذه الانتفاضة وحدها وما نتج عنها من مواقف وتحديات .

فالأمم إنما تنمو من باطن كشأن الكائن الحي ، لا كالبلوريات والأجسام الجامدة التي إنما تتكون بالتراكم والترسب من خارج .

إن العرب ينفردون بميزة لم تتوفر لغيرهم، هي أن يقظتهم القومية اقترنت برسالة دينية ، ولعل الأدق أن نقول : كانت هذه الرسالة تعبيراً عن تلك اليقظة . فالإسلام هو بحق خير مفصح عن يقظة العرب ونهضتهم . لقد جاء بلغتهم ولبّى حاجات بيئتهم ، ووحد شخصيتهم ، واصطبغ بعبقريتهم ، وامتزج بتاريخهم ، ودمج فيهم اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل . فهو خلاصة ما في الشخصية العربية من قِيم ومثل ، وما تصبو اليه من آمال وأحلام ، وما يشغلها من هموم وهواجس ، وما تتطلع اليه من وسائل وغايات .

أجل لقد كان العرب في القرن السادس الميلادي على أبواب نهضة عقلية دائبة نجد طلائعها في حركة الحنفاء الذين لم يكونوا في مستوى تطلعاتها ، فتهافتوا الواحد بعد الآخر . لقد كانوا يبحثون عن بطل يأخذ بأيديهم ويوحد كلمتهم ويهديهم سواء السبيل .

كما كان النبي عليه السلام يبشر برسالة جديدة رائدة ويبحث عن حَمَلة لها ، وقياديين يشاركونه في أعبائها ، وحواريين يموتون في سبيلها . فكأنما جاء على موعد مع الاحداث .

لقد وجد العرب البطل المنشود ووجد النبي حملة رسالته . ولقد استطاع في جيل واحد من الزمان ان ينتصر في مائة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشيء دولة عظمى وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة فاعلة مؤثرة في سير الأحداث وتوجيه قوى التاريخ . وإن في هذا الإنتصار المذهل لعظمة لا تقل عما نجده في قصص الملاحم وصناع الخوارق .

ولو تجرد المرء من كل هوى مع الإسلام أو عليه ، ونظر إلى الأمور نظراً موضوعياً خالصاً ، لأدرك أن الإسلام كان مبعث نهضة فكرية عظيمة شاركت في تجربة البشر العقلية والحضارية مشاركة إيجابية فعالة وأسهمت في تطور الوجدان الإنساني في الشرق والغرب ، فصار نتاجها جزءاً لاينفصل عن تراث الفكر العالمي وتاريخ العطاء الانساني قاطبة . وكذلك لو تجرد المرء من كل هوى مع الاسلام أو عليه لتحقق أن العصر الذي ظهرت فيه هذه الثورة كان من أغنى عصور التاريخ في شرف النفس والضمير، وفي المشاعر الحية المخلصة . فلا يجوز لأحد أن يتحدث

عن الرقى الانساني من غير أن يذكر الإسلام ، بينما هو يذكر الحضارات الإغريقية والرومانية واليهودية والمسيحية وحتى البوذية أيضاً ، ويقف عند ذلك ، فإذا تحدث عن الإسلام فإنما يتحدث حينئذٍ عن النكاح والطلاق وتعدد الزوجات وما إلى ذلكمن الأحاديث التي لا يدل التعلق بها إلا على السطحية والضحالة ، فضلاً عن سوء النية والتنفيس عن الأحقاد والضغائن .

ومن الدين إلى التفلسف إن هي إلا خطوة واحدة . فالدين أياً كان لا يخلو من بذور التفكير الميتافيزيقي ، أو قل هو من صميم العملية الميتافيزيقية . أو هو ـ على التعبير الجميل لأشبنغلر في كتابه (انحلال الغرب) « إنما الدين ميتافيزيقا منعاشة »[(١)] .

فالفلسفة دائماً تنشأ في احضان الدين ، أو أثر الإيمان بالدين ، على حد ما يذكر « دوركيم » في كتابه (الصور الأولية للحياة الدينية) . وكما أثبت ذلك أيضاً يسبرز في الفصل الأخير من الجزء الأول من كتابه (فلسفة) . ويؤيد ذلك ما نراه من أن الفلاسفة في الطور الأول من أطوار فلسفتهم إنما يستعملون المصطلحات الدينية ويتكلمون لغة الدين (أو التصوف) . وقد كتب برغسون صفحات رائعة في هذا الموضوع في كتابه القيم (ينبوعا الاخلاق والدين) .

والواقع أن الحدود غير واضحة بين الفلسفة والدين ، بل إن هناك تداخلاً مستمراً بينهما حتى ليذهب أحد فلاسفة الحضارة في أيامنا هذه إلى : « أن التمييز بين النظرة الكونية الدينية وبين النظرة الكونية الفلسفية تمييز سطحي تماماً . فالنظرة الكونية الدينية التي تنشد فهم نفسها فكرياً تصبح فلسفية كما هي الحال عند الصينيين والهنود أولاً كما ان النظرة الكونية الفلسفية ، إذا كانت عميقة حقاً ، تتخذ طابعاً دينياً ثانياً[(٢)] . ويعبر أشفيتسر عن ذلك على وجه آخر عندما يربط بين الدين والاخلاق والفلسفة فيقول : « إن في كل عبقرية دينية يحيا مفكر اخلاقي ، وكل أخلاقي يتفلسف بعمق حقاً فهو صاحب دين على نحو آخر »[(٣)] .

---

(١) ٢ / ٧٨ .

(٢) ألبرت إشفيتسر : فلسفة الحضارة ، صفحة ١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص١٣٣ .

يضاف إلى ذلك أن كثيراً مما يُعد في عصر من العصور تابعاً للفلسفة قد يعد في عصر آخر تابعاً للدين . والعكس صحيح أيضاً . فعقيدة الخلود التي هي حقيقة فلسفية عند أفلاطون مثلاً انما تمت إلى الدين وحقائق الإيمان عند الغزالي ، بل إن فكرة الألوهة التي هي محور التفكير الفلسفي لم تكن في الأصل سوى فكرة دينية . ويذهب كثيرون إلى أن الاساطير الدينية والخرافات السحرية وأعمال الخوارق كانت الأصل في نشأة التفكير الفلسفي .

وتاريخ الفلسفة نفسه شاهد على ما بين الفلسفة والدين من وشائج وروابط لا انفصام لها . فأولاً نجد أن فلاسفة كثيرين قاموا من بين رجال الدين (أو علماء اللاهوت) . فلم يكونوا مفكرين منغلقين على أنفسهم يحترفون مهنة التفكير النظري وحده ، بل لقد كانوا منفتحين على جوانب أخرى من النشاط الحضاري . ثم إن كبار الفلاسفة كأفلاطون وأفلوطين والفارابي وابن سينا والغزالي وكنط . . الخ . يعمدون إلى ما حققه الوعي الديني للانسانية من ضروب التقدم فيقدُّونها أفكاراً وخواطر ويجعلون منها صرحاً عقلياً شامخ البنيان . وأخيراً ، لقد كان النزوع الديني في أكثر الأحيان ـ إن لم يكن دائماً ـ متسلطاً على النزوع الميتافيزيقي لدى الانسان جاثماً فوقه ، فكان من نتيجة ذلك أن ظل هذا النزوع أسيراً لبعض المعتقدات الدينية الشعبية الراسخة ، يسعى دائماً للتحرر منها والاستقلال بذاته ما استطاع الى ذلك سبيلاً . ومع ذلك فان القطيعة غير ممكنة بين الفلسفة والدين وان فلسفة الدين لا تزال حتى يومنا هذا جزءاً لا ينفصل عن التفكير الفلسفي العام ، ولنا في برغسون وشيلر وسنتيانا وكيرك غارد وغابرييل مارسيل وغيرهم أكبر شاهد وأعظم برهان .

ثم أن ملكات الإنسان الشعورية واللاشعورية مترابطة متماسكة يفتقر بعضها الى بعض ولا يغني بعضها عن بعض ، وهي تتآزر جميعاً للقيام بالعمل الواحد وتجنّد للوصول إلى هدف واحد ، حتى إن كل فاعلية يقوم بها الإنسان تحتاج إلى نشاطه كله ، لا فرق في ذلك بين مجال الدين أو التفلسف وميدان الأخلاق أو التصوف ، وسواء تعلق الأمر بالعلم أو الادب أو الفن . فالإنسان وحده كلية تجده كله في سيرورات عملية التفلسف والشعر والتخيل والانفعال والمحاكمات العقلية والمنطقية . والإنسان كله هو الذي يفكر ويتدين ويتفلسف ويتخيل ويبدع . الإنسان كله هو صاحب العملية النفسية والفكرية والدينية

والفنية. فالتفلسف مثلاً يحتاج إلى جهد واع وغير واع أيضاً . فهو يحتاج إلى طاقات عقلية ووجدانية وإرادة ترمي إلى غاية محددة، متأثرة بظروف واوضاع المجتمع والمرحلة التاريخية والحضارية . إنه لا يرى النور إلا بفعل الطاقة الهائلة التي تنفجر على الساحة النفسية وتسخر جميع القدرات الكامنة فيها لخدمة عملية التفلسف وانضاج فعلها . وكذلك لا بد من أن تتضامن جميع قوى النفس في عملية الإنسحاق الديني وخدمة أغراضه وغاياته . فالإنسان لكي يدرك أقل ملامح الوجود ويفهم أحقر الموجودات يجب ان يتوافر له ـ على تفاوت في ذلك ـ خيال الشاعر ، وإيمان النبي ، وتجربة العالم ، وتجرد الراهب وانضباط الجندي ، وشجاعة المناضل ، وإرادة الاخلاقي ، وتأمل الفيلسوف، ودقة المنطقي ، وتحليل الرياضي ، والهام المتصوف ، وإخلاص العاشق ، ودأب المتعبد ، وخضوع المطيع ، وحساسية الشاعر والفنان . . الخ .

ففي الإنسان فاعلية مستمرة من التنظيم تشمل مجالات الشعور وما تحت الشعور وتسهم في كل وجه من وجوه النشاط الإنسان عقلياً كان أو غير عقلي ، اسهامها في وجوه فاعلياته الاخرى . وهذه الفاعلية الناشطة تتأثر بمشاغلنا واهتماماتنا واستعداداتنا . فتجمح بنا الى هذه الجهة أو تلك تبعاً لما يثيرنا أو وفقاً لما نحن مهيأون له ، حتى ليخيل إلينا أن النشاط الواحد لا يحتاج منا إلى أكثر من عامل واحد والضغط على زرٍ واحد ، وما درينا أن عوامل متعددة وأزراراً كثيرة اشتركت في الفاعلية الواحدة . لكن هذا الإشتراك لم يكن على مستوى واحد ، ولا عمق واحد ، ولا على درجةٍ واحدة من التركيز والنضج . فكان بعضها أظهر من بعض ، وبعضها الآخر أخفى من بعض ، وبعضها فيما بين ذلك ، حتى تشابه الأمر علينا ، فاستولى علينا المظهر دون المخبر، وبهرنا الضوء فلم نر الظل ، واستهوانا المركز دون الحواشي ، وحَسِبْنا التعقيد غاية من البساطة .

وهكذا ، فالوعي الديني لا يختلف في نشأته عن الوعي العقلي ، حتى إن كل لحظة من لحظات التدين العميق تهز الإنسان كله وتتحدى جميع طاقاته . فكلاهما ينبثق من ينبوع واحد ، ويغتذي بمعايير المعرفة وقيم الحقيقة اغتذاءه بنوازع القلب وأخيلة الروح ، ثم يتخذ بعد ذلك مظاهر شتى،منها ما هو ديني ومنها ما هو أخلاقي ومنها ما هو عقلي ومنها ما هو جمالي وفني، كالحديقة الواحدة مختلفة الألوان طيبة الثمرات ، عظيمة الجنى تؤتى أُكُلها كل حين .

يخلص معنا من كل هذا أن جميع إمكانيات الفلسفة والعلم كانت متوفر للعرب قبيل اتصالهم بأي لقاح أجنبي ،ومن ثم نجد أن عقلية جديدة ، وحضارة جديدة على الأبواب . فاللقاح الأجنبي لا يؤتي أُكُله في أرض موات . فهذا نبيهم قد انطلق إنطلاقته . وهذه جزيرتهم قدانتفضت،وهذا كتابهم فيه من الصعوبات ما يتحدى عقولهم ، وهذا دينهم يوفر المناخ الملائم لخمائر التفكير ، فمنطق الأشياء يقتضي أن تشهد شبه الجزيرة العربية حركة فكرية لا كالحركات وحدثاً تاريخياً لا كالأحداث ، وإنقلاباً شاملاً في المعايير والمُثل والأهداف قَلَّ أن تجود بمثله الأباد .

مسألة الخلافة وأثرها في قيام التفكير الإسلامي

توفي النبي عليه السلام ولم يستخلف أحداً من بعده ، فَمَنْ عساه أن يخلفه ويحفظ البناء الذي أقامه ؟

سؤال هام جداً لا بد من الإجابة عنه فوراً لئلا ينهار الصرح وتغرق السفينة في الأعاصير الهوجاء . فالخليفة إمام المسلمين ورئيسهم وراعيهم وربان سفينتهم وقائد مسيرتهم،إنه يجمع في شخصيته السلطتين الدينية والزمنية في آنٍ واحد . لذلك ستكون الإجابة عن هذا السؤال معقدة وستتضارب فيها الآراء وتتعارض المذاهب والإجتهادات، وستتباين الأغراض من حولها وستختلف النيات .

سؤال يُطرح أول مرة في مجتمع صحي سليم اكتملت له جميع عناصر النمو يريد منذ الآن أن يستأنف السير وحده بعد رحيل قائده . إن الصدمة قوية حقاً ، ولكن لا خطر على الدعوة ما دام النبي قد أرسى قواعد المجتمع الجديد وهيأ الأشخاص الذين سيخلفونه . فقد أنجبت الدعوة كثيراً من هؤلاء الإشخاص .

إن المشكلات إذا ثارت في المجتمع الصحي السليم كان فيها تنشيط له ودفع لعجلته وشحذ لمواهب أفراده وتفجير لطاقاتهم . وهذا كله إيذان بمولد عقلية جديدة ستتمخض عنها الأحداث .

فالمشكلات في هذه الحالة دليل المجتمع الصحي ، إنها نبض الحياة فيه ، وكلما اشتد إلحاحها اشتد نبض الحياة في أصحابها . أجل ، إن البيئة الخصبة بالمشكلات هي في الوقت نفسه وبالمقدار ذاته خصبة بالتفكير . نحن لا ننكر أن المشكلات التي ثارت في المجتمع الإسلامي الأول كان لها طابع ديني وسياسي فقد

جرَّت إليها خلافات حول الإمام وشروط الإمامة ومن هو أحق بها وأهلها الخ . لكن هذا لا أهمية له ،وإنما الذي له كل الأهمية أن كل خلاف من هذا القبيل من شأنه أن يجر المختلفين فيه إلى محاولة كل فريق تصويب رأيه بجذب نصوص العقيدة إليه وتأويلها بحسب فهمه إياها . وهذه الخلافات وإن أعطاها الباحث الطبيعة الدينية السياسية فهي من وجهة نظر مؤرخ الحياة العقلية ذات أثر كبير في تغيير مجرى التفكير على تعدد صوره وتباين أغراضه ، لأن من المتعذر وضع حد لآثار الحوادث وقصرها على بعض نواحي الحياة دون بعض . والأوصاف التي تُعطى للأحداث بأنها دينية أو عقلية أو إجتماعية أو سياسية أو اقتصادية ، إنما الغرض منها تنظيم البحوث وتسهيل معالجتها . وعلى كل حال ، أن الزمان كفيل بعد ذلك بنخلها وتنقيتها وتفريغها شيئاً فشيئاً من مضمونها الديني وملابساتها السياسية والإجتماعية قدر الإمكان ، فيتبقى من كل ذلك شذور كشذور الذهب تنمو وتنمو على قانون خاص ومنطق مرسوم . ماذا أقول ؟ إن المضمون الديني والسياسي الكثيف لمشكلة الخلافة والإمامة وما أعقبها من مشكلات أخرى ارتبطت بها ، إنما هو الدليل القاطع على أصالة الفكر العربي الإسلامي وعلى أنه وليد بيئته ونتيجة حتمية منطقية للجدل الديني السياسي الذي تفجر في العصور الإسلامية الأولى وظل يتطور ويتبلور ويتفرغ من شحناته الدينية والسياسية ، وذلك بقوته الذاتية وبما تسرب إليه من روافد خارجية وعناصر لم يتوقف عن طلبها والبحث عنها في جميع مظانها مدفوعاً بتلقائية غنية خصبة تحدوها إرادة واعية تصارع طبيعة متمردة قاسية . لقد كان كل ذلك بين يديه أداة لتحقيق ذاته واعطاء معنى لوجوده . إن الجدل الديني هو الأبُ الشرعي للجدل العقلي الذي نشأ بعد ذلك . والتفكير في المسائل الشرعية هو الذي هيأ المسلمين فيما بعد للأعمال الذهنية والنظر في العلوم الطبيعية ، وأورثهم العقلية المنهجية المنسقة التي تعالج الأمور بنظرة كلية شاملة ، وما ذلك الإ لكثرة معاناة أصحابها للتفكير في مسائل الفقه وأقضيته وقياساته . فمن السذاجة أن يُقال أن الدراسات الفقهية المعقدة غريبة عن العمل العقلي والتفكير المنهجي والنظر في العلوم والمعارف ، أو أنها تحتاج الى دأب أدنى منها وجهد أقل مؤونة .

حسبنا الآن هذا الإستطراد ولنعد الى ما كنا فيه فنقول :

عندما توفي النبي عليه السلام اشتد النزاع حول من يكون خلفاً له حتى ان

وحدة الأمة اصبحت في خطر . فقال الأنصار للمهاجرين : « منا أمير ومنكم أمير » واتفقوا على رئيسهم سعد بن عبادة الأنصاري . وفي الحال حضر أبو بكر وعمر سقيفة بني ساعدة استدراكاً لفتنة لا تُعرف عقباها . وقبل ان يبدأ الإنصار مبايعتهم لسعد مد أبو بكر يده إلى عمر فبايعه عمر وبايعه الناس وسكنت الفتنة بأعجوبة . ولما أحس أبو بكر بدنو أجله أوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب . والمعلوم أنه لم يحدث في عهد أبي بكر وعمر شيء ذو بال يفجر الصراع العقلي الذي سنحرص هنا على تتبع مساره . فكل شيء كان يجري على ما يرام . فلم تثر مشكلات ومنازعات تطلق زناد الفكر . لكن هذا الوضع بدأ يتغير على عهد عثمان . فبعد أن اتفق المسلمون « على بيعة عثمان رضي الله عنه وانتظم الأمر واستمرت الدعوة في زمانه وكثرت الفتوح وامتلأ بيت المال وعاش الخلق على أحسن خُلق وعملهم بأبسط يد »[1] ثارت الفتنة في البلاد لان أقاربه من بني أُمية استأثروا بالحكم والسلطان ، فركبوا المهالك وجاروا على المسلمين وأخذت عليه أحداث سببها كلها بنو أُمية ، ولم تسكن هذه الفتنة بعد ذلك »[2] .

تلك كانت جملة من المشكلات في مجتمع صحي سليم بدأ يقرع أبواب التاريخ .يضاف الى ذلك تلك الصدمة التي أحدثها مصرع عثمان في مشاعر المسلمين ، مما كان من شأنه ان يشحن الطاقات ويفجر المواهب أيضاً من جديد .

وهناك جملة أخرى من المشكلات أخذت تهز المجتمع الجديد من القواعد وتتوالى سراعا بما يكفي لقيام المدارس في مذاهب الفكر والعقيدة . لقد كانت الهزات التي تحدثها المشكلات قبل الآن أقل من أن تضع الفكر الإسلامي في طريق أصحاب التيارات والمدارس ، وأما الآن فإن الهزات ستعقبها هزات وسنرى المشكلات تترى ، لتفجر طاقات كانت كامنة حتى عهد قريب ، كالنار وقعت على هشيم يابس .

والحق أن المدارس الفكرية في الإسلام تدين لعلي بن أبي طالب وعهده بدين كبير .

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ١ / ٢٦ .

(٢) المصدر السابق .

إن حال التوتر وعدم الإستقرار التي كان يتسم بها المجتمع الإسلامي في زمان علي ـ وهو مجتمع صحي سليم كما اسلفنا ـ كانا من العوامل الحاسمة التي وضعت المسلمين في طريق قادة الفكر وأصحاب المذاهب وجعلت منهم أمة في الطليعة . فالمرحلة التي تسلم فيها زمام الأمور كانت من أخطر المراحل التي مر بها المسلمون في عصورهم الأولى . ولولا أن المجتمع الذي ثارت فيه هذه المشكلات مجتمع صحي سليم نواكبه ثلة مخلصة من قادة الرأي لاطيح به سريعاً غير أن المشكلات التي ثارت بدلاً من أن تطيح به آنذاك كانت من عوامل بنائه .

التحكيم يعجل في نمو الفكر الإسلامي

ففي زمان عليّ كان خروجُ طلحة والزبير الى مكة ، ثم حملُ عائشة إلى البصرة ثم نصبُ القتال معه ويُعرف ذلك بحرب الجمل . فأما طلحة والزبير فقد رجعا وتابا ، وأما عائشة فكانت محمولة على ما فعلت ثم تـابت بعد ذلك ورجعت . ولكن الخلاف الأكبر الذي كانت له ذيول ومضاعفات لا حصر لها فإنما هو الخلاف بين علي ومعاوية وما نتج عنه في معركة صفين ومخالفة الخوارج، وحملهم علياً على التحكيم ومغادرة عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري .

لم يجن عليّ من هذا التحكيم إلا الشوك والعلقم ، فبه فَقَد طائفة من خاصة أتباعه . فهو بحكم الشرع أمير المؤمنين فكيف يقبل بالتحكيم ؟ إن مجرد قبوله به يثير الشك في شرعيته ، وبذلك فَقَدَ حقه في خلافة المسلمين . وهؤلاء المنشقون الذين خرجوا عليه بعد ان كانوا أشد الناس اخلاصاً له وبراً به هم الخوارج ، ويُقال لهم النواصب جمع ناصبي ، وهو الغالي في بغض علي بن أبي طالب ومناصبته العداء . وهم أول فرقة في الإسلام .

وللخوارج أهمية كبيرة جداً في تطور الفكر الإسلامي برغم ما يؤخذ عليهم من تصديع وحدة المسلمين . وهم طوائف كثيرة تختلف فيما بينها في بعض التفاصيل ، لكن يجمعهم القول في التبري من عثمان وعليّ ، ويقدمون ذلك على كل طاعة ، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك، ويُكفروِّن أصحاب الكبائر ، ويرون الخروج على الإمام اذا خالف السنة حقاً وواجباً[1]

---

(١) المصدر السابق صفحة ١١٥ .

لقد كانت حركة الخوارج حركة فطرية بدوية تتميز بالتطرف والتصلب في العقيدة وإعلان الرأي بصراحة والدفاع عنه بقوة لا هوادة فيها ، فقد أظهروا في الدفاع عن آرائهمْ بسالة نادرة لا تظهر في التاريخ الا في أزمنة وضاءة غنية بالتضحية والفداء في سبيل ما يرون أنه الحق .

وعلى نقيض الخوارج كان الشيعة، وهم أصحاب علي وشيعته الذين ظلوا مخلصين له حتى بعد موقعة صفين والذين لم يزدهم سفك دمه الا تعلقاً به . لقد قالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية إما جلياً وإما خفياً وأكدوا أن الإمامة لا يجوز أن تخرج من أولاده بعده. فالإمامة عندهم ليست قضية مصلحية تناط بإختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ، إنها ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم السلام وإغفاله وإهماله ولا تفويضه الى العامة وإرساله ، كما يقول الشهرستاني[1] .

وهم كالخوارج طوائف كثيرة يجمعهم القول بوجوب تعيين الإمام والنص عليه ، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر[2] .

وعلى كل حال نجد أن حركة التشيع مضادة في أكثر صورها لحركة الخوارج . فالتصلب في الرأي الذي يتسم به موقف الخوارج يقابله مرونة عند الشيعة . ومن هذه الناحية فإن حركة التشيع أرقى نوعاً ما من حركة الخوارج الجامدين، لأنها أكثر واقعية وأكثر ذكاء، لقولها بالتقية أي مدارة أولي الأمر. ولذلك رسخت في نفوس كثيرة وفي بلدان واسعة ، وخلافاً للخوارج الذين لا يجيزون إنتقال الإمامة بالوراثة بل يقولون بامكان الإستغناء عنها .وبذلك يذهبون بالديمقراطية الى أبعد مدى ـ نجد الشيعة ينادون بامامة بيروقراطية أساسها الحق الإلهي الذي هو لآل البيت . وبهم تستحيل المقاومة العلنية التي كان يبديها الخوارج الى مقاومة سرية ، إذ ينادون بالتقية اي مداراة أولي الأمر والعمل في الخفاء على تقويض حكمهم، بينما يندد الخوارج بمبدأ التقية ويستحلون دم القائلين به .

يتبين مما تقدم أن الخوارج والشيعة على طرفي نقيض او يكادان يكونان كذلك

(١) المصدر السابق ١ / ١٤٦ .
(٢) المصدر السابق .

فمنطق الحوادث يقتضي ظهور فرقة ثالثة تتخذ موقفاً وسطا ويكون لها شَبَه بكليهما . هذه هي فرقة المرجئة . فإذا كان الخوارج يوحدون بين الإيمان القلبي والعمل بالجوارح لا فرق في ذلك بين الكبائر والصغائر ، فالمرجئة يفصلون بينهما إذ يقولون إن الأصل في الدين إنما هو الإيمان لا العمل. فمن آمن بالله ورسوله ثم اقترف ذنباً ، كبيراً كان أو صغيراً ، أو ترك فريضة أو قصر في عبادة، ظل مؤمناً . فالإيمان إنما هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء به من عند الله ، وأمّا ما سوى هذه المعرفة من الإقرار باللسان والعمل بالجوارح فليس بإيمان . فلا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وهناك فرقة أخيرة تمخضت عنها احداث السياسة تشبه المرجئة والخوارج والشيعة وتأخذ من كل منها بطرف ، وبذلك تسد الثغرة بين الفرق الثلاث أو تكاد ، وتتقارب جملة الآراء فيها . إذ يبدو أن تصلب الخوارج وتساهل المرجئة أحدثا توتراً في بعض النفوس ، مما كان سبباً في ظهور مذهب اعتزل أصحابه قول الخوارج وقول المرجئة ، هذا هو مذهب المعتزلة الاولى أسلاف المعتزلة المتأخرة ، معتزلة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ومن جاء بعدهما . فالمعتزلة الأولى اعتزل أصحابها عن علي وامتنعوا عن محاربته والمحاربة معه بعد دخولهم بيعته والرضى به ، فسموا المعتزلة وصاروا أسلاف المعتزلة الى آخر الدهر كما يقول النوبختي في كتابه (فرق الشيعة) ، وقالوا لا يحل قتال علي ولا القتال معه . وبذلك اعتزلوا الفتنة ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة .

وهكذا نرى كيف أن طائفة من الأفكار والنظريات لا عهد لها لبادية العرب بها قد تمخضت عنها مسألتان دينيتان سياسيتان فالشرارة الأولى إنما إنطلقت عند بحث مسألة الخلافة، والشرارة الثانية عندما لجأ علي ومعاوية إلى التحكيم . ولا بد أن تجد كل نظرية من هذه النظريات وكل فكرة من هذه الأفكار نصيراً يؤيدها أو معارضاً ينقضها أو محايداً لا يبالي بها ولا يتخذ أي موقف منها . وبتلاقح هذه النظريات والأفكار التي إنما نبتت في بطن الصحراء والتي تتميز بفجاجة البدو وبساطة عقولهم وما أعقب ذلك من محاولة كل فريق تأييد وجهة نظره هو أو معارضة وجهة نظر خصمه معتمداً على الكتاب والسنة ، أقول بذلك بدأت تتكون النواة الأولى للفكر الإسلامي .

طغيان بني أمية يعطي للفكر الإسلامي زخماً جديداً

وسيتمخض الدين والسياسة عن مشكلات أخرى، لكن ذلك سيكون في هذه المرة خارج بادية العرب .

فقد كان بنو أمية يعلمون أن دولتهم لا يرضى عنها كثير من المؤمنين برغم ما كان للأمويين من فضل على الإسلام في توسيع رقعته . ولم يكونوا يجهلون أنهم في نظر كثير من رعاياهم قد وصلوا إلى السلطة بالخديعة والغدر والقهر وغير ذلك من الوسائل التي لا يقرها الدين . هذه مشكلة هامة تواجههم الآن وتحتاج إلى حل سريع وإلا أطيح بهم . فليطلبوا سنداً من الكتاب والسنة إن كان ذلك ممكناً ، لأن المجتمع ديني والحساسيات الدينية لا تزال جياشة لها الغلبة والسلطان . فلو أمكن تسخير القرآن لمصالح الحكم إذن فقد استطاعوا إمساك الأمة بالعنان وصرفها عن الشغب عليهم . وهذا ما فعلوه وهمسوا بذلك إلى بعض أعوانهم من قادة الرأي الذين توسموا فيهم القدرة والإستعداد لتولي هذه المهمة . فنقب هؤلاء عما في القرآن الكريم من آيات ربما تُشعر بالجبر ليستغلوها في الدفاع عن الحكم الأموي . فالله قدَّر أزلاً ان تصل أُسرة بني أُمية إلى الحكم ، وهو الذي قضى أن يبدو من هذه الأسرة ما نرى من أعمال الظلم والعسف والقهر والطغيان، فلا حيلة لأحد في تجنب قضاء الله ، وما قُدِّر، يكنْ . جفّت الأقلام وطُويت الصحف، فليس في الإمكان أبدع مما كان .

ولم تعدم هذه الدعوى مفكرين وشعراء وعمالاً جندوا أنفسهم لمناصرتها والمنافحة عنها، وتهيئة العقول والأفئدة لقبول فكرة الجبر التي كانت دعامة حكم الأمويين ، إما إقتناعاً بها وتصديقاً لها وإما ممالأة للسلطات ورجال الحكم . ومهما تكن النوايا والطوايا فيمكن أن نعدَّ جهم بن صفوان في مقدمة المنظرين للجبرية في بواكيرها الإولى . فباستغلاله لبعض الآيات التي يؤيد ظاهرها الجبر لم يترك للانسان قدرة على أفعاله . فالإنسان في نظره لا يستطيع شيئاً البتة ، إنه كريشة في مهب الرياح ، فليس له قدرة ولا إرادة ولا إختيار ، لان أفعاله كلها مخلوقة لله كأي شيء آخر . إننا إذ نُسند الى الإنسان أفعال ذاته فإنما يكون ذلك منا على سبيل المجاز لا الحقيقة ، وشأننا في هذا كشأننا عندما نسند إلى الأشياء أفعالاً

ليست لها إرادة فيها ، فنقول مثلاً : أثمرت الشجرة وجرى الماء وأمطرت السماء وزالت الشمس الخ . وإنما فعل ذلك بالشجرة والماء والسماء والشمس الله سبحانه وتعالى ، الإ أنه خلق للانسان قوة كان بها الفعل ، وخلق له إرادة الفعل واختياراً له ينفرد به ، كما خلق له طولاً ولوناً ينفرد بهما . فلا خالق إلا الله فاذا جعلنا الإنسان خالقاً لأفعاله أشركنا بالله إلهاً آخر وقلنا بخالقَيْن في الكون ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وأما الآيات التي ربما تشعر بالإختيار فيجب تأويلها .

وكان جهم أيضاً ينتحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويقول ان الجنة والنار تفنيان ، وإن الإيمان هو المعرفة بالله فقط ، والكفر هو الجهل به فقط[1] .

إن السبب النظري الظاهر الذي حمل جهم بن صفوان على القول بالجبر إنما هو عقيدة التوحيد وحساسية الإسلام الشديدة لكل ما يعارض التوحيد . وإن عقيدة التوحيد هذه نفسها ستجره أيضاً إلى إنكار الصفات الإلهية من سمع وبصر وكلام و . . ما دامت تُشعر بالتعدد في ذات الله فهو عند جهم شرك .

فإذا قلنا إن لله صفات دل ذلك على شيئين على الأقل : ذات الله أولاً وصفاته ثانياً، والصفات فيما بينها متعددة هي ايضاً . فالسمع غير البصر وهو غير القدرة ، وغير الإرادة وهلم جرا . وبما أن القرآن صريح في دلالته على وحدانية الله فمن الضروري انكار الصفات والتوحيد بينها وبين الذات . وفضلاً عن ذلك لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقضي تشبيهاً .

لذلك اذا وجدنا في القرآن آيات تثبت الصفات لله تعالى يجب تأويلها بما يتفق وعقيدة التوحيد المطلق ولا يتعارض والتنزيه الإلهي ، ومن ثَم يجب صرفها على المجاز . فكما أننا ننسب إلى الأشياء ـ من باب الضرورة اللفظية ـ أفعالاً ليست لها فكذلك القرآن ينسب إلى الله ـ من باب الضرورة اللفظية أيضاً ـ صفات إنسانية لتقريبه الى أذهان البشر ، إذ لا يجوز أبداً حملها على ظاهرها . فاللغة لها مقتضيات وأحكام تمنع ـ في كثير من الأحَيان ـ من أخذ الألفاظ بمعانيها الحرفية .

ولكن المسلمين لم يكونوا آنذاكَ أنعاماً يسوقهم الراعي بما يهوى ويشتهي ،

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين ١ / ٣١٢ والملل ١ / ٨٦ ـ ٨٧ .

بل لقد تجرأ كثير من أرباب الرأي على تكذيب هذه الدعاوي والرد على أصحابها بالكتاب والسنة أولاً وبالحجة والمنطق ثانياً . وعلى كل حال نجد أن آراء جهم بن صفوان لم تستطيع أن تجتذب اليها جميع المسلمين ، كشأن كل دعوى في المجتمعات الإنسانية تجد دائماً من يناصرها ومن يعارضها على درجات مختلفة ، وما من دعوة في التاريخ انعقد عليها اجماع قط . هذه هي طبيعة الفكر في كل زمان ومكان . فاذا وجدت الجهمية من يتحمس لها ويدافع عنها فقد هب كثير من قادة الرأي والنظر لمقاومتها ، وأبدوا في الرد عليها نشاطاً كبيراً . ومما حملهم على الرد أنها دعوة صريحة إلى إبطال التكاليف الشرعية وحث على الكسل والتوكل والركون إلى القَدَر ، فضلاً عن أنها فتحت الباب واسعاً أمام تأويل القرآن وتحميل الآيات فوق طاقتها ، هذا إلى ما ذكرنا من أنها تأييد مباشر للقمع الأموي وممالأة الحكام ، كما انها أخيراً تنسب الظلم الى الله . وقد تصدت لها فرقة القَدَرية ، وهي جماعة تنكر على رجال السلطة دعواهم وتعتمد هي أيضاً على أدلة من الكتاب والسنة ، فضلاً عن دلائل العقل والمنطق . والقدرية حركة داخلية صرف يقتضيها منطق الأشياء وديالكتيك الأحداث ، إذ لا يُعقل ان يقف المسلمون جميعاً على اختلاف طبقاتهم مكتوفي الأيدي أمام طغيان الحكام من غير أن يبدوا معارضة ما ، نظرية على الأقل ومن غير أن يتخذوا موقفاً من مواكب الأفكار التي تبرز على المسرح أمامهم ، وهي كما قلنا أفكار لا يمكن ان ينعقد عليها إجماع أبداً ، ولكن ذلك لا يمنع أن تتغذى المقاومة ولا سيما وقد خرجت المعركة من بادية العرب - بخبرات الأمم الأخرى وما تراكم لديها من تجارب ومكتسبات في بلاد الشام وأرض العراق .

وهكذا نشأت الحركة القَدَرية في العالم الإسلامي أول مرة ، وكان لها مؤيدون كثيرون أبرزهم معبد الجهني وغيلان الدمشقي . وحجتهم في ذلك ان عدلَ الله يقتضي أن يكون الإنسان مختاراً في افعاله اذا كان سيثيبه عليها في الدار الآخرة ، وإلا بطل التكليف ونُسب الظلم الى الله . وكما وجدت الجهمية من يعارض ما فيها من جبر،كذلك وجدت من يعارض ما فيها من تنزيه وما تدعو اليه من تعطيل للصفات الإلّهية . إنها الصفاتية التي تثبت الصفات لله تعالى ، فوقع غلاتها في هوة التجسيم والتشبيه . فهم ينادون بفهم نصوص القرآن فهماً حرفياً لا يُعبأ فيه بالضرورات اللفظية وأحكامها . فللّه يد يمسك بها،وعرشٌ يستوي عليه، ، وله صفات كصفات الإنسان .

وبين هؤلاء وأولئك يقف السلف الذين « يسلكون طريق السلامة». فقالوا نؤمن بما ورد في الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل،بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات وأن كل ما يتمثّل في الوهم فانه خالقه ومقدره. وكانوا يحترزون عن التشبيه إلى غاية أن قالوا من حرك يده عند قراءة قوله تعالى: ﴿ خلقت بيدي ﴾ ، أو أشار بأصبعه عند روايته « قلب المؤمن بين أصبعين من اصابع الرحمن » وجب قطع يده وقلع اصبعه »[1] .

ذابت القدرية وجانب نفي الصفات من الجهمية في فرقة المعتزلة المتأخرة التي ستتمخض عنها الأحداث قريباً ، ولم يعد لهما وجود مستقل . وكثيراً ما تسمى المعتزلة باسم (القَدَرية) إما لنفيهم القَدَر السابق، وإما لأنهم أثبتوا للإنسان قدرة على الفعل والترك .

وهكذا نرى أن عقيدة الجبر كانت سبباً في عقيدة الإختيار ، ونظرية نفي الصفات اقتضت ظهور نظرية إثبات الصفات ، ونظرية التنزيه استتبعت قيام نظرية التشبيه . وهكذا برز الخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة من قبل ، أي إن كل ذلك إنما حصل بضرورات داخلية صرف كان عنصر الإقتباس فيها ـ عندما يثبت بالدليل القطعي لا رجماً بالظنون والأوهام وبافتعال التأويلات والإجتهادات التي يكون رائدها تجريد العرب من كل أصالة في الرأي والفكر ـ عاملاً مساعداً فقط يغذي حركات واتجاهات كانت بذورها قائمة من قبل ويحل معضلات ومشكلات وليدة بيئتها نشأت جميعاً في بلاد الإسلام . ان هذه المشكلات والمعضلات قد أثارت عقول المسلمين وأفئدتهم قروناً طويلة . فلو لم تكن مشكلاتهم هم ، ولو لم تكن نابعة من أعماق وجودهم ومن مقتضيات أحوالهم، إذن لما كانوا تحمسوا لها ولما استفرغوا غاية الجهد والوكد في حلها .

نعم إن بعض هذه الحركات قد تبدو لنا اليوم ـ ونحن ننظر إليها من مسافات زمانية ومكانية بعيدة ـ حركات أقرب الى أن تكون ساذجة وبدائية . ولكن لا بأس . فحسبها أنها كانت أساساً صالحاً للنشاط الذي لم يكد يشتد ساعده حتى وجدنا أنفسنا لأول مرة أمام حركة عقلية جدية حاولت أن تفيد من جميع الأدوات العلمية والفلسفية الميسورة في ذلك العصر . وانتهى الأمر بظهور

(١) الملل والنحل ١ / ١٠٤ ، أنظر أيضاً ١ / ٩٢ ـ ٩٣ . ومقالات الإسلاميين ١ / ٣٢٠ ـ ٣٢٥ .

ثُلة من العلماء والفلاسفة العظام الذين كانوا غرة في جبين العصور الوسطى كلها . لقد انتفض المارد الجبار واتخذ طريقه الى الشمس .

فاذا كان للدين تلك الأهمية التي أسلفنا القول فيها ، وإذا كان الإسلام قد هيأ للعرب الحوافز التي لا بد منها لتفجير العقول بالطاقة الكافية لوضعهم في طريق البحث العلمي والتفكير الفلسفي ، وإذا كان القرآن فيه من الصعوبات ما يتحدى التفكير العادي فضلاً عن التفكير الذي ينزع به الفضول منازع الشطط ، وإذا كانت الخلافات والمنازعات التي أعقبت موت النبي عليه السلام قد أثارت من المشكلات ما لا حصر له ، منها الديني ومنها العقلي ومنها الإقتصادي ومنها السياسي والأخلاقي والعسكري . . . وأخيراً إذا كان الإجتهاد في الرأي وطلب العلم والتفكير في خلق السموات والأرض فريضة على كل مسلم ومسلمة ـ أقول إذا كان الحدث العظيم الذي تمخض عنه شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد مشحوناً بكل هذه الطاقات ، فلا نستغربنَّ تلك الإنتفاضة العظيمة التي نقلت العرب من جزيرتهم وهزت أقطار آسيا وأوروبا وأفريقيا .

وعلى كل حال ، نجد أن الإسلام قبل أن ينجب علماءه وفلاسفته أنجب عدداً من الحركات الفكرية التي وضعت ـ برغم الصبغة الدينية السياسية التي غلبت عليها ـ أساساً صالحاً للنشاط العقلي الخالص الذي سيقوم به الباحثون عن الحقيقة فيما بعد ، لقد انبثق الفكر الإسلامي وانتعش وتكونت نواته، ولسوف تنمو هذه النواة نمواً ذاتياً بغير لقاح أجنبي . فكيف إذا جاءها اللقاح .

والخلاصة إن التفكير العربي الإسلامي قد تكوّن بإنطلاقه محمد بن عبد الله وسيتطور هذا التفكير بعد أن وجد الجو الأساسي لتطور التفكير . واستتبع ذلك قيام مشكلات تحتاج إلى حل سريع، فوضعت لهذه المشكلات حلول مختلفة على ضوء الكتاب والسنة وبضغط الظروف والأحوال المستجدة التي أخذت تحيط بالمسلمين وتؤثر في حياتهم كلما تطاول بهم الزمن .

وهكذا وجدت نواة للفكر الإسلامي جعلت تنمو وتنمو لا بالترسب من خارج كما هي الحال في البلوريات ،بل من الداخل كما ينمو الكائن الحي ، أي بطرح مشكلات تنبجس من صميم الجماعة الإسلامية الناشئة،ومن أحوال هذه الجماعة،ومن طريقة تفكير المسلمين وتصورهم لله والإنسان والعالم .

نحن لا ننكر أن المذاهب والآراء التي تمخضت عنها هذه المنازعات لم يكن الباعث عليها باديء ذي بدء نظرياً معرفياً ، بل كان رائدها ـ وهذا ما لا نمل تكراره ـ الدين أولاً وأغراض السياسة ثانياً . ولكن لا ضير عليها ولا حرج لأنها ستتطور قريباً إلى منازعات نظرية على يد المتكلمين بعد أن أوجد الجدل الديني السياسي الأساس والقاعدة لهذا التطور الذي سيبلغ غاية مداه على أيدي العلماء والفلاسفة التجريديين .

لقد أصبح في متناول المفكرين المسلمين الآن ثروة لا يستهان بها من المصطلحات والأفكار الجديدة التي إنما نبتت في بيئتهم، كالجبر والإختيار، والتنزيه والتشبيه، والوصف والتعطيل . كذلك ظهرت أول مرة بين المسلمين فكرة المعنى الحرفي والمعنى التأويلي لألفاظ القرآن ، كما بُحثت أول مرة شروط الخلافة والأمة ودرجات الإيمان وصلة الإيمان بالأعمال ، والحق الإلهي لآل البيت وتجريدهم من هذا الحق . . إلى غير ذلك من بحوث وموضوعات لا عهد لبادية العرب بها ، ولا يخفى أوجه الشبه بينها وبين البحث العلمي والفلسفي .

والآن وقد تكونت نواة التفكير عند العرب ـ أي وجد الأساس العلمي والقاعدة الفكرية لتطور الحياة العقلية عند المسلمين وبعد أن أحس هؤلاء بأوجه النقص والفجاجة في طرق معالجتهم للمشكلات والقضايا المطروحة ، اذ لم تكن هذه المعالجة تحمل حتى الآن طابع العلم الخالص والبحث المنظم والتفكير العميق القائم على النظر العقلي وصياغة المفاهيم ـ كيف لا ولم يكن لديهم منهج عام للبحث ولا مقياس واحد يتعرف منه اليقين ؟ بل لقد كان معظم تفكيرهم قائماً على النصوص وتفسيرها . كما كان عامل الشخصية الفردية عندهم المؤثر الأكبر في تكييف الآراء واصدار الأحكام . وعلى الجملة فلقد كان تفكيرهم مرتبطاً بالنصوص محصوراً في نطاقها لا يتطلع إلى ما وراء ذلك ، ولكن سيأتي زمان ـ ولن يكون بعيداً ـ يتطور فيه هذا التفكير وسيتحول من دائرة التفكير الفردي المرتبط بالنصوص إلى تفكير منهجي يتعمق في درس القضايا في ذاتها، فلا يرجع إلى النصوص إلا لتكون سنداً للنظر العقلي وشاهداً على صحة هذا النظر. وسيأتي بعد ذلك زمان يتطور فيه التفكير ويتحرر من وصاية النصوص لينطلق في أجواء بعيدة جداً عن هذه النصوص ، باحثاً منقباً معتمداً على قوته الذاتية لا هم له إلا الوصول الى الحقيقة والبحث عنها في جميع مظانها .

لقد خطا المسلمون الخطوة الأولى في هذا الطريق وحدهم، ولا بأس بعد ذلك أن يطلبوا العون من غيرهم ليقطعوا أشواطاً أخرى في الطريق الذي لا يرون له من نهاية . لذلك فقد راحوا يتطلعون الى آفاق أوسع ليكملوا معارفهم ويتعلموا من الشعوب التي هي أعرق منهم في العلم والحضارة، وأرسخ قدماً في طريق البحث ومنهج التفكير فضلاً عن المادة الغزيرة .

والآن كيف تمت النُقلة ؟ وكيف حصل العبور من الجدل الديني الى اهتمام بالبحث العلمي والفلسفي ؟ لم يكن للعرب قبل الإسلام شخصية عقلية واعية بالمعنى الصحيح، ومن ثم لم تكن عندهم نواة للتفكير المدروس المنظم. فلما جاء الإسلام طرأت تغيرات عميقة على شبه الجزيرة العربية والمنطقة المحيطة بها، فاستتبع ذلك نشوء مجتمع جديد له حاجات وهموم ومشكلات وآمال وأهداف وقيم ومثل جديدة، وبذلك فقد أتيحت فرص للتفكير وإجهاد القرائح لا عهد للعرب بها من قبل. فالأمر كله إذن مرهون بالنواة التي تكونت وبحاجة هذه النواة الى الإكتمال والنضج ، ولا يكون ذلك إلا باستمرار التغذي وطلب الرفد ومواصلة الجهد في البحث عن الحقيقة والإخلاص لها والصدق في سبيل الوصول إليها . يجب الإبقاء على الدوافع النبيلة والمُثل الرفيعة التي رافقت تكوين النواة وعلى الآمال الجياشة التي تحركها وتبث الحياة فيها .

إن الخطوة الأولى هي دائماً أصعب الخطوات وقد خطا العرب هذه الخطوة وانطلقوا في المغامرة الكبرى وما تبقى بعد ذلك فإنما هو مسألة زمان واستمرار وتكامل . فالزيت الذي يضمن للشعلة أن تستمر وللجذوة أن تبقى ليس كله في حوزة العرب . فلا بد أن يستوردوه من خارج بلادهم . فلا غرابة بعد ذلك أن يندفعوا في طلب العلم والتماسه في كل أفق ومورد . لقد كانت نفوسهم غرثى عطشى لا يروي ظمأها إلا العلم ولا يسد رمقها إلا المعرفة ، حتى إذا خرجوا من عقر داوهم واخترقوا الآفاق وفتحوا البلاد والأمصار ، بدأوا يغترفون من ثقافات هذه البلاد ويستقون من مناهلها . هاهم أولاء الآن وجهاً لوجه مع العالم الجديد الزاخر بالصور والأحداث والأفكار والحضارات ، وأمامهم مئات المفكرين والباحثين والمثقفين وألوان من الناس والأمزجة والمواقف والخبرات لقد خرج المارد الجبار من القمقم ليصنع التاريخ ويتولى بنفسه قيادة الأحداث .

إن الجدل الديني في المجتمع الصحي السليم كان بداية التحرك للمغامرة

الكبرى . قبل أن تنطلق السفينة الى حيث تريد كان لا بد من أن تقَطع وتغادر المرسى لتمخر عباب أليم وسط العواصف والأعاصير. وليس الإقلاع عملية سهلة ، ولا سيما إذا كان الماء عند الشاطىء ضحلاً وكان الطريق إلى أعالي البحار مليئاً بالصخور والخلجان والشعاب المرجانية . فالإقلاع يحتاج الى مجموعة من الصفات لا تتوافر لكل إنسان، كما أن السير في أعالي البحار يحتاج الى مجموعة أخرى من الصفات لا بد منها للابقاء على توازن السفينة وقيادتها في اللج .لقد أقلع العرب الآن بالسفينة وانطلقوا يشقون طريقهم وسط عباب اليم . إن الجدل الديني غطاء لاهتمامات كبيرة تشغل المسلمين لم تكن تشغلهم من قبل . أجل إن الجدل الديني في هذه الحالة يخفي تحته صراعاً داخلياً يحرك الشخصية ويثيرها ، وينعكس في حركات ظاهرية يمكن قراءتها قراءة علمية لاستنطاق مكامن الصمت في هذه الحركات التي لا تقول كل شيء،وللتوصل الى رؤية الحركة الباطنية في مجراها الحقيقي الذي تتوارى فيه القوى الفاعلة والدوافع الأساسية .

إن الجدل الديني قبل أن يتحول إلى اهتمام بالعلوم والفلسفة يجب أن تتوافر له بعض الصفات التي رأينا طرفاً منها . فإذا أردنا استنطاق هذا الجدل في مرحلته تلك ونقبنا فيه وحللناه الى عناصره الأولى وجدنا تحت الغطاء الديني الكثيف مجموعة من القيم والمُثل والمعاني كان على رأسها طلب الحكمة والبحث عن الحقيقة والشغف بالوصول اليها . وقد فعل العرب ذلك بتصميم أكيد وعزيمة قوية والتزام كلي .

وآية ذلك ما أبدوه من حماسة للمعرفة تجاوبت اصداؤها في طول البلاد وعرضها لقد وجدوا في هذا الجدل حلاً لمشكلاتهم. يؤيد ذلك العددُ الكبيرُ من المدارس الفكرية التي ظهرت قبل أن ينقضي القرن الأول للهجرة . لقد كان كل شيء ينتظر الشرارة الأولى، وهي مشكلة الخلافة. حتى إذا انطلقت هذه الشرارة برزت أربع مدارس في الرأي دفعة واحدة . وعندما انطلقت الشرارة الثانية وهي معركة صفين وما أعقبها من مشكلات وأزمات برزت مدارس أخرى تفاعل بعضها ببعض واصطرع بعضها ببعض . والرأي كان يجر الرأي ، والفكرة تشحذ بالفكرة لقد تكونت النواة . لقد أقلعت السفينة بأمان وغادرت الصخور والخلجان ويمكنها الآن أن تذهب الى حيث تشاء .

لقد شغف العرب بالعلم والمعرفة شغفاً لا نظير له إلا في عصور التطورات

التاريخية الكبرى . وقد ظهر ذلك واضحاً جلياً فيما بعد في تنافس الحكام والولاة والوزراء والخلفاء في أعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد في الإنفاق على بيوت العلم ومساعدة الفقراء في طلبه . وأعظم ما يذكر لهم في هذا المجال الأثر الكبير الذي قامت به الكتب الأجنبية في حروب تلك العصور والطريقة التي جلبت بها . فقد كانت المخطوطات الإغريقية على رأس تعويضات الحرب التي خاضها الخلفاء مع الروم ، فكان هؤلاء عقب المعارك التي هزمهم المسلمون فيها ـ كعمورية مثلاً ـ يسعدون بتسليم ما عندهم من مخطوطات والتخلص منها بقدر ما سعد العرب بالظفر بهذه المخطوطات وقراءتها وتحصيل المتعة والفكرة التي تنطوي عليها ، هذا على الرغم من أن أولي الأمر في القسطنطينية كانوا يضنون بها على طوائف السريان في الشرق ويعدونها من الكنوز الثمينة التي لا يجوز التفريط فيها . وكثرت بعثات بغداد وقرطبة إلى بلاد الروم . لقد كانت هذه بعثات حضارية فريدة في التاريخ ، فقد حرصت على شراء مخطوطات الإغريق بأيِ ثمن والتنقيب عما اختفى منها في الأقبية والسراديب، وإنقاذ ما كان منها مهدداً بالتلف والفناء. وأصابت تلك البعثات من النجاح ما فاق كل تقدير .

يضاف إلى ذلك أن الدين ـ كل دين ـ في مراحله الإولى إندفاع وحماسة وعواطف جياشة ، لكنه في المرحلة الثانية يقل الجيشان العاطفي فيه ليحل محله الهدوء والتفكير المنهجي ، ويتخفف من شحناته الحماسية كلما تقدم به الزمن، ويتبلور بمضي الوقت في صيغ من التحرك الواعي المدروس الذي يتشعب في اتجاهات ومواقف تتفاوت في نصيبها من الدفء الديني والبرود المنطقي . وأما المرحلة الثالثة فهي طقوس وشعائر ورسوم جامدة فقدت روحها ولب لبابها .

وهكذا فقد كان الإسلام في مرحلته الثانية منطلقاً لمدارس وأفكار منها الصوفي ومنها الفلسفي . وقد تدخلت الحاجات العملية للتعجيل ببعض هذه الحركات دون بعض وتغليب بعضها على بعض . وما هي الإ أن تحققت من هذه الحاجات واستغنت عن ضغوطها المادية وإنتهت إلى معارف تُطلب لذتها بعد أن كانت تُطلب سنداً للدين وحاجات الإيمان ، أو لتحقيق منفعة دينونة عاجلة . فنجد مثلاً أن العرب ـ بعد التوسع في الفتوح ووفرة الخراج واستفحال الحضارة ـ احتاجوا إلى علوم تسهل عليهم القيام بفروضهم الدينية التي تعتمد على الحساب والتقويم والتوقيت ، وتساعدهم على تنظيم شؤونهم المالية وضبط حساباتهم ،

ومن هنا أقبلوا على دراسة الرياضة والهيئة لضبط الزكاة ومعرفة الأهِلَّة وتحديد القبلة وأوقات الصلاة . ويدخل في هذا الباب أيضاً حاجتهم إلى علاجات جديدة غير علاجات البادية البسيطة بعد أن ترهلت أجسامهم وفشت فيهم أمراض الحضر ، نتيجة لانغماسهم في الترف وتهالكهم على المآكل الدسمة التي اتقنها الفرس والروم .

كما أن العرب عندما خرجوا من عالمهم الضحل الهزيل وأقبلوا على عالم غني بالأفكار والمعاني وهبُّوا ليصنعوا عالمهم الجديد ونهضتهم الفذة ، أحسوا بالحاجة إلى أساس نظري للدين يساعدهم على الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه أمام المخالفين والمنكرين الذين هم أكثر ثقافة من العرب وأعرق منهم في العلم والحضارة . فلا بد لهم والحالة هذه من اصطناع وسائل هؤلاء المخالفين والمنكرين في الرد عليهم وعلى الخصوم والمبتدعة من المشاركين لهم في الملة . فقد كان الجدل الديني والعقائدي على أشده بين المسلمين بعضهم مع بعض وبينهم وبين المشركين وأهل الكتاب . فكان لا بد من الإطلاع على الفلسفة اليونانية ليتثقفوا بها وعلى المنطق اليوناني ليسترشدوا به في تنظيم الحجج وترتيب البراهين ، ويكونوا أكفاء لأهل الكتاب علماً وثقافة واستخداماً لأساليب الحجاج والمجادلة . فالجدل الديني الذي كان عصب هذه الحركة وجد في ثروته الجديدة من المخطوطات بغيته وضالته المنشودة .

لقد استقوى فيهم الآن المنطق والرياضة والطب والفلك . واقتادتهم هذه العلوم إلى علوم أخرى كالكيمياء والجغرافية والتاريخ . . فدرسوها جميعاً وأمعنوا النظر والفكر فيها . لقد شقت هذه العلوم قنوات لها في عقول المسلمين وفتحت أذهانهم على آفاق كانت مجهولة لديهم . وكان بينهم الموهوب والعادي ومن هو دون ذلك . وتفاعل ذلك كله بعضه ببعض وكان لقاح وكان اخصاب . فأما متوسطو الذكاء فقد جمدوا ووقفوا من هذه العلوم عند الحاجات العملية واكتفوا بالقراءة والشرح والتعليق والإغراب في الحواشي دون أن يضيفوا إليها شيئاً ذا بال . لقد مسهم العلم من السطح من غير أن يتغلغل في الأعماق كأنه عابر سبيل . لقد اصطنعوا العلم للحذلقة والتفاخر والتباهي بمعرفة علوم الأوائل ، وفي أحسن الحالات للدفاع عن موقف ديني . ذلك مبلغهم من العلم . وأما أصحاب الفطرة الفائقة فقد كان العلم عندهم مواقف حية ومناهج فكرية وتربية

خلقية وضبطاً للذات واقتحاماً للمجهول . لقد وقر العلم في نفوسهم وامتزج بمهجهم واختلط بشغاف قلوبهم ، وأصبح عشقاً للمعرفة وحباً للحقيقة ومتعة للروح تجردت من أي حاجة عملية وابتذال مادي رخيص . أما أثره فيهم فلم يكن سوى تأجيج نار بدأت تلتهم قلوبهم وفكرهم وتشعل عقولهم .

وبطبيعة الحال لم يكن ذلك على نطاق فردي . فلو قامت هذه الحركة على أكتاف بعض الآحاد لأخفقت ولقُضي عليها في المهد . فالحركات التاريخية الكبرى لا تقوم على مجهود شخص واحد أو بضعة أشخاص،بل لا بد لها من جهاز كامل من المواهب والآلات والأدوات ، لا بد لها من أجيال متعاقبة من العلماء والنظار والمفكرين من أصحاب الخيال الواسع والعقل المبدع والبصيرة النافذة والتعليل الصحيح والأيدي الخبيرة والأنامل الطيعة الدقيقة ، والقرائح الرياضية الخصبة . وكذلك لا تقوم الدول الحقيقية العتيدة علي الأفراد وعلى إرادات الأفراد وحدهم ، ما لم تكن دولاً من الكرتون ، بل تفرز جهازها الكامل من المفكرين والعلماء والحكام والمحسنين ودور الرعاية والتشجيع . . فتخلقهم خلقاً وتنجبهم إنجاباً من محض مادتها وصميم نسيجها ، بقوتها الذاتية وروحها الباطن وتلقائيتها الفعالة ليأخذوا بناصيتها في أوقات الشدة والرخاء ويسددوا خطاها ويهدوها سواء السبيل . فالعلوم مرآة صادقة تعكس الوجه الحضاري لاي أمة من الأمم ونصيبها من الرقي والتخلف . ولا يمكن أن تقوم نهضة علمية إلا في أمة ذات قيم حضارية . فلولا نهضة العرب وتقدمهم في جميع الميادين لما أنجبوا ذلك العدد الضخم من الفلاسفة والعلماء والأطباء والقادة والرادة في عصور الإزدهار الإسلامي ، ولما تفتحت تلك المواهب والعبقريات التي كانت غرة في جبين الإسلام . وهذه المواهب والعبقريات قد خلقت لنفسها الجو والمتنفَّس ، وشقت الدروب والقنوات ، ونسجت الحياة والمصير ، في حركة متجددة دائمة من الأخذ والعطاء والتبادل لم تتوقف إلا عندما بدأ ذلك المد العظيم ينحسر من جميع جوانبه ، فانطوى ذلك البساط وذهب العلم والعلماء .

ولنأخذ علماً كعلم الفلك مثلاً . فقد بذل العرب جهوداً جبارة لاقامته علماً استقرائياً مستقلاً عن التنجيم يستند إلى الملاحظة الحسية ويصطنع الأرصاد لتعليل حركات الأجرام السماوية وتفسير الظواهر الفلكية ، كل ذلك تم برغم إمكانياتهم المتواضعة وظروف العمل الصعبة والأغلال التي كانت تكبل هذا العلم

وتتعثر بها خطواته . بل إن العرب عندما لم تتوافر لهم الإمكانيات المطلوبة ، خلقوا هذه الإمكانيات من ذوب عقولهم وعصارة أذهانهم وأعصابهم . وذللوا كل ما وسعهم تذليله من صعوبات وعقبات ما كان أكثرها في تلك العصور ! فهم لم يسلموا بالقدماء أوصياء عليهم وان نهلوا منهم ما نهلوا . فقد عدَّلوا ما أخذوه ونقَّحوه وعارضوه وانتقدوه وخالفوه وتوسعوا فيه وخلقوه خلقاً جديداً . وأدى التقدم في الفلك الرصدي على أيديهم إلى آفاق جديدة رحبة . وما ينطبق على علم الفلك ينطبق على علم الطب والكيمياء والرياضة والعلم الطبيعي والجغرافيا والتاريخ والإجتماع . . ولم يكن ذلك ليتوافر لولا أنهم كانوا في مستوى الحدث الكبير ، ولولا أنهم كانوا أكفاء للمسؤولية التاريخية الضخمة التي ووجهوا بها فجندوا لهذه العلوم جميعاً العقول والقرائح والخبرات ، ورصدوا لها الأموال والهبات ، واخترعوا لبعضها شتى الأجهزة والآلات .

والخلاصة أن وراء الطريق الذي كان العرب رواداً فيه، تلك الصفات السرمدية التي مكنتهم من أن يكونوا في يوم من الأيام مناثر تشق حجب الظلام ، وان يمروا في هذه الأرض مرور الغمامات الخيرة فوق الفيافي والقفار تهطل ثم تهطل ثم تمضي تاركة وراءها الرياض والمروج، مخلفة الرواء والسقيا لقوم جياع عطاش تاعسين . فالعرب لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بفضل إخلاصهم للمعرفة وشغفهم بالعلم ، وتعلقهم بالحق والخير والجمال . لقد تخطوا الحاجات العملية فأصبح عندهم متعة بعد أن كان سلعة، وغاية بعد أن كان وسيلة، وخبزاً يومياً بعد أن كان تسلية وقتية . لقد انفصل العلم عن العمل وأصبح يُطلب لذاته بعد أن كان يطلب لغيره . وعندما يصل الإيمان بالعلم إلى هذا المستوى الرفيع من النضج ، وعندما يستولي على صاحبه ويستهويه فارتقب يوم يأتي بالمعجزات .

وبذلك لم تكن أرض الخلافة تلك الأمبراطورية الفسيحة التي تمتد من الخليج إلى المحيط بقدر ما كانت تلك القيمة الإنسانية الحضارية التي طلت عبر القرون والدهور نموذجاً للإشعاع العقلي والسمو الروحي ، وصيغة فريدة فذة للتعايش والتسامح والتكافل سبقت جميع الصيغ المماثلة المعروفة إلى اليوم .

الإهتمام بالبحث الفلسفي

والآن بعد أن فرغنا ـ أو كدنا ـ من رسم الخطوط العريضة لعملية تحول الجدل الديني إلى اهتمام بالبحث العلمي ، هلم إلى رسم الخطوط العريضة لعملية

أخرى موازية لها إنتهت بتحول هذا الجدل نفسه إلى اهتمام بالبحث الفلسفي . والعمليتان متشابهتان ومتكاملتان في رأينا . فما قلناه عن كيفية تحول الجدل الديني إلى إهتمام بالبحث العلمي ينطبق بشيءٍ من التعديل إلى إهتمام بالبحث الفلسفي . وما سنقوله الآن ينطبق هو أيضاً وبشيءٍ من التعديل أيضاً على ما قلناه من حيث تحول الجدل الديني إلى اهتمام بالبحث العلمي . فالمنطلقات واحدة والخلاف إنما ينجم عن التركيز على بعض العوامل أكثر من بعضها الآخر تبعاً لسياق البحث وقرائن التفكير .

فالجدل الديني في رأينا هو الذي وضع الفكر العربي وهو في ابان تطوره العاصف في مجرى التفكير العلمي والفلسفي في آن واحد . أجل إن هذا الجدل لم يبقَ جدلاً بحتاً، بل لقد طرأت عليه تطورات كثيرة غيرت معالمه . وإذا أردنا الدقة قلنا أن الجدل الديني طاقة قابلة للتحول إلى صور أخرى من الطاقة باجراء بعض التعديلات عليها؛ فقسم من هذه الطاقة ظل جدلاً يخدم أغراض الدين والإيمان ، وقسم آخر بتطوره الذاتي وباللقاح الخارجي تحول إلى اهتمام بالبحث العلمي واللغوي . . الخ وهناك قسم ثالث ظل يتطور ويتخفف من غلوائه الدينية وشحناته العاطفية ليتخذ في نهاية المطاف صورة البحث العقلي الهادىء الرصين ، لقد أصبح ـ بحكم دوافعه الداخلية وبروافد خارجية لم يتوقف يوماً عن طلبها والسعي إليها ـ نظريات فلسفية في الله والكون والإنسان والمصير .

وأول تطور طرأ على هذا الجدل تحوله إلى ما يعرف بعلم الكلام . فعلم الكلام فلسفة دينية غايتها الدفاع عن العقائد الإيمانية بأدلة عقلية والرد على المبتدعة والنخالفين والمنحرفين في الإعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة .

فعلم الكلام بدأ جدلاً في العقائد ولكنه جدل اعتباطي غير منهجي ، وقد ظلت مواد هذا الجدل تراكم وتتفاعل ببعضها بعضاً وبروافد جاءتها من خارج من غير نسق او نظام ، وبقيت متعثرة مفككة مشتتة لا تنتظمها وحدة تأليفية تجعل منها علماً مستقلاً قائماً بذاته حتى جاء عصر المأمون . هنالك بدأت تبرز أولى طلائع الفكر الفلسفي الذي بدأ يستقل عن علم الكلام ، وكان الكندي أول مظهر لحركة الإستقلال هذه . ففي القرن الثالث كان علم الكلام قد بلغ درجة عالية من النضج على يد المعتزلة ، إن منهجهم في البحث والنظر كان يتسم بظاهرة الإمعان في استقصاء الفكرة الواحدة وتقليبها من جميع وجوهها والتغلغل فيها إلى

أقصى امكانياتها، وشق ابعاداً جديدة لها، واكتشاف ما يمكن أن تنطوي عليه من عناصر عقلية ومواد فكرية تساعدهم على صياغة وجهة نظرهم في الله والكون والحياة والمصير. فما من مسألة كانت تطرحها حركة الحياة في المجتمع إلا تصدى لها المعتزلة لمعالجتها وتحليلها وعرضها على ميزان العقل والإلتزام بحكمته والإهتداء بنوره، وايجاد اللحمة بين الموقف الديني والموقف الميتافيزيقي. فصرفوا كثيراً من الآيات عن معانيها الظاهرة إلى معانٍ أخرى يقرها العقل،وأنكروا الأحاديث التي لا تستقيم مع معيار العقل. وقد أكسبوا الإسلام معارك مظفرة، وأتاحوا له فرصاً ذهبية للدفاع عن الذات والصمود في وجه الحملات التي ما انفكت تُشن عليه في كل صعيد. وظلوا في كثير من الأحيان منسجمين ومنهجهم الفكري المتماسك، وإن أخفقوافي بعض الحالات الأخرى في تأويل بعض الآيات وتحميلها فوق ما تحتمل. ومضوا في هذا السبيل إلى آخر المدى، بل لقد نفذوا إلى جوهر عملية التفكير وطرقوا بذلك أبواب الفلسفة واقتحموا معاقلها وكانوا يفعلون ذلك بالتزام كلي وبتجرد مطلق لقد كان رائدهم اولاً دعم الموقف الديني بأقصى ما يمكن من الإلتزام العقلي واغناء المنقول بآفاق المعقول ثانياً ولكن سرعان ما تخطوا ذلك إلى رحاب الفلسفة ومعاقل الميتافيزيقا.

وقد كانت العلوم مزدهرة في بغداد آنذاك، فحيث يزدهر العلم تزدهر الفلسفة. فالفلسفة لم تظهر في بلاد الإسلام إلا بعد أن اكتملت النواة وبعد أن نضجت البذور الفكرية وبعد أن وُجد الأساس النظري والقاعدة العقلية التي سيقوم عليها البناء. وجاءت الظروف الموضوعية والأحداث التاريخية والتطور الحضاري لتعجل بهذه المسيرة وتصب في المجرى الكبير الذي شقه الفكر العربي الناشيء لنفسه. لقد نمت البذور في حضانة الحياة العربية الإسلامية وبدأت تؤتي أُكُلَها وتعطي ثمارها في القرن الثالث وتتبلور فلسفة خصبة. لقد استقام الفكر العربي واتخذ طريق تطوره العاصف. وجاءت ظاهرة الفتح لتقدم الزاد والغذاء ولتعجل في تمازج العناصر الداخلية والخارجية وتُقوي عملية التفاعل الثقافي والإجتماعي بين العرب والشعوب التي اتصل بها الإسلام. وكانت الفلسفة الإسلامية احدى ثمار هذه العملية. فجميع المسائل التي نجمت عن الشرارة الأولى والشرارة الثانية دخلت حلبة الصراع الديني السياسي أولاً ثم تحولت إلى حلبة الصراع الفكري النظري بعد ذلك. فكل ظاهرة دينية وسياسية تنطوي على ظاهرة فكرية تبدأ جنيناً يظل ينمو وينمو حتى ينفض عنه جميع أغشيته ويخرج فكراً

سوياً يمكن توجيهه بعد ذلك توجيهاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك بحسب مشارب الأشخاص الذين يتأثرون به واستعدادتهم ومقتضيات أحوالهم ومطالب بيئتهم وعصرهم .

فالناس متفاوتون في الذكاء والتفكير والمواهب والقدرة على مواجهة المشكلات والأزمات والتحديات وهم ـ باستثناء قلة منهم ليس لها من الإنسانية إلا الاسم ـ تحتدم في نفوسهم أزومات وصراعات تختلف في حدتها من شخص إلى آخر لأسباب نفسية واجتماعية واقتصادية وعقلية وحضارية الخ . . . وأكثر هؤلاء يجدون في الدين علاجاً لأزماتهم ويكتفون بما جاء فيه من حلول وإجابات تُرضي تطلعاتهم وتريحهم من عناء التفكير الشخصي والبحث الذاتي المستقل فالله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وإنما امره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. وفي الكون آيات وشواهد تدل على أنه خالق هذا العالم وعلته . والناس من آدم وآدم من تراب . والموت ليس نهاية للحياة بل هو مدخل إلى حياة أخرى يجد فيها الإنسان ما قدمت يداه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. لقد كفاهم الدين مؤونة التفكير في هذه الأمور فعلام إعنات الذهن ؟ هؤلاء الناس موجودون دائماً لا يخلو منهم زمان ولا مكان . إنهم مادة الإنسانية وعنصرها الغالب. فالنصوص المقدسة لم تترك مسألة من هذه المسائل دون أن تجيب عنها . وكفى الله المؤمنين القتال . والحق أن الدين قد قام بوظيفة حيوية هامة في حياة هؤلاء الناس، وإلا لاضناهم القلق وتآكلتهم الأزمات . لكن هناك قلة ضئيلة من الناس لا يرتوون بما جاءت به النصوص المقدسة، بل يطلبون المزيد والمزيد، ويتطلعون إلى ما وراء هذه النصوص وإلى الأسس النظرية التي تنطلق منها والآفاق البعيدة التي تتراءى خلفها، حيث يعمل العقل حراً طليقاً معتمداً على مصادره الذاتية. إنه يفضل المحاولة واحتمال الخطأ على التلقين الآلي. إنها روح المغامرة تشعل بعض النفوس وتزج بها في مآزق تجد هذه النفوس غاية المتعة والمنى في مواجهتها وحيدة بلا حَجْرٍ عليها ولا عون يأتيها من مصدر آخر غير ما يتدفق فيها من قوى وطاقات . ولا عليها بعد ذلك أن تخطىء أو تصيب، فليست العبرة في احتمال الخطأ والصواب بقدر ما هي في الإيمان بالذات والقدرة على اثباتها .

وقد أنجب العرب عدداً لا يستهان به من هؤلاء الأفذاذ القلائل الذين لا يشفي غليلهم ظاهر النصوص بل يريدون أن ينفذوا إلى أعماق هذه النصوص ولا

سيما في عصر التطور الثقافي العاصف الذي بدأ يجتاح العرب والمسلمين منذ القرن الثالث للهجرة. فهم لا يكتفون بالمنطلقات الإيمانية من غير أن يضعوا لها الأسس النظرية وان ينهلوا مادة هذه الأسس من معين نفوسهم ومن مجموعة المعارف الفلسفية التي كانت تتدفق عليهم من مختلف المصادر المتوفرة لعصرهم ومجتمعهم آنذاك . إنهم ملح الأرض ولا يزكو الطعام إلا بقليل من الملح . إنهم شذور الذهب بين ركام من الطين والتراب. إنما الدين للعامة ، هذا ما يقول به فلاسفة الإسلام دائماً أو هذا لسان حالهم على الأقل . أما هم ـ الخاصة ـ فلهم مناهجهم في البحث والنظر. فهؤلاء الذين فصلوا أنفسهم عن العامة واستنكفوا عن فهم النصوص كما تفهمها العامة وكانت لهم مدرستهم وطريقة تفكيرهم ، هم طلائع التفكير الفلسفي في الإسلام . لقد مضى عهد الإيمان الساذج وجاء طور البحث والنظر وإضفاء الصبغة العلمية والفلسفية على قضايا الدين والإيمان. فالفلسفة إنما تنطلق من منطقها الخاص لا من منطق المسلمات الدينية وإن كان الخير كل الخير في هذه المسلمات، لكن ما العمل إذا كانت المغامرة هي عصب التفكير الفلسفي. ليس من الجائز بعد الآن قبول النصوص بمدلولها الحرفي. إن العامة بحكم تكوينهم العقلي وعجزهم عن الغوص على المعاني الخفية وراء هذه النصوص ليسوا حجة في الدين، بل لابد من الشك في مدى ما فهموه من النصوص ومراجعة النظر فيها والتأمل في جميع الوجوه المحتملة للوصول إلى ضرب من اليقين يزيل كل شك ويدفع كل شبهة . وسواء أرضي العامة باجتهادات الخاصة أم لم يرضوا فالقافلة يجب أن تمضي وليكـن بعد ذلك ما يكون . لقد اشتد الصراع بين الفريقين ، فريق أهل المنقول وفريق أهل المعقول في نطاق فهم آيات القرآن أول الأمر، وظل يشتد حتى خرج إلى نطاقه الأوسع الكبير وتطور إلى صراع فكري شامل. وكل فريق من هذين الفريقين ليس موحد الرأي والإتجاه، فالفريق الذي أسميناه فريق العامة ينطوي على أفرقاء صغرى مختلفة فيما بينها يجمعها الإلتزام بالتقليد والعداء لكل تفكير مستقل. ويدخل في هذا الباب المحدِّثون والفقهاء والحشوية والظاهرية وأضرابهم. كما أن فريق الخاصة يجمع رجاله احتقار التقليد والإلتزام بالرأي والإجتهاد والعداء لكل تحجر نصي ضيق ويدخل في هذا الفريق علماء الكلام ولا سيما المعتزلة ـ والفلاسفة والصوفية وجميع أهل الرأي وأرباب النظر والإجتهاد .

ليس المهم في تكوين الفيلسوف أن يقف من الدين موقف الخصومة والعداء ، بل أن تتوافر له الموهبة العقلية والإستقلال في الرأي، وأن تكون له آفاق

فكرية رائدة . فإذا انضم إلى ذلك، المناخُ الطيب والتشجيع الصحيح والروافد الخارجية وأوقات الفراغ وما إلى ذلك من الظروف الموضوعية ، فلا بد لهذه الموهبة من أن تنمو وتتعاظم، ولابد لهذا الإستقلال في الرأي من أن يفتح لصاحبه معاقل جديدة، ولابد لهذه الآفاق من أن تتسع وتترامى . ماذا أقول ؟ إن الموهبة قد تكون أحياناً أقوى من الظروف الموضوعية، وكثيراً ما تشق طريقها بين الصخور والأشواك كما حصل للفارابي الذي يقال : إنه كان ناطوراً في بستان في دمشق وكان دائم الإشتغال بالفلسفة وكان من الفقر بحيث كان يستضيء في الليل بالقنديل الذي للحارس، ثم عظم شأنه بعد ذلك كما يقول ابن أبي أصيبعة . وهذه الرواية لا تقلل من قدره فقد كان اكليانت الفيلسوف الرواقي سقاء يوزع الماء في البساتين وفي ضواحي أثينا ، وكان جربرت الذي أصبح بابا روما ، والذي اتخذ لنفسه لقب سلفستر الثاني ـ؛ كان لقيطاً . وكان أسبينوزا يعيش من صنعة الساعات في هولندا . وهكذا كان أكثر الفلاسفة والعلماء والمفكرين في كل جيل . الموهبة تأتي اولاً وهي تتولى الباقي حتى لو لم تتوفر لها الظروف التاريخية والموضوعية ، فكيف إذا توافرت هذه الظروف ؟ العبرة بالموهبة فان وجدت فذاك وإلا خلقتها ، لا أقول من العدم بل بتحين الفرص التي لا بد من أن يجد فيها اصحاب الفطرة الفائقة مواطىء لاقدامهم ومواقع ينطلقون منها إلى الأعمال الكبيرة ، بينما سائر الناس لا يقدرون على شيء ، وكم من فرصة تفوتهم في ركب الحياة فيمرون عليها وهم غافلون .

هناك مشكلات كثيرة تحتدم في ساحة الصراع الفكري في بلاد الإسلام، وكان كل مستطيع يدلي بدلوه، وكانت الحلول تختلف باختلاف الرجال واقدارهم وقدراتهم، بهم تظل النار المشتعلة والصراع محتدماً حامي الوطيس . فكل حل من هذه الحلول هو وقود جديد يثير من المشكلات والأزمات بقدر رغبته في التخفيف منها . الجميع يشاركون في الصراع كالكرة يتقاذفها الفريقان في الملعب الواحد، فيتحرك بها العقل العربي كله تُصعِّد به وتُصوِّب وتمخضه مخض القرب. وكانت حصيلة ذلك مذاهب دينية وعقلية انطلقت بالفكر العربي في مجرى تطوره العاصف نحو التفكير الفلسفي . فالأفكار الجديدة التي ظهرت في ظروف الصراع الديني والسياسي كانت وليدة هذه الظروف، غير أنها لم تذهب بزوال ظروفها بل ظلت باقية ـ وقتاً يطول أو يقصر ـ تعيش حياتها الخاصة وتشق لها قنوات وقنوات في أجيال قادمة من أصحاب القرائح والعبقريات . إن مهمتها لم تنقض بانقضاء

المرحلة التاريخية التي تمخضت عنها عصور الإسلام الأولى بل لقد نمت بعد ذلك واتسع نطاقها .

وللوقوف على طبيعة هذه الحركة التي إنما انطلقت من أحشاء الإسلام ، نفرق في الدين ـ كل دين ـ بين نوعين من المسائل: مسائل ليس لها أي كثافة ميتافيزيقية كالطلاق والنكاح والوضوء مثلاً ، ومسائل ذات كثافة ميتافيزيقية تختلف من مسألة إلى أخرى ، كالتوحيد والعدل والخلود . فلا يتطور في اتجاه الميتافيزيقا إلا ما فيه قابلية للتطور ، أما ما قعدت به الهمة عن هذه الغاية فانه يظل رهين واقع العمل وحبيس الحاجات العابرة لصيقاً بها لا يبغي عنها فكاكاً . وهكذا فالمسائل ذات الكثافة الميتافيزيقية هي وحدها التي ستنمو في أحشاء التفكير الفلسفي الإسلامي ، وستستوفي جميع أبعادها الميتافيزيقية وتعيش حياتها الخاصة بعيدة عن أجواء الدين وصخب السياسة ، وسيتولد عنها مسائل أخرى تتفتح براعمها تباعاً في إبان الحركة العقلية ، وتندمج في نسيجها الذي ما انفك ينمو ويتعاظم ليصبح في نهاية المطاف ذلك البناء العتيد الذي اختزن أفكار فلاسفة الإسلام وتطلعاتهم العقلية والروحية في الحياة وبعد الممات . فالمسائل الدينية ذات الكثافة الميتافيزيقية قد انطلقت من عقالها وأصبحت مسائل فلسفية من الطراز الأول . فما زال المنهج العقلي يعمل فيها تهذيباً وتشذيباً وتمحيصاً واضافة وحذفاً ونسخاً حتى جعل منها لبنات في بناء الصرح الذي ظل ينمو ويتطاول بقرائح مفكري الإسلام وفلاسفته وبما استرفدوه من أساتذتهم اليونان وآثارهم التي وصلت اليهم . ولنلاحظ مرة أخرى أن التشذيب والتهذيب والتمحيص والبناء امور لم يقم بها سوى أفراد قلائل من اصحاب الفطرة الفائقة . فالمسألة مسألتهم . وهي إنما تعنيهم وحدهم دون شرائح المجتمع الأخرى التي لا ناقة لها فيها ولا بعير .

لقد تحول الصراع السياسي إلى صراع عقلي ، وخرجت المسائل الدينية ذات الكثافة الميتافيزيقية من اطارها التقليدي المتحفظ إلى أجواء الفلسفة وآفاقها الواسعة ، وكان ذلك على أيدي المتكلمين أولاً ، ثم انطلقت من أيدي هؤلاء إلى أيدي الفلاسفة الذين أوغلوا بها بعيداً في عوالم فكرية معقدة وبنوا منها صروحاً يلوذ بها احرار الفكر والمعتقد . لقد تخلى علم الكلام للفلسفة عن المواقع التي اكتسبها وأسلم لها زمام قيادة التطور العقلي عند المسلمين . فالمتكلمون بجناحيهم المعتزلي والأشعري كافحوا كفاحاً مستمراً للوصول إلى صيغة عقلية للمبادىء الأساسية للايديولوجية الإسلامية . لقد كان هاجسهم الأول إرساء التوحيد على

قاعدة صلبة من التنزيه الإلهي والتسامي بالذات الإلهية . والفرق بين المعتزلة والأشاعرة في هذا الباب إنما ينحصر في درجة الإلتزام بالخط الميتافيزيقي على حساب الإيمان،والعكس صحيح ومن هنا يظهر التناقض والإضطراب في المنطق الداخلي في معالجة بعض الموضوعات المهمة المشتركة بين الفريقين .

والخلاصة . لقد أصبح كل شيء معداً لنضج التفكير وانجاب المذاهب الفلسفية . فهذه المذاهب كما قلنا لا تتطور إلا على أيدي اشخاص مهيئين لها . فالفكرة الواحدة يتلقفها اشخاص متعددون ثم لا تلبث أن تظهر على أيديهم في مظاهر تختلف باختلاف ثقافة كل منهم واستعداداته ومشاغله وهمومه وعصره وما يموج فيه من فلسفات وعقائد ، كالنبات يسقى بماء واحد فيُخرج لنا ثمراً مختلفاً ألوانه . فهي لا تكاد تخرج من مصانع السياسة أو تتمخض عنها الخلافات الدينية والمنازعات العقائدية حتى تصطدم بأنماط شتى من التفكير والعقليات، فيها الملتزمت والمترخص ، فيها المقلد والمجتهد ، فيها العبقري والعادي . . وكل نمط من هذه الأنماط على درجات مختلفة من الظلال والألوان والوجوه تنجذب لأشياء في الفكرة المطروحة ولا تنجذب لأخرى ، وتهزها حوافز فيها لا تهزها غيرها . ومن هنا نجد أن تناول الفيلسوف لهذه الفكرة غير تناول الفقيه . وهذان يختلفان عن تناول المتكلم أو الأصولي او المتصوف لها الخ . . فكل واحد من هؤلاء يمحص الفكرة على منواله الخاص ويدفع بها إلى غيره ليعاود النظر فيها ثانية ويضيف إليها عناصر ومواد من ذوب اعصابه وعصارة أفكاره وهكذا تبدأ الفكرة دينية سياسية وتنتهي فكرة أخلاقية أو فقهية أو صوفية او فلسفية . بل إن الفكرة في نهاية المطاف قد تعود كرة أخرى فتتحول الفكرة الفلسفية إلى فكرة صوفية والعكس صحيح ، وقد يعيد الفقيه والمتكلم فيها النظر ويخضعانها لتطورات وعمليات جديدة وهلم جرا .

المهم أن الجدل الديني والسياسي لا يبقى على حاله بل تطرأ عليه تطورات وأحداث توجهه وجهات لم تكن في الحسبان . وهكذا يتطور الإنقسام الديني إلى انقسام في المواقف الفكرية من القضايا المطروحة ، ومن هنا تنشأ المذاهب والنظريات ومواكب الأفكار والفلسفات التي تقتحم أجواء المعتزلة فتنجب العلاف والنظام وتصطدم بالأشاعرة فتنجب الباقلاني والإمام الجويني . لقد برزت ظاهرة التفكير الفلسفي واقتحمت كل مجال في تفكير المعتزلة والأشاعرة ـ برغم ما بينهما من تباين واختلاف وعدم تخلي كل منهما عن مواقفه الدينية الرئيسة ، بل لقد عززت الفلسفة العقلية الميتافيزيقية هذه المواقف وزادتها زخماً ورسوخاً.وهذه الأفكار التي

انجبت العلاف والنَّظَّام والأشعري والإمام الغزالي وأمثالهم هي التي ستنجب الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد . . فالجسور بين العقل والنقل قد اقيمت قبل هؤلاء بزمن طويل عند المعتزلة والأشاعرة لقد ضاقت المسافة بينهما ولم تعد الفلسفة إلا على خطوات قريبة .

أنا لا أزعم أن الفلاسفة العرب قد خلقوا مادتهم الفلسفية من العدم ، فكل ما أقوله أن الشرارة الأولى والشرارة الثانية كانتا التحدي الكبير الذي فتق الأذهان ،وفجر الطاقات ،وفتح المنافذ لتلقي الأفكار الجديدة، وتمكينها من الإندماج والتفاعل في أمة جديدة ناشئة،بدأت تعي ذاتها وتشق طريقها وتصنع تاريخها وبعبارة أخرى في مجتمع صحي سليم يمكن للترجمة منذ الآن أن تؤتي فيه ثمارها ، لقد وجدت الحوافز التي تمكن الترجمة من الفعل والتأثير في البنية الداخلية للفكر الإسلامي وشق القنوات فيها لتاقي نفحات الفكر الخارجي الذي كانت جميع الأبواب موصدة أمامه . لقد أُشرعت الأبواب الآن وفُتحت النوافذ ودخل ضوء الشمس بعد ليل طويل . لقد تفتحت أذهان كانت حتى الآن مغلقة، ووعت قلوب كانت غُلفا ، فولدت أفكار ونبتت علوم ونشأت مذاهب، فجة أولاً ثم اخذت تنضج بعد ذلك وتتعمق بتلقائيتها الذاتية وبما وصل إلى عقول المسلمين وأذهانهم من المعارف والمناهج والفلسفات، التي ظلت تتعرض لعمليات مستمرة من الصهر والتحويل تجعلها قادرة على أن تندمج في صميم الحركة العقلية الصاعدة، وتكون تعبيراً عن الذات في صراعها مع الذات، وأداة لاثبات الذات وعرض الذات على الواقع الجديد المعقد الذي تعيشه هذه الذات وتتلقى آثاره وترد على تحدياته ، وتكون من ثَم منطلقاً لفكر إسلامي جديد وفلسفة إسلامية جديدة بدت طلائعها في الأفق فلولا ما تفتح من أبواب، ولولا ما زال من غواش رانت على العرب قبل الإسلام فحجبت عنهم الرؤية ومنعت تسرب الضوء اليهم ، إذن لما استطاعت جميع كتب الأرض أن تنفذ آثارها اليهم ، وللبثوا في كهفهم إلى يوم يبعثون .

الفصل السادس

حقيقة الفلسفة العربية الإسلامية

الفلسفة الإسلامية هي إحدى الحركات العقلية التي نشأت في ظل الإسلام وحضارته وارتبطت به بأنواع مختلفة من الإرتباط ، إما بالتفلسف في عقائده أو بالملاءمة والتقريب بينه وبين فلسفاتٍ أخرى وافدة إلى المسلمين ، أو بمجرد التعبير عن وجهة نظر فريق من أبنائه في الألوهية والكون والحياة ، وكلها حركات إنما وُجدت لتشهد على أن الإسلام لا يعبر عن ذاته بعلوم الدين والنقل فقط بل بعلوم الفكر والعقل أيضاً .

ولكن الباحثين اختلفوا كثيراً في أمر هذه الفلسفة منذ ظهور حركة الإستشراق : اختلفوا في اسمها واختلفوا في إمكان وجودها واختلفوا في الأشخاص الذين شيدوها وأقاموا بناءها ، واختلفوا في كل ما يتعلق بالتراث العقلي الإسلامي ومدى ما فيه من أصالة وابتكار ـ أجل اختلفوا في كل هذا وفي أكثر من هذا ولا يزالون مختلفين .

ولئن كانت الفلسفة الإسلامية محل نزاع ومناقشة بين الباحثين فإن جميع الحركات العقلية في القرون الوسطى كلها ـ إسلامية كانت أو مسيحية أو يهودية أو وثنية ـ كانت ولا تزال محل نزاع أيضاً . فليس هناك إتفاق حول قيمة الفلسفة المسيحية مثلاً ومدى أصالتها ومدى قربها أو بُعدها عن الفلسفة اليونانية والإسلامية . ولا يزال النقاش محتدماً حول أصالة القديس توما الأكويني مثلاً ومدى استقلاله عن ابن رشد خاصة وسائر فلاسفة الإسلام عامة .

والذي يهمنا هنا أمر الفلسفة الإسلامية : هل هناك فلسفة إسلامية أم لا ؟ وما طبيعة هذه الفلسفة إن وُجدت وما هي خصائصها ؟ وإلى أي حدّ استطاعت

أن تتحرر من إسار الفلسفة اليونانية ؟ .

إن التصدي لحلّ هذه المسائل مهمة عسيرة ولكنها لا تخلو من المتعة ، على أن تعالَج موضوعياً بعيداً عن نزوات الهوى وجمحات الخيال ومشاعر الحقد والضغينة . فالعلم يجب أن يسمو على أغراض النفس ، كما ينبغي أن يكون التجرد رائدنا جميعاً للوصول إلى الحقيقة . وعلى هذه الأسس سندرس الفلسفة الإسلامية ، فنبين أصالتها فيما لها فيه أصالة ، ولا نتحيف عليها في بعض ما تعتز به ، كما لن نتوقف عند نقدها حيث يجب النقد . ونأمل أن تكون هذه الدراسة نواة أولية لدراسة الفلسفة الإسلامية على أساس وضعي لا معياري وباقتناصة من الباطن par une saisie de l'intérieur لا من الخارج : بمعنى أن ندرسها كما هي بالفعل لا كما يجب أن تكون ، وأن نرافق أصحابها ونعيش معهم ونفهم ظروفهم وأحوالهم ومقتضيات أمورهم وننفذ إلى دخائل نفوسهم ، لا أن نكتفي بمشاهدتهم من الخارج ومراقبتهم عن بُعد يبلغ مئات السنين . فما لم نحطم هذه القرون التي تفصلنا عنهم لنشهدهم عن كثب ونعيش معهم ونتحسس بهمومهم ومشاعرهم ، وما لم نطرح جملة عاداتنا الفكرية وتقاليدنا العقلية التي نشأنا عليها ، وما لم ندرسهم كما هم لا كما نريد لهم أن يكونوا ـ فلن يتسنى لنا أن نفهمهم وأنْ ننفذ إلى أغوارهم .

هناك رأيان في الفلسفة الإسلامية : رأي يُنازع في وجودها ، ورأي آخر يقول بوجودها ، وبين هذين الرأيين المتطرفين آراء وسطى تأخذ من كل جانب بطرف ، على تفاوت في ذلك .

فمن أقطاب الفريق الأول نجد مثلاً أرنست رينان عميد حركة الإستشراق في فرنسا وأوروبا كلها في القرن التاسع عشر . فهو يقول في كتابه القيم (تاريخ اللغات السامية) :

« من الخطأ وسوء الدلالة بالألفاظ على المعاني أن يُطلَق على فلسفة اليونان المنقولة إلى العربية لفظ (فلسفة عربية) ، مع أنه لم يظهر لهذه الفلسفة في شبه جزيرة العرب مبادىء ولا مقدمات . فكل ما في الأمر أنها مكتوبة بلغة عربية . ثم هي لم تزدهر إلا في النواحي النائية عن بلاد العرب مثل إسبانيا ومراكُش وسمرقند ، وكان معظم أهلها من غير الساميين »[1] .

---

(١) Histoire générale et système comparé des langues sémitques Paris, 2éme éd. p. 10

ويؤكد رينان رأيه هذا في مكانٍ آخر إذ يقول في كتابه (ابن رشد ومذهبه) :

« لا يزال حكمي بأن مباحث العقائد الدينية لم يكن لها كبير شأن في نشأة هذه الفلسفة ، حكماً جازماً . وما صَنَعَ العرب شيئاً إلا أنهم تلقوا جملة المعارف اليونانية في صورتها التي كان مسلَّماً بها في القرنين السابع والثامن » (١) .

ويبرر رينان أحكامه هذه بأن الشعوب الساميَّة لا تصلح للنظر العقلي الفلسفي ولا لإنجاب الفلاسفة ، وإنما تنحصر عبقريتها فقط في تدفق النفحات الدينية . فلنستمع إليه يقول في كتابه السابق :

« ما يكون لنا أن نلتمس عند الجنس الساميّ دروساً فلسفية . ومن عجائب القَدَر أن هذا الجنس الذي استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة في أسمى درجاتها ، لم ينتج أي أثر فلسفي خاص به . وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباساً خارجياً صرفاً ليس فيه كبير عناء وتقليداً للفلسفة اليونانية » (٢) .

وهكذا يدخل رينان في حكمه على الفلسفة الإسلامية عنصر الطبيعة الساميَّة ويجعله أساساً للتقويم والتقدير . ويضيف إلى ذلك في مكانٍ آخر أن خواص النفس الساميَّة إنما تتجلى في إنسياق فطرتها إلى التوحيد من جهة الدين ، وإلى البساطة في اللغة والصناعة والفن والمدنية . وبذلك فتح رينان الباب على مصراعيه أمام جيلٍ كبير من المفكرين حذوا حذوه وربطوا مثله بين العنصرية ونمط التفكير! فنجد المستشرق الألماني شمويلدرز Schmolders يؤكد في كتابه (مبحث المذاهب الفلسفية عند العرب) أن العرب كانوا عاجزين عن أن يحملوا باستمرار مشعل العلوم والفنون ، وعن أن يقودوا الأمم الأخرى إلى الكمال الدائم . « فالجنسُ الساميُّ على العموم لم يقدَّر له على ما يبدو أن يقوم بهذا الدور »(٣) . ويقول أيضاً : « إننا لا نستطيع أن نذكر قط (فلسفة عربية) على الوجه الدقيق لما يُفهم من هذه العبارة كما نذكر (فلسفة يونانية) و(فلسفة المانية)

---

(١) Oeuvres Complètes de Ernest Renan, T. III, p. 12

(٢) المصدر السابق ص ١٧ .

(٣) Schmolders: Essai sur les écoles philosophiques chez les Arabes, Paris, 1842, p. 2-3.

إلخ . ومهما ذكرنا هذه العبارة (التي سأستعملها أنا نفسي على سبيل الإختصار) فإننا لا نقصد شيئاً آخر غير الفلسفة اليونانية كما فهمها العرب . أما أن تكون لهم فلسفة خاصة قائمة على مبادىء موطنية (indigènes) ومدروسة دراسة منهجية ، فهذا ما لم يظهر على أيديهم »[1] .

فالعقلية العربية لا تقوى على التفكير المنهجي والبحث المنظّم . إنها كما يقول (ليون غوتييه) أحد تلاميذ رينان : عقلية تفريق لا عقلية تنسيق ، فهي عقلية تقتنص الطرائف ، ومجال إبداعها الأفكار اقصيرة القليلة النفَس والملاحظات العابرة ، بعكس العقلية الآرية[2] .

وفي عَرْضٍ غامضٍ يسير في تيار رينان وإن كان يختلف عنه قليلاً في بعض التفاصيل ، وبحثٍ مبهمٍ وغير علمي لميزات كل من الحضارتين اليونانية والعربية يؤكد الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) أن « الروح اليونانية تمتاز أول ما تمتاز بالذاتية ، أي بشعور الذات الفردية بكيانها وإستقلالها عن غيرها من الذوات ، وبأنها في وضع أفقي بإزاء هذه الذوات الأخرى حتى ولو كانت هذه الذوات إلّهية : بينما الروح الإسلامية تُفني الذات في كلٍ ليست الذوات المختلفة أجزاء تُكوِّنه ، بل هو كلٌ يعلو على الذوات كلها ، وليست هذه الذوات إلا من آثاره ومن خلقه ، يُسيِّرها كما يشاء ويفعل بها ما يريد . فالروح الإسلامية تنكر الذاتية إذن أشد الإنكار ، وإنكار الذاتية يتنافى مع إيجاد المذاهب الفلسفية كل المنافاة »[3] .

ذلك هو مجمل آراء الفريق الذي ينكر وجود الفلسفة الإسلامية ، على تفاوت في الإنكار وأسبابه بطبيعة الحال .

ومن أقطاب الفريق الآخر ، أي الفريق الذي يقول بوجود فلسفة إسلامية نجد ركناً من أركان الإستشرق في فرنسا في القرن الماضي هو أرنست رينان أيضاً . فلنستمع إليه يقول في كتابه الذي ألمعنا إليه (ابن رشد ومذهبه) والذي أنكر فيه ـ في عبارة أوردناها له ـ وجود فلسفة إسلامية ذات عناصر خاصة :

---

(١) المصدر السابق ص ٤ .

(٢) ليون غوتييه : المدخل لدراسة الإسلامية ترجمة محمد يوسف موسى انظر الباب الأول وخاصة ص ٦٣ و١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٣) عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، دراسات لكبار المستشرقين ، القاهرة ١٩٤٠ ص و ـ ز .

« اتخذ العرب من تفسير آراء أرسطو وسيلة لإنشاء فلسفة ملأى بالعناصر الخاصة المخالفة كل المخالفة لما كان يدرس عند اليونان » . ويقول أيضاً في نفس الكتاب ونفس الصفحة : « إن الفلسفة لم تكن سوى حدَث عارض في تاريخ الفكر العربي . فالحركة الفلسفة الحقيقية في الإسلام إنما ينبغي التماسها في مذاهب المتكلمين » .

وتتفاوت الأحكام بعد ذلك وتتراوح الآراء بين هذين الفريقين . بل إننا لنجد عند معاصري رينان الفرنسيين من لا يقرّه على رأيه العنصري ويرميه بالتحامل على الفلسفة الإسلامية :

فهذا غوستاف دوغا بعد أن يورد عبارة شمويلدرز الآنفة الذكر وعبارة رينان التي يقلل فيها من شأن ما يُسميه بالجنس السامي ، يعلق على أمثال هذه الأحكام بأنها « إنما هي أحكام تذهب في الإطلاق إلى حد الشطط ، وما مصدرها سوى سوء التحديد للفلسفة الإسلامية . يضاف إليه جهلنا بما للعرب من مصنَّفات فلسفية غير شروحهم على مؤلفات أرسطو . . . وما أسوق إلا شاهداً واحداً : فهل يظن ظانّ أن عقلاً كعقل ابن سينا لم ينتج في الفلسفة شيئاً طريفاً ، وأنه لم يكن سوى مقلد لليونان ؟ فلهذا الفيلسوف العظيم نوعان من الكتب : شروح على مؤلفات أرسطو وجملة المعارف الموضوعة في إطار فلسفته ، وكتب من ابتكاره الخاص مثل كتابه (الحكمة المشرقية) وكتابه (الإشارات) وسائر كتبه الخاصة . أوَليستْ مذاهب المعتزلة والأشعرية ثماراً بديعة أنتجها الجنس العربي » ؟ .

ويتابع دوغا كلامه قائلاً :

« ويبدو لي أن طريقة العالِم مونك (Munk) في رسم ملامح هذه الفلسفة أدنى إلى الصواب » .

ثم يذكر قول مونك :

« وعلى العموم ، يمكننا أن نقول إن الفلسفة لدى العرب لم تتقيد بمذهب المشائين صرفاً ، وإنما هي توشك أن تكون قد تقلبت في جميع الأطوار التي مرَّت بها في العالم المسيحي . فنحن نجد فيها مذهب أهل السنَّة الواقفين عند النصوص ، ومذهب الشك ونظرية الفيض ، بل ونجد فيها مذاهب شبيهة

بمذهب سبينوزا ، ومذهب وحدة الوجود الحديث »[1] .

هذا ومنشأ سوء الظن بالفلسفة الإسلامية أن رينان وأمثاله لم يضعوا آراءهم بعد دراسة كاملة ولم يستمدوها من التفكير الإسلامي نفسه في أصوله ومصادره ، وإنما كانوا يعبرون عن معظم ما كان متداولاً في المخطوطات اللاتينية حيث لم تكن الدراسات الإسلامية الصحيحة قد بدأت بعد ، « ذلك أن بعض مؤرخي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عرض للحياة العقلية عند المسلمين من غير أن يكون لهم إلمام بلغتهم أو أن تتوافر لديهم المصادر العربية الكافية . وانتهى إلى أحكام لا يمكن إلا أن تكون سريعة وناقصة »[2] . ومع ذلك فقد قُدّر لهذه الآراء أن تنتشر كما تنتشر النار في الهشيم ، وكما ينتشر الظلام بعد مغيب الشمس ، فتلقفتها الدوائر العلمية وغير العلمية ، واختلفت الأغراض والمآرب .

وهناك سبب آخر جعل هذا الفريق من الباحثين ينكر وجود الفلسفة الإسلامية . ذلك أن الأسس الفلسفية والآراء التي جاءت بها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفلسفة اليونان والمنهج اليوناني في معالجة المباحث الفلسفية . فالعرب لم يكن لهم عهد بالفلسفة قبل ظهور الترجمات . فلما نُقلت علوم اليونان والهنود والفرس وفلسفتهم إلى لغة القرآن واطلع عليها المثقفون منهم تأثروا بها وأنضجوا أفكارهم بمعانيها ، فبقي إنتاجهم يشف عن مصادره، حتى ليذهب الكثيرون إلى أن العرب لم يكونوا إلا نَقَلَة وحَفَظَة . فالفلاسفة العرب قد أخذوا عن أرسطو معظم آرائه، وأُعجبوا بأفلاطون وأفلوطين أيما إعجاب وتابعوهما في نواحٍ عدة ، حتى إن الفلسفة الإسلامية لا يمكن فهمها بل لا يمكن تصوُّرها بغير الفلسفة اليونانية . فأفلاطون وأرسطو والرواقيون وأفلوطين كانوا المعلمين الحقيقيين للفلاسفة المسلمين .

ومن أسباب إنكار الفلسفة الإسلامية أيضاً أن أكثر الفلاسفة الإسلاميين لم يكونوا عرباً أقحاحاً ، بل كانوا خليطاً من شعوب متعددة يجمع بينهم الإسلام .

والحق أن الحملة على العرب قديمة كما هو معلوم . فما الحملة على الفلسفة

(١) Gustave Dugat: Histoire de philosophes et des théologiens musulmans, Paris, 1878 p. XVI- XVII .

(٢) الدكتور إبراهيم مدكور : في الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيق ، القاهرة ١٩٤٧ ، صفحة ٤ .

الإسلامية والفكر الإسلامي في نظرنا سوى استمرار للتيار الشعوبي الذي يتنكر لدور العرب في حمل الرسالة الإنسانية والإشعاع الحضاري ، ويقول إن الحضارة العربية والإسلامية ما هي إلا بصناعة أعجمية ! يريد بذلك زعزعة الثقة بالنفس وتمهيد الطريق أمام الغزو الإستعماري الذي نشط في هذه البلاد منذ زمنٍ طويل . يغذي ذلك كله شعور الأوروبي بالتعالي وجراثيم الكبرياء التي يتلقاها في الجو المنزلي منذ الطفولة وفيه يتكون تصوّره للعالم وللإنسانية . فهو يعتقد بصلف أن العالم مقصور على أوروبا وحدها وأن التاريخ الأوروبي هو التاريخ العالمي ، وأن التاريخ والحضارة إنما يبتدئان في أثينا ويمران بروما ثم يختفيان فجأة من الوجود لمدة ألف عام ، ثم يظهران من جديد في إيطاليا وباريس في حركة النهضة . أما قبل أثينا فليس من شيء ذي بال يستحق أن يتذكره هذا الفرْد ، وكذلك ليس بعد أثينا شيء . فهو لا يرى بين أرسطو وديكارت إلا الفراغ ! .

على أن الحملة على الفلسفة الإسلامية قد خفت حدتها لحسن الحظ ، وذلك لتقدم الدراسات العربية والإسلامية والرجوع إلى المظان الأولى للفكر الإسلامي ودراسته في أصوله ومصادره . كما أن روح التعصب على العروبة والإسلام قد ضعفت عند عددٍ كبير من الباحثين الغربيين وبدأت تتغلب عليهم روح التجرد والموضوعية والبُعد عن الهوى . فلا يمكن للعلم إلا أن يصقل النفوس ويرتفع بها عن الأحقاد والضغائن ، أو على الأقل هذا ما نرجو .

●

نحن لا ننكر أن الحياة العقلية عند المسلمين لها أصول مختلفة ومصادر متعددة ، منها اليوناني ومنها الهندسي ومنها الفارسي :

فقد عرفوا الفلسفة اليونانية ، في وقتٍ مبكر كما مر معنا وذلك عن طريق النقلة السريان . فأقبلوا عليها وأشبعوها درساً وتمحيصاً .

وعرفوا الفلسفة الهندية ببغداد . فقد وصلت إليهم من طريق الإتصال الإقتصادي بين المسلمين وأهل الهند منذ فُتحت السند في أيام بني أُمية . كما وصلت إليهم أيضاً من طريق الكتب الهندية التي تُرجمت للمسلمين أيام المنصور . ووصلت إليهم أخيراً حين فتح محمود سبكتكين المُلقب بيمين الدولة وأمين الملة ، بلاد الهند ، فكان هذا الفتح علة انتشار الآراء الهندية المختلفة في بلاد المسلمين كما كان هذا الفتح أيضاً علة انتشار الإسلام في بلاد الهند .

الإنسان بعقله لا بجسمه ، بآفاقه الفكرية لا بأنسجته اللحمانية . الإنسان شعاع من فكر لا ضحضاح من بدن .

من هو أفلاطون ؟ هل هو اللحم والعظم الذي لا يكاد يختلف فيه عن أي مواطن أثيني ؟ أم هو الصانع العظيم لأفكار عظيمة ؟ لقد مضى أفلاطون ـ اللحم والعظم ، ولكن أفلاطون ـ الأفكار لا يزال بيننا ، وإلا فكيف نفسر استمرار تأثيره فينا ؟ كذلك مضى برتراند رسل ـ اللحم والعظم منذ وقت قريب ، ولكن برتراند رسل ـ الأفكار لا نزال نسائله ونناقشه في كثير من القضايا العويصة .

من هو آينشتين ؟ إنه أفكار آينشتين ، وما هي أفكار اينشتين ؟ إنها البؤرة التي اصطرعت فيها ومن حولها جميع الأفكار الكبيرة في عصره ، إنها ثورة من الأفكار أطاحت بما رسخ وتجذر من الأفكار ، فانتجت صيغة جديدة من الأفكار . إنه لقاء بين أفكار ، بل مجابهة أفكار لأفكار . إنه جيلٌ كامل من الأفكار . لذلك لا يمكن دراسة آينشتين إلّا بدراسة جهاز كامل من الأفكار . فالحديث عن آينشتين حديث طويل إنه حديث عن حركة ضخمة هائلة من الأفكار العلمية والفلسفية والسياسية . . . فآينشتين هو كل هذا بل أكثر من هذا . أَوَ تقولون بعد هذا إن آينشتين هو البدن ؟

من هو محمد ؟ هو ثورة محمد ، هو أفكار محمد ، هو هذه الأجيال من القادة والرادة والمفكرين الذين درسوا على محمد وتخرجوا في مدرسة محمد ، حتى لكِدْتُ أقول إن الفكر العربي الإسلامي يدين كله لحركة محمد !! فلولا هذه الحركة لما وُجد الفكر العربي الإسلامي ولاتخذ تاريخ الجزيرة العربية والعالم مجرى آخر . وكما يشق المحراث الأرض ويقلبها رأساً على عقب ، كذلك فعل الإسلام في عقول العرب وأفئدتهم ، وقَلَب أوضاع المنطقة ، فإن إعتناق العرب للإسلام لا يدل على مجرد القيام ببعض الشعائر والطقوس والإلتزام ببعض الواجبات والإمتناع عن بعض المُحَرَّمات ، والقضاء على مجموعة من الأعراف والعادات ، وإنما كان انقلاباً شاملاً لمُثل الحياة السابقة وتبدلاً عميقاً في المفاهيم والمبادىء والغايات وقيم الأشياء . فقد كان ظهور الإسلام حدثاً عالمياً ضخماً ترتبت عليه نتائج هائلة لم تقف عند الحدود الجغرافية للبلاد التي شهدت بوادره الأولى ، بل تجاوزت هذه الحدود إلى ما وراءها وظلت تفاعلاتها الفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية تنتقل من بلدٍ إلى بلد ، ومن أفق إلى أفق ، ومن عصر إلى عصر ، حتى

فرضت نفسها على التطور البشري والحضارة العالمية ، وأصبحت إحدى الظواهر الأساسية لحركة التاريخ وتطور الحياة والمجتمع والإنسان والأرض .

قلنا ان عصور التحول هي عصور الطاقة ، فإن أهم ما تتمخض عنه هذه العصور هو ضخ الطاقة بحساب وبغير حساب ، وهذا ما يفسر لنا الفرق بين عرب ما قبل الإسلام وعرب الإسلام . فبينما كان الجاهلي يعيش في فراغ كبير ، إذا به بعد الإسلام يصبح عضواً فاعلاً في « ورشة » عمل كبيرة ! فهو مفسر للقرآن ، أو جامع للحديث أو إمام في المسجد ، أو طالب للعلم ، أو موظف في الديوان ، أو جندي في الجيش » . . . أو . . .

أنا لا شأن لي بالأجسام ، فالأجسام هي الأجسام في كل زمان ومكان ، إنما الشأن عندي هذا الصاعق الجديد الذي أصاب الأجسام ، أي الأفكار وعلاقات الأفكار ، واصطراع الأفكار بالأفكار ، الأفكار هي التي تصنع الشعوب والأمم ، وهي التي صنعت العرب . وإلّا فكيف عسانا نفسر الحركة العقلية الضخمة التي برزت فجأة مع الإسلام لولا استعار الأفكار ؟ كيف تُرانا نفسر نشأة الفرق والمذاهب والمدارس قبل منتصف القرن الأول للهجرة ، لولا تفجر الأفكار ؟ الفكر العربي الإسلامي والفلسفة الإسلامية والعلوم الإسلامية والكونية إنما صنعتها هذه الأفكار والتطورات العميقة التي طرأت عليها . هنا البواكير التي لم يتمكن رينان وصحبه من رؤيتها . فالبدايات عند رينان يجب أن تكون على الطريقة اليونانية « المعيارية » ، وإلّا فلا بدايات .

لم يكن الإنسان العربي إنساناً بلا بداية ، وبالتالي بلا تاريخ . فلليونان تاريخ وللعرب تاريخ ، والانتفاضة هي المنطلق والمبدأ لكل تاريخ . فلا تاريخ بلا انتفاضة . والانتفاضات شتى . فهناك الانتفاضات الهادئة المتدرجة (اليونان) ، وهناك الانتفاضات الصاعقة (العرب) ، وهناك الانتفاضات الحمراء (الثورة الفرنسية) .

لقد جاء الإسلام بفيض زاخر من الأفكار ، وأنشأ عالماً يموج بصواعق الأفكار . واستتبع ذلك قيام مدارس كاملة من القادة والرادة والمفكرين العظماء . فالإسلام كما سنرى كشاف للمواهب التي برزت الى السطح جملةً واحدة بعد أن كان يعلوها غبار أجيال طويلة من التخلف . هكذا تفعل التحولات الكبرى في

وعرفوا الفلسفة الفارسية منذ بدأ اختلاط العرب بالفرس يشتد في أيام بني

أُمية . وظهرت الكتب الفارسية مُترجمة أيام العباسيين بفضل ابن المقفع وبني نوبخت .

أجل لقد عزف العرب كل هؤلاء وأولئك لإنتاج حياتهم العقلية . فالفلسفة الإسلامية لم تخرج إلى الوجود إلا من الإتصال بين الإسلام والنزعات الفكرية الإسلامية وبين ثمرات الفكر الأجنبي ومناهج العقل الفلسفي الأجنبي ، ولا سيما اليوناني .

●

إن هذه الطريقة التي لا ترى في الفكر الإسلامي إلا صورة للتأثيرات الأجنبية لم تعد طريقة علمية عصرية ، فلقد تركها أصحابها منذ زمنٍ طويل لأنها لا تقول لنا :

لِمَ انتقلت هذه التأثيرات إلى العرب في زمنٍ بعينه ولمدة بعينها ؟

لِمَ كان لها أبلغ الأثر في المسلمين على رغم ما وُضع أمامها من عراقيل ؟ .

إن كل شيء يتضح لنا من هذه الناحية إذا تذكرنا التغيرات العميقة التي طرأت على شبه الجزيرة العربية في أوائل القرن السابع للميلاد ، أي عندما قام محمد عليه السلام بحركته العظيمة . هنالك نرى كيف أن نظم الحياة العربية قد تبدلت رأساً على عقب ، فاستتبع ذلك نشوء مجتمع جديد له حاجات جديدة ، وآمال جديدة ، وأهداف جديدة ، ومسؤوليات وأعباء جديدة ، وقيم ومُثُل جديدة ، وهذا ما جعله يتطلع إلى آفاق جديدة.

●

إن رينان ورفاقه من أصحاب المدرسة التقليدية يحصرون تفسير الحاضر في الماضي . ويخلطون بين الأوقات التي يكفي فيها هذا التفسير والأوقات الأخرى التي لا يجوز فيها أبداً الاكتفاء به ، وإن كان الماضي لا غنى عنه لتفسير الحاضر في جميع الحالات . أنا لا أنكر أبداً أهمية الماضي في تفسير الحاضر ، إنما أنكر الإقتصار عليه وحده في الأوقات غير العادية ، أي في العصور التي تشهد تحولات تاريخية كبيرة . وبعبارة أخرى ان رينان وسائر أصحاب المدرسة التقليدية ينطلقون من الفرض القائل بأن عرب الإسلام هم أنفسهم عرب ما قبل الإسلام ، كأنما الإسلام حدث عابر عَرَض لجزيرة العرب من غير أن يترك أي أثر فيها. ليس عرب

الإسلام هم أنفسهم عرب ما قبل الإسلام . فإن الماضي لا يفسر الحاضر تفسيراً كافياً إلّا في حالة واحدة فقط ، وهي عندما يقتصر التغيير على التغيير الكمي . أما عندما يتعلق الأمر بنُقلة نوعية هائلة كتلك التي أحدثها الإسلام في شبه جزيرة العرب والمنطقة المحيطة بها ، فإن تفسير الحاضر بالماضي يصبح عاجزاً مشلولاً لا يأتي بخير . إن ١ + ١ = ٢ ، هذا في الأحوال العادية فقط . أما في الأحوال غير العادية فإن مجموع الرقمين قد يساوي الملايين ، بل قد لا يساوي شيئاً على الاطلاق ! أضف الفكرة إلى الفكرة وانظر ماذا تكون النتيجة . فقد تجهض الفكرةُ بالفكرة ، وقد تلتقح الفكرة بالفكرة فيتولد عنها ألف فكرة .

إن عصور التحول الكبرى هي عصور تعجيل تفاعلات الأفكار . فالتاريخ إنما تصنعه انتفاضات الأفكار . فلا إصلاح ولا تقدم ولا إبداع بلا أفكار . عصور التحول هي عصور الطاقة . فقبل التحول لم تكن طاقة . التحول يوقظ طاقات كانت هاجعة ، فيستفزها ويثير كوامنها ، ويحرك ما سكن منها . إن هذا المفهوم الديناميكي للأفكار هو الذي يفسر ما يُسمى بالمعجزة اليونانية ، وهْو - بزعمي - يفسر أيضاً ما يمكن تسميته بالمعجزة العربية . وكذلك المعجزة التي تحققت في أعقاب الثورة الفرنسية .

وهكذا فلا تحول بلا ثورة ، ولا ثورة بلا أفكار . والأفراد في نظري هم صناع الأفكار . والأفكار شحنات من الطاقة ، تنمو وتزيد وتتفجر بالإحتكاك واللقاء والنقاش والحوار . كيف تفعل هذه الأفكار ؟ كيف تؤثر وتتفاعل ؟ كيف تنبثق وتتوالد ؟ وما هي قوانين عملها ؟ ذلك هو موضوع السّيكوسوسيو ديناميكا وهي تسمية مؤقتة أرجو أن أستطيع قريباً أن استبدل بها اسماً عربياً أصيلاً .

وهكذا فالعرب « عَرَبَان » إذا صح التعبير : عرب ما قبل الإسلام وعرب الإسلام ، والفرق بينهما هو فرق في ثروة الأفكار . طوفان من الأفكار غمر الجزيرة العربية مِن أقصاها إلى أقصاها في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد . القوم هم القوم إذا أردتَ ظاهر القوم ، ولكن القوم غير القوم إذا أردتَ حقيقة القوم . فعرب الإسلام هم عرب ما قبل الإسلام بحكم بادي الرأي والسحنة الظاهرة ، ولكنهما عالمان مختلفان من حيث الغايات والأهداف والحقوق والواجبات والتبعات ، والنظر إلى الكون والإنسان والمصير .

فليست العبرة بالأجسام إنما العبرة بما ينثال عليها من معانٍ وأفكار .

التاريخ .

لقد كان لهذا التحول الكبير آثار عظيمة لا تحصى في نفوس العرب ، لعل أهمها أنه بعث فيهم الايمان بقواهم الذاتية وبطاقة العقل البشري التي لا حدود لها ، وبضرورة الإرادة الحرة في الفكر واختيار الأعمال والمنجزات . وجاء القرآن الكريم ليشد عزائمهم في هذا السبيل ، وينأى بهم عن منطق أولئك التافهين الغارقين في التبعية والضلال ، أولئك الذين يخشون أن يكون لهم رأي أو موقف في الأحداث والوقائع التي أخذت تنزل بساحتهم ، فكل ما كان يسعهم قوله ﴿ **إنَّا وجدنا آباءنا على أمة ،وإنّا على آثارهم مهتدون** ﴾[1] . لقد كان التقليد عدو محمد الأكبر . ولذلك كان القرآن ينعي عليهم تخلفهم عن عصر العقل وعدولهم عن حكم العقل ، فيرد عليهم قائلاً : ﴿ **أَوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾[2] . ولذلك لم يكن غريباً أن يشبِّه القرآن هؤلاء العبيد بالدواب فيقول : ﴿ **إن شرّ الدواب عند الله البُكم الذين لا يعقِلون** ﴾[3] .

لقد بدأ عصر العقل بالنسبة إلى هؤلاء القوم ، بقدر ما بدأ عصر الروح والإيمان ، العقل الملتزم بالدين ، وكان من السابق لأوانه آنذاك أن ينفصل العقل عن الدين ، فلا تعارض بين العقل والإيمان في منطق القرآن ، أو على الأقل هذا ما فهمته طائفة كبيرة من مسلمي ذلك الزمان .

وهكذا طُرحت مشكلة العلاقة بين العقل والسمع (أو العقل والنقل ، أو الفلسفة والشريعة) منذ العصور الأولى للإسلام ، وسيحتدم الصراع بين الفريقين ، وسيتمخض عنه مدارس ومذاهب وفلسفات كثيرة . وعلى أطراف هذا النزاع ستنشأ علوم وآداب وأنظار ومواقف ومنازع لا تقع تحت حصر . وسرت عدوى العقل في كل مكان . وتعصب الكثيرون لحكم العقل وناهض الكثيرون أيضاً حكم العقل وحملوا على العقل . ومن هنا ستنشأ علوم الدين وعلوم الدنيا ، ومن هنا أيضاً سينشب النزاع بين الدين والدنيا . ولكل منهما طرائقه ومناهجه ووسائله ، ولذلك كله قوانين وسنن نزعم أن

---

(١) قرآن كريم ، ٤٣/٢٢ .
(٢) ١٧٠ / ٢ .
(٣) ٢٢ / ٨ .

السّيكوسوسيوديناميكا قد أحاطت بالكثير منها ، ونرجو ألّا يكون في ذلك إدعاء كبير .

وعلى كل حال لقد أصبح بين أيدي العرب الآن طاقة كبيرة . وهذه الطاقة هي ـ كأي طاقة ـ قابلة للتحويل . وصودف أن المشكلة التي كانوا يواجهونها هي المشكلة الدينية . فتعبأت هذه الطاقة وتجندت كلها أو جلها لحلها . كما أن الطاقة التي تعبأت في عصر التحول اليوناني الكبير صادفت مشكلة من نوع آخر هي المشكلة التي أثارها طاليس ، أي المشكلة الميتافيزيقية ، فتجندت هذه الطاقة لحلها . وبقدر ما طبعت المشكلة الأولى التي صادفها عصر الطاقة اليوناني ـ أقول بقدر ما طبعت هذه المشكلة العقل اليوناني بالطابع الميتافيزيقي ـ لأن الطاقة تبحث دائماً عن منافذ لها فوجدتها في الميتافيزيقا ، كذلك طبعت المشكلة الدينية العقل العربي بالطابع الديني . فليست الميتافيزيقا من مستلزمات التكوين اليوناني ، كما ليس الدين من مستلزمات التكوين العربي ، وإنما الأمر في الحالين طاقة هائلة تتلمس الطريق لإيجاد مسارب لها ، فعثرت عليها في تأملات طاليس عند اليونان وفي مسألة الإيمان والأعمال عند المسلمين ، ومن تأملات طاليس انبثقت جميع الفلسفات اليونانية ، ومن إيمان الخوارج برزت جميع المذاهب الإسلامية .

وبعبارةٍ أخرى ، إن الأمور ترجع في نهاية التحليل الى ما أطلقت عليه اسم (قانون المشكلة الأولى) أو (سَيْكوسوسيوديناميكا المشكلة أولى) . فالمشكلة الأولى التي تواجه مجتمعاً بدأ يستيقظ ويعي وجوده ، تكون لها دائماً تفاعلات وامتدادات وأصداء ذات آثار حاسمة في تفكير هذا المجتمع ، إنها في أساس جميع التطورات اللاحقة التي تزلزل كيانه . نعم ليست الأمور ميدانياً بهذه البساطة ، إنها أعقد من ذلك بكثير . لكن الذي يمكن استخلاصه على كلِ حال من قانون المشكلة الأولى ما قلناه من أن الميتافيزيقا ليست جزءاً جوهرياً من بنية العقل اليوناني ، كما أن الدين أيضاً ليس جزءاً جوهرياً من بنية العقل العربي . فلم يُخلق اليونان للميتافيزيقا ، ولم يُخلق العرب للدين ، وإنما كان ذلك بمحض الصدفة والإتفاق ، أي بحكم الظروف والملابسات الخارجية العارضة المستقلة عن إرادة الفريقين ، ثم جاءت الوراثة الإجتماعية لترسيخ حكم الصدفة وإعطائه أبعاداً ظلت تتمكن وتستطيل على الأيام . وهذا ما فتح الباب أمام المرجفين للخلط بين الوارثة البيولوجية التي لا تتخلف لأنها في أساس تكوين الفرد ، وبين الوراثة الاجتماعية التي تعرض للفرد من خارج ، ومن الممكن تلافي آثارها الضارة .

وهكذا ، فإذا لم يكن العرب الجاهليون قادرين على إنتاج المادة العقلية العلمية والفلسفية ، فلا ينسحب ذلك أبداً على العرب المسلمين ، أي أن الماضي الذي أقفل وانتهى لا يكفي دائماً لتفسير الحاضر المفتوح باستمرار على متغيرات لا حصر لها . وكلما كانت هذه المتغيرات أكثر تنوعاً وأشد عمقاً كان تفسير الحاضر بالماضي أكثر عسراً . فإذا بلغت المتغيرات حدها الأقصى فحدثت المعجزة ، أصبح من غير الجائز اطلاقاً نبش الماضي والتذكير به وإقحامه بالقوة لنفي كل نفحة جديدة لا نجد لها جذوراً في الماضي القريب أو البعيد . وهذا لا ينطبق على العرب وحدهم ، بل هو ينطبق أيضاً على العرب والعجم وجميع أمم الأرض قاطبة . ولئن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على أن « الزلزال » الذي أحدثه محمد في شبه الجزيرة العربية هو السبب في هذه القطيعة ، أو ما يشبه القطيعة[٩] بين « العربَيْنْ » ، عرب الجاهلية وعرب الإسلام . فهذا الزلزال قد نشأ عنه ، فجأة ، ودونما أي اعتبار لأوضاع العرب قبل الإسلام ، وللمراحل التي كان عليهم أن يقطعوها في تقدير المؤرخين التقليديين الذين سيجدون في هذا الذي أقول تجديفاً وهرطقة ـ أقول قد نشأ عن هذا الزلزال بنية معينة ذات خواص ثابتة يمكنها أن تنمو نمواً ذاتياً بغير لقاح أجنبي ، فكيف إذا ما انضم إليها هذا اللقاح ؟ وهي تحمل في تضاعيفها بذور تحولاتها المستقبلة ، كما تحمل بذور إنحلالها أيضاً ، بصرف النظر عما قد يكون لها من ماضٍ قريب أو بعيد . لقد انتهى عهد وأقبل عهد . إنه لا يمكن تفسير التطورات اللاحقة التي نشأت عن هذا الزلزال إلا بتحليل ما فيها من قوى دينامية وطاقات كامنة تؤذن بالإنفجار تباعاً على نظام مرسوم تحدده شحنتها الداخلية وتلقائيتها الذاتية وعلاقاتها المتشابكة ، إن لهذا الزلزال دلالة خاصة في رؤوس الذين فجروه وحملوا رسالته ، وله رموز ومعانٍ لا يعرفها إلا ذووه ، وكل أولئك وأمثاله عناصر لا مادية لا وجود لها في العالم الفيزيائي ـ البيولوجي الذي يريد المؤرخون المتعلقون بمبدأ السببية وقانون المرحلة أن يرجعوا إليه وحده في تفسيرهم لظواهر الفكر العربي ومنجزات الحضارة الإسلامية . إن السببية والمرحلية مقولتان قد تكون لهما بعض الفائدة في ظروف الحياة العادية ، أما إذا تعلق الأمر بالتحولات الكبيرة فيجب أن نعمد عندئذٍ إلى مقولات كبرى موازية لها كمقولة الإنتفاضة مثلاً .

●

وإذا كان هناك من يشكك في القيمة الحقيقية لثمرات هذا الفكر ،

وعلى ذلك فالفكر العربي الإسلامي حقيقة ثابتة انتجتها هذه التحولات ، فما علينا لتبديد هذا الشك إلاّ مقارنة ما كتبه النقَلة السريان بما كتبه العرب . لقد كان السريان أسبق من العرب إلى تلقف آثار اليونان، ومع هذا فقد عجزوا عن أن ينجبوا ـ قبل اختلاطهم بالعرب ـ مفكراً واحداً من معدن الكندي أو الفارابي أو ابن رشد أو ابن خلدون أو ابن الهيثم أو . . . ويجب أن نقارنهم أيضاً بالروم (البيزنطيين) الذين ورثوا حكمة اليونان لكنهم دفنوها في الأقبية والكهوف حتى جاء العرب فانتشلوها وأخرجوها منْ جحورها ، بالترغيب تارةً والترهيب تارةً ، في عملية انقاذ حضارية نادرة في التاريخ . فالدولة البيزنطية لم تنجب طوال تاريخها جهابذة عظاماً في مستوى جهابذة العرب . وإذا كان قد نبغ من هؤلاء وأولئك من نبغ ، فإنما كان ذلك يعود إلى لقائهم العرب والإفادة من أجواء الحوار والتعايش والتسامح والتعاون التي سنحت لهم في عالمهم الجديد .

ليست العبرة بما استفاده العرب من القدماء ، إنما العبرة بما لم يستفيدوه منهم ، أعني روح التوثب وحب الاستطلاع وسعة الخيال والتوق إلى المعرفة ، والقدرة على الاستدلال والاستقراء والتحليل والتركيب والتعميم والتعليل واستخراج العلاقات . . . وكلها مواهب لا تُغني عنها علوم الدنيا .

بهذه الصفات أرسى ابن الهيثم قواعد البصريات ، واكتشف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى ، وقام البيروني بقياس محيط الأرض ، ووضع ابن سينا وابن تيمية ـ فضلاً عن علماء الطبيعة ـ أسس المنهج العلمي ، ونقل الرازي الكيمياء من الطور الأسطوري إلى الطور العلمي ، ومهدّ ابن الشاطر لآراء كوبرنيقوس الفلكية ، وأسس الخوارزمي علم الجبر ، والزهراوي علم الجراحة ، وابن البيطار علم النبات ، والبتاني علم المثلثات وابن خلدون علم الإجتماع وفلسفة التاريخ . . . إن السلسلة طويلة ، وفي كل يوم تُكتشف مخطوطات جديدة تضع أيدينا على حقاق تاريخية ومآثر لأجدادنا العرب جديدة .

وكانت روح النقد عندهم قوية ، وقد ظهرت هذه الروح منذ العصور الأولى لتاريخهم كما يقول روزنتال[1] حتى أنه لم يسلم عالم أو فيلسوف أغريقي

---

(١) انظر كتابنا : أصالة الفكر العربي ، الفصل الثاني .

قديم من سهامهم . ويشيد روزنتال بقصة الخطيب البغدادي حين فضح الوثيقة التي ادعى يهود خيبر أنهم مُنحوا بمقتضاها امتيازات خاصة ، فاكتشف البغدادي زيفها . ويضيف روزنتال أن الخطيب البغدادي لم يأت بجديد ، بل فعل ما كان يفعله العلماء المسلمون في تحقيق النصوص ومقارنة التواريخ ، ويؤكد روزنتال أيضاً أن العلماء المسلمين قد أيدوا شكوكهم في صحة كتب كثيرة تُنسب إلى مؤلفين قدماء كأبقراط وجالينوس مثلاً . وحسبهم فخراً أن يطعن اثنان منهم على الأقل في كتابين منحولين كانت تُنسب إليهما شهرة عريضة في العالم الإسلامي والعالم اللاتيني معاً وهما (كتاب الربوبية) أو (أتنولوجيا أرسطاطاليس) وكتاب (سرّ الأسرار) ، فابن سينا يطعن في الكتاب الأول كما أن ابن خلدون يطعن في الثاني . وقد تجلت روح النقد هذه عند ابن خلدون أيضاً في نقده لطريقة كتابة التاريخ وفي نظريته في مغالط المؤرخين ، كما ظهرت في نقده للمنطق الصوري والفلسفة الميتافيزيقية . وكثيراً ما كان العلماء العرب يرفضون الأخذ بنظريات جالينوس وبطلميوس وغيرهما . فقد انتقد ابن النفيس آراء جالينوس الخاصة بوظيفة الرئتين وتركيبهما ووظيفة الحويصلات الرئوية ، وانتهى من ذلك إلى عملية تنقية الدم إنما تحدث في الرئتين بسبب اختلاطه بالهواء الخارجي عند التنفس ، فاكتشف ابن النفيس بذلك لأول مرة الدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتوس الإسباني الذي يُنسب إليه هذا الإكتشاف . كما أن الطبيب عبد اللطيف البغدادي تجرأ هو أيضاً على جالينوس وانتقد نظريته في تكوين الفك الأسفل . وكما انتقد ابن النفيس والبغدادي جالينوس في ميدان الطب كذلك انتقد ابن الهيثم نظرية بطليموس وإقليدس الخاصة بالإبصار ، فوضع بذلك الأسس العلمية الصحيحة لتفسير عملية الرؤية . وكذلك انتقد البتّاني مذهب بطليموس في ثبات الأوج الشمسي وأقام الدليل على تبعيته لحركة المبادرة الإعتدالية ، واستنتج من ذلك أن معادلة الزمن تتغير تغيراً بطيئاً على مرّ الأجيال(٤) .

لقد كانت العلوم الطبيعية عند اليونان دراسات فلسفية ميتافيزيقية قوامُها المنهج العقلي الاستنباطي . فالعقل اليوناني الذي كان شامخاً عملاقاً في الهندسة والمنطق وما بعد الطبيعة كان دون ذلك في علوم الطبيعة وعلم العدد . وقد تنبه العرب ـ بفضل هذه الروح النقدية ـ إلى عقم التفكير اليوناني في مجال العلوم

الطبيعية . فالتجربة والملاحظة هما معيار كل حقيقة ، بل هما تغنيان عن جميع كتب الدنيا . ولذلك فإن أعظم حدث في تاريخ العلم هو بلا شك اكتشاف العرب للمنهج العلمي . فقد عرفوا العناصر الأساسية لهذا المنهج (الاستقراء والتجربة والملاحظة) وأورثوا الأجيال اللاحقة أصول البحث العلمي والطريقة العلمية التي ثبت أنها أعظم ما وهبه العرب للفكر الحديث الذي إنما سار على آثارهم ، من بيكون إلى وليم الأوكامي ، وديكارت وغاليليو وبسكال ونيوتن . .

●

لكنه لا يكفي ـ للحكم على عقلية من العقليات أو ثقافةٍ من الثقافات ـ الإكتفاء بما نرى فيها من عناصر دخيلة . هذا ما قلناه دائماً ولا نزال نكرره ونردده . إنه يجب البحث أيضاً عما فيها من عناصر ذاتية قد تغمض حيناً وقد تلتبس بغيرها أحياناً . لكن مواصلة البحث والنظر كفيلة بالكشف عن الحقيقة . فلئن نفذت إلى الثقافة الإسلامية تيارات متعددة اجتمعت بها وتفاعل إلا أنه لا يجوز أن ننسى أن فيها أيضاً نتائج هذا التفاعل وثمرات هذا اللقاء وهذا المزاج . ففيها ثمرات من عبقرية أهلها :

ظهرت في تقدم علم الجبر والطبيعة ، والفلك والبصريات والصنعة والتاريخ والإجتماع ! .

ظهرت في علم الكلام الذي يقول فيه رينان « إن الفلسفة الحقيقية في الإسلام إنما يجب التماسها في مذاهب المتكلمين » ! .

ظهرت في علم أصول الفقه وما فيه من مباحث عقلية صرف تخوض في الدليل والعلم والحاكم هل هو العقل أو الشرع ، والحُسن والقبح في الأفعال ، وضبط التفكير حتى لا ينساق في شطحات الميتافيزيقا ومعمياتها .

أجل ظهرت في كل ذلك وغير ذلك من المباحث التي وإن كانت شرعية من حيث موضوعاتها إلا أنها من حيث منهجها وطريقة معالجتها فلسفية بالمعنى الحديث جداً لكلمة (فلسفة) ، لأن الإتجاه الجديد في الفلسفة اليوم إنما هو الإلحاح على المنهج وتحليل الألفاظ . فالأصوليون يُعنون عناية كبيرة بالمنهج

ويدققون النظر فيما يُعرض عليهم في مجال الأحكام الشرعية من وقائع جديدة تحتاج إلى إعمال العقل استنباطاً ، وإلى التروي في الحكم اجتهاداً ، وإلى التدقيق في الألفاظ وتحليلها من حيث المفهوم والماصدق منهجاً وطريقة . فهم بذلك أصدق معبر عن الفلسفة الإسلامية من حيث هي فلسفة مرتبطة بالإسلام ، من الفلسفة التقليديين من مشائين وإشراقيين .

ومن هنا لا يمكننا أن نعطي صورة للفكر الفلسفي في الإسلام إذا اقتصرنا على ما كتبه الفلاسفة الخُلَّص وحدهم . حتى ليذهب البعض إلى « أن هؤلاء الفلاسفة لا يمثلون الفكر الإسلامي في شيء »[1]. إلا أننا لا نذهب هذا المذهب في الغلوّ والشطط ، بل نرى أنهم يمثلونه عند اتصاله بالفكر اليوناني كما يمثله الأصوليون والفقهاء وعلماء الكلام سواء بسواء . فالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام مضافاً إليها الفلسفة هي تعبيرات مختلفة للفكر الإسلامي . فمن فلاسفة الإسلام من اقترب من أرسطو مع اتجاه إسلامي ، ومنهم ابتعد عن أرسطو وأخذ بفلسفة أفلاطون مع محاولة توفيقية مع حقائق الإسلام، ومنهم من أخذ بمبادىء فلسفة ما قبل سقراط ، ومنهم من جمع بين تراث الهند وفارس وتراث اليونان بروح إسلامي ، بل منهم من ابتعد عن الإسلام . فقد اتسع الإسلام لكل هذا دون أن يضيق به ذرعاً . فالفكر الإسلامي لم يكتفِ بتعبيرٍ واحد بل لقد اتخذ لنفسه تعبيرات شتى تتفاوت قوة وأصالة ، لكنها تظل جميعاً أفكار المسلمين . ويظل الإسلام ـ حتى ولو ابتعدت عنه غاية البعد ـ مبعث نشاطها ومركز الدائرة فيها .

وهكذا فالفكر الفلسفي في الإسلام شديد التنوع كثير التشعب متعدد الجهات . والألوان . لكن مهما تعدَّدت الموضوعات واختلفت الإتجاهات وتشعبَّت الطرق والمسالك فإنه في علم الكلام هو نفسه في علم أصول الفقه ، هو نفسه في الفلسفة الميتافيزيقية الخالصة ، هو نفسه في علم الفلك والطبيعة والرياضة والإجتماع . . . فهو إنما يصدر عن حوضٍ واحد ويُسقى بماء واحد . فإذا لمح الدارسون في هذه الوحدة عناصر افتراق وتباين فإنها ليست من التشتت والبعد بحيث تغيب وراءها شتى آيات الوحدة . فإن عناصر الإفتراق التي تطفو

(١) الدكتور علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، الجزء الأول ، ص ٢١ .

على سطح الحياة العقلية في الإسلام هي أشبه بالأشياء التي تطفو على سطح البحر . فإن أحداً لا يستطيع أن يقول أن هذا الثبج الطافي وهذا الزبد الراغي وهذا الحطام المتهاوج ، وهذا الهدير الصاخب ، وهذه السفن الماخرة . . . ليست أشياء هذا الخضم العظيّم الواحد أوليست معالم ثابتة أو متحركة له .

وللتعرف على طبيعة الفلسفة الإسلامية نذهب مذهب المستشرق هورتن (Horten) إذ يقول في فصلٍ عقده عن هذه الفلسفة في (دائرة المعارف الإسلامية) بعنوان (فلسفة) :

« ولتقدير ما للفلسفة الإسلامية من الشأن يجب البدء ببيان ما في مذهب أرسطو من النقص . فلا نظير لأرسطو في ضبط المعاني الجزئية ، غير أنه لم ينجح في وضع نسق شامل للعالم كله منظوراً إليه من خلال صورة ذهنية واحدة . فهو لم يردّ جملة العالم إلى مبدأ واحد ، إنما هي 'إثنينية تتقابل فيها الهيولى القديمة مع الله . وهذا المذهب الأرسطاليسي فيه عناصر علمية نظرية ممحصة ، لكن النزوع القوي فيه إلى الإعتماد على ما في الوجود الخارجي وحده يشوبها ويعطلها : إنّ جاءت الصوَر إذا كان الله عقلاً صرفاً ليس له إرادة ؟ وهو يحرك العالم من حيث هو معشوق لا من حيث هو فاعلة ؟ ثم هو يجهل الجزئيات ؟ ذلك مذهب في الألوهية ليس بفلسفي »[1] .

فهورتن إذن يأخذ على أرسطو أنه لم يستطع رد جملة العالم إلى علة واحدة ما دامت الهيولى القديمة موجودة مع الله ، ففي الكون علتان إذن : الله والهيولى . كما أنه لم يستطع وضع نظرية واحدة شاملة تنصهر فيها جميع الجزئيات في العالم وتضيع معالمها في كلٍ أكبر منها . كذلك لم يستطع تفسير حقيقة صلة الله بالعالم وكيف يؤثر فيه إذا كانَ مجرد علة غائية . ثم هو يجهل ما يجري في هذا العالم من أمورٍ وحوادث جزئية . هذه هي جملة المآخذ التي يأخذها هورتن على أرسطو . ويمكن أن نضيف إليها أيضاً إضافات طفيفة أخرى تسير في نفس الإتجاه : فأرسطو ترك في مذهبه نقاطاً كثيرة معلقة دون أن يتصدى لحلها ، كما أن في مذهبه

(١) لقد اعتمدنا على كتاب (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) صفحة ٢٣ ـ ٢٤ ، تأليف المغفور له الأستاذ العلامة مصطفى عبد الرازق في ترجمة هذا النص وجميع النصوص الأخرى التي تقدمت على لسان رينان وشمويلدرز ودوغا بعد إدخال تعديلات طفيفة عليها اقتضاها رجوعنا إلى الأصل .

نقاطاً غامضة حيناً متعارضة بعضها مع بعض حيناً آخر ولم يكلف نفسه مؤونة توضيحها أو إزالة ما فيها من تناقض . وأخيراً إن مذهب أرسطو معارض للإسلام في كثيرٍ من جوانبه ، كما أن في الإسلام قضايا كثيرة لا يقرّها أرسطو .

في هذه النقاط جميعاً ستتفجر عبقرية فلاسفة الإسلام ، وسنشهد معركة حامية الوطيس تنشب بين مختلف التيارات الفكرية العربية الإسلامية تنتج عنها موقف معين منها ، مما نتج عنها سد جميع الثغرات في فلسفة أرسطو وجلاء كل غامض فيها والبت في كل ما تركه معلقاً بلا حل ، وإحكام الصلة بين الله والعالم وتحويل الله من علة غائية إلى علة فاعلة ، وجعله محيطاً بكل شيء علماً ، وصهر الجزئيات جميعاً في ظرة واحدة شاملة تستغرق كل شيء ، وأخيراً تقريب أرسطو من الإسلام وتقرب الإسلام من أرسطو ، والتوفيق بينهما بإدخال تغييرات - تتفاوت في العمق والقوة والأصالة - في قضايا الفلسفة الأساسية والفرعية من شأنها تقريب مسافة الخلاف بين الفلسفة والدين وإزالة ما بينهما من جفاء ، بل وبإضافة قضايا جديدة إلى الفلسفة قال بها الدين وجهلتها الفلسفة ، كل ذلك بأدوات الفلسفة نفسها وبروح فلسفي وتفكير فلسفي لا أثر فيه لنزوة أو هوى أو عاطفة ، بحيث أنه لو بعث أرسطو حياً لاستغاث من استخدام فلسفته من قِبل أخلص تلاميذه والمعجبين به من العرب للوصول إلى نتاج لا يقرها هو ولا يؤمن بها بل ويذهب في معارضتها إلى حد الشطط !

وليس معنى ذلك بالطبع أن العرب قد اقتصروا على أرسطو وحده بل معناه أنهم عملوا على أساسه وفي مخطط تفكيره مع تصحيح ما فيه من نقص كما مر معنا . فقد أخذوا من أرسطو منطقه ومنهجه وطبيعته ومعظم أقواله فيما بعد الطبيعة ، ثم أكملوه بمثالية أفلاطون . كما أخذوا من مذاهب يونانية غير مذهب أرسطو وأفلاطون ، ثم ضموا إلى ذلك عناصر شرقية غير يونانية أصلاً . ثم تناولت ذلك كله يدُ صَناع استخدمته في حل مشاكلها وبناء وجهة نظرها وتفسير بعض القضايا التي نبتت في جو الإسلام وفي زمن اختلفت فيه المُثُل والقيم والآمال والمسؤوليات عما كانت عليه لدى اليونان .

وقد اختلف المؤرخون في التسمية التي يجب إطلاقها على هذه الفلسفة ! فهل يُقال (فلسفة عربية) أو (فلسفة إسلامية) ؟ فمن المؤرخين من يُسميها (فلسفة عربية) وذلك لأن اللغة العربية كانت لغة البلاد الرسمية ولغة الكتابة

والكلام والتداول . فبها دُونت كتب الفلسفة وبها كان الإنتاج العقلي في الإسلام ، وبها كُتبت معظم الآثار التي ألفها المفكرون من العرب والعجم في عصور الإسلام الذهبية . ومن المؤرخين من يُسميها (فلسفة إسلامية) لأن القسم الأكبر من رجالها لم يكونوا عرباً أقحاحاً بل كانوا من جنسيات مختلفة وأصول متباينة تجمعها وحدة الدين والدولة ، بمنأى عن خلوص العروبة ، وكذلك لأنها لم تنشأ في الجزيرة العربية . وإنما نشأت في البلاد التي دانت بالإسلام ، ولأنها عاشت في جو الإسلام وتحت راية الإسلام .

والحق أن الخلاف في هذه المسألة خلاف لفظي لا طائل تحته . فلا مشاحة في الألفاظ كما يقولون وإنما العبرة بمعاني الألفاظ . فإذا لم يكن الفلاسفة والعلماء الذين أنجبتهم بلاد الإسلام أو اجتذبتهم إليها فعملوا فيها وشاركوا في آمالها وآلامها واضطلعوا بمسؤوليات الحكم والبناء والتفكير فيها ـ أقول إذا لم يكن هؤلاء الفلاسفة والعلماء من العرب الأقحاح فقد أثروا في تطور الحياة العربية من طريق لغة العرب . فهم ـ مهما تكن أعراقهم الأصلية ـ أبناء العربية وجنودها وأدوات التطور والبناء فيها : بها كانوا يفكرون ويبحثون ويؤلفون ، وإليها روحياً وعقلياً ينتمون . وإذا ذكرهم التاريخ فإنما يذكرهم بها لا بأنسابهم العرقية التي طغت عليها ثقافتهم اللغوية وذابت فيها. لقد نشأ في بلاد الإسلام روم كياقوت ،وأكراد كأبي الفداء ، وروس كالظاهر بيبرس وألمان كسيف الدين لاجين وقوط كأبي بكر بن القوطية وأسبان كأبي القاسم بن بشكوال وفرنسيون كموسى بن موسى بن فرتون وآخرون كثيرون غير هؤلاء تحدروا من أصول شتى وجنسياتٍ مختلفة ، لكنهم جميعاً نشأوا عرباً بالإحساس والعقل والروح وكانوا رسلاً للثقافة العربية والفكر العربي . كما أن الإسلام نفسه وليد العبقرية العربية ويدين بأعظم منجزاته للعبقرية العربية . وهو برغم كل ما تسرّب إليه من العناصر الأجنبية وكل ما خضع له من التيارات والعوامل الخارجية ـ هدامة كانت أو بناءة ـ فإنه يظل أثراً فذاً من آثار العبقرية العربية وإشراقة فياضة من أعظم إشراقاتها .

والعكس صحيح أيضاً : فلئن كُتبت الفلسفة الإسلامية أو كُتب جلها باللغة العربية فإن الذين كتبوها قد دانوا بالإسلام وعاشوا في كنفه وتنفسوا في أجوائه وتغذوا بالمثل التي ينادي بها والقيم التي يدعو إليها . لقد كان الإسلام رائدهم فيما يحسون ويكتبون ، وكان القرآن داعيتهم به يبشرون وعلى أنغامه يوقّعون . وما من علمٍ من العلوم النقلية أو العقلية قام في بلاد الإسلام إلا وكان

محوره القرآن ، وفهم القرآن وخدمة أغراض القرآن .

أما لِمَ كان كثير من مفكري الإسلام من الأعاجم أو من أصل أعجمي فإني أحسب أن فن التحليل النفسي psychananlyse وعلم الإجتماع المعرفي (so- ciologie de la connaissance قد يلقيان بعض الضوء على هذه الظاهرة التي تستوقف النظر حقاً . فالمعلوم أن معظم خهؤلاء الأعاجم كانوا موالي أو منحدرين من موالٍ ، وبالتالي كانوا موضع ازدراء وتحقير من جانب بعض المتعصبين من العرب الفاتحين الذين قوَّضوا عروشهم وأزالوا ملكهم ونالوا من عزتهم القومية ، فأورثوهم عُقد النقص والشعور بالتدني . لذلك كان لزاماً عليهم أن يؤكدوا وجودهم للعرب الغزاة بالتفوق عليهم وإبراز مواهبهم .

هذا هو الحل الذي يقدمه لنا فن التحليل النفسي ويزكيّه أيضاً علم الإجتماع المعرفي ، وإن يكن من زاوية أخرى : فكثير من الناس يتساءلون عن سبب تفوُّق اليهود في البلاد التي يستقرون فيها . وقد تقدم كارل مانهيم Mannheim أحد مؤسسي علم الإجتماع المعرفي بتفسير لذلك يمكن تطبيقه - بعد إجراء بعض التعديلات عليه بطبيعة الحال - على المتفوقين من الأعاجم في عصور الإزدهار الإسلامي . يقول مانهيم :

« إن المثل التالي يُظهر لنا كيف أن طائفة من الناس يمكن أن تنمِّي في أفرادها - بسبب وضعهم الخاص في المجتمع - ملكات دون غيرها . وهكذا فالأقليات - كاليهود مثلاً - كيما يُتاح لها الإستمرار في الوجود يجب ألا تكفّ عن التفكير في السلوك الذي ينبغي عليها اتخاذه لتكييف البيئة الإجتماعية التي تعيش فيها . فأبناء البلاد الأصليون يسلكون من تلقاء أنفسهم وفقاً لمعايير مجتمعهم . وأما الدخلاء الذين ينتمون إلى الأقليات فإنهم لا ينجحون في أن يسلكوا على النحو الذي يتوقعه منهم المجتمع إلا بجهد فيه قسطٍ كبير من التفكير . ومن هنا طابعهم العقلي »(١) .

فالفرس مثلاً وقد ثُلَّت عروشهم وغزيت أوطانهم أصبحوا غرباء في عقر دارهم ، فحملهم الشعور بالضياع على توكيد وجودهم الذي لا يمكن الحفاظ

---

(١) نقلاً عن : Jacques J. Maquet, Sociologie de la Commsaissance, Louvain,1649, p. 51 .

عليه إلا بجهدٍ غير قليل من العمل العقلي . ومن هنا كان تفوقهم .

وقد لا يكفي هذان الحلان لإقناع البعض . لذلك نجد أن نتناول المشكلة من زاوية خرى ، إحصائية أولاً وحضارية أخيراً .

فأما من الناحية الإحصائية فإن العرب كانوا جنساً من أجناس متعددة اعتنقت الإسلام . فلا يُعقل أن يساهم جنس واحد على حدّته بعدد من الرجال يساوي ما ساهمت به الأجناس الأخرى مجتمعةً . فحسبه أنه استطاع أن يفرض على هذه الأجناس لغته ودينه ، وإنه لعمل لو تعلمون عظيم ! إنه عمل خارق لا مثيل له في تاريخ اللغات والأديان . فإنه لم يحدث قط أن شعباً من الشعوب فرض لغته ودينه على أممٍ كالأمم التي دانت بالإسلام ،وعلى رقعة من الأرض كالرقعة التي انتشر فيها الإسلام وطوال العصور التي استطال فيها حكم الإسلام . وفوق هذا العمل الخارق الذي يسجَّل بالفخر والإعتزاز لحساب العرب فإنهم قد ساهموا بنصيبهم الكامل من الرجال بحيث يزيد عدد من أنجبوا على عدد من أنجبت كل أمة أخرى على حدة .

هذا من الناحية الإحصائية وأما من الناحية الحضارية فنحن لا ننكر ـ كما لم ننكر من قبل ـ أن أكثر الفلاسفة والعلماء المسلمين في القرون الوسطى لم يكونوا من أصلٍ عربي . ولكن الذي ننكره ولا نجد له مساغاً هو القول بأن هؤلاء الفلاسفة والعلماء إنما يدينون بعبقرياتهم وقرائحهم الفذة للشعوب التي انحدروا منها . فلقد انقضى الزمن الذي كانت توضع فيه حدود تكوينية وجِبليّة بين السلالات البشرية والذي كان يظن فيه أن طرازاً معيناً من التفكير وُقف على شعبٍ معين دون سواه . فليس أبعد عن الحقيقة من القول بوجود جنسٍ نقي خالصٍ في أي بقعة من بقاع الأرض . فليس هناك عرب خُلّص وفرس خلص ويونان خلص إلخ . . . اللهم إلا أن يتعلق الأمر ببعض الشعوب البدائية المتخلفة البعيدة عن مراكز الحضارة والتطور . وحتى هذه الشعوب فقد لا تخلو من الإختلاط بشعوبٍ أخرى مجاورة لها . فالجنس الصافي إنما هو في الواقع تجريد عقلي خالص لا وجود له إلا في أذهان العنصريين المتطرفين ، أو أولئك الذين يهتمون بتبسيط الأشياء وتحليلها وردها إلى عناصرها الأولى ، بصرف النظر عما إذا كان لها وجود في الواقع أو لم يكن. فالشعوب لا يمكن إلا أن تختلط بعضها ببعض من طريق التجارة والغزو والفتوح والهجرة والرحلة في طلب العلم ولقاء أهله

ونحو ذلك .

إن ما يعوِّل عليه العلماء اليوم ليس هو الإنتماء إلى سلالة معينة أو جنس من الأجناس المختارة (فضلاً عن أن هذه الكلمة الأخيرة غير علمية ولا معنى لها إلا في أذهان المتعصبين من أصحاب العقول المتحجرة) وإنما هم يُعوِّلون على الإنتماء إلى بيئة حضارية بالذات . فلقد أثبتت طريقة اختبارات الذكاء ألا فرق في الذكاء بين الأمم والشعوب(١) ، وأن الإختلاف بين الأفراد والجماعات إنما يرجع إلى اختلاف ظروف البيئة وإلى تفاوت الفرص التي تُتاح لهم(٢) . فعندما يوضع الناس في بيئاتٍ متشابهة فإن اختبارات الذكاء تسفر عن نتائج متشابهة أيضاً(٣) ، وهذا علم الوراثة يؤكد ما نقول ، فقد أثبتت التجربة أن وحدةَ المورثات (gènes) في حال التوأمين اللذين ينتجان من بويضة واحدة ، وبالتالي اللذين لهما استعدادات عقلية واحدة ، لا تستلزم نتائج واحدة في اختبارات الذكاء ، على

(١) عندما نقول أن جميع الشعوب متساوية في الذكاء لا نعني أن كل فرد فيها فذ في ذكاه ، وإنما نعني أن نسبة عدد الأذكياء في هذا الشعب كنسبته في أي شعب آخر : أي لا تخلو أمة من الأمم من عددٍ معين من الرجال الأذكياء فيها . وهؤلاء الأذكياء يزيد عددهم كلما زاد عدد السكان . وليس الذكاء وحده مما تتساوى فيه جميع الأمم والشعوب فيزيد بزيادة عدد السكان منها ويقل بقلة عددهم ، بل الغباء يتبع هذه النسبة أيضاً . فكما لا يخلو شعب من الشعوب من الرجال الأذكياء تبعاً لهذه النسبة كذلك لا يخلو من الأغبياء تبعاً لهذه النسبة أيضاً . ومعنى هذا أن الأذكياء قلة كما أن الأغبياء قلة أيضاً ، فالذكاء نادر والغباء نادر أيضاً في جميع الشعوب وفي كل زمان ومكان . وأكثر الناس موزعون بين هذين القطبين ، أي أن القسم الأكبر من الناس متوسطون في الذكاء . وهذا ينطبق على جميع الأمم بلا استثناء . فالفرق بين الشعوب إذن ليس فرقاً في الذكاء وإنما هو فرق في الفرص المتاحة لتنمية هذا الذكاء والإستفادة منه . فما يتاح للذكي الإنكليزي من فرص التشجيع لا يُتاح للذكي الماليزي مثلاً ، وبينما يستغل الذكي الانكليزي مواهبه في الجامعات ودور العلم ، فإن الذكي الماليزي يستغل ذكاءه في صيد السمك أو بناء العشبب مثلاً وفي أعمال تافهة من هذا القبيل . فالحرمان والفقر وظروف الحياة الشاقة والحكم المتسلط التي يعيش فيها تقضي على ذكائه من المهد ، بينما ظروف الحياة التي يعيش فيها الذكي الانكليزي تتضافر جميعاً لإستغلال كل طاقة من طاقاته . الفرد كمية مهملة وقيمة مهدورة في البلاد المتخلفة ، بينما هو العامل الأول في بلاد أوروبا الغربية وأميركا .

(٢) Sir Alan Burns, Le préjugé de race et de couleur (trad. de l'anglais), Paris, 1949, p. 97 .

(٣) O. Klinberg, Race et psychologie, U.N.E.S.C.O. Paris, 1951.

حين أن وحدة ظروف البيئة تستلزم ذلك[1] .

ولا يقتصر الأمر على هذا أيضاً بل هناك ما هو أخطر منه وأكثر ثورية : فإن المورث الواحد يتخذ لنفسه تعبيرات مختلفة ، وإن التعبير الذي يتخذه لدى فردٍ من الأفراد عرضة لمؤثرات شتى[٥] . يضاف إلى ذلك أن عدداً من المورثات المختلفة قد ينتج عنها في بعض الأحيان نتيجة واحدة[٣] .

وعلاوة على ذلك أن الفرد كوحدة سكونية L'individu comme unité statique قد حلّ محله الفرد كعملية تاريخية L'individu comme processus historique . فالتصور الجديد للفرد يعبر عنه اليوم بفكرة الدور (rôle) . وهذا التصور الجديد يُظهر ـ على حد تعبير الأستاذ غورفيتش ـ بطلان علم الطباع بقدر ما يتجاهل هذا العلم تنوع المظاهر التي يمكن للفرد الواحد أن يتخذها بالنسبة إلى الأدوار التي يقوم بها في جماعاتٍ مختلفة[٤] . فالشخص الواحد تتغير طباعه تبعاً للدور الذي ينبغي عليه للقيام به ، كما أن دوره يتغير تبعاً للظروف والأحوال التي يرتبط بها ويتشابك معها . إن أشخاصاً كثيرين يمكن أن يقوموا بدور واحد ، كما أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم يمكنهم ـ تبعاً للظروف الإجتماعية والسياسية المتنوعة ـ أن يقوموا بأدوارٍ متباينة قد تصل إلى حد التعارض

وإذا توخينا الدقة في الحكم ، قلنا أن الجدل الطويل المزمن حول تأثير كل من الوراثة والبيئة ـ وهو ما أسهبنا الكلام فيه نسبياً لأغراض يقتضيها التحليل العلمي ـ قد مضى عهده . فإن الوراثة والبيئة ، لما كانت تأثيراتهما الديالكتيكية متشابكة متداخلة ، وكان هذا التشابك والتداخل لهما شتى الأشكال ولا يمكن تتبعهما في جميع مساربهما ، فقد طلع علينا علماء الإجتماع الأميركيون ـ منذ بعض الوقت ـ بكلمة جديدة تستوعب في آنٍ واحد فكرة الوراثة وفكرة البيئة وتنبض بهما معاً . هذه الكلمة الجديدة هي كلمة (موقف) attitude . فالموقف هو جنوح الشخصية إلى موضوع ما ، إلى فكرة ما ، إلى موجودٍ ما ، في حالة عينية محسوسة بالذات . وهذا الموقف يتكون دائماً لا تبعاً لإعتبارات وراثية ـ فضلاً عن

(١) W. C. Boyd, Génétique et races humaines (trad. de l'américain), Paris, 195, p. 102- 107 .

(٢) نفس المصدر ص ٩١ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٠٧ .

(٤) G. Gurvith, La vocation actuelle de la sociologie, Paris, 1950, p. 69

أن يتكون تبعاً لاعتبارات عنصرية - وإنما هو يتكون تبعاً لإطـار الإسنـاد frame of reference العـام الذي وضعته الجماعة كلها وترجع إليه في تقويمها للأحكام والأشياء وينتمي إلى حضارتها هي(١) . وبعبارةٍ أخرى إن المواقف التي تتخذها جماعة من الجماعات أو فردٍ من الأفراد من واقعة ما لا يمكن تفسيرها إلا بالنسبة إلى دلالة هذه الواقعة في هذا الموقف أو ذاك . وهذه الدلالة منوطة بالتركيب الإجمالي العام للحضارة المعنية . وهكذا تتلاقى الوراثة وعلم النفس وعلم الإجتماع وتنصهر معاً في مفهوم (الموقف) .

هذه هي في نظرنا جملة الحقائق والمعطيات التي كان ينبغي على ضوئها دراسة الفكر العربي عامة والفلسفة الإسلامية خاصة بروح علمي خالص . فلا شأن هنا للسامية أو الآرية(١) في أصالة الفكر العربي والفلسفة الإسلامية أو عدم أصالتهما . فالخصائص والميزات المنسوبة إلى الأجناس إنما تعكس في الواقع خصائص وميزات لغوية . فالآريون - إن صح وجود شعب بهذا الأسم - لا يمكن تعيينهم على أساس اشتراكهم في لهجاتٍ متقاربة ، يُقال إن اللغات الهندية الأوروبية اشتقت منها . وهكذا الحال فيما يسمى بالشعوب السامية . والنتيجة الإيجابية التي يجب أن نخرج بها من هذا كله هي أن العنصرية تستند في حقيقة أمرها إلى مقياس لغوي لا سلالي جنسي . فإن كل ما يمكن توكيده في الشعوب التي يُقال إنها سامية أو آرية هو أن لغاتها متقاربة من حيث المبنى والإشتقاق وطرق التعبير وبعض الخصائص الأخرى . ولكن ذلك لا يدل على أن الناطقين بهذه الطائفة أو تلك من اللغات يتحدرون من أرومة واحدة . فاللغات تنتقل - كما

---

(١) R. Girod, Attitudes, p.50

(١) السامية نسبة إلى سام ، على ما جاء في التوراة من أنه كان لنوح ثلاثة أبناء : سام وحام ويافث . فسام أبو الإسرائيليين والعرب وأمثالهم ، وحام أبو الزنوج ، ويافث أبو بقية البشر . والآرية نسبة إلى آريا -وهو اسم شعب مزعوم كان مهده على ما يقال النجد الفارسي من بلاد الأفغان وما إليها . وهذا الشعب هو أصل الأمم الأوروبية وبعض الأمم الآسيوية (الهنود والفرس) ممن ترجع لغاتهم إلى أصل واحد هو اللغة السنسكريتية . وتبعاً لهذه النظرية يصنف الناس إلى ساميين لم تظهر عبقريتهم إلا في النفحات الدينية ، وآريين هم الذين بنوا الحضارة الغربية الحديثة والحضارة اليونانية واللاتينية من قبل . ويصرح رينان بأنه أول من قرر أن الجنس السامي أدنى من الجنس الآرى ، وقد اتخذت هذه النظرية أشكالاً متعددة غايتها وضع حدود تكوينية فاصلة بين الأمم والشعوب .

قلنا ـ بالتجارة والغزو والفتوح والتوسع الثقافي الحضاري وما إلى ذلك ، وهذه العوامل جميعاً كفيلة باختلاط الأجناس والسلالات وامتزاجها بعضها ببعض منذ أزمنة سحيقة في التاريخ ، بحيث لا يمكن القول أبداً أن جنساً من الأجناس أو سلالة من السلالات ظلت ـ بعد عمليات لا تحصى من المزج والإنصهار والتلاقح ـ صافية محتفظة بجميع خصائصها وكل ما تنفرد به من عوامل التفوق والتمايز .

يزعم ابن خلدون « أن حَمَلة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم ومن العجيب أن يصدر عن ابن خلدون حكم سطحي متسرع من هذا القبيل . فليس في الأمر عجم أو عرب ، وإنما هناك ظروف موضوعية قذفت إلى الصدارة العقلية بأعداد كثيرة من العجم في بعض الأحيان ، وبأعداد كثيرة مماثلة أيضاً من العرب في بعض الأحيان الأخرى . لقد كانت هناك فترات ومواسم ـ ولا سيما في أوقات الفتوحات ـ كان يكثر فيها عدد العلماء الأعاجم ، دون أن يعني ذلك اقتصار العلم عليهم وحدهم ، كما كانت هناك أيضاً فترات ومواسم أخرى اتسمت بكثرة العلماء العرب ، دون أن يعني ذلك اقتصار العلم عليهم وحدهم . فالعرب والعجم كانا يتزاحمان إلى مركز الصدارة العقلية ، لكن نسبة هؤلاء إلى أولئك كانت تزيد أو تنقص تبعاً للظروف التاريخية والموضوعية التي كانت تحيط بكل منهما ، ولم يكن ذلك راجعاً أبداً إلى أسباب عنصرية تتصل بطبيعة هذا الفريق أو ذاك . ففي عصور الفتح الأولى ، وعندما كان العرب في إبان قوتهم برزت مواهبهم في مغانم الفتح ، فانصرفوا إلى أعمال السلطان وقيادة الجند وجباية الأموال. ... لقد تفتحت قرائحهم في هذه الميادين وزهدوا فيما عداها ، فأنجبوا أبطالاً وقادة عظاماً يعتز بهم المسلمون . وهكذا نفذ الأعاجم إلى الساحات الخالية ، ساحات العلم والفكر ، ومجاهل الفلسفة والمعقولات . ثم إن ممارستهم للأعمال العقلية ـ بعد هزيمتهم العسكرية على أيدي العرب ـ كانت متنفَّسَهم الوحيد لابراز مواهبهم واظهار تفوقهم على قاهريهم . فلئن هزمهم العرب عسكرياً فقد أعلنوا على العرب الحرب العلمية والمعركة الحضارية .

هذا ما كان من أمر العرب أيام قوتهم . لكن عندما ضعف أمرهم لم يروا بُدّاً من الاشتغال بالعلم والاجتهاد فيه ، فبرزت عبقريات في كل ميادين العلم والفكر ، دون أن يعني ذلك أن عصر الفتح أطفأ جذوة الروح العلمية عند العرب أو منع الأعاجم من التفوق في مواهب الحكم والسلطان . وهكذا فإن كثرة

العلماء والمفكرين الأعاجم عند انصراف العرب إلى أعمال الدولة والسلطان لا ترجع إلى أسباب عنصرية تتصل بطبيعة العرب والعجم ، وإنما هي ترجع إلى ظروف تاريخية لا شأن لها باللون أو الجنس . وفي طليعة هذه الظروف خلو الساحة وازدحامها ببعض الأعمال دون بعض ، والرغبة في التعويض عن فقدان السلطان بشرف العلم . ودخل الساحة القادرون من الفريقين ، وأخذ كل واحد منهم يبحث عن مكان خال في هذه الساحة لينطلق منه إلى العمل والقيام بنصيبه فيه . لقد كانت الساحة أشبه بالسوق تشتد فيها الحاجة إلى بعض البضائع دون بعض تبعاً للمواسم والمصالح والأزمان . وكانت السوق مكتظة بالباعة والمبتاعين . وكانت حاجات السوق هي التي تنظم حركة السوق وترتب البضائع والمتبضعين وتنسق بين العرض والطلب . . .

لقد كانت الساحة تعج بالعلماء والفلاسفة والمفكرين ، وكانت المعرفة بُغية كل طالب يحج إليها راجلاً وعلى كل ضامر . انه يبحث دائماً عن أداة يحقق بها وجوده ويصنع عالمه ، ولا سيما إذا كان من أصحاب الفطرة الفائقة . فوقع على اليونان فتأداهم ، فَنِعْمَ المتأدي ونِعْمَت الأداة . حتى الفلاسفة اليونان كانوا وسيلته الوحيدة لتفجير ذاته والتعبير عن مكنوناتها . كل علم ، فهو مستباح له في سبيل أن يُغني وجوده ويستكمل بقية ذاته ، ثم يشع بعد ذلك خارج ذاته . هذا هو حال الباحث العربي والمفكر العربي ، هذا هو حال الفيلسوف العربي الأصيل . لم يقدح له إلاّ ما قدح لليونان من قبله ، وهذا الذي قدح له هو الذي يقدح لكل عظيم من قبله ومن بعده ، وهو الذي سيصنعه ويجعل منه نداً لليونان .

نحن لا ننكر أبداً ـ وليس لنا أن ننكر ـ أن فريقاً لا يُستهان به من مفكري الإسلام قد تحدروا من أصل غير عربي . هذه مسألة مقررة واضحة لا يُنازع فيها إلا مكابر . إنما كان من الواجب تخطيها والذهاب إلى مسافة أبعد منها ، لأنها في رأينا مسألة ثانوية جداً ليست لها كل تلك الأهمية التي يُراد إضفاؤها عليها : فلقد ثبت على ضوء ما تقدم أن المقولات الإجتماعية والحضارية (بيئة ، دور ، تعبير ، موقف ، دلالة، إطار الإسناد إلخ .) هي التي أخذت تحتل مكان الصدارة اليوم بدلاً من المقولات الفردية التي فقدت قيمتها (فطرة ، سلالة ، غريزة ، وراثة ، إلخ .) والتي لا وجود لها إلا في عقول أصحابها .

ومعنى ذلك أن الفكر العربي يدين بمواهب أبنائه في الفلسفة والرياضة والعلوم لا لإعتبارات ضيقة ذات طابع فردي ـ إذ هذه الإعتبارات تتساوى فيها جميع الأمم والشعوب إحصائياً ـ وإنما هو يدين بها إلى ملابسات وظروف ينطمس فيها الطابع الفردي ويغلب عليها الطابع الإجتماعي الثقافي الحضاري ، وهذه الظروف والملابسات لا أثر للمساواة فيها . أي إنه يدين بتعبير أوضح للحضارة العربية اسلامية الكبرى التي قد نشأ فيها أصحاب هذه المواهبُ ، للمواقف التي وقفوها من هذه الحضارة ، للقيم الباطنة التي تثيرهم فيها، للأدوار التي وُسِّدت إليهم وهم يعيشون في ظلها وينعمون بخيراتها ، للمسؤوليات التي كان عليهم أن يضطلعوا بها في خدمة أغراضها ، لحاجتهم الماسة إلى التكيف لبيئة تشجعهم أو تتنكر لهم أو على الأقل تتنكر لهم بعض الفئات المتعصبة فيها ، وأخيراً للمعاني والدلالات التي تنطوي عليها ، وبعبارةٍ مختصرة للمثل الأعلى الجديد الذي كان العرب يحملون رايته .

بل إن الفلاسفة والعلماء والمفكرين النصارى واليهود والوثنيين والزنادقة والملاحدة والمؤمنين والكافرين ممن يعزو إليهم السطحيون عظمة الفكر العربي لأن بهم نفحة آرية مزعومة ، إنما يدينون بعبقرياتهم لا إلى تكوينهم النصراني واليهودي والوثني و . . . بل للجذوة التي لمعت مع الإسلام والتي ترعرعوا في وقدتها ؛ ولذلك فإني أعدُّهم نتاجاً عربياً إسلامياً حتى لو كانوا شعوبيين ناقمين على العرب ومناهضين لكل ماهو عربي ، وكذلك رغم أنهم لم يعتنقوا الإسلام بل وأنهم نددوا به وأعلنوا الحرب عليه . إذ لم يكن لِيَهُم إعتناق الإسلام بقدر ما كان يَهُم التنفس في جوه والتنقل في ظله والتمتع بخيراته . ولا يعني هذا أننا نتحدث عن الإسلام بالمعنى الديني الضيق وإنما نتحدث عنه بالمعنى الحضاري المنفتح المتسع الأكناف والأبعاد . فالفرص التي كان يتيحها لأبنائه وغير أبنائه ممن كانوا يطلبون رفده ويعيشون في حماه في عصوره الذهبية الرائعة كانت فُرصاً نادرة حقاً لا نظير لها إلا في بعض الشعوب المتقدمة في العصر الحديث .

●

وقد لا يقبل المرء بسهولة أن يكون العرب ـ رعاء الإبل الوثنيون البعيدون عن مراكز العلم والحضارة والغارقون في الخلافات القبلية والنزاعات السخيفة أبطال هذه الإنتفاضة العظيمة التي كانت لها أبعاد وآفاق لم تكن بالحسبان .

إن المُثل عندما تغزو الناس في بعض مراحل الإشراق من حياتهم وحين تتوافر لهم القيادة الصادقة والتوجيه السليم ، تفتنهم وتقع في نفوسهم موقَعاً سحرياً ، حتى ليصبحوا وقد اعتنقوا هذه المُثل شيئاً آخر لم يَكُونوه قبل اعتناقها . لذلك فعرب ما قبل الإسلام ليسوا في نظري هم أنفسهم عرب ما بعد الإسلام ، وكذلك الأمم المغلوبة وقد دخلت في الدين الجديد لم تظل هي نفسها كما كانت قبل أن تدخل فيه . إنهم فئة من الناس ألهبتهم مُثُل جديدة فأصبحوا فئة من الناس جديدة . وهذا لا ينطبق على الإسلام وحده بل ينطبق على جميع الحركات الدينية والمذهبية والأيديولوجية ، فالبشر إنما هم أوعية متحركة لمبادىء ومُثُل وقيم تثيرهم وتغزو مشاعرهم. إن الفرد عندما تغزوه فكرة جديدة لها بريق ، فإن ثورة حقيقية تنشب في رأسه ، وعندئذٍ لا مفر له من أن يصبو إلى آفاقٍ غير التي كان يصبو إليها من قبلٍ ، وأن يتحول إلى مفاهيم وشعارات وعقائد جديدة ، ويهيم بقيمٍ وأهدافٍ ومثُلٍ جديدة لم يكن له عهد بها ، فإذا به بين عشية وضحاها يغير ولاءه ويحدث تبديلاً شاملاً في علاقاته الشخصية والإجتماعية والسياسية ويصبح شخصاً آخر غير ذلك الذي كانه بالأمس . ويتضح ذلك جلياً في الأخوين نشآ في بيتٍ واحد وتلقيا تربية واحدة فانتمى أحدهما إلى حزبٍ وانتمى الثاني إلى حزبٍ آخر ، فأصبحت تفصل بينهما أبعاد شاسعة وحدود غير مرئية وأصبح الإلتقاء صعباً والتفاهم متعذّراً دونه خرط القتاد .

والخلاصة أن مفكري الإسلام من الأعاجم لا يدينون بعبقرياتهم لإعتبارات وراثية فضلاً عن أن يدينوا لإعتبارات سلالية عنصرية . وإنما هم يدينون ، ويدينون فقط ، لمقولات اجتماعية ثقافية حضارية بحتة لا علاقة له بالوراثة فضلاً عن السلالة . فلو أنهم نشأوا في بيئةٍ أخرى لكان لهم شأن آخر . فعظمتهم إنما ترجع إذن إلى طراز علاقتهم مع المجتمع الذي فيه وبه ومن أجله إنما عاشوا وازدهروا .

●

إن الفلسفات الكبيرة وليدة التحولات الكبيرة التي تطرح مشكلات كبيرة . فقد جاءت الفلسفة اليونانية بعد تحولات كبيرة طرأت على بلاد اليونان فطرحت مشكلات كبيرة كانت على رأسها المشكلة الميتافيزيقية . لم يكن لليونان سوابق في مجال البحث الميتافيزيقي ، كما لم يكونوا مسبوقين في هذا المجال . فلم

يجدوا بدّاً من أن يصنعوا مادتهم بأنفسهم . وقد فعلوا وأجادوا وبلغوا الغاية في الجودة والاجادة . لقد كانت المسائل الميتافيزيقية تترى بين ظهرانيهم وكانوا يلاحقونها بالحلول تلو الحلول . ومضى اليونان وجاء العرب في أعقابهم . بعد تحولات كبيرة طرأت على جزيرتهم . وأخذت المسائل تترى على الساحة العربية ، وجاءت الحلول في أعقابها ، وهي مسائل وحلول دينية تشريعية في معظمها لا تخلو أحياناً من بعض الأبعاد الميتافيزيقية . فأما ما كانوا مسبوقين فيه ـ وأكثره ذو طابع ميتافيزيقي ـ فقد استعاروا مادته ممن سبقوهم وسخّروا هذه المادة لحاجاتهم وأغراض مجتمعهم وعصرهم ، وأما ما لم يكونوا مسبوقين فيه أو لم يكن السبق فيه كافياً ، فقد صنعوا مادته بأنفسهم بقدر عدم السبق . وبعبارة أخرى ، في كل دين قضايا ذات كثافة ميتافيزيقية بطبيعتها أو تحتمل التنمية الميتافيزيقية . كفكرة الله والنفس والنبوة والأصل والمصير . . . وإلى جانب هذه القضايا قضايا أخرى فقيرة في مضمونها الميتافيزيقي أو خالية منه كالفرائض الدينية والتكاليف الشرعية . فإذا طبقنا ذلك على الإسلام رأينا العرب وهم يواجهون القضايا ذات الكثافة الميتافيزيقية ، يزيدونها كثافة ويتوسعون فيها ويدفعون بها إلى أقصى غاياتها ، مستأنسين في ذلك بطبيعة الحال بما عند اليونان من مادة ميتافيزيقية من شأنها أن تساعدهم على اغناء مادتهم هم . وقد تجلى ذلك في علم الكلام أولاً والفلسفة بعد ذلك . وأما القضايا الأخرى الضحلة ميتافيزيقيا كالوضوء والغسل والنكاح والطلاق . . . فقد نشأت على أطرافها علوم نظرية وعملية متعددة ، وهي علوم إسلامية خالصة ، وأكثر علوم الدين واللغة من هذا القبيل ، كالفقه وأصول الفقه والحديث والصرف والنحو والبلاغة والبيان . . . ومن هذه العلوم الدينية واللغوية جميعاً انطلق العرب إلى علوم أخرى ، ولكنها علوم دنيوية صرف هذه المرة وإن كانت تتفاوت في مضمونها الميتافيزيقي ، وأعني بها العلوم الرياضية والطبيعية على اختلافها . وهكذا فإذا لم يكن العرب قد صنعوا كل مادتهم في ميدان الميتافيزيقا المسدود أمامهم لأنهم كانوا مسبوقين فيه ، فقد اندفعوا في الميادين الأخرى المفتوحة التي لم يكونوا مسبوقين فيها أو كانوا مسبوقين سبقاً لا غناء فيه ، ليصنعوا مادتهم كلها أو جلها . هنا تجلت عبقريتهم حيث حرية الحركة أكبر . لقد كان هم العرب الأول سد الفجوة الفاغرة أمامهم ، لقد وجدوا فراغاً فأحسوا بالحاجة إلى ملئه ، وهكذا نبغ العرب نبوغاً كاملاً أو شبه كامل فيما لم يُسبقوا فيه ونبوغاً نسبياً فيما دون ذلك .

لذلك أحب أن أقول لهؤلاء الذين يميلون إلى التشكيك بالعرب والزراية بماضيهم الجاهلي أن العبرة ليست بالأفراد بل بالأفكار التي تحرك الأفراد والمثل التي تثيرهم . فالأفراد هم الأفراد في كل زمان ومكان .

بل لقد فعل العرب شيئاً مثل ذلك في ميدان الفلسفة اليونانية نفسها وبخاصة فلسفة أرسطو . فهذه الفلسفة ليست فلسفة كاملة بل هي فلسفة مليئة بالثغرات ، أي فيها مجالات كثيرة مفتوحة لم يطرقها اليونان . هنا ستتجلى عبقرية العرب . فأرسطو لم يستطع رد جملة العالم إلى علة واحدة ما دامت الهيولى القديمة موجودة مع الله ، كما لم يتمكن من صهر جميع الجزئيات في كل شامل . وهو لم يفسر لنا حقيقة صلة الله بالعالم . ثم ان الله يجهل ما يجري في هذا العالم من أمور وحوادث جزئية . يضاف إلى ذلك ان مذهب أرسطو فيه نقاط كثيرة معلقة بقيت بلا حل ، كما أن في مذهبه نقاطاً غامضة ومتعارضة أحياناً . هذا فضلاً عن أن مذهب أرسطو معارض للإسلام في كثير من جوانبه ، كما في الإسلام قضايا لا يقرها أرسطو . في هذه النقاط جميعاً ستتفجر عبقرية فلاسفة الإسلام .

هذا ، ومن حق المرء ان يسأل : لماذا لم يتمكن العرب من صنع ميتافيزيقا كاملة خاصة بهم ، بل اكتفوا برتق الفتوق وسد الشقوق ؟ هل السبق مانع من الابتكار ؟ أوَليس في ذلك دليل قاطع على قصورهم وعجزهم عن مطاولة اليونان ؟

ليس في الأمر عجز وقصور ، واقتدار وموهبة ، وإنما الأمر شيء غير ذلك وأعقد من ذلك . فللعمل شروط أهمها العثور على صانع يعمل وعلى مكان يصلح للعمل ، فإذا انعدم أحدهما لم يتحقق العمل . فاليونان قد سبقوا العرب إلى احتلال المكان الذي كان على هؤلاء أن يعملوا فيه فذهبوا إلى مكان آخر ، فلِم التزاحم على مكان واحد والأمكنة كثيرة ومجالات العمل أكثر ؟ ولا صحة مطلقاً لمقولة العجز والقصور عند العرب والاقتدار والموهبة عند اليونان . فها هم العرب قد صنعوا علم الكلام وما ضاقوا به ذرعاً ، وهو ميتافيزيقا إسلامية تتفاوت في خلوصها وأصالتها وتختلف الشحنة اليونانية فيها من متكلم إلى آخر ، حتى إن رينان الذي ينكر وجود فلسفة عربية يعترف بأن « الفلسفة الحقيقية في الإسلام إنما يجب التماسها في مذاهب المتكلمين » .

هذا من الجهة الأولى ، ومن جهة ثانية ، فإن الاطار العام للفكر البشري لم

يشهد تخلخلاً بنيوياً عميقاً يقتضي إحداث تغيير شامل في الأفق العقلي العام للإنسانية قاطبة . فمنذ الثورة الزراعيَة التي تخص الجنس البشري كله لم يشهد الإنسان ثورة أخرى في مستواها . فالمجتمع البشري كله ـ سواء على الساحة اليونانية أو على الساحة العربية أو في أي مكان آخر من العالم ـ هو على العموم مجتمع يقوم على الزراعة أو على حياة البداوة ، أي أن كل تحرك فيه فإنما يتم بعضلات الإنسان أو الحيوان . رتابة في رتابة عمرها كعمر الإنسان أو تكاد . وقد استطاع اليونان أن يُعبِّروا عن هذا المجتمع العضلي الرتيب المغلَق أصدق تعبير وأن يستخلصوا منه كل ما يتضمنه أو يشتمل عليه من إمكانات عقلية وتطلعات ميتافيزيقية كامنة . هذه هي ميزة اليونان في العصوْر القديمة . إنهم لم يستطيعوا أن يُدخلوا أي تغيير في هذا الإطار ، بل لم يخطر لهم ذلك على بال . لقد كفروا بكل تغيير فحسبهم التفسير ، ففي التفسير مندوحة عن التغيير . ليس في الإمكان أبدع مما كان ، ففي الإبقاء على الأشياء غاية الأمان . لا خِيار إلاّ في الإستقرار ، ففي الإستقرار نِعْم .

لقد كان العرب الورثة المباشرين لليونان ، وبذلك فقد وصلت إليهم الفلسفة تعبق بأنفاس أصحابها قبل أن يتداولها المتداولون ويستهلكها المستهلكون . لم يكن الوقت قد حان بعد ليضيق المرء بها ذرعاً أو يشعر بما فيها من جدب وعقم ، وإن استطاع بعضهم ـ كالغزالي وابن خلدون مثلاً ـ المراهنة على هذا العقم وتأكيده بغير تعمق يُذكر . لقد كانت لا تزال تحتفظ باغرائها وفتنتها ، فأقبل الكثيرون عليها بنهم شديد . إنها الدليل على الحقيقة ، والرهان عليها رهان على الحقيقة .

قلنا أن التفسير غلب على التغيير في بلاد اليونان ، وإذا كان من تغيير فهو مقصور على بعض الإصلاحات الداخلية المحصورة في بلاد اليونان وما حولها ، أي أن التغيير ظل محلَياً . وهكذا الإسلام ، فقد ظل التحول فيه محصوراً في العرب والمسلمين . فهو تغيير محلي أيضاً . لقد كان العرب واليونان على السواء يتمنون أن تشمل تغييراتهم العالم كله ، ولكن الواقع أقوى من الأماني . الأماني الحقيقية هي التي تفرض نفسها على الواقع وإلاّ ظلت أحلاماً .

المهم أن التغيير ظل محلياً سواء في بلاد اليونان أو في بلاد العرب . فالمجتمع القبلي في كليهما بقي المجتمع القبلي ، والمجتمع الزراعي بقي المجتمع الزراعي .

كلاهما يقوم على مجهود العضلات ، ولذلك كانت الفلسفة الميتافيزيقية القديمة على قدِّهما وصالحة لكليهما على حد سواء : لليونان الذين أنجبوها وللعرب الذين تبنَّـوها ، بل وللفلاسفة اللاتين أيضاً الذين ورثوها عن العرب حيث ابتعدت عن مصدرها الأصلي كثيراً ، واستطاع القوم هناك أن يطيلوا حياتها بعض الشيء . وفي نهاية الترحال بدأ التذمر . وأخيراً جاء المجتمع الآلي ليحدث التغير ، أي على الصعيد الإنساني كله . لقد طال عهد الفلسفة اليونانية وظل الحنين إليها قوياً حتى في إبان عصر النهضة فرغم ثورة ديكارت على هذه الفلسفة فإنه لم يستطع التخلي عنها نهائياً ، وكذلك تلاميذه من بعده ، بل لا نزال حتى الآن نحتفظ بالكثير من مقولاتها ، وما ذلك إلّا لأنها فلسفة الواقعية الساذجة وبادي الرأي المشترك .

وبعبارةٍ أخرى ، ان العقل إنما يعمل عندما يواجه مشكلة ، فإذا ما حلها توقف عن العمل . لقد حل فلاسفة اليونان المشكلة الميتافيزيقية على خير ما يكون الحل ، فإن كلاً منهم قدم جزءاً من الحل . ولما أن اكتمل الحل توقف العقل اليوناني ولن تقوم له قائمة بعد اليوم ولن يمكنه بالتالي تقديم أي حل . فالحل مانع من الحل . إنه يكبح نشاط الفكر ويشل إمكاناته ، أو على الأقل يضع غطاء على البصر والبصيرة فلا يريان ما يدور من حولهما . أشياء كثيرة تصرفهما عن الحل فتتراكم المشكلات التي تبقى بلا حل . ولو أمكن أن يضاف إلى الفلسفة اليونانية حبة خردل لما قصرَّ اليونان في ذلك وهم أربابه . وكل ما في وسعهم القيام به بعد ذلك إنما هو الدوران في حلقة مفرغة لا تنتهي من الشروح والحواشي والتعليقات واجترار أقوال السلف . ولئن كانت هناك مشاكل تثار من وقت إلى آخر فهي مشاكل معيشية يُحل بعضها ويُغفل بعضها ويتراكم أكثرها طبقاتٍ بعضها فوق بعض . أو قل هي مشاكل النعش والجنازة والتعجيل في الدفن ، فَمِنْ إكرام الميت التعجيل بدفنه . لقد انتهت اثينا حضارياً وإن ظلت قائمة بيولوجياً .

وجاء الإسلام وطرح المشكلة الدينية . وعندما خرج العرب من قوقعتهم واندمجوا في العالم الكبير من حولهم كان لا بد من حدوث صدام فتفاعل بين الدين الجديد والفلسفة القديمة . وكان التفاعل بقدر حجم المشكلة . وهي بطبيعتها مشكلة محلية تهم المسلمين وحدهم ، فكان التفاعل محلياً وكانت الحلول محلية . ولذلك لم يطرأ تغيير يُذكر على المشكلة الميتافيزيقية والحلول المطروحة بشأنها . فإن

كل ما حدث محصور في إضفاء الصبغة الإسلامية على هذه المشكلة دون المس بجوهرها ، وبتعبير أدق اجراء بعض التعديلات في الحلول التي وُضعت لها بحيث يزول التناقض أو على الأقل يضعف الخلاف بين الفلسفة والدين ، وهكذا يتخلل الدم الإسلامي عروق الفلسفة اليونانية ، على تفاوت في ذلك بين هذا الفيلسوف أو ذاك . لقد جاء الإسلام وطرح المشكلة الدينية بكل ثقلها وأصالتها ، وحل المسلمون هذه المشكلة بجميع أبعادها وامتداداتها . ولما أن اكتمل الحل توقف العقل العربي وعجز عن تقديم المزيد من الحل . ولا نجد بعد ذلك سوى حلقة مفرغة من الشروح والحواشي والتعليقات واجترار أقوال السلف ، كما كان الحال عند اليونان ، مع اختلافات طفيفة تقتضيها ظروف الزمان والمكان والمرحلة التاريخية لكليهما . وهذا ما يُعبَّر عنه في الاصطلاح الإسلامي باقفال باب الاجتهاد . لقد لحقت المدينة العربية بالمدينة اليونانية وخرجتا كلتاهما من التاريخ بعد أن كانتا تحتلان بؤرة التاريخ .وليس المقصود بالإجتهاد هنا الاجتهاد في الدين فقط من فقه وأصول وما إليهما ، وإن حصَرَه المسلمون في ذلك . فالآلة كلها قد تعطلت وتوقفت عن العمل وتوقف معها بطبيعة الحال النشاط العلمي والفلسفي . لقد حُلَّت المشكلة الدينية وانتهى أمرها فلا إبداع بعد اليوم ، فالابداع لا يتكرر . لقد انتهى الوجود الحضاري للعرب وبدأ الوجود البيولوجي كما كان الحال عند اليونان .

هذا هو باختصار شديد الحل السَّيْكوسوسيوديناميكي لمشَكلة الفلسفة الإسلامية . فليس عدم إنتاج فلسفة إسلامية أصيلة ناشئاً عن عجز العقل العربي عن إنتاج هذه الفلسفة ، بل لأن المشكلة الميتافيزيقية قد سبق حلها في المجتمع العضلي اليوناني . فالحل كما قلنا مانع من الحل . لقد اكتمل الحل فلا سبيل الى استئنافه ولا إلى اضافة أي جديد إلى عناصره . يمكنك أن تحاسبني على عمل لم أعمله إذا كانت عندي الإمكانية التامة لعمله ثم لم أعمله ، أما إذا كانت هذه الإمكانية مسلوبة عني فلا وجه ولا مبرر لاتهامي بالعجز عما ندبتني للقيام به أو بالتقصير فيه . ليس عدم طيراني ناشئاً عن عجزي عن الطيران ، بل لأن إمكانية الطيران مسلوبة عني أصلاً وتكويناً . وهذه الإمكانية ليست معطلة بالنسبة إليَّ أنا وحدي بل بالنسبة إلى جميع الناس في كل زمانٍ ومكان . ولذلك فلا يصح أن يُقال عن العرب أنهم كانوا عاجزين عن إنتاج فلسفة ميتافيزيقية أصيلة خاصة بهم إلا إذا ثبت أن غيرهم من أفراد المجتمعات العضلية الأخرى كانوا قادرين على انتاج

مثل هذه الفلسفة ، قدرة الطيور على المشي فضلاً عن قدرتها على الطيران . فإمكانية الإنتاج الفلسفي بعد العصور اليونانية كانت مسلوبة عن الجميع لا عرباً فقط ، ولا شرقاً فقطَ ، ولا جنوباً فقط ، بل عرباً وعجماً ، شرقاً وغرباً ، ويونان وغير يونان . فحتى اليونان أنفسهم لم يستطيعوا أن يضيفوا في عصور الغيبوبة والإحتضار ذرة واحدة إلى ما انثال عليهم في عصور المجد والازدهار . لقد اكتملت الفلسفة اليونانية فأصبحت بلا أفقٍ ولن يحدث بعد اليوم أي انتاج فلسفي أصيل إلا عندما ينفتح الأفق . وبالثورة الصناعية الآلية ، سينفتح الأفق كما سنرى بعد قليل . فلا عجز عند العرب ولا إعجاز عند اليونان .

أي لم تكن المشكلة المطروحة على بساط البحث العربي الإسلامي هي حل المسألة الميتافيزيقية بحال من الأحوال . وقد اعترف فلاسفة العرب أنفسهم بذلك بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال . فقد كانوا يكررون دائماً أنهم تلاميذ لليونان وأنهم لا يَعْدون أن يكونوا شراحاً لأساتذتهم اليونان. لقد خالفوا أرسطو وهم يحسبون أنهم إنما يسيرون في ركابه. فكانوا إذا ما اتفق لأحدهم أن يبتكر شيئاً جديداً لم يقله اليونان ، يبادر إلى الاعتذار واعلان براءته من مخالفته ، وإلى الإعتراف بأن ما توصل هو إليه موجود بالقوة في فلسفة اليونان ! ومعنى ذلك بالتعبير السَّيْكوسوسيوديناميكي أن المشكلة الميتافيزيقية قد حُلت على أيدي اليونان فعلام الخوض فيها مرة أخرى وقد فرغ منها السادة ؟ هذا هو لسان حال القوم . حتى إن كثيرين قد اعتقدوا ـ وكنت واحداً منهم ـ أن هذه العبادة للنصوص اليونانية القديمة ناشئة عن العجز أو عن عدم الثقة بالنفس على الأقل . ولم أقف على السبب الحقيقي (أو استغفر الله ما أزعم أنه كذلك) إلا منذ وقت قريب جداً وبعد المعاناة الطويلة لأصول التحليل السَّيْكوسوسيوديناميكي . فالمشكلة الحقيقية التي كانت مطروحة على الساحة العربية الإسلامية والتي زلزلت كيان المسلمين إنما هي المشكلة الدينية وحدها ، فأبدوا في حلها وتحليلها والغوص على معانيها ما لم يُبده أي شعب آخر . لقد استغرقتهم المشكلة الدينية بقدر ما استغرقت المشكلةُ الميتافيزيقيةُ أساتذتهم اليونان . لقد تخصصوا في الدين تخصص اليونان في الميتافيزيقا . ولئن طُرحت المشكلة الميتافيزيقية بينهم فإنها لم تُطرح طرحاً جدياً ، بل كان طرحها جانبياً ، أي علىّ أساس أنها هي أيضاً مشكلة دينية أو جزء من المشكلة الدينية أو الوجه الآخر لها ، لأن « الحكمة هي صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة » على حد تعبير ابن رشد أخلص فلاسفة العرب لأرسطو

وأشدهم تقريعاً لمخالفيه . ومع ذلك فهو لم يستطع تصور الميتافيزيقا خارج المشكلة الدينية . ولئن بدا من ابن سينا مثلاً بعض التشكيك في اليونان فما ذلك إلّا ليزج بالمشكلة الميتافيزيقية في الدين مرة أخرى . ولا فرق بين أن يكون هذا الدين هو الدين الإسلامي أو الدين الشرقي ، كما فعل في حكمته المشرقية ، وهي حكمة افلاطونية أفلوطينية ظاهراً ، وحكمة دينية باطناً . ولعل هذا أحد أسباب نجاح أفلاطون وأفلوطين في العالم الإسلامي ! . فما من فيلسوف خدم المشكلة الدينية كما خدمها أفلاطون وأفلوطين . حتى أنه عندما تصدى ابن رشد لتخليص المشكلة الميتافيزيقية من الأوهام الأفلاطونية الأفلوطينية ، أي من الدين ، فقد أقحمها هو أيضاً مرة أخرى في الدين عندما قال بالحقيقة الواحدة ذات الوجهين المختلفين : الحكمة والشريعة . فلا يمكن لأي واحد من الفلاسفة الإسلاميين تصور الحقيقة بغير الدين .

وبعبارة أخرى ، كل شيء عند اليونان إنما نما وترعرع على أطراف المشكلة الميتافيزيقية ، وكل شيء عند العرب إنما نما وترعرع على أطراف المشكلة الدينية . اليونان قلَّموا أظافر الله وحدّوا من فاعليته ليجعلوه منسجماً مع الميتافيزيقا ، كما أن العرب قلَّموا أظافر الميتافيزيقا لتكون منسجمة مع الله . أي إن الألوهة ثانوية عند اليونان وهي تدور في فلك الميتافيزيقا ، كما أن الميتافيزيقا ثانويّة عند العرب وهي تدور في فلك الألوهة .

ولسائل أن يسأل : لماذا الميتافيزيقا لليونان والدين للعرب ؟ ألّا يدل ذلك على تفوق اليونان على العرب ؟ وللإجابة عن هذا السؤال أكاد أقول إن الأمر يعود إلى مجرد الصدفة ، لا إلى خصائص عرقية تكوينية كما بينت في فقرة سابقة ، أي إلى الظروف والملابسات الخارجية المستقلة عن كلا الفريقين . إن أيّاً من الفريقين لم يختر مشكلته ، إنما الصدفة كان لها الاختيار ، وكان لها اتخاذ القرار . ثم جاءت الوراثة الاجتماعية لتثبيت القرار وتعميق جذوره ، فإن من أهم معطيات السَّيْكوسوسيوديناميكا كما أسلفنا أن المشكلة الأولى هي عامل هام في توجيه الطاقة العقلية للجماعة وجهة دون أخرى . إنها المشكلة ـ الأم ستنبثق عنها المشاكل الأخرى ، وهي التي ستمنحها هويتها وتضفي عليها حضورها وخصوصيتها . وما تاريخ الجماعة سوى تاريخ الرحلة في عالم هذه المشكلة . فإذا أردت أن تتعرف الجماعة وتقف على دخيلتها فارحل داخل عالم المشكلة ـ الأم التي إنما تطبع الجماعة

بطابعها وتفرض عليها روحها ومنهجها ومدار حياتها . وعند الفراغ من حل هذه المشكلة ينفرط عقد الجماعة وتذهب ريحها . لقد انتهت رسالتها فلا معنى لوجودها بعد ذلك .

فالمشكلة الأولى التي تصدى طاليس لحلها منذ بدأ الفكر اليوناني يصحو ويعي وجوده هي المشكلة الميتافيزيقية ، لقد لاحت له كما تلوح لأي إنسان على مستوى معين من التفكير في أي زمان ومكان . إن كثيراً من الصبية يسألون آباءهم : كيف وُجدوا وأين كانوا قبل أن يوجدوا ؟ ويجد بعض الآباء حرجاً في مواجهة هذه الأسئلة . وهناك كثيرون يتساءلون عن الله ومن خلق الله وكيف يسمح للشر أن يتسرب إلى هذا العالم . ليس من الضروري أن يكون الصبي يونانياً ليطرح هذه الأسئلة على أبويه أو أساتذته في المدرسة . إنها تعرض لكثير من الطلاب في سن المراهقة ، ولكن جهل الآباء والمعلمين لا يشجع هذه الأسئلة ، بل إن الأهل في كثير من الأحيان يواجهونها بمنتهى الصرامة لأنها تفسد العقيدة والعياذ بالله تعالى . وهكذا يقضون على الفاعلية الميتافيزيقية عند أبنائهم بعد أن أصبحت مقرونة بالشعور بالإثم .

المهم أن طاليس عندما طرح على نفسه مشكلة أصل العالم لم يشعر بأي إثم في تناولها بل أمعن فيها نظراً وتمحيصاً ووصل إلى بعض الحلول . ووجدت هذه المشكلة هوى عند بعض من طاب له أن يتحدث بها إليه ، كما لم تجد أي هوى عند البعض الآخر . فليس جميع اليونانيين هم ممن تستهويهم الميتافيزيقا التي لها أصدقاؤها وأعداؤها في كل أمة بل في كل بيت . والتف حول طاليس من استهواه كلام طاليس ، كما سخر منه من لم يفهم كلامه . وهؤلاء الذين التّفوا حوله بعضُهم تقبَّل حلوله وبعضُهم رفضها أو أدخل تعديلات عليها . وتكرر ذلك عند أبرز تلاميذ طاليس الأقربين والأبعدين ممن انتهت اليهم رياسة الميتافيزيقا ووصلوا إلى درجة الإمامة فيها . وهكذا أخذ الفلاسفة يتعاقبون وأخذت الحلول تترى ؛ والمشكلة الميتافيزيقية تتضح وتعمق وتتأصل بحرية لا يهددها كاهن جاهل أو أب أحمق . وساعد الفراغ وأجواء الحوار والديمقراطية على سبر اغوار هذه المشكلة والوغول فيها إلى أقصى غاياتها . لقد كان كل فيلسوف لاحق يصحح سلفه السابق ويضيف إليه جديداً ويستدرك عليه بعض الأخطاء . وهكذا نمت الفلسفة اليونانية بالإضافة والحذف والتنقيح والتصحيح والتحليل

والتعميق . لقد اتفق فلاسفة اليونان واختلفوا واصطلحوا واختصموا ، وتباعدوا وتقاربوا ، واكتسبت الفلسفة الكثير من هذا الحوار والصدام والتفاعل ، واكتسب الفكر اليوناني المزيد من الغنى والثراء والخصوبة .

هذه هي قصة الفلسفة اليونانية وهذه حكاية حالها بلا الغاز ولا أسرار ولا معجزات . تساءل بعضهم هل العامل الجغرافي والمناخي هو السبب في عبقرية اليونان ؟ ولكنه استبعد ذلك قائلاً : ها هم العثمانيون قد احتلوا بلاد اليونان فلم ينجبوا فيلسوفاً واحداً . وكان تعليقي على هذا الجواب أنه ليس العثمانيون وحدهم كانوا عاجزين عن إنجاب الفلاسفة رغم احتلالهم لموطن الفلسفة ، بل إن اليونانيين أنفسهم كانوا عاجزين هم أيضاً عن استئناف الانجاب . فلو كان للمناخ أي مدخل لاستمروا في الإنجاب . فالإبداع لا يتكرر .

وهكذا فالتفكير اليوناني إنما كان رهناً بالشرارة الأولى التي أطلقها طاليس في عصر تحول كبير . وهذا نفسه ما حدث للعرب أيضاً لولا أن صحوتهم قد اقترنت بالمشكلة الدينية بقدر ما اقترنت صحوة اليونان بالمشكلة الميتافيزيقية . وكان للوراثة الاجتماعية ـ لا البيولوجية ـ نصيب كبير في تقوية حوافز كل من الفريقين في هذا الطريق الذي وجد نفسه مقحماً فيه أو ذاك . وعلى هذا المنوال طغت الميتافيزيقا على بلاد اليونان حتى أصبحت عنواناً على اليونان ، وطغى الدين على بلاد العرب حتى أصبح عنواناً على العرب ، لا سيما وإن الشرق كان دائماً مثوى للإلهام الديني ومسرحاً خصباً للرؤى والأحلام والعبقريات الدينية المختلفة . نعم ليست الأمور ـ ميدانياً ـ على مثل هذه الدرجة من البساطة ، لكن هذا التحليل يقدم لنا على كل حال مخططاً تقريبياً لما كان يجري على الأرض يكتفي من الظواهر بهيكلها العام وشبكة العلاقات البنيوية القائمة بينها .

وزبدة القول إن الفكر هو تفاعل مستمر بين الإنسان ومجتمعه . وهذا المجتمع لم يتغير تغيراً جذرياً منذ عصر اليونان حتى عصر النهضة . فجاءت الفلسفة اليونانية على قدِّه ومقياسه وانقفل أفق الفلسفة . وجاء الفلاسفة العرب والأفق مقفل لأن المجتمع ظل هو هو كما كان عند اليونان . وكل ما حدث عند الفريقين تغيرات محلية طفيفة لم تستطع زعزعة الأفق بل حتى إحداث خدش صغير فيه . فلا بُدَّ من إحداث تغيير شامل يخص البشر جميعاً وإلا ظل الأفق ساكناً لا حراك فيه . وأخيراً إنفتح الأفق وحدث التغيير المرتقَب . لقد جاءت

الآلة لتضع حداً لمجتمع العضلات ، ومنذئذٍ بدأ سيل الفلسفات . فحيث تكون عضلات يكون جمود ، وهذا من أسباب تخلفنا وتبعثرنا . فهيَّا بنا إلى مجتمع الآلة والصناعة الآلية إذا أردنا أن تكون لنا فلسفة خاصة بنا . فالمجتمع الآلي سريع التطور والحركة ينجز في وقت قصير ما يتطلب من العضلات الوقت الطويل أو قل هو تكثيف للزمان ، فالدقيقة الواحدة فيه قد تعني عمراً كاملاً بل أعماراً . وكلما استطاع العقل ملاحقته تكثيف هو أيضاً وارتفعت وتيرته . ما أرخص الزمان في مجتمعاتنا وما أغلاه في متمعات غيرنا . هنا يكمن الفرق بينهم وبيننا . فما دام ينقصنا الشعور بالزمان ، فلن نرى غير المزيد من الخذلان .

الفصل السابع

اللغة العربية وما ألحقته(*) بها الترجمة من تشويهات

(*) لقد شوهت الصحافة اللغة العربية وألحقت بها أضراراً فادحة . ولإبقاء الكتابة الفلسفية على الأقل بعيدة عن الإبتذال الصحفي ، فقد أتيت بهذا الفصل .

الترجمة عملية حضارية من الدرجة الأولى . فهي وسيلة من أهم وسائل الإنفتاح على المعرفة الإنسانية والحد من الإنغلاق والتقوقع والفراغ والظلام الذي يكتنف حياتنا ويلف وجودنا منذ قرونٍ وقرون . . .

إنها أداة التطور المثلى لأنها تعني الإتصال بالحضارات المختلفة والإطلاع على ما لديها من علوم وفنون وآداب ومكتسبات وانجازات ، ثم نقل المفيد منها إلى اللغة العربية لتكون غذاء للعقل والروح . فالإحتكاك بين اللغات هو احتكاك بين العقليات والحضارات وتبادل للأفكار والأدوات والمصطلحات الدالة عليها ، لأن اللغات والثقافات والحضارات لا تُثري ولا تتطور إلا بالإحتكاك والتبادل وتلاقح الآراء والأفكار . وإن الخطر الذي يتهدد لغتنا الحبيبة كبير ما لم نبادر إلى دفع غائلة الإستعجام الذي بدأ يدب في أوصالها . فيجب تحصينها من الغزو الجديد، بل من الوباء القاتل الذي يتربص بها ، وذلك بتفقدها باستمرار للحفاظ على مقوماتها وبنيتها وعناصر وجودها ، وتجنيبها التعابير السقيمة الملحونة التي بدأت تتألب عليها من كل حدب وصوب لتُفقدها هويتها وتُذيبها في كيانٍ غير كيانها ، وتجعلها تابعاً يدور في فلك اللغات الأوروبية شكلاً وأسلوباً ومنهج تعبير كما سنرى بعد قليل .

نحن بحاجة إلى الإنطلاق والانفتاح على المزيد من التراث العالمي المتنوع والإفادة منه لإثـراء الثـقافة العربية الصاعدة في إطار المشروع الحضاري العربي

الذي نتهيأ له ونجند له جميع طاقاتنا وإمكانياتنا . ولكي ننفتح على التراث العالمي لا بد من تضافر الجهود لوضع مخطط عربي شامل لترجمة أُمهات الكتب الأوروبية والأميركية والروسية إلى اللغة العربية ، على أن نستعين في ذلك بخبراء الترجمة من كبار المثقفين العرب الذين يملكون نواصي الفكر الغربي واللغات الغربية ويتقنون أيضاً أساليب التعبير العربي السليم ، بالإضافة إلى تضلع كل منهم من الحقل الذي ينقل إلينا منجزاته . فقد آن الأوان لتنظيم عملية الترجمة التي قد غلب عليها في أكثر الأحيان طابع الاستعجال جرياً وراء التكسب واستغلال حاجة القارىء العربي إلى التزود من نتاج الفكر العالمي .

الترجمة علم ، وعلم الترجمة علم حديث جداً نشأ في أوائل الستينات من هذا القرن . وتُعد مؤلفات العالِم الروسي فيدروف والعالِمين الكنديين فيناي وداربلنيه أول محاولات في هذا السبيل . ويمكن الرجوع إلى تفصيل ذلك في كتاب اللغوي الفرنسي الأستاذ مونين وعنوانه (المشاكل النظرية للترجمة) غاليمار ، باريس ١٩٦٣) ، حيث يبين المؤلف كيف انسلخ علم الترجمة عن غيره من العلوم الإنسانية وأصبح علماً مستقلاً قاماً برأسه . كما أن العالِم اللغوي الأميركي نيدا ريس (من جماعة الكتاب المقدس الأميركية) الذي أشرف على ترجمة هذا الكتاب إلى أكثر من (١٢٠٠) لغة ، قد وضع أربعة كتب في علم الترجمة من بين خمسين كتاباً هي ـ على حد علمنا ـ كل ما كُتب في العالم بأسره عن هذا العلم[١] .

والحق ، أن عملية الترجمة لم تؤخذ حتى الآن مأخذ الجد في مجتمعنا العربي المعاصر . فإذا ألقينا نظرة إلى الوراء على الترجمات التي ظهرت في القاهرة وبيروت خلال الخمسين سنة الأخيرة ـ وهما اللتان تقودان حركة الترجمة في الوقت الحاضر وإن انحسر دور القاهرة قليلاً الآن ـ وجدنا الشطر الأكبر منها ترجمات تجارية لا تُشرِّف القائمين بها . إن جيلنا يتذكر كيف أُغرقت أسواقَ الكتب بالقاهرة والعواصم العربية في الثلاثينات من هذا القرن بـ (رواياتُ الجيب) فأصبح النشء العربي أعرف بأعمال أرسين لوبين منه بأعمال فرويد وداروين وآينشتين .

---

(١) انظر ببليوغرافيا الترجمة من مطبوعات جامعة أوتاوا بكندا ، عام ١٩٧٩ صفحة ٣٢ ، المجلد السابع ، الجزء الأول ، يناير ١٩٧٠ ، صفحة ١٥٨ ـ ١٦٠ .

والترجمة عملية أخلاقية قبل أن تكون عملية حضارية وثقافية ، فضلاً عن أنْ تكون عملية تجارية . فالناقل يجب أن يتحلى بالنزاهة والتجرد حتى لا يعبث بالنص بقصدٍ أو بغير قصد . الناقل مؤتمن ، ولعله ههنا أقرب إلى الطبيب الذي يُقسم يمين أبقراط قبل مزاولة المهنة . وللإيطاليين عبارة مشهورة في هذا الباب هي Traduttore traditore أي « المترجم خائن » . ولهذا فلا بد من مراجعة الترجمة . وهذا ما تفعله الدوائر العلمية المختصة ، إذ تُنيط بأحد الخبراء مراجعة الترجمة ومقارنتها بالنص الأصلي قبل الإقدام على إصدار الكتاب ، ويجب أن تكون المراجعة حقيقية لا شكلية ، كما يجري في بلادنا حيث يكتفي الناشر في كثير من الحالات بوضع اسم المُراجع ولقبَه العلمي بجانب اسم المترجم لقاء مبلغٍ متفق عليه من المال وتنتهي الصفقة . أنا لا أفهم كيف يقبل المُراجع وضع اسمه دون أن يراجع الكتاب . وأذكر في هذه المناسبة ناشر عرض عليَّ في الستينات مراجعة ترجمة كتاب آفاق Panorama ، فتصفحته قليلاً ثم رددته إليه لرداءة الترجمة إلى حدٍ لا يُطاق ، وقلت له يجب إعادة الترجمة من الأساس ، وإلاَّ فلا يجوز نشر الكتاب بحالٍ من الأحوال وأنا غير مستعد لترجمته من جديد . ومع ذلك فقد ظهر الكتاب بحُلةٍ قشيبة : طباعة أنيقة وورق أبيضٍ صقيل وتجليد بالكرتون وعنوان بالألوان الزاهية يسر الناظرين . وهو ليس كتاباً صغير الحجم بل هو من القطع الكبير ، حتى لقد أغراني ـ أنا العارف بدخيلته ـ باقتنائه . إن مسؤولية ذلك لا تقع على دور النشر بقدر ما تقع على القارىء العربي الذي تلقف الكتاب بنهمٍ شديد حتى لقد نفدت طبعته الأولى ، ويفكر الناشر المحترم في إصدار طبعةٍ أخرى ، لولا ما قمت به من جهد لإقناعه بعدم إعادة طبعه . . . إنها مسؤولية مزدوجة تدل على الحاجة إلى القراءة وعلى استغلال الناشر لهذه الحاجة أبشع استغلال . . .

الترجمة ليست مهمة سهلة ، إنها مهمة من أصعب المهمات وأشدها عسراً . وقليلاً ما يُشكَر المترجم على عمله ، فالقارىء لا يحس به بقدر إحساسه بالمؤلف . وإذا امتُدح عندما ينجح في عمله فإنما هو امتداح تافه لكن الويل له إذا أخطأ .

إن صعوبات الترجمة لا يُحس بها إلا من عاناها ، وقد عانيتها مرة فكانت الأولى والأخيرة . وذلك عندما أقدمت على ترجمة كتاب (الإنسان) لجان روستان من اللغة الفرنسية . فقد عانيتُ فيه على صغر حجمه أضعاف ما أُعاني في عملية

التأليف . ولا أزال اعتقد أني لم أحقق الغاية التي كنت أتوخاها . ففي التأليف سعة وفي الترجمة ضيق وحرج . في التأليف أنا حر منطلق سيد موضوعي وعبارتي وأكتب على سجيتي . أما في الترجمة فإني محكومٌ بنص يُقيدني ويثقل تحركي . ومهما كنت منسجماً مع النص فإنه يجثم فوق صدري ولا يتيح لي حرية الحركة . وكم بقيت الليالي الطوال أبحث في القواميس عن كلمة أو تعبير يكون أكثر أمانة للنص وأوفى بما يشتمل عليه من أفكار ودلالات وقوة بيانية ومحسنات لفظية . فإنه حتى عندما تتوافر في المترجم الأمانة . والدقة والتفاني في عمله ورسوخه في الموضوع المترجَم وإتقانه للغتين معاً : اللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها . . . فإن كل أولئك لا يعدو أن يكون عنصراً واحداً فقط من عناصر الترجمة الناجحة . فنظراً إلى إختلاف هندسة الجملة من لغةٍ إلى أخرى يضطر المترجم إلى التقديم والتأخير وإلى عمليات تنظيمية لتتناسق ترجمته مع النهج في اللغة المترجَم إليها ، فضلاً عما يصادفه المترجم من مشكلة جمال اللفظ وموسيقاه . فقد يؤثر المؤلف استعمال لفظة ما على أخرى في لغته الأصلية لا لشيء إلا لأنها تتميز بجرْسٍ معين أو لانسجامها مع ما سبقها أو لحقها من ألفاظ ، مما يؤدي إلى الإنسجام اللغوي الذي لا ينبو عن الأذواق ولا تمجه الأسماع كأنه سيمفونية رائعة . فإلى أي حدٍ يمكن للمترجم أن يراعي كل ذلك وفاءً للنص المنقول ؟ إن استجلاء المترجم للمعالم الكبرى من النص ولأدق تفاصيله حتى تتراءى له في أحجامها الحقيقية وفي عناصرها الأساسية ، وكشفه للأسس والمفاهيم التي ينطوي عليها في مخبره ومظهره ، وتجنبه للمزالق التقليدية في الترجمة ، ومن ثَم تحديد طريقته واستقلال شخصيته وإعطاء الكلمة حقها الطبيعي ، كل أولئك يجعل الترجمة عملية في غاية الصعوبة لا يُقْدِم عليها إلا من كان على أتم الإستعداد للتضحية بوقته ونومه وعافيته .

ولا بد أن ننوه مع ذلك بالجهد الكبير الذي يبذله بعض المترجمين لإفراغ النص المترجم في قوالب عربية سليمة . فالمترجم الأريب والأديب يخلق الكلمة ولا يستهلكها ، وبالتالي فهو مبدع على مستوى الكلمة كما هو مبدع على مستوى الفكرة . فالترجمة الصحيحة تسد فراغاً كبيراً ، وبالتالي تقدم للفكر العربي خدمة جليلة ، وهي خطوة ضرورية لا بد منها في المشروع الحضاري العربي للإنتقال من طور الإقتباس والإستهلاك والتقليد إلى طور الخلق والإنتاج والمشاركة المبدعة . فالترجمة الحقيقية مساهمة جادة مثمرة تعد بالكثير لا على المستوى الثقافي المحدود ، بل على المستوى الخلقي والإنتاجي والحضاري . وهذا في الحقيقة مطمح كل

عربي يحمل في قلبه حباً للوطن الكبير .

لكن بقيت سمات اللغات الأصلية في ترجماتنا تعوق الاستيعاب في أكثر الأحيان . فالترجمة تتطلب كفاءاتٍ ومؤهلات وطاقات متعددة كما ذكرنا ، وهذا ما يجعل أكثر ترجماتنا أدنى إلى الهُراء والسفاسف منها إلى الكتابة الجادة المثمرة التي تتحمل التبعات الحضارية والفكرية . إنها بصراحة ترجمات من النوع الذي يُخجل المترجم والقارىء معاً . فهي إما ترجمات حرفية كلمة كلمة ، أو هي ترجمات معنى بغير إستيعاب ودراية ومراجعة واستقصاء . وفي كلا الحالين إنها تجني على الكاتب وما يكتب ، وتضلل القارىء وتفسد الحس اللغوي والذوق الأدبي ، ولا تؤدي الأمانة التي أخذت على عاتقها تأديتها . لقد أساءت إلى المعنى والمبنى ، فماذا بعد هذا البتر والتشويه تبقّى من الكتاب رحمه الله ؟ .

جريمة مستمرة تُرتكب كل يوم في حق اللغة العربية ، الفاعل فيها مسؤول تاريخياً وحضارياً ، والساكتُ عنها والقادرُ على وقفها شريك متواطىء أراد أم لم يرد . إن تقليد الغرب في كل شيء مرض من أمراض مجتمعنا الذي فَقَد وعيه الحضاري ، ويكاد الآن أن يفقد حسه اللغوي . فالمجتمع العربي اليوم يغير نهجه الأصيل في الحياة ليستعير غيره ، وها هو يستعير حتى أدوات التعبير من مجتمعٍ آخر . والمسؤول عن ذلك مراسلو الصحف ووكالات الأنباء ثم اتسع الخرق حتى شمل جميعُ الرجال الأعلام، وسرت العدوى بعد ذلك إلى سائر حملة الأقلام ، بل وإلى اللغويين منهم . . . أجل ، إن لغة الصحف مسؤولة مسؤولية مباشرة عن تشويه اللغة العربية ، ومنها انطلقت أساليب هجينة مستقبحة ، قد أصبحت على كل لسان . إن لغتنا المكتوبة اليوم هي لغة الصحف ، وهي لغة أقل ما يُقال فيها أنها لا تتصف بسلامة المبنى والمعنى ، وقد تجاوزت في طرائقها المشهور الرقراق الأنيق من أساليب العربية وقواعدها صرفاً ونحواً . ونظراً إلى نفوذ هذه اللغة واعتماد جميع وسائل الإعلام على الصحف والمراسلين الصحفيين ووكالات الأنباء العالمية فقد غزت اللغة العربية في عقر دارها ، حتى لقد زعزعت الكثير من أُسسها . فالمترجم الصحفي في عجلةٍ من أمره . إن رائده السبق الصحفي ، وفي سبيل ذلك يضحي بكل شيء . فالخبر أهم من اللغة . هذه بديهية من بديهيات العمل الصحفي . يجب نقل الخبر بأسرعِ وقتٍ ممكن . تكفي الترجمة القاموسية . المهم إعطاء المعنى وإيصاله بسرعة إلى القُراء وعلى أي وجهٍ اتفق ، دون نظرٍ إلى متانة الأسلوب وقوة التعبير . . . وهكذا فُرضت على العربية المعاصرة أساليب

وأُقحمت فيها استعمالات بعضها مشكور ومحمود يقتضيه تطور اللغة ، كما حصل في العصر العباسي ، لكن أكثرها سقيم مستقبَح أخذ يتردد على كل لسان . حتى إن محرري الصفحة اللغوية في مجلة خليجية واسعة الإنتشار لم يشيروا بكلمةٍ واحدة إلى هذه الإستعمالات الشائعة رغم اهتمامهم الكبير بتصحيح الكثير مما هو ملحون وستهجن . فإن أكثر مقالاتهم في هذه الصفحة روتيني عرفنا فحواه ونحن صبية شداة على مقاعد الدراسة ،نستمع باهتمام صادق أو كاذب إلى استاذ اللغة العربية يصول ويجول ويتوعد كل مقصر في حق اللغة عاقٍّ لها ناكث بعهدها . وقد أورثني رحمه الله الشغف بلغة الضاد والغيرة عليها والذود عن حياضها . والغريب أن محرري الصفحة اللغوية في المجلة المذكورة جرفهم الطوفان فيمن جرف . فهم أيضاً لم يَسْلموا من رطانة لغة الإعلام . أليسوا هم أيضاً محررين في أجهزة الإعلام ؟ فليكن لهم نصيبهم الوافر من رطانة رجال الإعلام .

والخلاصة ، لقد أفسدت الترجمة الإعلامية لغتنا الحبيبة . وليت ذلك يقف عند هذا الحد ، إذن لكان الأمر محتملاً ولو على مضض . لكن الأنكى منه عدم فهم المترجم للكتاب الذي يَدَّعي ترجمته . صفحات بكاملها أقرؤها فلا أفهم شيئاً . أنا أرثي للقارىء الذي ابتُلي بقراءة كتب من هذا القبيل ، فيُصاب باليأس ويفقد ثقته بنفسه لأنه لا يفهم شيئاً ويظن أن عجزه عن فهم ما يقرأ إنما يرجع إليه هو لا إلى المترجم الذي كفاه القاموس مؤونة الفهم ، ثم جاء التجليد الفاخر والورق الأنيق فتولى الباقي . إنه يتهم نفسه بالقصور والجهل والعجز عن الإرتفاع إلى مستوى الكتاب . بل يتخذ من صعوبة فهمه للكتاب دليلاً على عمق هذا الكتاب.. وربما كان من الأسهل على القارىء في هذه الحال أن يتعلم الفرنسية أو الإنكليزية أو . . . ويقرأ الكتاب بلغته الأصلية من أن يقرأه مترجماً إلى العربية . فالمسكين لا يخطر له أبداً ولا يطوف في خياله أن المترجم قبله لم يفهم ، « فأنجب » جيلاً كاملاً من القراء لا يفهم . فهل يمكن لدار النشر أن تكل الترجمة لرجل لا يفهم ؟ هذا مستحيل . والأغرب من ذلك أن المترجم يستر جهله بين الحين والآخر بإستعمال كلماتٍ عجيبة لم يستقر لها معنى في اللغة العربية بعد ، من غير أن يتفضل بشرحها : تاريخي ، تاريخوي ، تاريخاني ، ذاتي ، ذاتوي ذاتاني ، تذويت ، نظرية نظروية نظرانية ، كما لا يشرح بعض المصطلحات الأخرى ، بل يثبتها في النص كما هي بلغتها الأجنبية : الأتيقية ، الأستيتيكية ، الترنسندنتالية . . . فهل تُراه لا يفهم هذه المصطلحات أيضاً أم يريد بها التكايس

والتفاخر على الأقران فتركها شوكةً في حلق كل قارىء يكدُّ ذهنه لحل طلاسم الكتاب ؟ أنا لا أُريد التشهير بأحدٍ هنا ، حسبي أن أستشهد ببعض النصوص دون ذكر أصحابها ، ولا أُذيع سراً إذا قلت أن بينهم أسماء كبيرة .

لقد مُسخت كتب كثيرة بهذه الترجمات السوقية القاموسية . إن أصحاب هذه الترجمات لا هم لهم إلا أن يفرغوا من الكتاب كيفما اتفق وبأسرع وقتٍ ممكن ويذهبوا إلى دار النشر ليتسلموا كتاباً آخر بعد أن يقبضوا - وهذا بيت القصيد - ما تيسر من مالٍ حرام ساقته الظروف إليهم . ومما يزيد الطين بلة أن المُراجعين للترجمة هم في كثير من الأحيان من طبقة المترجمين بل دونهم أحياناً ، وأكبر شاهد على ذلك أننا لا نجد أي أثر لمراجعتهم « الثمينة » . بل لقد نُمي إليَّ أن هناك من المراجعين من لا وجود لهم إلا في خيال الناشر . حسب هذا الأخير أن يخترع اسماً ويضيف إليه لقب دكتور وينتهي كل شيء . الناشر تاجر ، والمترجم تاجر ، والمراجع تاجر . أما القارىء المسكين - وهو المقصود بالكتاب - فلا يدري مما يُحاك له شيئاً . كل هذه الصفقات إنما تُعقد باسمه ، ثم يأتي ليضع توقيعه على العقد ويشتري الكتاب .

من هذه الترجمات التافهة الرخيصة ، قد لا أقرأ - إذن نُكبت بقراءة أحداها لضرورة - أكثر من صفحة أو صفحتين في الساعة ، لأني لا أفهم ما أقرأ . وهناك فجوات في النص المترجم غير موجودة في الأصل بطبيعة الحال ، وهي ترجع بلا أدنى شك إلى رداءة الترجمة وسوء فهم صاحبها للنص الذي يترجمه . وقد أُلقي بالكتاب جانباً وألعنُ الترجمة والمترجمين والناس أجمعين . لكنني في بعض الأحيان عندما يكون للنص أهمية خاصة في نظري فإني أحاول إعادة تكوينه من جديد بلغته الأصلية في محاولة لتفهمه بقدر الإمكان . واعترف على رؤوس الأشهاد أن التوفيق لم يحالفني إلا في بعض الحالات القليلة النادرة . فقد وجدت مرة في أحد الكتب المترجمة هذا التعبير : « فئات الوجود » . فلم أفهم شيئاً لأن أجواء النص لا تسمح أبداً بالإكتفاء بالمعنى اللغوي للكلمة . فلا بد من أن يكون المراد بها معنى اصطلاحياً ، وهذا ما اكتشفته بالفعل بعد طول دأب . فبعد مداورات كثيرة ، وقراءة الجملة وإعادة قراءتها مثنى وثلاث ورباع ، استنتجتُ - وقد تصبب مني العرق غزيراً وبلغ بي الجهد مبلغاً كبيراً - أن هذا التعبير إنما هو ترجمة قاموسية للأصل الفرنسي Catégories de l'être لقد استقام النص الآن واتضح كل شيء فيه . إن مترجم هذا الكتاب كان في حينه مشرفاً على دار الإذاعة في أحد البلاد

العربية ، وهو يجيد الفرنسية من غير أن تكون لديه أي ثقافة فلسفية مع أنه يترجم كتاباً في الفلسفة .

وهناك مترجماً آخر ليس رجلاً سطحياً من أجهزة الإعلام كمذيعنا المذكور حفظه الله ، وإنما هو أستاذ كبير ودكتور في إحدى الجامعات في بيروت ، ولكنه يشترك مع المذيع في أنه ليست لديه أيضاً أي ثقافة فلسفية وإنما هو أستاذ للتاريخ . فعندما قرأت أحد كتبه المترجمة وجدت هذه العبارة « العقل الكافي » فلم أفهم شيئاً . فحاولت كعادتي إعادة تكوين النص في أصله الأجنبي . وبعد صعوبات كبيرة مرهقة اكتشفت أن هذا التعبير هو أيضاً ترجمة قاموسية للأصل الفرنسي raison suffisante إذ لم يخطر للمترجم على بال بأن كلمة raison لا يقتصر معناها على (العقل) بل من معانيها أيضاً ـ سواء ، بالفرنسية أو الانكليزية ـ السبب أو العلة . فالمقصود هنا العلة الكافية وبها يستقيم المعنى . ولما لم يكن لصاحبنا ثقافة فلسفية ، وإذْ كان يربأ بنفسه أن يسأل أحد زملائه في قسم الفلسفة عن معنى النص اكتفى بالترجمة القاموسية وعلى الله الإتكال .

حتى أسماء الكتب تغيَّر بعضها بفعل الترجمة . فقد كُتب في مجلة (العربي) منذ سنواتٍ مقال عن ابن الهيثم ادعى صاحبه أنه قد رجع في كتابته إلى أصول عربية . ولكن حبل الكذب قصير كما يقولون . فالمقال مسروق ومُترجم إلى اللغة العربية . فالكاتب المحترم الذي يبدو أنه لا يعرف شيئاً عن ابن الهيثم زلّ به القلم فنسب إلى هذا الأخير تأليف كتاب (المناظير) ـ نعم (المناظير) ـ فلا خطأ في الطبع لأن هذه الكلمة تكررت مراتٍ كثيرة في المقال ، مع أن أي طالب في صف البكالوريا (القسم الثاني) في لبنان على الأقل يعرف أن اسم الكتاب الحقيقي هو كتاب (المناظر) . ولكن لما كانت كلمتا (مناظر) و(مناظير) تُكتبان كتابة واحدة بالفرنجية Manazir فقد عرَّبها صاحبنا (مناظير) . ولو أن الأصل الفرنجي الذي نقل عنه أثبت اسم الكتاب هكذا Manazer فلعل كاتبنا ـ ومن يدري ؟ ـ يُثبته هكذا (منازه) بناء على أن حرف الراء الأخير لا يُلفظ في الفرنسية إذا كان صاحبنا ينقل عن الفرنسية . وهذا ما يفسر لنا الأخطاء الأخرى التي وردت في المقال المذكور . وقد تكرر الخطأ نفسه مرة أخرى في مجلة (الثقافة العالمية) الكويتية (انظر العدد ٣٢ صفحة ٢٨) .

لنعد الآن إلى المترجمين الصحفيين والترجمة الصحفية . فقد حملتهم العجلة

على إلتزام الترجمة الحرفية بلا مرونة ولا تصرف ولا مراعاة لعمود اللغة وبُنيتها الداخلية وخصائصها الأسلوبية والتعبيرية ، فعطلوا المفعول المطلق والمفعول به الثاني والمفعول لأجله والحال والتمييز . . . وكلها مما يُضفي الجمال والروعة على اللغة العربية ، ويطبعها بطابع سحري تفتقده اللغات الأوروبية التي تلتزم تعبيراً واحداً لا تتخطاه كما سنرى بعد قليل ، وهذا التعبير يريد المترجمون الصحفيون فرضه على أساليبنا حتى لقد بدأت تنثلم بضربات معاولهم . فدخلت الرطانة والهجانة واللحن ، وفسدت الأذواق والأسماع والأقلام والأحاسيس من غير أن يظهر من لغويينا الغيارى كلمة احتجاج أو تصحيح ، باستثناء ما ألفوه في الكتب القديمة ، من تشذيبات واستدراكات وفذلكات وطرائف . . . بل يبدو أن الرطانة الجديدة قد سرت في أضلاعهم . ولقد كتبت في ذلك مقالاً قصيراً في مجلة (اللسان العربي) التي تصدر عن المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي ، التابع لجامعة الدول العربية في الرباط ، بعنوان (تشويهات في اللغة العربية أحدثتها الترجمة)[1] . ولكن أحداً لا يريد أن يسمع ، فقد طم الماء الوادي فعلى من تقرأ مزاميرك يا داود ؟ ولذلك أراني مضطراً - رغم قلة حيلتي وضعف أمري - إلى تجديد الدعوة مرة أخرى بتوسعٍ أكبر وشواهدٍ أكثر على صفحات هذا الكتاب ، والذي آمل أن يحقق ما عجزتٌ عن تحقيقه مجلة (اللسان العربي) ذات الأعداد المحدودة والنطاق الضيق .

رطانات جديدة لا عهد للعربية بها بدأت تظهر على المسرح وتغزو جميع الألسنة ، وهذه الرطانات ليس لها من العربية إلا الألفاظ والحروف، ولكنها افرنجية الدم والروح . ومع ذلك فإني أعترف أن هذه الرطانات قليلاً ما تصدر عن كاتبٍ كبير ، وإنما هي في الأغلب والأعم من لوثات صغار الكتّاب والمترجمين الصحفيين . فلم أجد في كتابات العقلا وطه حسين مثلاً أثراً لهذه الرطانات رغم أنهما ولا سيما الأخير قد أغنيا الأسلوب العربي بالأساليب الجديدة التي تقتضيها عملية تطوير اللغة من غير أن يضحيا بعبقريتها وأصالتها ،وهذا مما يذكرنا بالعصر العباسي الذي تطورت فيه العربية من لغة النخل والسيف والبعير إلى لغة العلم والفلسفة والحضارة .

وإليكم الآن أمثلة ونماذج من هذه الرطانات انتزعتها من هنا وهناك وتجدون بإزاء كل كلمة أو جملة ملحونة تصحيحها بلسان عربي مبين . ولنبدأ برطانة (ضد) التي انتشرت على كل لسان فهي أخطر الرطانات جميعاً .

رطانة ضد

التعبير السقيم

اتهام العرب ضد اسرائيل
الهجوم ضد العقلانية أو شنَّ هجوماً ضـد
التأمين ضد المرض أو الخطر أو الموت
استند ضد الحائط
عنده حساسية ضد الأسپرين
أعطاه مبلغاً من المال ضد إيصال بالقبض أو الإستلام
لقاح ضد شلل الأطفال
المعارضة الرجعية ضد الثورة الفرنسية
لحماية البلاد ضد العدوان
الردع ضد أي عدوان
فرض العقوبات ضد الجماهيرية الليبية
تعصب ضده
إنزال أشد العقوبات ضدهم
جرائم تُرتكب ضد الأخلاق
اتخذ موقفاً ضد كذا
اتخذ ضده إجراءات رادعة ، صارمة
عملية اغتيال ضد الوسيط الدولي
الكفاح ضد الإستعمار ، الجريمة
الصراع ضد الإستعمار
يطالبون بإجراءات فعّالة ضد موجة الغلاء
أدفع ضد هذا الشيك مبلغ كذا
انتهاك السلطات الإسرائيلية ضد المسجد الأقصى
العلم في معركته ضد المرض
المعارضة المتعاظمة ضد الطغيان
الرد المباشر ضد فلسفة التنوير
الكراهية العمياء ضد العرب
التمييز ضد السود ، ضد المرأة

التقصير ضد الإسلام
الحكم الذي أصدرته المحكمة ضد فلان
أميركا تفكر في القيام بعمليات عسكرية ضد ليبيا
احتاط ضد كل الأخطار
المواجهة ضد النظام القائم
حامت ضده الشبهات
المناعة ضد المرض ، منيع ضد المرض
الدفاع ضد الظلم
الاحتجاج ضد الغبن
الحرب ضد ، القتال ضد ، الحملة ضد العدو
قاتلوا حاربوا ضدهم
الشكوى ضد المعاملة السيئة
الإضراب ضد الظلم
وكان ذلك أقوى دفاع ضد مسيرة العلم
الجهاد ضد النفس
كان من أهل السنة ضداً على المعتزلة (استعمال مغربي عجيب)
يوجهون تقنياتهم ضد المرض
وقف موقف العداء ضد المرأة
التخريب ضد المصالح الأميركية في المنطقة
حذر عدد من الكتّاب ضد المبالغة في الأمصال الـواقيـة ضد الأمراض المعدية
ضد دوهرنغ

التعبير السليم

اتهام العرب لإسرائيل
الهجوم على العقلانية أو شن هجوماً على .
التأمين من المرض أو الخطر أو الموت
استند إلى الحائط
عنده حساسية للأسبرين
أعطاه . . . وأخذ منه اقراراً أو صكاً

لقاح لمكافحة شلل الأطفال
المعارضة . . . للثورة الفرنسية
لحماية البلاد من العدوان
ردع أي عدوان
فرض العقوبات على الجماهيرية . . .
تعصب عليه
إنزال أشد العقوبات بهم
جرائم ترتكب في حق الأخلاق
اتخذ موقفاً مناوئاً لكذا
اتخذ في حقه إجراءات
عملية . . . للوسيط الدولي
مكافحة الإستعمار ، الجريمة
الصراع لمواجهة (أو للقضاء) على الاستعمار
يطالبون . . . للحد من موجة الغلاء
أدفع لقاء هذا الصك مبلغ كذا
انتهاك . . . للمسجد الأقصى
العلم في معركته مع المرض أو لمكافحة المرض
المعارضة المتعاظمة للطغيان
الرد المباشر على فلسفة التنوير
الكراهية العمياء للعرب
الإجحاف بالسود ، بالمرأة ، الحيف عليهما
التقصير في حق الإسلام
الحكم . . . على فلان أو في حق فلان
أميركا تفكر . . . لضرب ليبيا
احتاط من جميع الأخطار
مواجهة النظام القائم
حامت حوله الشبهات
المناعة على المرض ، منيع على المرض
دفع الظلم أو مدافعة الظلم أو مقاومة الظلم

الاحتجاج على الغبن
محاربة العدو ، مقاتلة العدو ، الحملة على العدو
قاتلوهم حاربوهم
الشكوى من المعاملة السيئة
الإضراب لمواجهة الظلم
لم أفهم شيأً
جهاد (أو مجاهدة) النفس
كان سنياً معارضاً للمعتزلة
يوجهون . . . لمكافحة المرض
وقفت موقف العداء للمرأة أو موقفاً معادياً للمرأة
تخريب المصالح الأميركية
حذارِ . . . من المبالغة في الأمصال الواقية من الأمراض المعدية
الرد على دوهرنغ

* * *

لقد لاحظنا في جميع هذه الحالات أن حرف الجر « على » يفيد معنى « ضد » ، وعكسه حرف الجر « اللام » : فيُقال : اللهم كُن لنا ولا تكن علينا . تعصَّب له تعصّب عليه ، كما لاحظنا أن مصدر المشاركة قد يغني في بعض الأحيان عن كلمة (ضد) : مقاتلة ، مكافحة ، محاربة . . . أن المصدر واحد فقط في الفرنسية والإنكليزية . . . ولكنه متعدد في العربية. ففي العربية عدة مصادر من جذر واحد ذات معانٍ مختلفة : قتل ، قتال ، اقتتال ، مقاتلة ، تقتيل . هجوم ، مهاجمة ، تهجّم . نضال مناضلة . . . فمن الممكن الإفادة من هذه المصادر الفريدة في تعابيرنا والتخلص نهائياً من هذه « الضد » السقيمة . فلِمَ التضييق وفي المصادر سعة يمكننا بكل سهولة ، اختيار ما يُناسب المقام منها ؟ مَنْ شَدَّد شُدِّد عليه . فما شادَّ هذه اللغة أحدٌ إلا غلبته ، لِمَ الإقتصارُ إذن على مصدرٍ واحد فقط والإصرار على إستعمال كلمة (ضد) معه ؟ أنا لست لغوياً محترفاً ، ولم أكتب يوماً أي موضوعٍ في اللغة ، باستثناء المقال الذي ذكرته منذ قليل وهذا توسيع له . ولكنها بقية من حس لغويٍ أُحافظ عليها ، وأُذُنٌ تُخدَش كلما سمعتْ نشازاً . ومع أن ذلك لا يكفي في عصر الإختصاص والتوثيق والإسناد فإنه يقدم اسهاماً متواضعاً لا بأس به أطرحُهُ للمناقشة والحوار . فأنا ميداني الفكر الفلسفي

بعامة والفكر العربي بخاصة . وأما اللغة ومباحثها فلا أحب الدخول في متاهاتها حيث أشعر بالحرج والدوار .

رطانة كاف التشبيه

هذه الرطانة عطلت خبر كان وصيغة الحال والتمييز والمفعول لأجله والمفعول به ، وإن كان الخطب فيها أقل من رطانة (ضد) ومن الممكن تخريج بعض استعمالاتها القليلة :

الإستعمال السقيم :

قدَّم كذا للمحكمة كدليل على براءته
تحليل مفهوم المجتمع كتمهيد
بحيث تكون الثقافة العربية كواحد من الروافد
فإذا نظرنا إليه كعالم
وذلك كان السبب في انهيار العرب كأفرادٍ وجماعاتٍ
وكنتيجة لذلك ، وكخلاصة لما سبق
عمل كجندي ، كمحرر ، كموظف
تعيينه كرئيس
يدرُسونه كفيلسوف
متخذاً هذه التناقضات كنقطة بداية
السوسيولوجيا كعلم مستقل
كعلم مستقل بذاته بوصفه علماً قائماً بذاته
اخترناه كطريقة للنضال
البحث فيه كفيلسوف ، كعالم
بدأت الهجرة إلى الدول النفطية كطموح وكتطلع
وكل ذلك سيؤثر على الشخصية كتطلع وكطموح وكرغبة في المشاركة
ارتبط بالرأسمالية كفكر وسلوك ونشاط
يصلح كنموذج .
أدخلها في العملية كعنصر ضرورية
اعتمد نظرية التطور كمذهب وفلسفة
التعامل معهم كمقهورين

تفجر الماء من الأرض كعيون متدفقة
الطبقات التي كانت لها السيطرة على النفط كفكر وكموقف وتنفيذ
إن النمو المتأخر للرأسمالية كان له كنتيجة
إن خطأ هذه الفلسفة أنها لم تبدأ كفلسفة كلية صورية
خدموا كناقلين للإيديولوجية الحزبية
خدموا كرجال علم حقيقيين
ازدادت سيطرة البرجوازية كفكر وكموقف
الغزالي ينكر الإتحاد والحلول كطريق إلى الأمان
الفلسفة كعلم للوجود .

الإستعمال السليم

قدَّم . . . دليلاً على براءته
تحليل مفهوم المجتمع تمهيداً
بحيث تكون أحد الروافد
فإذا نظرنا إليه عالماً
وذلك . . . أفراداً وجماعاتٍ
ونتيجةً لذلك ، وخلاصةً لما سبق
عمل جندياً ، محرراً ، موظفاً
تعيينه رئيساً
يَدْرُسونه فيلسوفاً
متخذاً هذه . . . نقطة بداية
السوسيولوجيا ـ علماً مستقلاً بما هو علم أو من حيث هو علم قائم بذاته
اخترناه طريقة للنضال
البحث فيه فيلسوفاً ، عالماً أو من حيث هو فيلسوف ، عالم
بدأت الهجرة . . . طموحاً وتطلعاً
وكل ذلك سيؤثر في . . . تطلعاً وطموحاً ورغبةً في المشاركة
ارتبط بالرأسمالية فكراً وسلوكاً ونشاطاً
يَصلُح نموذجاً
ادخلها في العملية عناصر ضرورية أو لتكون عناصر ضرورية
اعتمد . . . مذهباً وفلسفة

معاملتهم معاملة المقهورين
تفجرت الأرض عيوناً متدفقة
الطبقات . . . فكراً وموقفاً وتنفيذاً
إن النمو . . . كان من نتيجته
أن خطأ . . . فلسفةً كليةً صوريةً
كانوا ناقلين أو نقلوا
سلكوا سلوك رجال العلم الحقيقيين
ازدادت . . . فكراً أو موقفاً
الغزالي . . . طريقاً إلى الأمان
الفلسفة علماً للوجود أو بما هي علم للوجود أو من حيث هي علم للوجود .

رطانة « بشكل » ، « بصورة » « بصفة » ، « بطريقة » ، « بكيفية »

لقد عطلت هذه الرطانة المفعول المطلق والحال والجار والمجرور :

الصيغة السقيمة

استعملها بشكلٍ حسن
استعمله بصورة سليمة ودائمئة
استعمله بشكلٍ غير لائق
مشى بصورة سريعة
دخل البلاد بصورة سرية
تكلم بطريقة متزنة
عالم غير مستقر تتغير فيه الموازين بكيفية سريعة

الصيغة السليمة

استعملها استعمالاً حسناً
استعمله استعمالاً سليماً مستمراً أو دائماً
استعمله استعمالاً غير لائق أو بلا لياقة أو استعمالاً فجاً
مشى بسرعة أو سريعاً
دخل البلاد سراً
تكلم كلاماً متزناً وباتزان

عالم تتغير فيه . . . بسرعة .

رطانة يُشكِّل ، يُمثِّل

لقد عطلت هذه الرطانة المبتدأ والخبر وكان الناقصة . فلا تشكيل ولا تمثيل في الأمر هنا بل الأمر موضوع أو مسند ومسند إليه .

التعبير السقيم

يُشكل خطراً على السلام ، الصحة
يشكل ضرراً ضد المرأة
يشكل منفذاً إلى
فما ضاع من كتبه قليل لا يشكل أدنى قيمة
وهكذا فإن . . . لا يشكل مجرد تعبير عن
وهو يشكل عنصراً هاماً في
وهذا يمثل أو يشكل جزءاً هاماً من
يمثل تهديداً للسلم أو ضد السلم .

التعبير السليم

فيه خطر على السلام ، على الصحة
فيه ضرر على المرأة وهو ضار بالمرأة
هو منفذ إلى
فما ضاع . . . قليل ليس له أي قيمة
فإن . . . ليس مجرد تعبير عن
وهو عنصر هام في
وهو جزء هام من
وهو تهديد للسلم أو فيه تهديد للسلم .

رطانات متفرقة

التعبير السقيم

أما فيما يتصل بمحاولاتهم
أما عن الوظائف والأعمال التي

حتى لا أقول
ليس هذا فحسب
ستؤدي بالنسبة لمنفذيها إلى نهاية مفجعة
وهذه المواقف تتمثل في
أقبلت جموع وجنود وحراس هولاكو
أنه كبير إلى درجة ، إلى حد أن
إلى حد كبير
هذه مسألة معروفة إلى حدٍ كبير
عقب انسحابه من مؤتمر القمة الأفريقي قال القذافي
بوصوله إلى البيت قال الأب لبنيه
في كتابه كذا يذكر المؤلف كذا
تعرب أميركا عن رضاها بإزاء إسرائيل
أعرب عن ارتياحه بإزاء هذا التصرف
إن منظمة التحرير ، تقول إسرائيل ، منظمة إرهابية
واعتقد ، أضاف الرئيس الحص ، أن
هل الوضوح غاية في ذاته ، يتساءل ماركيوز
السوسيولوجيا بوصفها علماً مستقلاً . . .
الوجود لم يكن موجوداً في عقل الله بوصفه امكاناً
جاء ثلاث ساعات قبل أخيه
أنه ليس فقط لم يحضر ، بل منع رفاقه من الحضور
يفعلون ذلك بهدف الوصول إلى
اعتبره عنصراً أساسياً في حياته
إني أعتبر أن هذا الكتاب غير صالح للقراءة
نفرٌ من الموت مع أن (رغم أن) الموت حق
الألمانيتان (مثنى ألمانيا)
الأميركيتان (مثنى أميركا)
كان من نتيجة ذلك ليس فقط أنه فشل ، بل أيضاً مرض
وهذا يكشف ليس فقط عن عيوبه بل وعن
بدون موافقة مسبقة .

أما محاولاتهم
أما الوظائف والأعمال التي
إذا لم أقل
ولا يقتصر الأمر على هذا
ستؤدي بمنفذيها إلى . . .
وهذه . . . تتجلى ، تبرز ، تظهر في
أقبلت جموع هولاكو وحراسه وجنوده
أنه من الكبر بحيث
كبير جداً ، وإلى مدى بعيد . فالحد لا يكبر ولا يصغر بل يضيق ويتسع .
هذه مسألة معروفة معرفة جيدة
قال القذافي عقب انسحابه من . . .
قال الأب لبنيه عندما وصل إلى البيت
يذكر المؤلف كذا في كتابه كذا
تعرب . . . عن رضاها عن إسرائيل
أعرب . . . لهذا التصرف
تقول إسرائيل : إن منظمة . . .
وأضاف الرئيس الحص : اعتقد أن
ويتساءل ماركيوز : هل الوضوح . . .
السوسيولوجيا بما هي أو من حيث هي علم مستقل فلا وصف هنا ولا نعت
الوجود لم يكن موجوداً في حال الإمكان
جاء قبل أخيه بثلاث ساعات
لم يكتفِ بعدم الحضور بل منع
يفعلون للوصول إلى
عدّه عنصراً . . .
إني أرى ، أعتقد أن هذا الكتاب
نفر من الموت والموت حق
الألمانياوان مثل دينا : ديناوان
الأميركاوان

لم تكن نتيجة ذلك مقتصرة على أنه أخفق في مسعاه بل لقد أُصيب بالمرض أيضاً
وهذا لا يكشف فقط عن عيوبه بل هو يكشف أيضاً عن
من غير أن يقدم موافقة سلفاً .

* * *

إن كل هذه الإستعمالات غريبة ملحونة سببها الترجمة . فإن بناء الجملة فيها على هذه الصفة الأعجمية شيء لا نعرفه في عربيتنا السليمة ، فالذين درجوا على هذا الدخيل الأعوج إنما ينظرون إلى لسان آخر هو تارة الفرنسية وتارة الإنكليزية . . . يستوحونها ويقلدونها وينقلون عنها كلمة كلمة وحرفاً حرفاً .

إن أصحاب هذه الترجمات القاموسية يحملون الضيم إلى عربيتنا المعاصرة . حسبُهم أن يثبتوا الكلمة كما وجدوها في القاموس . فكلمة considérer comme مثلاً تُترجم دائماً « اعتبر كـ » وكلمة Constituer وتترجم « يُشكل » présenter و« يمثل » وكذلك كلمة contre بكلمة « ضد » . وكفى الله المؤمنين شر القتال . ولا أهمية بعد ذلك لما إذا كان التعبير المترجم يبقى سليماً أو لا يبقى بعد هذا الإلتزام الحرفي للنص .

إن اسم الموصول في الإنكليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات الأوروبية يلحق الاسم سواء كان نكرة أو معرفة The man who, a man who- l'homme qui, un homme qui أما في العربية فلا يلحق الاسم الموصول إلا الاسم المعرف : « الإنسان الذي فعل كذا وكذا » ولا يُقال « إنسان الذي فعل » لكن مترجمينا رعاهم الله ، والإعلاميين منهم على وجه الخصوص يخرقون هذه القاعدة بلا أي تحرج . انظر إلى هذا النص المترجم السقيم : « وبعض حكاياتها منقولة من أقوامٍ أفريقيةٍ الذين تدور حكاياتهم حول . . . » فالاسم (أقوام) هنا اسم نكرة وبالتالي فلا يلحقه الاسم الموصول (الذين) ولكن مترجمنا العزيز رآها في الأصل فأثبتها في الترجمة « أمانة » للنص وحرصاً على الدقة فيه . والخطأ الآخر المترجم في هذا النص استعمال كلمة « تدور حول » والأصح « تدور على » . وهاك أيضاً نصاً سقيماً آخر : « إن آخر ست جرائم التي راح ضحيتها نساء شريفات » فقد كان ينبغي على المترجم لا فُضَّ فوه وقلمُهُ إما شطب الاسم الموصول المؤنث (التي) أو تعريف « ست جرائم » إذا كان حريصاً على هذا الاسم الموصول بجعل الترجمة هكذا : « الجرائم الست الأخيرة التي . . . » . ألا قليلاً من الذوق

يا هؤلاء . . . .

لا ترجمة أركّ من ترجمة (الكتاب المقدس) ومع ذلك فإنك لا تجد فيه هذه الرطانات . إنك لا تجد فيه مثلاً « حمي غضب الرب ضد الشيطان » أو « خدموا ككهنة في الهيكل » أو « جاء بطرس ثلاث ساعات قبل يوحنا » أو « سرقوا الرب من القبر بشكلٍ لئيم » . . . فمترجمو العهدين القديم والجديد قاموا بترجماتهم قبل الطوفان الإعلامي . ولذلك تجاوزوا هذه الرطانات وأعطوها صيغة عربية أو شبه عربية لا بأس بها تكفي المتعبدين البسطاء . فلا فرق عند المتعبد بين « حمي غضب الرب » على قبح الترجمة أو « اشتد غضب الرب » وهي الترجمة الأنيقة الجميلة .

وكذلك فعل النَقلة العرب في العصر العباسي . إن التعابير « ضد » و« يُشكل » و« يمثل » و« كاف التشبيه » و« بصورة » . . . قديمة في اللغات الأوروبية ، وليست شيئاً طارئاً عليها . إنها ترقى إلى اللاتينية واليونانية . بل إننا لنجدها أيضاً في الفارسية ، والتركية . ومع ذلك فقد تخطاها النَقَلة العرب وترجموها بلسان عربي مبين . فحُنين بن اسحق وقسطا بن لوقا وبنو بختيشوع لم يكونوا عرباً أقحاحاً ، ومع ذلك فقد مجّت أذواقهم أن يراطنوا العرب بالترجمة الحرفية لهذه التعابير المستقبحة . لقد عرَّبهم الفتح وصقل ألسنتهم صقلاً أين منه ألسنتنا التي نشأت على العربية وورثتها كابراً عن كابر ؟ وبدلاً من أن نعتصم بلغتنا ونتمسك بأساليبنا فقد جرَفَنا الطوفان وأقحمْنا الرطانةَ في تعابيرنا ، فأصبح الصغير والكبير والعام والخاص يقول : « هذا يُشكل خطراً على صحتي » و« النضال ضد الإستعمار » و« بشكلٍ سري » و« التأمين ضد حوادث الطرق » ، و« ضد إيصال » . . . إلخ . حتى لقد أصبحنا لا نُحس بأي حرج ، كأننا في غرفة مقفلة تنبعث منها روائح نتنة تزكم الأنوف لكن لا يحس خبث هذا النتن ويدرك خطره إلا طبيب في داخل الغرفة أو قادم من خارج فتح الباب فارتد مزكوماً .

ومن أخطاء الترجمة أيضاً جمع المصدر . والحق أن هذه المسألة دقيقة جداً في اللغة العربية وهي غير مطروحة ، بل غير قابلة للطرح في اللغات الأوروبية فهذه اللغات تفرق بين المصدر والاسم .

فهناك مثلاً défendre défense بالفرنسية defenseو defendو

بالإنكليزية ، فالجمع في هذه اللغات هو جمع للاسم لا للمصدر . وأما العربية فلا تعرف هذه التفرقة بين الاسم والمصدر في أمثال هذه الحالات . فكلمة (دفاع) العربية تفيد المصدرية كما تفيد الاسمية ، والجمع هنا مسألة تخضع للسماع أولاً ثم للحس اللغوي ثانياً . فأنا مثلاً لا أستسيغ أبداً الجمع (دفاعات) و(نجاحات) و(هجومات) وإن كنتُ لا أجد بأساً في جمع صراع على (صراعات) و(لقاء) على (لقاءات) و(تطلع) على (تطلعات) . فأما كلمة (دفاع) فإني أُفضل جمعها بكلمة (وسائل الدفاع) أو (أعمال الدفاع) ، وأما كلمة (نجاح) فإني أفضل استعمالها مفردة وإضافة صفة إليها تُغني عن الجمع ، كأن أقول نجح نجاحاً باهراً أو فائقاً أو خارقاً . كما أن كلمة (هجمات) تغنينا عن كلمة (هجومات) . والمسألة هنا متروكة على كل حال لذوق الكاتب وحسه المرهف ، أما إذا كان عديم الذوق أو الحس فهذه مسألة أخرى . ثم إن المصادر التي تُستعمل استعمال الأسماء ، بعضها عُرفت له جموع (مناقشة مناقشات ، محاورة محاورات ، مطمح مطامح) ، وبعضها لم تُعرف له جموع (نقاش ، حوار ، طموح) . فلا معنى في نظري للعدول عن الجمع (مناقشات ، محاورات ، مطامح) إلى (نقاشات ، حوارات ، طموحات) ما دام الجمع الأول يغنينا عن الثاني . فالمسألة ، كما قلت مسألة ذوق وسماع لا مسألة قاعدة قد تنشز وتنبو حيناً وتستقيم أحياناً . ولا يفوتني أن أنوه هنا بذوق مراسلي الصحف ووكالات الأنباء لعدولهم عن جمع كلمة (عنف) على (عنفات) التي يبدو أنها خدشت أسماعهم كثيراً وفضلوا عليها كلمة (أعمال العنف) . وهذا يدل على بقية باقية من حس لغوي كان ينبغي تنميته ، اللهم ما لم يكن هذا الجمع ترجمة حرفية لكلمة actes de violence وعندئذٍ يكون حسن ظني بهم في غير محله .

ومن أخطاء الترجمة أخيراً قول بعضهم في أمر حدث بالفعل وكان ينبغي ألا يحدث « هذا أمر لا يمكن حدوثه » يريد استفظاع الحدث واستقباح حدوثه . فكيف لا يمكن حدوثه وقد حدث بالفعل ؟ هذا جائز في اللغات الأوروبية التي تضيق عن التفرقة بين الأمرين إلا باستعمال صيغة الشرط وهو أمر لا يحسن المترجم نقله إلى العربية بدقة . أما اللغة العربية ففيها إلى جانب التعبير « لا يمكن حدوثه » تعبير آخر « لا يجوز حدوثه » . فعندما يستفظع القائل حدوث جريمة ما ويقول عنها « هذا أمرٌ لا يمكن حدوثه » ، ما باله لا يقول « إنها أمر لا يجوز

حدوثه ؟ » فلا ينبغي أبداً الخلط بين « لا يمكن » و« لا يجوز » ، وبالتالي التعبير عن الأمر الذي حدث بالفعل بالقول أنه لا يمكن أن يحدث وإن كنا نقصد أنه لا يجوز أن يحدث . يجب بلورة هذا القصد في ألفاظ واضحة صريحة لا تحمل اللبس ، ليكون اللفظ على قدِّ المعنى بلا فجوة بينهما . ومن هذا القبيل أيضاً قولهم لا يمكن تدويل قضية لبنان ، مع أنها دُوّلت بالفعل شئنا أم أبينا . بل يجب أن يُقال : « لا يجوز تدويل قضية لبنان » .

أخطاء في الترجمة

قبل التطرق إلى ضعف الأداء وركاكة التعبير أحبُ أن ألفت الأنظار إلى مصطلح فلسفي يخطىء المختصون ـ فضلاً عن الأغمار العاديين ـ في ترجمته وهو مصطلح néoplatonisme إذ يترجمه الكثيرون بكلمة (الأفلاطونية الحديثة) فالصفة (حديثة) لا يجوز أبداً أن تُطلق على الأفلاطونية ، لا لغة ولا اصطلاحاً . فالحديث في اللغة هو العصري . وبهذا المعنى فالأفلاطونية ليست حديثة . والحديث في الاصطلاح الفلسفي يطلق على العصر الذي بدأه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة . والفلسفة الحديثة هي فلسفة القرن السادس عشر والقرون التالية حتى الوقت الحاضر . فالترجمة الصحيحة لكلمة néoplatonisme هي الأفلاطونية الجديدة ، أي فلسفة أفلاطون موضوعة « وضعاً جديداً » . وبعبارة أخرى لسنا هنا بإزاء modern platonism بل بازاء neoplatonism وشتان بينهما .

هناك في اللغات الأوروبية ما يسمونه التناظر في الزمان correspondance أي حكاية ما جرى في الماضي بصيغة الماضي . لكن هذا التناظر لا وجود له في اللغة العربية ، ومع ذلك نرى المترجمين الحرفيين يلتزمونه بلا مراعاة لروح اللغة العربية فيختل المعنى ويضطرب الكلام . مثال ذلك قول أحد المترجمين « زعم بوانكاريه أن قوانين الهندسة لم تكن نصوصاً بشأن الحقائق، ولكنها كانت اصطلاحات اعتباطية ».فهناك كما نرى تناظر بين « زعم » و« لم تكن » و« كانت » وكلها في صيغة الماضي (لا فرق بين أن يكون هذا الماضي كاملاً أو ناقصاً imparfait أو سابقاً antérieur لكن هذا التناظر إذا كان ضرورياً في اللغات الأوروبية فإنه سقيم ناشز في العربية ، فالترجمة السليمة هكذا : « زعم بوانكاريه أن قوانين الهندسة ليست نصوصاً . . . وإنما هي اصطلاحات اعتباطية » . وهاك

مثالاً آخر أكثر وضوحاً : « علمت (فعل ماض) أنك تكبرني (فعل مضارع) بخمسة أعوام) . فلو راعينا التناظر هنا في اللغات الأوروبية لأختل المعنى ونشأت عن هذه المفارقة الغريبة : « علمت أنك كنت تكبرني » وأما الآن فلم تعد تكبرني . وهذا الاحتمال لا يرد لذهن الأوروبي لأن التناظر جزء من تصوره للزمان ، وأما العربي فإنه يربك تصوره ويحدث فيه خللاً .

وهناك أيضاً كلمة intelligence التي دأب مترجمونا على ترجمتها بكلمة (ذكاء) ، مع أنها قد تأتي بمعنى (عقل) ويُعرف ذلك بالقرينة . أما كلمة ذكاء بالعربية فهي تعني أكثر مما تعني كلمة (عقل) . فمن الخطأ إذن ترجمة كلمة intelligence دائماً بكلمة ذكاء .

وكذلك هناك الفعل المتعدي (أكَّد) ، ولكن المترجمين حفظهم الله جعلوه فعلاً لازماً فقالوا : « أكّد على » لأنه فعل لازم باللغات الأوروبية يُقال insister sur بالفرنسية أو upon أو to insist on بالإنكليزية . وإذا كانوا حريصين على حرف الجر « على » فقد كان أحرى بهم أن يترجموا الفعل المذكور بالفعل « أصرّ » أو « ألح » . . . وهما فعلان لازمان . دون أن يشوهوا الفعل « أكَّد » . .

وأخيراً لعله بفعل الترجمة وبالتالي تقليداً للغات الأوروبية دخل حرف الجر « على » على الفعل « أثّر » والاسم « تأثير » فقيل « آثر على كذا » و« التأثير على كذا » بدلاً من « في كذا » فليس من الجائز أبداً القول « التأثير على الأشياء » بل يجب القول « التأثير في الأشياء » ولكن المترجمين يُجيزون ما لا يجوز .

التمييز بين النص المترجم والنص الأصلي :

إن هذه الرطانات تفيدنا كثيراً في مسألة الرجوع إلى النصوص وهل هو رجوع حقيقي أم ادعائي ؟ انظر إلى هذا النص الذي نسبه بعضهم إلى أحد المؤرخين القدامى ، ولكن صيغته تدل على أنه مترجم « قال نصير الدين الطوسي لهولاكو : كيف يخطر ببالك أني لا اعتبر إحترامك لي كمنّة ؟ » فضلاً عن أن النص سقيم في ذاته ، فيه قرينتان تدلان على أنه مترجم وليس منقولاً عن الأصل العربي . فرغم ركاكة اللغة في عصور الإنحطاط فإن الفعل (اعتبر) بمعنى (عدّ) لم يكن معروفاً فيها . فإنما هو استعمال ملحون حديث العهد لم أجده في أي

قاموس رصين إلا في (المنجد) وهذا من أخطائه[1] . وهو ترجمة للكلمة considérer الفرنسية أو to consider الإنكليزية . إن الفعل اعتبر القديم له مفعوله به واحد معناه التدبر والتعجب وأخذ الدرس والعِبرة ولم يرد أبداً بمعنى (عدَّ) ، ولا أعلم متى بدأ يتخذ مفعولاً ثانياً ومَنْ تبرع له بهذا المفعول .

وهناك قرينة أخرى لا تترك مجالاً للشك في أن النص مترجم ترجمة حرفية فضَحَتْها إضافة كاف التشبيه إلى كلمة (مِنَّة) وهي ترجمة حرفية لكلمة comme الفرنسية أو as الإنكليزية التي تلحق الفعل الفرنسي considérer أو الإنكليزي to consider وكثيراً ما أعثر على نصوص من هذا القبيل يدعي أصحابها أنهم رجعوا فيها إلى أصل عربي قديم ، والله يعلم أنهم لكاذبون .

وعلى ذكر القدامة في النص ، وجدت هذا النص ينسبه صاحبه إلى ابن شاكر الكتبي في كتابه (فوات الوفيات) : « وكانت جنازة الطوسي مظاهرة كبرى » . ورغم أني لم أرجع إلى الكتاب المذكور فإني أستطيع أن أؤكد أن النص مترجم ، إذ لم يكن لكلمة (مظاهرة) آنذاك المعنى الذي اكتسبته اليوم . فما أكثر الكتّاب الذين يترجمون ويدعون أنهم رجعوا إلى النصوص الأصلية بلا وازع من ضمير أو رادع من خلق . ماذا أقول ؟ بل حتى كلمة (مؤشرات) وجدتها في نصٍ ينسبه صاحبه إلى مؤلف قديم . وهي بلا أي شك كلمة عامية لا أدري كيفَ « تفصحت » . فيكفي أن يتبناها أحد المترجمين الصحفيين في عجلة من أمره حتى « تتفصح » وتنتشر كالنار في الهشيم في كل وسائل الإعلام .

وللأمانة أقول أني لم أجد حتى الآن نصاً ينسبه صاحبه إلى أصلٍ قديم يحمل كلمة « ضد » الناشزة ، كأن يقول مثلاً : « الجهاد ضد الكفرة المشركين » أو « القتال ضد الزنادقة » . فإن أحداً على ما أعرف لم تصل به الجرأة على القدماء بحيث يُنسب إليهم نصاً سقيماً كهذا .

---

(١) ومن أخطائه الكثيرة أيضاً انفراده ، بإيراد كلمة عَلْم (بفتح العين وتسكين اللام) بمعنى العالم بفتح اللام وهو ما لم أجده في أي قاموسٍ آخر أيضاً ، أنظر الطبعة الحادية عشرة نيسان ١٩٤٩ صفحة ٥٥١ .

ركاكات لا ترجع إلى الترجمة بل إلى ضعف في الكتابة

اسمحوا لي الآن أن انتقل من رطانات الترجمة ـ رغم أني لم أستوعب الكلام فيها فحسبي ما تقدم خشية الإطالة ـ إلى بعض الركاكات التي يقع فيها الكثيرون . فكلاهما خطأ يتعنّت اللغة ويوهنها .

التعبير الركيك

عرفت ذلك عن طريق فلان
يتوجب عليه كذا
دراسته حول المجتمع الإنساني
هل أن هذه المواقف صحيحة ؟
لم يتقدم بما فيه الكفاية
يدور هذا الكتاب حول موضوع كذا
بالكاد عمره عشر سنوات
التعامل معهم بالبر
سوف نتحدث الآن
إلى ما لا نهاية
مؤشرات
من طرف (كلمة مغربية)
كلهم حسنو (أو من حسني)[1] النية
تصوُرُه ، مفهومُه ، نظريته فكرته عن كذا
ناهيك عن كذا
يعتمد على كذا وليس على كذا
عرضة إلى كذا
الخضوع إلى كذا
أخذ نسخة عنه

(١) (حسنو) ربما التبس الأمر على صاحب هذه الكلمة فظن أنها جمع . وإذن فينبغي أن يكون أصلها حسنون ! لأن النون حُذفت بسبب الإضافة ، أنا لم أسمع بهذا الجمع العجيب . ومن يدري ؟ ففوق كل ذي علمٍ عليم !

تواجد هناك
تُراوح مكانها
تصليحات
ناهيك عن كذا
أثَّر على
ما دام أن الإنسان
كذا
ينُمُّ على
أحال الشيء إلى كذا وأحاله إلى فلان
إذا كان الإنسان كذا فماذا عن الحيوان ؟
أية امرأة فعلت كذا ؟(١)
تحجيم (لا أدري من أين جاء الصحفي بهذه الكلمة) .

التعبير الفصيح

عرفت ذلك من طريق فلان
يجب عليه (وإما التوجب فهو من الوجبة ، أي الأكلة الواحدة في اليوم)
دراسته للمجتمع الإنساني
هل هذه المواقف صحيحة ؟
لم يتقدم تقدماً كافياً أو كما يكفي
يدور . . . على موضوع كذا
لا يكاد عمره يبلغ العشر سنوات
معاملتهم بالبر
سنتحدث الآن (سوف تدل على المستقبل البعيد)
إلى غير نهاية (أو إلى ما لا نهاية له)

---

(١) كذلك تؤنث في الشعر ، لأن الشاعر المسكين محكوم بالوزن والقافية ، فهو إذن في أزمة تجيز له ما لا يجوز لغيره . ولعل الكاتب الصحفي يقيس نفسه على الشاعر ! أما في النثر فلم أجدها مؤنثة إلا في حالات قليلة نادرة لا يعتد بها . فالقرآن الكريم لم يؤنثها مطلقاً : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وكذلك الحديث ، فقد تهرب من تأنيثها بإضافة « ما » إليها ففي الحديث الشريف : « أيما امرأة خرجت من بيتها ومرّت على القوم . . . » .

شواهد ، علامات ، أمارات ، دلائل . . .
من قِبَل
كلهم من أصحاب النية الحسنة
تصوره مفهومه لكذا ، نظريته فكرته في كذا
ناهيك بكذا
يعتمد على كذا لا على كذا
عرضة لكذا
الخضوع لكذا
أخذ نسخته
وُجد هناك (التواجد معنى صوفي لا يصح اطلاقه هنا)
بقيت كما هي في مكانها
اصلاحات
ناهيك بكذا
أثر في
ما دام الإنسان كذا
ينمُّ عن (وهي غير من نم لك نم عليك)
أحال الشيء ، كذا أو إلى كذا (حوَّله أو بدَّله) ، وأحاله على فلان
إذاً . . . فما حكم الحيوان ؟
أي امرأة . . . ؟ « أي » لا تؤنث إلا مع الضمير أيتكن جاءت ؟ أو مع هاء التنبيه : أيتها المرأة)
تصغير أو تقليل .

* * *

لكن التعبير الذي بلغ القمة في الغرابة أخيراً هاتان اللازمتان لا تلفظ إحداهما إلا لُفظت الأخرى : « وأخيراً لا آخراً » . ولا أعرف كيف جرى هذا التعبير العجيب إلى لغتنا بهذه السرعة الكبيرة . أفلا تكفي كلمة « أخيراً » للدلالة على الإنتهاء ؟ .

فللغات أعاجيب ولا أعاجيب السحرة أو حكايات الجن .

هل هذا تزمت أو عبودية للماضي ؟ لا أدري . إذا كان الإنضباط والإلتزام

عبودية فليكن . ومع ذلك فما أراه أنا انضباطاً قد يراه غيري عبودية للقوالب الجامدة . وهذه مسألة تتسع للمناقشة حقاً . فهي تنبع من فلسفة خاصة ووليدة نظرة خاصة إلى التاريخ والتطور .

أنا لا أنكر الحاجة إلى تطوير اللغة . ولكن التطوير غير التشويه . إن الرطانة ليست تطويراً، إنها عملية بتر وتقطيع لأوصال اللغة . لقد تطورت اللغة كثيراً في العصر العباسي دون أن يطرأ عليها أي تشويه . حسْبها أنها قفزت من لغة النخل والبعير والبداوة إلى لغة العلم والفلسفة والحضارة . هذا هو التطور الحقيقي . وهذا ما أرجوه للغة الضاد .

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظات فإني أعود فاعترف أني لست مختصاً باللغة العربية ولعل هذا ما يشفع لي . فقد سطوت على ميدان غير ميداني ، لأدرأ الرطانة عن ميداني . وإني أُهيب باساتذة الفلسفة على الأقل أن ينأوا بالكتابة الفلسفية عن هذه الأساليب السطحية ، ويعيدوا للعربية الأناقة والمتانة وسلامة التعبير ويدّاركوا بالنقد والتصحيح والتقويم والتنوير كل رطانة تخرج اللغة عن سمتها وتنذرها بشرٍ مستطير !!

المصادر والمراجع

ـ الأشعري : **مقالات الإسلاميين** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، جزءآن ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٥ م .

ـ ابن باجة : **رسالة الإتصال** ، لأبي بكر الصائغ ، ضمن (تلخيص كتاب النفس لأبي الوليد بن رشد) . را : الأهواني .

ـ ابن حزم : **الفِصل في الملل والأهواء والنِّحل** ، خمسة أجزاء ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٣١٧ هـ / ١٣٤١ م .

ـ ابن خلدون : **المقدمة** ، مهد لها ، ونشر الفصول الناقصة في طبعتها ، وحققها ، وضبط كلماتها وشرحها ، وعلق عليها ، وعمل فهارسها : علي عبد الواحد وافي ، أربعة أجزاء ، الطبعة الأولى ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢ .

ـ ابن رشد : **تهافت التهافت** ، تحقيق سليمان دنيا ، جزءآن ، القاهرة ، ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ .

ـ = : **كتاب فصل المقال في تقرير ما بين الحكمة والشريعة من الإتصال** ، تقديم وتعليق ألبير نصري نادر ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٨ .

ـ = : **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة** ، تحقيق محمود قاسم ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

ـ ابن سينا : **الإشارات والتنبيهات** ، تحقيق سليمان دنيا ، ثلاثة مجلدات ،

القاهرة ، ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ .
ـ = = : **رسالة في إثبات النبوات** ، (ضمن كتاب قراءات في الفلسفة) ، را : أبو ريان .
ـ = = : **رسالة في العشق** ، ، را : أبو ريان .
ـ = = : **كتاب السياسة** ، (ضمن مقالات فلسفية قديمة لبعض مشاهير فلاسفة العرب) ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩١١ .
ـ = = : **كتاب الشفاء** ، تحقيق إبراهيم مدكور ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
ـ = = : **كتاب النفس** ، تحقيق محمد صغير حسن المعصومي ، المجمع العلمي ، دمشق ، ١٩٦٠ .
ـ = = : **القانون في الطب** ، طبعة روما ، ١٥٩٣ .
ـ ابن طفيل : **حي بن يقظان** ، قدم له بدراسة وتحليل جميل صليبا وكامل عياد ، الطبعة الخامسة ، مطبعة جامعة دمشق ، دمشق ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٢ م .
ـ أبو ريدة (محمد عبد الهادي) : **الكندي وفلسفته** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م .
ـ أرسطوطاليس : **الأخلاق** ، ترجمة إسحق بن حنين ، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي . طبعة أولى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٩ .
ـ أفلاطون : **آخر أيام سقراط** ، نقله إلى العربية أحمد الشيباني ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، بلا تاريخ .
ـ = = : **جمهورية أفلاطون** ، نقلها إلى العربية حنا خباز ، دار الكاتب العربي ، بلا تاريخ .
ـ = = : **محاورات أفلاطون ، أو طيفرون ، الدفاع ، أقريطون ، فيدون** ، نقلها إلى العربية ، زكي نجيب محمود . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ .
ـ أمور (هلا رشيد) : **النبوة وجهاً لوجه أمام العقل** ، رسالة ماجستير ، قُدمت للجامعة اللبنانية (كلية الآداب) ، لا تزال مطبوعة على الآلة الكاتبة ، وكانت عمدتي في كل ما يتصل بالنبوة عند المسلمين .

ـ بدوي (عبد الرحمن) : **أرسطو** ، خلاصة الفكر الأوروبي ، سلسلة الينابيع ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٤ .

ـ بدوي (عبد الرحمن) : **أفلاطون** ، خلاصة الفكر الأوروبي ، سلسلة الينابيع ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٤ .

ـ بدوي (عبد الرحمن) : **خريف الفكر اليوناني** ، خلاصة الفكر الأوروبي ، سلسلة الينابيع ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٣ .

ـ بدوي (عبد الرحمن) : **ربيع الفكر اليوناني** ، خلاصة الفكر الأوروبي ، سلسلة الينابيع ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

ـ بدوي (عبد الرحمن) : **من تاريخ الإلحاد في الإسلام** ، دراسات إسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٥ .

ـ جمعة (محمد لطفي) : **تاريخ فلاسفة الإسلام** ، ملتزم الطبع نجيب متري ، القاهرة ، ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م .

ـ الجندي (محمد سليم) : **الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره** ، الجزء الأول ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .

ـ حسين (طه) : **تجديد ذكرى أبي العلاء** ، دار المعارف بمصر ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

ـ الحصري (ساطع) : **دراسات عن مقدمة ابن خلدون** ، طبعة موسّعة ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

ـ دليلة (عارف) : **مكانة الأفكار الإقتصادية لابن خلدون في الإقتصاد السياسي** ، أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، المنعقدة بجامعة حلب من ٥ ـ ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٦هـ الموافق لـ٥ ـ ١٢ نيسان(إبريل) ، ١٩٧٦ .

ـ ريڤو (ألبير) : **الفلسفة اليونانية ، أصولها وتطوراتها** ، ترجمة عبد الحليم محمود وأبو بكر زكريا ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .

ـ زيادة (معن) : **الحركة من الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة** ، دراسة في فلسفة ابن

باجة الأندلسي ، دار إقرأ للنشر والتوزيع والطباعة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

ـ زيعور (علي) : **الحكمة العملية أو الأخلاق والسياسة والتعاملية** ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٨ .

ـ زيعور (علي) : **الفلسفة في الهند . . .** ، بيروت ، مؤسسة عز الدين ، ١٩٩٣ .

ـ سياي (ج) وجانيه (بول) : **مشكلات ما بعد الطبيعة** ، ترجمة يحي هويدي ، مراجعة محمد مصطفى حلمي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ .

ـ الشهرستاني : **الملل والنحل** ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، جزءآن ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

ـ الشهرستاني : **نهاية الإقدام في علم الكلام** ، مكتبة المثنى ، بغداد ، بلا تاريخ .

ـ شيخ الأرض (تيسير) : **ابن باجة** ، دار الأنوار ، بيروت ، مكتبة العباسية ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥ .

ـ شيخ الأرض (تيسير) : **ابن طفيل** ، سلسلة أعلام الفكر العربي (١٨) ، دار الشرق الجديد ، بيرت ، ١٩٦١ .

ـ شيخ الأرض (تيسير) : **الغزالي** ، منشورات الشرق الجديد ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٠ .

ـ شيخ الأرض (تيسير) : **المدخل إلى فلسفة ابن سينا** ، بيروت ، دار الأنوار ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ .

ـ صليبا(جميل) : **من أفلاطون إلى ابن سينا** ، الطبعة الخامسة ، دمشق ، ١٩٥١ .

ـ **الطريق** ، عدد خاص بابن طفيل ، بيروت ، شباط ، ١٩٦٢ .

ـ الطويل (توفيق) : **أسس الفلسفة** ، دار النهضة العربية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٤ .

ـ عبد الرازق (مصطفى) : **تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية** ، القاهرة ، ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ م .

ـ عبد الرازق (مصطفى) :**فيلسوف العرب والمعلم الثاني** ، مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ، القاهرة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

ـ عبد الرحمن (عائشة بنت الشاطىء) : **الحياة الإنسانية عند أبي العلاء** ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٤ .

ـ عبد الرحمن (عائشة بنت الشاطىء) : **الغفران لأبي العلاء** ، تحقيق ودرس ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤ .

ـ عبد الرحمن (عائشة بنت الشاطىء) : **مع أبي العلاء في رحلة حياته** ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

ـ العثمان (عبد الكريم) : **الدراسات النفسية عند المسلمين ، والغزالي بوجهٍ خاص** ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .

ـ العثمان (عبد الكريم) : **سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه** ، دار الفكر بدمشق ، بلا تاريخ .

ـ عثمان (علي عيسى) : **الإنسان عند الغزالي** ، ترجمة خيري حماد ، مكتبة الأنجلو ـ المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

ـ العقد (عباس محمود) : **رجعة أبي العلاء** ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، ١٩٥٧ هـ / ١٩٣٩ م .

ـ العلايلي (الشيخ عبدالله) : **المعري ذلك المجهول . رحلة في فكره وعالمه النفسي** ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١ .

ـ الغزالي : **إحياء علوم الدين** ، أربعة مجلدات ، المطبعة الأزهرية المصرية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣١٦ هـ .

ـ الغزالي : **تهافت الفلاسفة** ، تحقيق سليمان دنيا ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

ـ الغزالي : **القسطاس المستقيم** ، تحقيق فكتور شلحت ، بيروت ، ١٩٥٩ .

ـ الغزالي : **مشكاة الأنوار** ، تحقيق أبو العلا عفيفي ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .

ـ الغزالي : **مقاصد الفلاسفة** ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة ، ١٩٦١ .

ـ الغزالي : **المنقذ من الضلال، والموصل إلى ذي العزة والجلال** ، حققه وقدم له جميل صليبا وكامل عياد، الطبعة السادسة ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

ـ الغزالي : **ميزان العمل** ، تحقيق سليمان دنيا ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

ـ غولدتسيهر (إجناس) : **العقيدة والشريعة في الإسلام** ، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر ، دار الكاتب المصري ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

ـ الفارابي : **إحصاء علوم الدين** ، تحقيق عثمان أمين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

ـ الفارابي : **تحرير رسالة في الدعاوى القلبية** ، طبعة حيدر أباد الدكن ، ١٣٤٦ هـ .

ـ الفارابي : **تحصيل السعادة** ، طبعة حيدر أباد الدكن ، ١٣٤٦ هـ .

ـ الفارابي : **رسالة في السياسة أو (جوامع السياسة)** ، نشرة شيخو المشرق ، بيروت ، ١٩٠١ .

ـ الفارابي : **كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة** ، تحقيق ألبير نصري نادر ، بيروت ، ١٩٥٩ .

ـ الفارابي : **كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين** ، تحقيق ألبير نصري نادر ، بيروت ، ١٩٦٠ .

ـ الفارابي : **كتاب السياسة المدنية المُلقب بمبادىء الموجودات** .

ـ ڤو (كارادي) : **الغزالي** ، ترجمة عادل زيعتر ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

ـ ڤلهوزن (يوليوس) : **الخوارج والشيعة** ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

ـ قاسم (محمود) : **دراسات في الفلسفة الإسلامية** ، القارة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .

ـ قاسم (محمود) : **في النفس والعقل** ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

ـ قاسمجانوف : **الفارابي** ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٦ .

ــ **الكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لذكرى ابن سينا** ، بغداد ، من ٢٠ ـ ٢٨ مارس ، ١٩٥٢ ، جامعة الدول العربية .

ــ كرم (يوسف) : **تاريخ الفلسفة اليونانية** ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ / ١٩٦٢ م .

ــ الكندي : **رسائل الكندي الفلسفية** ، حققها وأخرجها مع مقدمة تحليلية لكل منها وتصدير وافٍ عن الكندي وفلسفته محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ، جزءآن ، دار الفكر العربي ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م .

ــ كوربان (هنري) : **تاريخ الفلسفة الإسلامية** ، ترجمة نصير مروة وحسن قبيسي ، بيروت ، ١٩٦٦ .

ــ كيتو (هـ . د .) : **الإغريق** ، ترجمة عبد الرازق يسري ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

ــ كيسيديس (ثيوكاريس) : **سقراط** ، ترجمة طلال السهيل ، الطبعة الأولى ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٧ .

ــ كيسيديس (ثيوكاريس) : **جذور المادية الديالكتيكية** ، **هيراقليطس** ، ترجمة حاتم سليمان ، الطبعة الأولى ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٧ .

ــ لوبون (غوستاف) : **حضارة العرب** ، الطبعة الثالثة ، دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٦ .

ــ مدكور (إبراهيم) : **في الفلسفة الإسلامية** ، **منهج وتطبيق** ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧م .

ــ مدكور (محمد سلام) : **مناهج الإجتهاد في الإسلام** ، مطبوعات جامعة الكويت ، ١٩٧٤ .

ــ مرحبا (محمد عبد الرحمن) : **خطاب الفلسفة العربية الإسلامية** ، بيروت ، مؤسسة عز الدين ، ١٩٩٣ .

ــ مطر (أميرة حلمي) : **الفلسفة عند اليونان** ، الإتحاد الإشتراكي العربي ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، الطبعة الثانية .

ــ **الموسوعة الفلسفية المختصرة** ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ــ الموسوي(موسى) : **من الكندي إلى ابن رشد** ، بيروت ، باريس ، ١٩٧٧ .

المصادر والمراجع الأجنبية

- Aristote: **La métophysique,** 2 tomes, traduction nouvelle et Notes par J. Tricot 2e'éd., Vrin, Paris, 1940.

- Aristote: **La Physique, trad,** Henri Carteron, 2 Tomes, Les Belles Lettres, Paris, 1926.

- Bouthoul (Gaston): **Ibn Khaldoun,** sa Philosophie sociale. Librairie Orientaliste, Paul Geuthner, Paris, 1930.

- Bréhier (Emile): **Histoire de la philosophie,** L'antiquité et la Moyen Age, face (1), P.U.F, Paris. 1951.

- **Les Idees philosophiques et religieuses de Philon d'Alexandrie,** Vrin, Paris, 1950.

- Chevalier (Jacques): **Histoire de la pensée,** T.I. La pensée antique; Flammarion, Paris, 1955.

- Gauthier (Léon): **Ibn Rochd,** P.U.F. Paris, 1948.

- Gauthier (Léon): **La Phisolophie Musulmane,** Ernest Leroux, Paris, 1900.

- Gauthier (Léon): **La Théorie d'Ibn Rochd sur la ropperts de la religion et de la philosophie,** Ernest Leroux, Paris, 1909.

Gilson et Théry: **Archives d'histoire doctrinale et littéraire du Moyen-âge,** Vrin, Paris, 1930.

- Gardet (Louis): **La pensée religieuse d'Avicenne,** Vrin, Paris, 1951.

- Gandillac (Maurice, de): **La Sagesse de Plotin,** Hachette, Paris, 1952.

- Munk (s): **Mélanges de philosophie juive et arabe,** Nouvelle editions, Vrin, Paris, 1927.

- Quadri (G): **La philosophie arabe dans l'Europe médiévale,** Payot, Paris, 1947.

الفهـــرس